



دار الشروق


قاسم أمين
الأعمال الكاملة

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

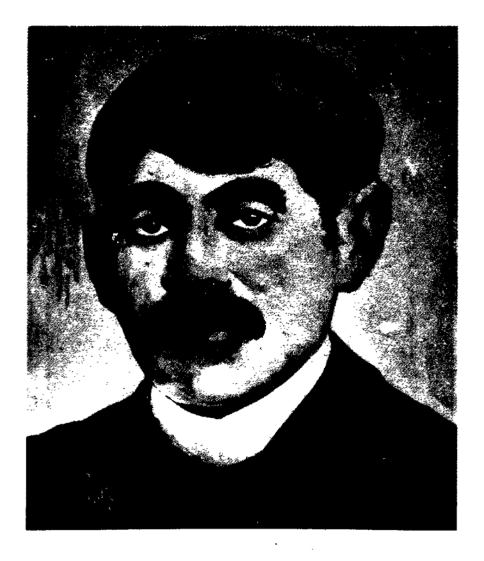
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

د. محمد عمارة



دار الشروق



قاسم بك أمين

١٢٧٩ - ١٣٢٦ هـ

١٨٦٣ - ١٩٠٨ م



السيدة : زينب أمين توفيق

[زوجة قاسم أمين]

مُقـدّمَة الطّبعَة الثـّانيَـة

تسعون عاما مضت على بدء إسهام قاسم أمين فى الحياة الفكرية لأمتنا .. وخلال هذه الأعوام ، التى تقترب من القرن الكامل ، ظل الرجل ـ أو بالأحرى إسهامه الفكرى ـ فى مقدمة مواطن الجدل الفكرى ، وبؤر الشد والجذب والصراع بين مختلف تيارات الفكر على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام !..

● إن فريقا من أهل الفكر ـ ومن خلفهم قطاع من الحركة الاجتماعية ـ يتعصبون كل التعصب لفكر قاسم أمين .. فهو الرائد الذى قاد الحركة الفكرية والاجتماعية لتحرير المرأة ـ نصف الأمة ـ فأخرجها من ظلمات العصور المظلمة إلى نور الحداثة والعصر الحديث !..

● لكن فريقا آخر من أهل الفكر ـ ومن خلفه قطاع عريض من الحركة الاجتماعية ـ يتعصب كل التعصب ضد فكر قاسم أمين هذا ... فهو ـ فى رأيهم ـ ذلك الذى فتح نافذة « التغريب » الأوربى ـ بما عنته وتعينه من مجافاة لروح حضارتنا وديننا وتقاليدنا ـ على عالم المرأة العربية والمسلمة ـ نصف الأمة ـ فأفسد عليها طبيعتها ، وابتعد بها عن وظيفتها ، فأورث الناشئة والمنازل والحياة الزوجية كل أمراض الحضارة الغربية ، التى تعلو بالشكوى منها أصوات الأوربيين أنفسهم هذه الأيام !..

هكذا اختلف الناس ، ولايزالون مختلفين ، حول طبيعة الإسهام الفكرى لقاسم أمين ... استقطاب حاد ، أثمر تيارين فكريين ، وخلف كل تيار قطاع كبير من قطاعات الحركة الاجتماعية .

* * *

ونحن نعتقد أن هذا اللون من ألوان « الاستقطاب الحاد » فى تقويم المفكرين وأفكارهم هو لون من ألوان « العقلية القبلية » ، يجب أن تبرأ منه حياتنا الفكرية والاجتماعية .. إنه ثمرة

من ثمرات « النظرة الوحيدة الجانب » ، التى يفتقد أصحابها « شمولية النظر » ، والمنهج « الوسطى ـ المعتدل » فى تقويم الفكر ونقد آثار المفكرين ... ومن الأمور التى ساعدت ، وتساعد على سيادة هذا النهج الخاطئ : افتقار المحللين والدارسين والنقاد والقراء إلى المصادر التى تضع أمام عقولهم كل الآثار الفكرية للمفكر الذى يدور من حوله الجدل ويحتدم حول فكره الصراع ... وهنا تأتى أهمية الجمع والتحقيق [للأعمال الكاملة] لمفكر من المفكرين ... إنها السبيل إلى التقويم الأدق .. فبها تصبح النظرة الشاملة فى مقدور الباحثين والنقاد ... وبها ينتفى العذر عن أولئك الذين يتشبثون « بالعقلية القبلية » وبنهج « الاستقطاب الحاد » !

وإذا كان هذا هو دور وجود [الأعمال الكاملة] لأئمة الفكر ، وللأعلام الذين غدوا معالم على مجتمعاتهم فى العصور التى عاشوا فيها ، ولمن كانوا محاور فى التحولات الفكرية والاجتماعية التى حدثت لمجتمعاتهم ... إذا كان ذلك كذلك ، فإن تيسير وجود [الأعمال الكاملة لقاسم أمين] ـ بهذه الطبعة الثانية ـ بعد نفاد طبعتها الأولى ـ أمر آكد فى الضرورة .. تدعو إليه وتستوجبه أسباب إضافية حيوية :

● فالتيار « التغريبى » ، فى حركتنا الفكرية والثقافية ـ وفى حركتنا النسائية على وجه الخصوص ـ قد ذهب فى « تقليد » نمط الحياة الغربية ، وفى فهمه لقضية « تحرير المرأة » ، إلى الحد الذى أصاب شريحة هامة ومؤثرة من عالم المرأة العربية والمسلمة بذات الأمراض التى فتكت وتفتك بحياة المرأة الغربية ، وهددت وتهدد دورها : كأنثى .. وزوجة .. وأم ... وصانعة للمستقبل ، من خلال صنعها للرجال والنساء !..

وهذا التيار « التغريبى » يحسب ـ ويشيع ـ أنه إنما يسير على طريق قاسم أمين !.. لكن [الأعمال الكاملة لقاسم أمين] تنفى هذا الظن الشائع ... فالناظرون فيها يجدون البون شاسعا بين ما أراد قاسم أمين وبين الأفكار والتطبيقات التى نقلها « المتغربون » عن نمط الحياة الغربية ؟!..

● وجمهرة من الإسلاميين ، فى حركتنا الفكرية والاجتماعية ، قد صدقوا ـ هم الآخرون ـ ماحسبه « المتغربون » حقا فأشاعوه !.. فهم يدينون قاسم أمين ، ويعتبرونه الخطيئة الفكرية الأولى فى هذا الطريق الذى اجتذب قطاعا من النساء العربيات والمسلمات إلى نمط الحياة الغربى للمرأة الغربية ... ولو نظر هؤلاء الإسلاميون فى [الأعمال الفكرية الكاملة لقاسم أمين] وفقهوها ـ فى ضوء ظروف عصر الرجل ، وحال المرأة يومئذ ـ لاختلف ـ أو خف ـ حكمهم على قاسم أمين !..

إن القيود التى سعى قاسم أمين إلى تحرير المرأة منها لم تكن « قيودا إسلامية » !.. فالإسلام ـ بكل المقاييس وباعتراف الجميع ـ هو الذى ارتاد ميدان تحرير المرأة من الأغلال التى كبلتها عبر تاريخ طويل ..

وإن الآفاق والحدود التى سعى قاسم أمين بالمرأة العربية والمسلمة لتبلغها . لم تكن هى ـ بالضبط ـ الآفاق والحدود التى رسمتها الحياة فى مجتمعات الحضارة الغربية .. وهى ـ بالقطع ـ ليست الآفاق والحدود التى يشكو منها الإسلاميون المستنيرون . بل والغربيون المنصفون ؟.. لقد كانت الروح الشرقية والآفاق الإسلامية ماثلة ـ على نحو ما ـ فى فكر قاسم أمين وهو يسعى على هذا الدرب الوعر والشائك . الذى سعى فيه قبل نحو قرن من الزمان ... تؤكد ذلك كتاباتـه التى تنفى « الموضوعية » عن الذين يحسبون أنفسهم عليه ـ فيتعصبون له ـ وعن الذين يتعصبون ضده .. أجمعين !..

بل إننا لانغالى إذا قلنا : إن تأمل الآفاق التى استشرفها قاسم أمين للمرأة العربية والمسلمة . هو واحد من سبل ترشيد الفكر الخاص بتحرير المرأة فى حياتنا الفكرية والاجتماعية ... فلقد دعا الرجل إلى :

- تعليم المرأة .. بل لقد قنع فى دعوته ـ يومئذ ـ بتعليمها « التعليم الابتدائى » !..
- وتحرير إرادتها ...
- والحجاب الشرعى . الذى لاتسفر به إلا عن « وجهها وكفيها » !..

أما « الصورة الوردية » التى أعطاها لحياة المرأة الغربية ـ وخاصة فى كتابه [المرأة الجديدة] فيجب أن ينظر إليها فى إطار عصره . وطبيعة ثقافته . كواحد من « النخبة » التى انطبع عقلها بطابع الفكر الغربى إلى حد كبير ... كما يجب أن ينظر إلى هذه القضية فى ضوء موقف الرجل حيال وضع المرأة العربية والمسلمة المزرى والمهين . ذلك الذى ورثته عن عصورنا المظلمة . عصور المماليك والعثمانيين .. وهو الوضع الذى لايمت إلى صورة المرأة فى الإسلام بسبب وثيق أو ضعيف !...

تلك بعض من الأسباب التى تجعل وجود [الأعمال الكاملة لقاسم أمين] بين أيدى المفكرين والباحثين والقراء ضرورة فكرية ... يستوى فى ذلك الذين يتعصبون له ... والذين

يتعصبون ضده ... والذين ينهجون النهج المعتدل ، فيسعون ، بموضوعية ، إلى نفى آفة « الاستقطاب الحاد » من حياتنا الفكرية عندما ندرس الظواهر أو نقوم آثار الأعلام الذين اجتهدوا للأمة ، فى إطار العصر الذى عاشوا فيه ...

والله من وراء القصد .. وهو ولى التوفيق ،

دكتور

محمد عمارة

القاهرة : جماد ثانى ١٤٠٨ هـ

فبراير سنة ١٩٨٨ م

تقـــديم

ليست الريادة هى المعيار الوحيد الذى يُكْسِب المفكر والمصلح مكانا عاليا وهاما فى حركة تطور المجتمع الذى يعيش فيه ، وإن تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التى تضفى على أصحابها الكثير من المجد والتقدير..

وفيما يتعلق بارتياد المفكرين والمصلحين فى شرقنا العربى الإسلامى ، فى العصر الحـديث لميدان الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة والشرقية ، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذى حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور «المملوكية ـ العثمانية » المظلمة إلى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التى أفاءها على الشرق عصر التنوير الذى بدأته مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨م) ، وقادت الشرق إلى ساحاته منذ ذلك التاريخ.

فهناك من يرى أن فضل الريادة فى هذه الدعوة ، إلى تحرير المرأة ، معقود لقاسم أمـين وأن « **أول صيحة لهذا التحرير هى صيحة قاسم أمين ، فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة)** »[1] ومؤدى هذا الرأى أن الدعوة إلى تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشـرقية ومصر بالذات ، قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩م.

وهناك من يرى أن الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين فى سلوك هذا السبيل ، وأن الآستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة ، وإن صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨م) إلى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين.. ويعللون سبق الاتراك إلى هذا الميدان « بكثرة اختلاطهم بالاجانب ، وسبقهم فى

---

(١) د. محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٢ طبعة القاهرة ـ مطبعة مصر ـ بدون تاريخ

الاطلاع على أسباب التمدن الحديث »[٢] .

وإذا ماكان السؤال : ايهما اسبق فى الدعوة لتحرير المرأة : أحمد فارس الشدياق أم قاسم أمين ؟ فإن البداهة تعطى السبق للشدياق ؟ فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها ، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ) أى قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات ...

ولكننا لن نعثر على الحقيقة فى قضية الريادة لهذه الدعوة إذا نحن وقفنا عند هذه الحدود التى يرسمها أصحاب هذا الخلاف .. ذلك أن هناك وقائع وحقائق أخرى نراها هامة وضرورية لمن يريد الوصول إلى كلمة سواء فى هذا الموضوع ..

فأولا : كانت مصر ، فى ظل الدولة المدنية الحديثة ، التى قاد انشاءها محمد على أسبق إلى حركة التمدن الحديث بكل مناحيها وأشكالها ـ ومنها الدعوة لتحرير المرأة ـ من المجتمع العثمانى ، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها وتحدث تأثيراتها فى الدولة العثمانية ذاتها ، حتى قيل : « ان النهضة العثمانية ، بكل فروعها ، مسبوقة فى مصر ، ومقتبسة عنها[٣] .. فالريادة هنا لمصر ، لا للاتراك العثمانيين .. وذلك إذا أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول إلى عصر النهضة والتنوير على وجه الاجمال .

وثانيا : إذا نحن اردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية الوطنية التى قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وجدنا تاريخها يرجع إلى ثلاثينيات القرن الماضى ، وهى تلك التى أنشأها محمد على للتمريض ، وغيره من الفنون .. وهو تاريخ سابق على صدور (الجوائب) فى ستينيات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريبا .

وإذا نحن نقبنا فى الفكر العصرى الذى شهدته مصر فى ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجدنا الدعوة ، غير المباشرة ، إلى تحرير المرأة وتعليمها معلنة فى كتاب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) وتاريخ تأليفه سابق على

---

(٢) (الهلال) تأبين قاسم أمين . انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين (أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ) طبعة الاسكندرية سنة ١٩١٣ م .

(٣) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) دراسة وتحقيق محمد عمارة . ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

أكتوبر سنة ١٨٣٠م ، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤م .. [٤] وهو قد ترجم إلى التركية فى ذلك التاريخ ..

كما نجد الدعوة إلى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل فى التعليم تظهر فى مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التى كان الطهطاوى عضوا بها . فتقترح هذه اللجنة فى سنة ١٨٣٦م « العمل لتعليم البنات فى مصر » تعليما يتخطى حدود الضرورات العملية التى كانت تحكم مناهج المدارس التى كانت قائمة للبنات فى ذلك التاريخ .

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك فى الدعوة إلى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها .. ويسبق الطهطاوى الشدياق ، وغيره ، فى ارتياد هذا الميدان .. ثم يأتى كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذى كتبه فى بداية السبعينيات بتكليف من (ديوان المدارس) كى يدرّس فى مدارس البنات .. يأتى حاويا لكثير من الآراء ووجهات النظر التى يمثل مجموعها أول بناء فكرى شبه متكامل يكرسه مفكر عربى لقضية تحرير المرأة فى عصرنا الحديث .

تلك هى قضية الريادة فى هذا الميدان .. فهى لمصر محمد على . وليست لتركيا آل عثمان .. وهى للطهطاوى . وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين ..

* * *

ولكن .. تبقى لقاسم أمين . فى هذا الميدان . ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين اسهموا بسهم فى هذا السبيل .... فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمرا من أمور كثيرة تناولوها فيما ابدعوا من أفكار وآثار .. أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذى وهب كل جهوده وجميع آثاره ـ تقريبا ـ لهذه الدعوة حتى لقد ذهب علما عليها ورمزا لها . تتداعى قضاياها وحجج أصحابها إذا ذكر اسمه فى أى وقت وأى مجال ..

بل إن كل الجوانب الأخرى التى مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفه الاصلاحى . وهى الجوانب التى ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى . إنما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير.

---

(٤) (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) دراسة وتحقيق محمد عمارة . جـ ١ ص ٧٨ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

فنهجه الاجتماعي فى البحث... ومذهبه فى رؤية التاريخ وتطور المجتمعات..

وانتماؤه الاجتماعى والفكرى.. والمجتمع الذى بشر به..

وموقفه من «التمدن الإسلامى» وفهمه لهذا التمدن.

ودعوته فى الاصلاح الاجتماعى.. والتربوى..

وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة.. ومزاجه المعتدل فى الوطنية.. وتقييمه لتجربة مصر الحديثة..

كل هذه القسمات، وغيرها، فى فكر قاسم أمين ومذهبه الاصلاحى، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التى نذر نفسه لها.. وهى قضية المرأة الشرقية والمسلمة والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى إلى أنوار تحضر العصر الحديث..

فإذا لم تكن ريادته ريادة سبق.. وإذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ.. فإن له الريادة فى تكريس كل جهده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها، بل ودون غيرها ـ تقريبا ـ من قضايا الاصلاح...

وإذا كانت هذه الدراسة التى نقدم بها بين يدى (الأعمال الكاملة لقاسم أمين) ستضع من خلال فصولها القادمة، فكر القارئ والباحث على حقائق وقسمات فى فكر قاسم أمين لم يلتفت إليها كثير من دارسيه، فإن الفضل فى ذلك ـ بعد المنهج العلمى الذى نتناول به دراسة فكره ـ يعود إلى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة، خصوصا وأنها الدراسة الأولى التى تهتم كثيرا برصد تطوره الفكرى، بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه (المصريون) الذى رد به على الدوق الفرنسى «داركور».. والذى كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين...

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيدا عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤م حتى هذا التاريخ الذى نقدمه فيه بالعربية اليوم إلى الباحثين والقراء.. ومن هنا كان الجديد الذى تقدمه هذه الطبعة لأعماله الكاملة فى اطار النصوص التى أبدعها..

فاليوم تتاح لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الاولى.

واليوم تتاح للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه (المصريون) لاول مرة..

واليوم تتاح لقراء العربية امكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الاصلاحى .. وهى الأمور التى نرجو أن يكون قد حالفنا فى إنجازها التوفيق.

دكتور

محمد عمارة

القاهرة ــ يونيو سنة ١٩٧٥م



بطاقة حياة

[إن اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ، ولاشرف النسب ، ولاعلو المنصب ، ولاشيئا من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة .. وإنما هى أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم ..]

قاسم أمين

فى هذه « البطاقة » نكثف المعالم الهامة والبارزة فى حياة قاسم أمين ، وذلك حتى تكون سطورها « شريطا » يعرض ، فى إيجاز شديد ، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها فى حياته الخاصة والعامة .. فهى ليست « ترجمة » ـ بالمعنى المتعارف عليه ـ لحياته ، وإنما هى « بطاقة » لهذه الحياة نكثف معالمها البارزة فى عدد من النقاط :

ـ ١ ـ

* ولد قاسم أمين لأب تركى عثمانى وأم مصرية من صعيد مصر .. فوالده محمد بك أمين كان ، قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها ، الوالى التركى على إقليم « كردستان » ، احدى ولايات الدولة العثمانية فى ذلك التاريخ ..

وعندما ثارت « كردستان » ضد الدولة العثمانية ، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة ، كان واليها محمد بك أمين فى الآستانة ، فظل بها ، حتى منحته الدولة ، عوضا عن امارته ، اقطاعات فى مصر ، بإقليم « البحيرة » ، قرب مدينة « دمنهور » ، فنشأت علاقته بمصر ، وقرر الاقامة بها ، وكان ذلك فى بداية حكم الخديوى إسماعيل .

* وفى مصر تزوج محمد بك أمين احدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هى ابنة أحمد بك خطاب ، شقيق إبراهيم خطاب باشا ..

* وفى مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى على عهد الخديوى إسماعيل ، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة « أمير الاى » ، وشغل مركز قائد سلاح « المرابطين » ..

* وهناك مايرجح أن تاريخ ميلاد قاسم أمين ـ وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة ـ كان فى أول

ديسمبر سنة ١٨٦٣م[٥] . وهناك خلاف فى محل ميلاده .. هل هو الاسكندرية؟ أم ضاحية « طره » القريبة من القاهرة ؟.. ولعل الأم كانت تقيم بالاسكندرية ، على حين كان عمل الأب فى « طره » ، ومن هنا نشأت أسباب اللبس والاختلاف ..

وفى الاسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته فى التعليم .. فلقد دخل مدرسة « رأس التين » الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الارستقراطية من ابناء الاتراك والشراكسة والأثرياء ..

* وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الإسكندرية ، واستقر بها المقام فى القاهرة، وسكنت فى حى الارستقراطية القاهرية يومئذ، حى «الحلمية» والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية ـ الخديوية ـ .. والمدارس التجهيزية فى ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام .. وفى هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسى ..

* وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والإدارة ـ وهى مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق فى غياب الجامعات ـ .. ومنها حصل على « الليسانس » ، وهو فى العشرين من عمره ، سنة ١٨٨١م .. وكان أول متخرجيها فى ذلك العام ..

* وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغانى ومدرسته الفكرية التى ازدهرت بمصر فى ذلك التاريخ .

ـ ٢ ـ

* اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس ، إلى العمل بالمحاماة .. وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا ـ الذى تولى فيما بعد رئاسة الوزارة فى ظل الاحتلال الانجليزى لمصر ـ فالتحق قاسم بالعمل فى مكتب مصطفى فهمى للمحاماة ..

* ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمى باشا للمحاماة .. ففى نفس العام ـ ١٨٨١م ـ سافر فى بعثة دراسية إلى فرنسا ، وهناك انتظم فى جامعة « مونبلييه » .. وبعد دراسة استمر فيها أربع سنوات انهى دراسته القانونية بتفوق فى سنة ١٨٨٥م .

---

(٥) يخطئ كل من : سركيس فى (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ومحمد رضا كحالة فى (معجم المؤلفين) و (الموسوعة العربية الميسرة) فى تحديد سنة ميلاده ، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م .. ولكن الزركلى فى (الاعلام) ، وكذلك كتاب ترجمته واصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣ م .

* وأثناء مقام قاسم أمين بباريس ، حدثت بمصر أحداث الثورة العرابية التى قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين الأفغانى ، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرا فى أواخر السبعينيات .. ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الانجليزى المسلح ، واحتلال انجلترا لمصر ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد ..

* ثم استقر المقام بالأفغانى ـ بعد فك اقامته الجبرية بالهند ـ وكذلك بمحمد عبده ـ بعد نفيه من مصر ـ استقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٣م ، وهناك أصدرا مجلة (العروة الوثقى) لسان حال لتنظيم (العروة الوثقى) السرى الذى انتشرت فروعه من مصر إلى الهند ، والذى قام أساسا لمناهضة الزحف الانجليزى على الشرق ، ولمناوأة احتلالهم مصر بالذات ..

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى ومدرسته ، فكان « المترجم » الخاص بالإمام محمد عبده فى باريس ..

* وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوربا الكبار . ومن بين الذين قرأهم : نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) وداروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) وماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) .

* وفى فرنسا كذلك حاول قاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسى وإقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعى .. غير أن طبيعته الشرقية الخجولة ، وقسمة الانعزالية التى ميزت شخصيته لم تمكناه من الذهاب بعيدا فى هذا المضمار ..

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نموا بينه وبين « سلافا » ، تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى الدراسة بجامعة مونبلييه ... ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد ظلا « رومانسيين » ، وكانت أهم آثارهما تلك المشاعر النبيلة التى بدأت تتولد فى نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التى بدأت وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحى والحافز والمساعد فى حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلا من بقائها قيدا يشد خطو الرجل والأمة إلى الوراء .. لقد بدأ يحلم بالإنسانة التى تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل ؟!..

كما وقف هذا الخجل الشرقى وتلك المحافظة والانعزالية ، والتى تحلت بها طبيعة قاسم أمين ، حائلا بينه وبين الانسجام مع مرح ذلك المجتمع وماكان لرجاله بنسائه من علاقات لم تكن منتساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا إلى باريس فى ذلك التاريخ ..

فقاسم ذهب إلى باريس بعد رحلة الطهطاوى إليها بخمسة وخمسين عاما ، والثانى كان

شيخا أزهريا ، وواعظا بالجيش ، وإمام الدين للبعثة الدراسية التى ذهبت تتعلم هناك .. ومع فارق الزمن وفارق الثقافة والبيئة .. فلقد كان الطهطاوى أكثر تقبلا وتفهما لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ، وأقل محافظة فى تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين !..

فالطهطاوى ينفى أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضيا ، بالتبعية والحتم ، إلى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف .. فالفرنسيون يحافظون ـ مثلنا ـ على « العرض » ويسمونه شرفا ، بل « ويقسمون به عند الملمات ، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ! » .. « هم مثل العرب فى هذا الأمر .. » أما حدوث « اللخبطة » ـ كما يقول ـ بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور أو الاختلاط ، بل ولاشيوع العشق فى المجتمع الفرنسى ، لأن منشأ « العفة » أو « اللخبطة » إنما يعود إلى « **التربة الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة ، والالتئام بين الزوجين** .. » **ومن ثم فإن الفرنسيين « تقل فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات** الرجال مع النساء !..[6]

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسى ..

أما قاسم أمين فإنه كان أكثر تحفظا فى التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « .. يضم المجتمع الأوربى الرجال والنساء دائما ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب ، وهذا الاختلاط بين الجنسين فى الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة ، فالسحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه ، شىء ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفى مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائما بالمرح ، وغالبا مايتودد للغير ، ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا ! » .

ثم يستطرد متحدثا عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول : « وقد اتيح لى تقييم هذا السحر الفريد ، وكان شأنى شأن الآخرين فى الاحساس بقدره ، وبخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد . **وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة ، وهذا يعنى أنى لم أحقق نجاحا فى هذه المجتمعات** ، غير أن

(٦) (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ ١ ص ١٠٩ ، ١١٠

هذا لم يقلل من حبي لهذه اللقاءات الشيقة التي يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به !.. » [٧] .

* وفي صيف سنة ١٨٨٥م عاد قاسم أمين إلى القاهرة ، وذلك بعد أن عمل هناك مع استاذه «لرنود» ـ عقب التخرج ـ عدة شهور..

ـ ٣ ـ

* ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين ـ أول ديسمبر سنة ١٨٨٥م ـ صدر قرار تعيينه بالقضاء ، في النيابة المختلطة .. فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وبخاصة مايتعلق منه بإثبات جدارة المصري ونديته للأوربي في تولي الوظائف العامة والنهوض بأعبائها .. وبوجه أخص في حقل خلق مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر أجانب ومصريين على حد سواء..

* وبعد شهور من عودة قاسم إلى أرض الوطن توفي والده محمد بك أمين..

* وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة إلى قسم قضايا الحكومة .

* وفي يونيو ١٨٨٩ م رقي إلى منصب رئيس نيابة «بني سويف» ، بصعيد مصر.. وهناك بدأ يطبق بعض مفاهيمه وآرائه في فلسفة العقاب ودوره في الاصلاح الاجتماعي .. فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الادارة الحكومية ، ظلما ، في سجن « بني سويف » ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم !

* وفي سنة ١٨٩١م انتقل رئيسا لنيابة « طنطا » .. حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف ازاءها يبحث عن خيار بين مايفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغاني التي انتسب إلى فكرها ومنح رجالها الحب والاعجاب منذ عهد صباه..

فلقد وقع عبد الله النديم (١٨٤٣ ـ ١٨٩٦م) ـ أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها ـ في قبضة البوليس ، وذلك بعد اختفاء اسطوري دام تسع سنوات .. وجيء به إلى رئيس النيابة قاسم أمين ؟!.. فأكرم لقاءه ، وأعطاه مالا من عنده ، وهيأ له في محبسه أقصى مايمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعي لدى المسئولين في العاصمة كي يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه ، فسافر إلى القاهرة يلتمس له العفو.. وبعد حملة صحفية ،

---

(٧) انظر كتاب (المصريون) فصل : (كلام عن الحب) .

تبنت هذا المطلب ، قررت الوزارة العفو عن عبد الله النديم ، مع ابعاده إلى الشام فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١م ، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيها !

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم فى التظاهرات ! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات !..

* وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢م عين قاسم أمين نائب قاض فى محكمة الاستئناف .. ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ إلى منصب مستشار ، وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .

* ولقد عرفت عنه طوال مدة عمله بالقضاء دعوته إلى جعل القضاء المصرى والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضى والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر ـ باستثناء أحوالهم الشخصية ـ وذلك حتى تزول الازدواجية القضائية التى فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفوذ الاستعمار .

* وخارج نطاق العمل القضائى امتد نشاط قاسم أمين .. فكتب فى صحيفة (المؤيد) عددا من المقالات دون توقيع .. واصدر كتابه (المصريون) ـ بالفرنسية ـ سنة ١٨٩٤م يرد به هجوم الدوق الفرنسى « داركور » على مصر والمصريين .. كما أصدر (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م ، و (المرأة الجديدة) سنة ١٩٠٠م ..

كذلك شارك فى نشاط (الجمعية الخيرية الإسلامية) ، وكانت تنشئ المدارس للفقراء وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين ..

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦م تولى سكرتارية الاجتماع الذى عقد بمنزل سعد زغلول باشا والذى صدر عنه البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للاسهام فى إنشاء الجامعة الأهلية المصرية .. وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة التى نيط بها أمر الدعوة لإنشاء الجامعة ، بعد تعيينه ناظرا ـ (وزيرا) ـ للمعارف ، تولى رئاسة اللجنة بدلا منه قاسم أمين .. وكانت آخر أعماله العامة ذلك الخطاب الذى ألقاه ، « بالمنوفية » ، بمنزل حسن زايد ، عن الجامعة والتعليم الجامعى المرجو لمصر والمصريين .. فلقد ألقى خطابه فى ١٥ إبريل سنة ١٩٠٨م ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع ، أى فى ليلة ٢٣ إبريل سنة ١٩٠٨م .. وكانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التى نهض فى سبيل قيامها بدور عظيم ..

أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كانا متسقين مع مزاجه الهادئ وروحه الفنانة واحساسه الرقيق .. فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤م من زينب ، ابنة أمير البحر التركى أمين توفيق .. وكان صديقا لوالد قاسم أمين .. وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه ، فى طفولتها وصباها ، مربية انجليزية ..

وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يوميا ، وبشكل منتظم ، من الخامسة إلى السابعة مساء !.

ولقد انجب بنتيه : زينب ، التى أحضر لها مربية فرنسية .. وجلسن التى أحضر لها مربية انجليزية ..

* أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف .. ومع كتبه كان يقضى ، يوميا وبانتظام ثلاث ساعات ، من السابعة حتى العاشرة مساء !..

* أما اجازته الصيفية فكان يقضيها مع اسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك ..

* * *

هكذا كانت حياة قاسم أمين . وكانت شخصيته .. فنان وأديب نحا نحو الاصلاح الاجتماعى .. ومفكر يحترم رأيه . ويدافع عنه بإصرار . ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته إلى تحريرها ـ بدءا من تحريم دخوله إلى قصر الخديو بعد إصداره (تحرير المرأة) . إلى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التى كيلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب .. إلى سعى فئات وأفراد من العامة والبله والمتعصبين إلى ازعاج حياته الأسرية الهادئة . ظنا منهم أن دعوته إلى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب إلى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط ؟!

ومع كل ذلك . ومثله كثير . عاش قاسم عمره القصير ـ السنوات ـ بروح الفنان . فأعطاه عمقا ومنحه أبعادا تخطت به حدود الزمن والسنوات ..

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل : لقد كانت « روح قاسم أمين روح أديب .. كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة . التى لاتعرف الطمأنينة ، ولاتستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لاتعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها

مافى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا وإلهاما أكثر مما تؤدى إليها المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع ، وذلك لايؤتاه إلا رجل فن جميل لايقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم !»[8] .

هكذا كان قاسم أمين ـ يرحمه الله .

(٨) (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٣ .

دراسة فى فكر قاسم أمين

قسمات المنهج الاجتماعى

[إن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هو : حالتها الاقتصادية .. وهى لاتتغير بإرادة شخص أو مائة شخص ، أو اصدار قانون أو مائة قانون . بل بتغيير الأسباب التى أوجدتها ..

ولقد نظم الإسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء ، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجماعية ، واشتراكية سامية سبقت أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .

إن النوع الإنسانى ، فى كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه ، وأيضا بعظمته وزهوه .. والحركة المستمرة إلى جهة الترقى هى قانون الحياة الإنسانية .. ولن يقف ماضينا ولا حاضرنا حائلا بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذى يسود الكون كله] .

قاسم أمين

من المعالم الهامة والإيجابية فى فكر قاسم أمين وآثاره أن روح الفنان والأديب التى ملكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لكثير من القضايا والأشياء ، لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعى الذى التزمه إلى حد كبير فى درس وعلاج قضايا الاصلاح التى عرض لها .. بل اننا نستطيع أن نقول : إنه كان من أبرز كتابنا ومصلحينا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعى فى البحث وأهميته فى قيادة الباحث والفكر إلى أسلم النتائج وأصدق المقولات ..

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظرى ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذى يطبقون اصلاحاتهم فيه .. وينبه إلى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو إلى أن يكون الفكر وخطط الاصلاح مدروسة فى ضوء امكانات الواقع الذى نرجو له التغيير والتطوير .. يقول :

« نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال ، يكتب فى مكتبته على ورقة : أن ليس على النساء إلا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال » .

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شىء !

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع ، فإنه إذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى : ماهى حقوق النساء التى نحن بصددها ؟ يجب عليه :

أولا : أن يسوق نظره إلى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة معمولا بها فى مدينة ثم فى إقليم ... ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث

لا يركن إلى ماوصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولايأنف من تعديل رأيه بحسب مايقتضيه الحال ويظهره العمل »[٩] .

فهو فى هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعى فى البحث والدراسة ..

١ ـ فلابد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط ..

٢ ـ ولابد من أن يكون الواقع ماثلا فى الذهن ونحن نضع التخطيط ، ماثلا بمعطياته القائمة ، وماثلا متخيلا فى حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه ..

٣ ـ ولابد وأن تكون الدراسة والتصور شاملتين ومحيطتين بالواقع ككل ، وبدءا من الجزء وانتهاء بالكل .

٤ ـ ولابد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها ظنية وفروض لاتثمر المطلق والنهائى بل النسبى والتقريبى ..

٥ ـ ولذلك كله فلابد من أن يكون البحث عملا مستمرا ، كى نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات ، وتحدث التعديلات فى النتائج التى يصل إليها الباحثون .. فنسبية المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن « لايأنف من تعديل رأيه بحسب مايقتضيه الحال ويظهره العمل ! » ..

وقاسم أمين لم يحدد هذا المنهج لأنه نقله عن الفكر الأوربى الذى درسه واستفاد منه .. ثم وقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لكل القضايا الاصلاحية التى عرض لها ..

فهو عندما قرأ هجوم « دوق داركور » على مصر والمصريين ، انفعل غضبا حتى اصابته الحمى ! ولم يجد علاجا لمرضه إلا أن يرد هجوم الدوق .. ولكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الامكان ـ وان كان لم ينجح .. وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ماهو مستحيل ! لكنه حاول وبلغ قدرا من النجاح حققته محاولته الواعية هذه .. وعبر عن منهجه الذى اهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : « لقد أطلت التأمل فى أبناء وطنى ، بل لقد بذلت

---

(٩) (انظر (المرأة الجديدة) فصل : (الواجب على المرأة لنفسها)

جهدا أكبر مما يبذله الأجنبي فى دراستهم والتعرف عليهم ، وأعتقد أننى نجحت فى أن اكتشف أعماق وجدانهم »[10] .

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحكيم معطياته فى التخطيط والتنظير هو الذى جعله يفرق بين الابحاث الجادة التى تستحق الاحترام وبين الانطباعات التى يكتبها عن مصر أولئك « السياح » العابرون للسبيل ، والباحثون ـ إلى جانب المتعة ـ عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع فى المجتمع الذى عنه يكتبون .. فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : «إننى أعرف ، بخبرتى ، ذلك المنهج الذى يتبعه الأوربيون فى تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على مايقدمه لهم التراجمة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ماتقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب ! »[11] .

وهو فى نقده لكتاب « دوق داركور » عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم فى هذا اللون من ألوان التأليف ، فيقول : «إننى أفهم تمام الفهم دوق داركور . لقد أمضى الشتاء فى رحلة لم تنقصها المتعة ! ، وطالع عددا من قصص كتاب الرحلات ، مهمّا أكثر بمن أساءوا فى كتاباتهم إلى الإسلام ـ الذى يكرهه من أعماق قلبه ـ ورأى من شرفة فندق « نيواوتيـل » وعبر نافذة السيارة التى كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسـيط وبهذه الطريقة ألف كتابه ؟! »[12] .

فهذا المنهج الذى يهمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض ، ونتائجه مرفوضة ، من قاسم أمين ..

وفى الأفكار الاصلاحية التى تمنى قاسم أمين تطبيقها فى عالم الأدب العربى نطالع كذلك إيمانه بهذا المنهج الاجتماعى ، مطبقا على هذا الحقل .. فهو يدعو إلى العمل على إعادة المكانة المفقودة إلى هذا الأدب .. مكانته القديمة التى كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله وذلك بواسطة اصلاحين أساسيين هما :

١ ـ أن يصبح هذا الأدب انعكاسا للتغيرات التى يشهدها الواقع المعاصر ..

---

(١٠) انظر (المصريون) الخاتمة .

(١١) (المصريون) فصل : (المصرى) .

(١٢) (المصريون) فصل : (المصرى) .

٢ ـ وأن يطوع هذا الأدب لما جد فى المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الاسلاف ، لابد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات ..

وهو يعبر عن أفكاره تلك فيقول : « إن الأمر فى حاجة إلى عبقرى يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التى كانت له قديما فى المجتمعات الإسلامية ، فيجعله **يعكس هذه التغيرات التى ينبض بها وضعنا الحالى ، ويطوعه لعادات جديدة** »[١٣] .

بل إن اهتمام قاسم أمين ـ المنهجى ـ بالواقع لايقف عند هذه الحدود ، فهو يدعو ـ مثلا فى ميدان التربية ـ لأن نتخطى حدود الفهم النظرى للواقع ، ونمارس القيم ممارسة عملية .. يدعو إلى معرفة تكون ثمرة للخبرة والممارسة ، ولايكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب .. فيتحدث عن هذه القضية ، من خلال نقده للواقع السائد فى ميدان التربية عند المصريين فيقول :

« ومن الأسف أن المصرى لايزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة ، وأنه متى علم ولده ماكان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه ، مع أن التعليم هو فى الحقيقة أقل فروع التربية شأنا وفائدة .

نعم .. انه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة إذا شئت . ولو أنى أعتقد أن التعليم النظرى لايفيد الغلام فائدة محسوسة ، خصوصا إذا كان فى السن الذى يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لايفيد شيئا إذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية ... وذلك **بتعويد الطفل لا على أن يفهم هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا ، بل على أن يعمل الطيب ماقدر ويجتنب الخبيث ما استطاع لأن إدراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا أمر سهل .. فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية ، ولكن كله ينحصر فى اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا ، أو غرسها فى نفوسنا ، وتقويتها واحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا ... والتربية بهذا المعنى لايمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ ، بل تجب ممارستها !..** »[١٤] .

---

(١٣) (المصريون) فصل : (العلوم والآداب) .

(١٤) (اسباب ونتائج) مقال : (التربية) .

ولو أن قسمات المنهج الاجتماعى لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافيا فى انتزاع الاعجاب به والاكبار له ، خصوصا إذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه ، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك لسبب بسيط وعميق هو أن ذلك المنهج الاجتماعى ، الذى تحدثنا عنه ، والذى آمن به قاسم أمين وطبقه فى دراسته لقضايا الإصلاح التى عرض لها .. أن هذا المنهج كان ثمرة لإيمانه العلمى بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لاتتخلف ثمراتها .. فهناك وحدة فى قوانين الكون ونظمه .. وهناك وحدة فى قوانين تطور الإنسان عبر كل العصور وفى كل البيئات وهناك وحدة فى قوانين تطور المجتمعات ..

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية فى دائرة التطور البشرى العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور الكون والمجتمع والإنسان .

وقاسم أمين لايطرح هذه القضية كأمر فكرى ونظرى مجرد ، وإنما ينبه إلى أن وعيها هو أمر ضرورى لنا ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه ، وأيضا ونحن نعالج قضايا الإنسان المعاصر واصلاح عيوب مجتمعاته ، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فإن للظواهر التاريخية والاجتماعية والإنسانية قوانينها التى تحكمها ، والتى لابد من وعيها لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج . يقول ، بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح .. ذلك « أن المؤرخ يشرح اطوار أمة فى زمن من عمرها ، **بتعريف اخلاقها وعوائدها ونظمها وتربيتها ووسائل معيشتها ، وحالتيها الاقتصادية والسياسية ، داخلا وخارجا ، وماهى عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين من خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة .. ولايعتنى إلا قليلا بسرد الحوادث ـ كما يفعله مؤرخونا ـ ... وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى ..» .**

هكذا يحدد المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ .. فليست الحوادث والوقائع هى الأسباب ، بل هى المسببات ، والقاعدة التى تثمر مانسميه « تاريخ » هى الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة .. الخ .. الخ .. أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث ـ على عادة مؤرخينا ، كما يقول ـ فهو منهج خاطئ يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعى كواحد « من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى !» .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضا على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة .. « فكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال فيدرسون زمانهم درسا تاما ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم واخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ماهم عليه بكيفية لاتقبل الشك .

إن هذه الأمور إنما هى العلل التى انتجت تلك الحالة ، وإن تغييرها لايكون بالصدفة وإنما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائما متلازمان ، عقلا وعادة ، متى وجد أحدهما وجد الآخر حتما . وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .

وبعد هذا التأكيد على أن تطور المجتمعات وتغييرها إنما تحكمها قوانين تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة إذا شئنا تغيير المسببات والأبنية العلوية والتابعة ـ ينبه قاسم أمين إلى أن خفاء هذا القانون فى الظواهر الإنسانية لايعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وان تميزت هذه الظواهر بأسباب لاتجعله واضحا وجليا كما هو حاله فى ظواهر الطبيعة .

« إن هذا القانون الإلهى وان كان لايظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية :

أولا : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الإنسانى هى ، فى الحقيقة ، فى أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانيا : لأن الحادثة الاجتماعية لاتتكون من سبب واحد ، بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة .

وثالثا : لأنها تظهر دائما أنها تحت ارادتنا ، وإن لنا سلطة فى ايجادها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره » .

ثم يستطرد ليؤكد على أن هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله فى قرآنه ، فيذكر أن آية (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)[١٥] هى أساس لذلك القانون ، وبها يظهر للقارئ

---

(١٥) الرعد : ١١ .

كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه القضية ، كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجالا أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها بإصابة وإدراك !»[١٦] .

ولقد كان طبيعيا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمى ، ليس فى نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) فى ذلك العصر ، بل وفى الظواهر الخاصة بالحياة الإنسانية ، **ذلك « أن هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقى ، هى قانون الحياة الإنسانية** ، التى خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج الإنسان من المعيشة البهيمية ، التى لايزال عليها إخواننا المتوحشون من سكان افريقيا وأمريكا ، ممن وصفهم العلماء بأنهم قردة متمدنة عندما شاهدوا أن المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التى بينهم وبين أناسى أمة متمدنة !»[١٧] .

ولقد استفاد قاسم أمين من إيمانه بقانون التطور ، ووحدته وفاعليته الازلية الأبـدية فاستخدم حقائقه اسلحة فى الصراع ضد فكرية الغرب الاستعمارى الذى حاول ، فى سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا ، أن يوهمنا أن قانون التطور والتقدم والارتقاء ، فى المجتمعـات إنما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فإننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون؟!..

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن « إن تاريخ تأسيس الدول فى العالم موضوع تأملات متصلة ، **وهو يؤكد حقا أن النوع الإنسانى ، فى كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضا بعظمته وزهوه ، والقانون الأبدى الذى يحول المادة يحول أيضا البشر والأنظمة ، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذى لامهرب منه ، والذى يحكم حركة التقدم البشرى . والإنسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .**

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهى إلى الحرية . غير أنها فيما بين هاتين الفترتين مقضى عليها أن تعانى محنة الاستبداد ، الذى يبدو أنه ضرورى لاختبارها . ما أسعد الدول التى يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء !»[١٨] .

---

(١٦) (أسباب ونتائج) تقديم .

(١٧) (أسباب ونتائج) مقال : (التربية) .

(١٨) (المصريون) فصل : (الحكومة) .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب الاستعماريين وحدهم ، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التى تعادى التطور على وهم أن بالإمكان إيقاف قانونه عن العمل ، والعودة إلى الماضى أو الحفاظ على بقايا آثاره التى تشد المجتمعات الشرقية إلى الوراء ..

وهو فى سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضى متسائلا ليقول : « .. انى – بكل حسن نية – لا أرى لماذا يقف ماضينا – كما أرى ، أو حاضرنا ، كما يراه دوق داركور – مهما كان سيئا ، حائلا بيننا وبين التقدم حسب **قانون التطور نحو الكمال ، وهو القانون الذى يسود حركة الكون كله ؟!** »[19] .

وكما اثمر إيمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة التى جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسببات ، والتى جعلته يشير إلى السبل العلمية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والإنسان . فهى أيضا قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التى تحدث فى الأبنية العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على احداث تطور حقيقى فى هذه الظواهر .. فتغيير الواقع الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى . وليس تغيير القوانين والقيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات .. وعن هذه الحقيقة الهامة يقول : « إن حالة الأمة ، فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل انها نتيجة لازمة لاتتغير إلا إذا تغير مابنفس تلك الأمة ... **والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهى لاتتغير أبدا إلا بحال آخر . بمعنى أن ارادة شخص أو مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لايؤثر فيها بشىء محسوس ! ..** »[20] .

تلك كانت درجة إيمان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية للظاهرة الاجتماعية . وكيف أن تغييرها هو السبيل الحقيقى لإحداث التغييرات الحقيقية والتطورات ذات القيمة التى يسعى الإنسان لانجازها كى يتطور بمجتمعه وواقعه إلى الإمام ..

* * *

بل لقد خطا قاسم أمين فى هذا السبيل ، إلى الإمام ، خطوات أكثر تحديدا وأشد عمقا وأنضج فى باب الإيمان بالمنهج الاجتماعى فى البحث والدرس والاصلاح .. فوجدناه يركز على أهمية **العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية** ، ويبرز دورها المتميز فى تحديد الصورة العامة

---

(١٩) (المصريون) فصل : (المصرى) .

(٢٠) (أسباب ونتائج) تقديم .

للظاهرة ، ويؤكد على فعاليتها فى التطور إذا ماشملها التغيير والتطوير..

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى (المؤيد) حدد منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزا على العوامل المؤثرة فى المجتمع ، بهدف إلقاء الضوء على السبل الحقيقة للتغيير المنشود .. وبصدد حديثه عن منهجه هذا كتب يقول : « .. شرعت فى هذا العمل باحثا عن حالتنا الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فإنى لست مشتغلا بها إلا من حيث كونى مصريا أحب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى ـ وللسياسة الآن رجال قائمون والحمد لله ، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال ! ، بل من الجهات الأخرى **كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين ..**»[٢١] .

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و « المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد والدين ..

وفى موطن آخر يزيد هذا الموقف حسما ووضوحا عندما يقول : « **إن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية** ... ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس فى إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء »[٢٢] .

وهو هنا يشير ـ بعد تقريره أن الحالة الاقتصادية هى أهم العوامل تأثيرا فى حالة الأمة والمجتمع ـ يشير أن لهذا العامل قوانينه العلمية التى لابد من الوعى بها ، لأن تصور تغييرها بالاهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الامكان ..

فإذا انتقل للحديث عن المرأة ، وجدناه ينبه إلى دور العامل الاقتصادى فى أوضاعها الراهنة ، إن سلبا وإن إيجابا ..

فللعامل الاقتصادى الدور الأغلب فى انحراف المرأة الخلقى وتفريطها فى عفتها وسلوكها المسلك المشين ، ولذلك فإنه « يمكن أن يقال : « **إننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة ، وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة ..**»[٢٣] .

---

(٢١) (أسباب ونتائج) . تقديم .

(٢٢) (المرأة الجديدة) فصل : (الواجب على المرأة لنفسها) .

(٢٣) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصادى لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلا .. فالتعدد لاينتشر فى الأوساط الريفية التى لاينتج أهلها مايسد رمقهم كما ينتشر فى أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهل والتخلف والبحث عن اللذات .. يقول قاسم أمين :

« وأستطيع أن أؤكد أن حالات تعدد الزوجات نادرة فى مصر . ونتحدث عن الريف فى البداية ، **فالفلاح متمسك بالزوجة الواحدة ، بشكل جذرى ، وسبب هذا أنه يكسب مايكاد يتقذه من الموت جوعا . أما فى المدن فقد بقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة !..** »[٢٤] .

فالتعدد، وجودا وعدما قلة وكثرة ، علاقة وثيقة بالوضع الاقتصادى لكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات ..

* * *

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفكر ومصلح امتاز بالإيمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعى الذى أعانه على دراسة المعضلات التى عرض لها بالدرس والاصلاح ..

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق ... وذهب فى ذلك مذاهب تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة ..

وهو قد وعى القوانين التى تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو إنسانية .. واستخدم وعيه فى تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفى رد سهام الاعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمته العداء ..

وهو ، أخيرا ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع ، وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة فى أية عملية للتغيير أو التطوير يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الإمام ..

---

(٢٤) (المصريون) . فصل : (تعدد الزوجات) .



المجتمع الذى بشّر به

[إن التربية هى : رأس مال لا يفنى ! ..

وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها .. والتجارة هى علم الثروة الحقيقى ...

وليس الغرض أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون لديه طموح شريف إلى العلاء .

والاستبداد أصل كل فساد فى الاخلاق .. والحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ...

فكم من الزمن يمر علينا قبل أن نبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ ! ..]

قاسم امين

كان قاسم أمين واحدا من المصلحين البارزين فى مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير فى مصر والشرق العربى والاسلامى ، تلك المدرسة التى تكونت أول ما تكونت بمصر فى النصف الأولى من القرن الماضى ، ورائدها هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) ..

وكان الموقف الاجتماعى لهذه المدرسة يستهدف التطور بالمجتمع من مرحلة الاقطاع والانتقال به إلى المرحلة البورجوازية ، بكل ما تعنى هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين فى ذلك بما للاسلام من مواقف ومبادئ تنتصر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبكل ما تعنى هذه المرحلة البورجوازية كذلك من اعلاء لشأن « العمل » ونقد لقيم التبطل التى تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبار الملاك ، والدعوة إلى إشاعة التنافس والطموح ، وتنبيه الناس إلى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشـركات وخوض غمار المنافسة والمخاطرة فى هذه الميادين ضد أوربا التى كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية ، سواء فى صورة شركات وجاليات ومغامرين ، أو فى ظل جيوش وسلطات احتلال تحمى وتقنن ذلك النهب والاستنزاف ..[٢٥] .

ومن هنا فإننا نجد لدى مصلحى مدرسة التنوير هذه ، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعى ، قاسما مشتركا يتمثل فى أمرين محددين :

أولهما : نقد بقايا المجتمع الاقطاعى القائم ، وتسفيه قيمه ، والازراء على الاعراف التى سادت مجتمعات كبار الملاك .. وكان كثير منهم بمصر يومئذ من المتمصرين والشراكسة والاتراك .

وثانيهما : الدعوة إلى احلال قيم المجتمع البورجوازى - وكانت هى الأكثر تقدما يومئذ

(٢٥) انظر الفصل الذى كتبناه عن الفكر الاجتماعى لرفاعة الطهطاوى . فى تقديمنا لاعماله الكاملة جـ ١ ص ١٧٥ - ٢٠٠ .

بالنسبة لمجتمع الاقطاع وكبار الملاك ـ الدعوة إلى احلالها كبديل لقيم المجتمع القديم.

ونحن اذا نظرنا فى الفكر الاجتماعى لقاسم أمين ، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذى بشر به مواطنيه ، وجدناه يدعو إلى هذين الامرين المحددين بوضوح وجلاء..

فهو يوجه نقده إلى المجتمع القائم ، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية ، التجارية والصناعية ، فيه .. ويسفه من الهالات التى يحيط بها هذا المجتمع فئة الموظفين ، لأنهم بلا سند اقتصادى يضمن لهم لقمة العيش اذا ما تأخرت عنهم المرتبات ! ومن ثم فلا دور لهم فى الانتاج والتطور الاقتصادى للمجتمع الذى يخدمون حكومته .. ويوجه سهامه إلى الوضع المزرى لطبقة كبار الملاك الذين أغرقوا أنفسهم فى التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية فى الديون ..

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه فيقول :

«إن مصر بلد فقيرة جدا ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا ، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع .. وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : إنه مالى ملىء !.

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ـ وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا مّا ، فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم إن حيل بينهم وبين مرتب شهر واحد وقعوا فى العسرة والضنك الشديد !

أما أرباب الأطيان ، من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد ، فحالهم كحال «رابيل» ، المؤلف الفرنساوى المشهور ، اذ قال فى وصيته : «إنى لا أملك شيئا ، وعلى ديون كثيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء» ! ! والبلد التى يكون أهلها فقراء ، مثلنا ، لا يمكنها ، مادام فقرها ، أن تؤمل خيرا فى المستقبل ، **لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، اذ بالمال يتم كل شىء ، وبغير المال لا يتم شىء مطلقا !**»[٢٦] .

وفى موطن آخر يسلط هجومه على قيم الكسل والتبطل والزهد والتواكل التى تسود المجتمع القديم ، ويعلل انتشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر

---

(٢٦) (اسباب ونتائج). مقال : (الحالة الاقتصادية فى مصر).

ملكات الناس وكره اليهم استثمار طاقاتهم عندما أيقنوا أن المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد ، وساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات ..

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عندما يعرض لمكان الانسان المصرى من « العمل » و « الطموح » فيقول : « ان المصرى طماع ـ (طموح) ـ كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو اذن يحب أن تمطره السماء ذهبا وان تنبته الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس ، على شرط ألا يتعب جسمه ولا يجهد فكره ! ... والسبب فى سقوطه هذا أمران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فإنها بغدرها وظلمها أضاعت الامانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ، ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل .

والثانى : سوء تربيته ، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الاعضاء والجلوس ساعات ، بل وأياما ، على المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ ، وترك النظر فى الاشياء ، مع شدة التمسك بالاقوال والامثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتكرار سماع القصص والأحاديث التى وضعت فى الاصل لتسلية الفقير وازالة الاحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة .. ولكن غشيتنا جهالتنا ، وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها ، وحشّيناها ووشّيناها حتى تشربت بها ارواحنا وعقولنا ! »[٢٧] .

* * *

وبدلا من هذه القيم التى كانت لها السيادة والانتشار فى ذلك المجتمع الاقطاعى ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحى مدرسة التنوير ، بقيم المجتمع الجديد .. فهاجم الزهد والقناعة والرضا بالقليل ، ودعا إلى الطموح وطلب المزيد والمزيد مما هو مشروع .. وقال وكتب مؤكدا أن « من البديهى أن الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد . فعلى الانسان ان يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالتيه المادية والأدبية ، فإن كان يكسب فى اليوم قرشين ، فعليه أن يجتهد فى توصيلها إلى خمسة ، ثم إلى عشرة ، وهكذا ...

---

(٢٧) (اسباب ونتائج) مقال : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) .

وليس الغرض .. من تحسين الحال ، على هذه الطريقة . أن يجمع الإنسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف إلى العلاء ، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى فى استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية فى ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة . وأن يأتى من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله .. »[٢٨] .

وفى مواجهة القيم التى تمجد التبطل والكسل و « الراحة » . يبشر قاسم أمين « بالعمل » المنتج ، وذلك من خلال نقده لتكالب الناس على « العمل » كموظفين فى الجهاز الحكومى . مع أنه « لو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين إلا بنسبة قليلة جدا ، **وأن كل إنسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه ، وأن يعلو على أكبر ملك فى الدنيا بفضيلته وعلمه !** لما رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئًا ! ... »[٢٩] .

والتعليم .. يعلّم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تطلب لذاتها ، فإن له دورا فى تنمية الحياة .. بل لقد تحدث عنه على أنه « استثمار » رابح بمقاييس « الاستثمارات » والارباح .. ومن هنا كان « كل ما يصرف فى سبل التعليم والتربية ، كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة ، لازما .. إنه لا يجوز مطلقا الاستغناء عن صرف الأموال فى هذا السبيل . كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة ... **لأن التربية هى رأس مال لا يفنى** ، أما المال فما أقرب ضياعه ، وخصوصا فى يد الغبى الجاهل ! »[٣٠] .

* * *

وكما سبقت اشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعى تعلى من قدر كبار الملاك المتعطلين بالوراثة ، والاثرياء بالوراثة ، وترفع شأنهم الادبى والاجتماعى فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التى يعمل أهلها بأيديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع .. ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبار الملاك ويسخر من « شرفهم ونبلهم » المزعومين ، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التى كانت فى دور النشأة والتكوين ، فيتحدث كيف « كان المصريون

---

(٢٨) (اسباب ونتائج) . مقال : (اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا) .

(٢٩) (أخلاق ومواعظ) مقال : (صاحب المعاش) .

(٣٠) (أسباب ونتائج) مقال : (كيف يصرف المال) .

إلى عهد غير بعيد ، ينظرون إلى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون انها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ، والى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الامراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ، ووضعوا النشانات على صدورهم ، وعلقوا فى مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم إلى الأرض ، تخيلوا أنهم من إنسانية أخرى أعلى من إنسانية **هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم** ... وهم يرون كل خدمة غير « اميرية » وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها . ولهذا كله **لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة إلا فئة قليلة ، برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق عليها ثناء الامة المصرية بأسرها** .

ولو قارن أى انسان ، لم يعمه الجهل ، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة ... وبين أولئك الذين منبع ثروتهم ، فى الاغلب ، العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج ، أولسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! .. »[٣١] .

ولقد كان قاسم أمين يعى جيدا أن ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحا وسهلا للنشاط التجارى الذى يقوم به الاجانب والنازحون إلى بلادنا ، فأخذ ينبه قومه إلى قيمة التجارة كحرفة ، بل وكعلم من أشرف العلوم ، لدى الدول الأوربية المتقدمة والاستعمارية ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوربيين فى هذا الميدان .. فأهاب « بالآباء أن يعدوا أبناءهم إلى غاية الوصول إلى السعادة وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال ، لأنها أبواب الثروة الحقيقية وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، **وأول شىء يجب أن يلتفتوا إليه اليوم هو التجارة** ...

إن الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة ... « لأنهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة ، وهى علم حقيق لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم ، ويدرس فى المدارس ، ويتمم بالاختبار والعمل[٣٢] ... **وأنت ايها المصرى البطال ، ابن البلاد ، وأدرى بما فيها ، ولك فيها القريب والحبيب ، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون إلى بلادنا ؟ !** »[٣٣] .

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية ، والتجارية منها بخاصة ، فى الصراع العالمى بين الدول الاستعمارية المتنافسة ، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى ، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاما ؟!.. وذلك عندما يكتب فيقول :

---

(٣١) (اسباب ونتائج) مقال : (لماذا لا يوجد فى مصر اغنياء ؟) .

(٣٢) (أسباب ونتائج) مقال : (لماذا لا يوجد فى مصر اغنياء ؟ .) .

(٣٣) (اسباب ونتائج) مقال : (الاستقلال فى المعيشة قبل كل استقلال)

« إن أمم أوروبا قد وجهت التفاتها إلى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء فأنشأت نظارة – (وزارة) – للتجارة . والصناعة . وللمستعمرات ، وأكثرت من انتشار المدارس التجارية والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار . وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل .. حتى ان رجال السياسة صاروا يعتبرون أنه لابد من الحرب يوما بين انكلترا وألمانيا ، لأن المنافسة بين الأمتين فى جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن أحداهما لايمكن أن تستمر فى طريقها إلا إذا سحقت الأخرى ! » .

ثم يستطرد ليقرع الاسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة . ومنها مصر . هى موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية ، وإن النهضة هى سبيل افلاتها من مصيرها الأليم . فيقول : « إننا نحن المصريين لاشغل لنا إلا التفرج على المتنافسين ... والحقيقة أننا نحن موضوع تنازعهما، وسبب مشكلاتهما. نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منهما – (الانجليز والألمان) – أن يبتلعها فى جوفه ! »[٣٤] .

إن قاسم أمين يدعو إلى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار . ويتمنى لمجتمعه أن يكون مثل تلك المجتمعات التى توصلت أممها «إلى اقتناء الثروة، وكثر فيها الأغنياء الماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين ، كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات ! ... »

ثم يضيف متحفظا على طرق جمع الثروة ، فينبه أن طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها ، قائلا : « ... ولكن الشيء المهم ، الذى أرجو ملاحظته ، هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هى نتيجة عمل صاحبها .. انه يشتغل ليكسب ، يشتغل دائما ، يشتغل فى النهار ، ويفكر فى شغله بالليل ! »[٣٥] .

فهو داعية للتطور الرأسمالى . ومناضل من أجل ازالة العوائق الاقطاعية من طريق هذا التطور ، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازى .. ولقد كان هذا الطريق ، بالنسبة لمجتمعه وعصره ، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه فى ذلك التاريخ ..

* * *

واذا كانت هذه هى الدعوة التى بشر بها قاسم أمين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذى نقده ، والذى بشر به ، فإنه قد صنع ، فى اطار البناء الفوقى للمجتمع ، ما يتسق مع هذه

(٣٤) (اسباب ونتائج) مقال : (الحالة الاقتصادية فى مصر) .
(٣٥) (اسباب ونتائج) مقال : (الحالة الاقتصادية فى مصر) .

الدعوة كل الاتساق .. فهو قد هاجم الاستبداد ، الذى كان سمة للحكم الشرقى الفردى الاقطاعى .. ودعا إلى الحرية كما عرفتها المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى أوربا ، وطالب بالحياة النيابية فى وقت مبكر جدا ، اذا ما قيس بالأصوات التى ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز للبلاد .

فهو يتحدث عن «**إن الاستبداد أصل كل فساد فى الاخلاق**» ..[٣٦]

ويطالب بأن تكون الحرية فى الاعتقاد ، وفى التعبير عن المعتقدات مصونة ومكفولة ، بل ومقدسة ، مهما تكن الآراء والمعتقدات التى يعتنقها الناس ويعبرون عنها .. يقول : «**ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .... فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بإن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومة فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه ، متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح**» .

ثم يتساءل : «**كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ ! !**[٣٧] .

وهو ينبه إلى أمر هام جدا عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقته للرذيلة وبين قيام رأى عام قوى فى هذا المجتمع ، إذ «لا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته ! »[٣٨] .

فلا المواعظ والخطب ، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئا ذا قيمة فى اعلاء شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة كما يفعل ذلك قيام الرأى العام صاحب الحكم القوى والسليم !

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديمقراطى بالدعوة إلى الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعى الاستشارى الذى أقامته سلطات الاحتلال الانجليزى بديلا عن المجلس النيابى الذى حلته بعد هزيمة الثورة العرابية .. يدعو قاسم أمين إلى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذى مرت عليه عشر سنوات ، إلى نظام المجلس التشريعى البرلمانى غير الاستشارى .. فيكتب فى سنة

---

(٣٦) (أسباب ونتائج) مقال : (عيوب تربيتنا : حب النفس) .

(٣٧) (كلمات) .

(٣٨) (اسباب ونتائج) مقال : (عيوب تربيتنا : احساس الاحترام) .

١٨٩٤ م قائلا : «لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها ، حتى ان قادتنا يستلهمونه أفكارهم . كما باتت كثرة المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى أن هذه السنوات العشرة تمثل تدريبا كافيا ، **وأن مصر بعد ألفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشاريا فقط ، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح . غير اننا نود بالطبع نظاما تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى ..»** [٣٩] .

* * *

هكذا فكر ، وكتب قاسم أمين .. وهكذا نلتقى فى آثاره الفكرية بما يؤكد أنه كان ناقدا للمجتمع الاقطاعى ، مهاجما لقيمه .. مبشرا بقيم المجتمع البورجوازى ، وداعيا إلى فتح الطريق أمام المجتمع المصرى كى يدخل إلى رحابه ، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الاقطاع وكبار الملاك ..

---

(٣٩) (المصريون) . خاتمة .



التطوّر الفكرى

● إن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد وذلك حماية لهن من الضعف وقضاء على مصدر الشر ! » .

● ليس فى الشريعة نص يوجب الحجاب ... وإنما هى عادة أخذناها عن بعض الأمم ... وإن نساء العرب والقرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوربا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن المحجبات ... إن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » .

● إننى لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى لتحصيل الطلاق . فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى ! ..

● إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج ! ...]

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م أحدث ضجة كبرى فى المجتمع المصرى والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت فى الشرق من حول كتاب فى القرن الذى ظهر فيه ..

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلاً عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريبا ، للجدل فى موضوع الكتاب ، إن بالتأييد أو المعارضة والتفنيد ..

ولقد كانت القضايا الرئيسية التى أثارت الجدل أكثر من غيرها ـ من بين قضايا (تحرير المرأة) ـ هى :

١ ـ ما أثاره الكتاب عن الحجاب الذى كان يسود عالم المرأة فى ذلك الحين ..

٢ ـ ما دعا إليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل فى إنهاء رابطة الزوجية بالطلاق ..

٣ ـ نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة إلى ضبطه وتقييده ..

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسرى السائد ، ولأبرز مشكلات المرأة الشرقية ، ولأخطر القيود التى تحد من إمكانيات تطورها وتحررها وكذلك ـ وهو هام جدا ـ العلاقة الوثيقة بين هذه القضايا ، والبحث فيها ، وبين الشريعة الإسلامية .. ذلك أن الجدل حول أية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة إنما ينقل ، وعلى الفور ، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص إلى الساحات العامة التى تتواجد فيها وتشارك أوسع الجماهير ، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للادلاء بما هو صواب من الآراء ! ..

ونحن نعتقد أن خصوم قاسم أمين وكتابه (تحرير المرأة) لو فكروا . أو فكر واحد منهم ، فى ترجمة كتابه (المصريون) عن الفرنسية إلى العربية ـ وهو الذى صدر قبل تحرير المرأة بخمس سنوات ـ لكان الذى يرد على قاسم أمين فى (تحرير المرأة) هو قاسم أمين فى (المصريون) ! ؟ .. وبالذات فيما يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاث التى أثارت الجدل والعراك ..

ذلك أن قاسم أمين قد قدم فى (تحرير المرأة) الآراء التى كان ينقضها ويفندها فى (المصريون) ، ومن ثم فإننا عندما نقرأ كتابه (المصريون) يخيل إلينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين ، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ! ! ..

وهذا هو الأمر الذى دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكرى لقاسم أمين .. والذى يدعونا للتساؤل : كيف لم يلتفت إلى هذه الحقيقة ، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩ م ، بل ولا أحد من دارسيه بعد ذلك التاريخ ؟ ! .

صحيح أن البعض قد أشار إلى أن «قاسم» قد «فصل» فى (تحرير المرأة) بعض ماأجمله فى (المصريون)[٤٠] ، كما أشار آخرون إلى أن حماسه لبعض الآراء فى (المصريون) قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعى فى (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) .. ولكننا نعتقد أن هذا التشخيص غير كاف ، بل وغير دقيق حتى لقد خيل إلينا أن دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكرى الجذرى الذى حدث لقاسم أمين ، إما أنهم لم يقرأوا (المصريون) ، أو أنهم قرأوه قراءة العابر المتعجل الذى لا تستوقفه أبرز المعالم فى هذا الكتاب ؟ ! ..

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة .. لننظر فى فكر قاسم أمين فى كتابيه هذين ـ (المصريون) و (تحرير المرأة) ـ بخاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالى

يدافع قاسم أمين فى كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره ، ويمتدح النظام الصارم الذى جعل المجتمع الشرقى مجتمعا انفصاليا ، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء ، ويهاجم تحرر المرأة الأوربية ، ويغالى فى تصوير مساوئ

---

(٤٠) (الهلال) تأبين قاسم أمين. انظر مقدمة الناشر لكتاب (اسباب ونتائج) ص ١٣ .

الاختلاط فى أوربا ، ويدمغ الرجل والمرأة الأوربية ، غالبا ، بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض .. يقدم فى هذه القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩م !..

فهو لايرى فى المجتمع الشرقى ، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء ، اية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أى شىء نافع لها أو للمجتمع .. بل يرى أن المساواة متحققة تماما بين الرجال والنساء ! .. ذلك «أن مانستطيع أن نفعله ، نحن الرجال ، تستطيع النساء فعله بل ويفعلنه ، وكل ماهو مباح لنا مباح لهن ، وكذلك فإن كل شىء محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرما علينا ، نحن الرجال ، ان ندخل فى مجتمع النساء فيبدو لى ، من الطبيعى ، أن يقع نفس التحريم على نسائنا . وإننى أكرر ، من وجهة النظر هذه ، **ان وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما !..**»[٤١] .

ثم يقرر ان هذا المجتمع الانفصالى ، الذى كان سائدا يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، «**لأن ديننا .. قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لاتدخله امرأة واحدة ، وان يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد . لقد اراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذرى على مصدر الشر !**»[٤٢] .

نعم .. هذا هو كلام قاسم أمين ؟!.. هو كلامه فى (المصريون) سنة ١٨٩٤م .. وهو أيضا مضمون كلام خصومه عند صدور (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م !.

ثم يهاجم عادات الأوربيين فيما يتعلق بالاختلاط ، متهما إياهم بالتحلل الخلقى ، مصورا أن نتائج الاختلاط غالبا ما تنتهى بفقدان المرأة عفتها وتفريط الرجل فى عرضه .. يقول :

«إننى أعرف أنه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس اللطيف ، وأن النساء اللاتى يعرفن ابداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن انفسهن ، غير أننا لانصادف كل يوم قلاعا حصينة فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و «استراتيجية وتكتيك» ! ثم انه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه ، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح ، والانطلاق فى الهجوم الحاسم ، فى اللحظة المناسبة ، لا قبلها ولا بعدها !»[٤٣] .

---

(٤١) (المصريون) . فصل : (النساء) .

(٤٢) (المصريون) . فصل : (كلام عن الحب) .

(٤٣) (المصريون) . فصل : (كلام عن الحب) .

وهو لايعرض هذه الصورة التى تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوربية عملا مكرسا اساسا ، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام .. لايعرضها بوصفها انحرافا أصاب المجتمع الأوربى ، وخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف ، بل يرى فى هذه الصورة التطبيق لفكر الأوربيين فى هذا الموضوع .. فيقول :

« يبدو من أفكار الأوربيين ان استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، **بل إن الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب فى الاستئثار بها** ، ان عليه أن يتيح لها أن تعاونه ، وتدلى بدلوها فى **ارضاء اصدقائه** ، وهو يفهم أن يمزح اصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا إليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسىء النظر إليهم ، فهم فى الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم اصدقاء منذ الطفولة ، ولا شىء مما يفعلونه يعد جادا أو خطرا ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابة ، ولاشىء غير ذلك ! كما يمنح الزوج فى نفس الوقت اهتماما لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ويوجه إليهن نفس عبارات الغزل . تلك هى متعة اللقاءات المشتركة ! »[٤٤] .

ثم يقارن بين موقفنا نحن الشرقيين من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدنا ، وبين الأوربيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

« إنه على نقيض **العادات الأوربية ، التى يبدو أنها خلقت لنشر المتعة على الأرض** ... تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة ... إن فى العالم الإسلامى مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين أثبتوا العادات الأوربية فى كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه **لايوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الأوربية** ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود ...

إن عليهم ان يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نسائنا روحا مازالت نقية ، وقلبا مازال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم ، **فالزواج عندنا بداية ، فى حين أنه عندهم تقريبا ، دائما نهاية !** .. »[٤٥] .

هكذا كتب قاسم أمين فى كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤م ..

---

(٤٤) (المصريون) . فصل : (كلام عن الحب) .

(٤٥) (المصريون) . فصل : (كلام عن الحب) .

١ ـ فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية ، ودافع عن المجتمع الشرقى الانفصالى .. ورأى فى ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الإسلام ، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء !..

٢ ـ ووجه سهام نقده وهجومه إلى الاختلاط فى أوربا ، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التى ربما كانت خاصة بشريحة هامشية فى تلك المجتمعات ..

٣ ـ وخلص إلى ان الشرق والمرأة الشرقية ليست لديهما قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة إلى التغيير .. وإن المشكلة هناك لدى أوربا التى أباحت الاختلاط ففقدت النعيم الذى ينعم به الشرقيون ؟؟..

والآن .. ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية فى (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م ؟؟..

فى (تحرير المرأة) ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من ان الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية ، يرتبط فيها بتعاليم الإسلام .. ويراه « عادة » مرت بمجتمعات عديدة ، ومنها مجتمعات أوربية ، ويقرر أن تطور هذه « العادة » بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من « العادات » .. يقول : وذلك « **لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم** . قال « لاروس » تحت كلمة « خمار » : كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ، ويخفين وجوههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال : « ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل فى البلاد ، فكن يغطين رءوسهن إذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصلاة ، وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر . حيث صارت النساء تخفف منه إلى ان صار كما هو الآن ، نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى أسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها » ..[٤٦] .

ثم سار ـ فى (تحرير المرأة) ـ مواصلا موقفه الفكرى الجديد ، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذا لتعاليم الإسلام ، فهو « **عادة** » **لا** « **شرع** » .. فقال : « .. إن الأوامر الإلهية يجب الاذعان لها دون بحث ولا مناقشة ، **ولكننا لانجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها**

---

(٤٦) (تحرير المرأة) فصل (حجاب النساء) .

وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين .. والدين براء منها » ..(٤٧) .

ثم رأيناه يطلب موقفا وسطا ، لا هو تبرج الغرب ومغالاته فى عرض مفاتن المرأة ، ولا هو الحجاب الشرقى ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فيقول : « إن الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، **وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل .. وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهو الذى أدعو إليه .. »**(٤٨) .

ومعروف أن الحجاب الشرعى لا علاقة له بمنع الاختلاط . إذ هو يعنى ستر جسم المرأة ومفاتنها ، عدا الوجه والكفين .. وبعد أن كان قاسم أمين يدافع ـ فى (المصريون) ـ عن المجتمع الانفصالى ، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الإسلامى ، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالى ويستنكر إمكانية ممارسة المرأة لواجباتها ومهماتها فى الحياة طالما ساد الانفصال بين الجنسين فى المجتمع ، اذ «كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة ... إن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة . بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن ! »(٤٩) .

وبعد أن كان الاختلاط عنده شراكا يستخدمها الرجل للايقاع بالمرأة فى حبائل الحب والعشق والمتعة ، أخذ ينفى هذا الفهم السطحى ، ويرى قطاعات المجتمع التى يلعب الاختلاط والتحرر فى حياتها دورا إنتاجيا ونضاليا فى سبيل العيش ، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائح التى تتستر بمباذلها خلف الحجاب ! فكتب مقررا «**إن نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! »**(٥٠) .

---

(٤٧) (تحرير المرأة) فصل (حجاب النساء) .
(٤٨) (تحرير المرأة) فصل (حجاب النساء) .
(٤٩) (تحرير المرأة) فصل (حجاب النساء) .
(٥٠) (تحرير المرأة) . فصل : (حجاب النساء) .

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد !

وبعد الصورة التى قدمها ـ فى (المصريون) ـ للمرأة الأوربية والغربية ، صورة العاشقة الغانية ، والفريسة التى لا تلبث أن تستسلم ، سريعا أو بعد زمن ، لا غراء الرجل الساعى لاقتناصها ، عاد قاسم أمين عن رأيه هذا فى نساء الأفرنج ، فرأى أنهن «يحافظن على ظواهرهن ، على العموم»[٥١] .. وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث بإعجاب عن الاختلاط هناك «فنساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وأكثرهن اختلاطا بالرجال ، حتى أن البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ! »[٥٢] .

ومع هذا الاختلاط فى الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة .. «فكل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة مالا قوام للمدنية بدونه ! »[٥٣] .

تلك هى قضية الحجـاب .. وموقف قاسم أمين منها .. موقفه القديم كما صوره فى كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤ م ، وموقفه الجديد ، والمناقض جذريا لموقفه القديم ، الذى عرضه فى كتابه (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩ م .

* * *

تقييد الطلاق

والقضية الثانية التى نقدمها مثلا حيا وواضحا للتطور الفكرى الذى مر به قاسم أمين ، هى قضية الموقف من «الطلاق» .. وهل هو حق مطلق للرجل ؟ .. أم أن الأمر يستدعى تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الاطلاق ؟ ..

ذلك أن قاسم أمين ، فى كتابه (المصريون) ، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة ، وغير المقيدة ، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صوابا .. وهو هنا يستنكر الآراء الإصلاحية التى يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق

---

(٥١) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

(٥٢) (تحرير المرأة) . فصل : (حجاب النساء) .

(٥٣) (تحرير المرأة) . فصل : (المرأة والامة) .

بحكم من القاضى بعد بذله الجهد ـ بواسطة التحكيم ـ لإصلاح ذات البين .. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول :

« .. غالبا ما يكون الطلاق علاجا اسوأ من الداء ، غير أن له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء فى بعض الأحيان. إنه عملية بتر يذعن لها المصاب كارها دائما، مطلقا صرخات الألم ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

وقد رأى المشرع الإسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما ، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلها ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بنفسيهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتى ..

انى لا أفهم ان يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق ، فتلاقى الأرواح لا يمكن ان يكون مادة للتقاضى ، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه ، وهو المتقلب كثير النزوات ؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟! وما هى الوثائق التى يحكمون على أساسها ؟! ان موضوع هذه القضية هو شخصيتى الصعبة المعقدة التى تحتاج عدة سنوات من عبقرى مثل « زولا » لكى يفهمها ويحللها ويحكم عليها ! »[٥٤] .

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا ، ويتبنى الرأى المعاكس لرأيه الذى أسلفناه وان يكن بالتدريج ، فيبدأ بالشكوى من مضار الاسراف القائم والحاصل فى استخدام الرجال لحقهم المطلق فى الطلاق .. فهو قد أصبح «أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة» .. ومع ذلك «اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جدا ، لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل .. »[٥٥] .

ثم بعد ذلك يحسم الموقف ، فيدعو إلى تقييد الاطلاق الذى يتمتع به الرجل فى إيقاع الطلاق ، وينقض ، فى (تحرير المرأة) ، منطقه فى (المصريون) ، فتتبدل المواقف ، ويرفع خصومه فى سنة ١٨٩٩ م نفس حججه هو فى سنة ١٨٩٤ م ! نعم .. يطلب قاسم أمين فى (تحرير المرأة) ، ان توضع القيود على الطلاق .. وذلك فى مثل :

١ ـ قيد الإرادة الواضحة والنية الحقيقية على فصم عرى الزوجية ..

٢ ـ قيد الاشهاد على وقوع الطلاق ..

---

(٥٤) (المصريون) . فصل : (الطلاق) .

(٥٥) (أسباب ونتائج) . مقال : (عيوب تربيتنا) : احساس الاحترام .

٣ـ قيد التحكيم الذى حدده القرآن بهدف محاولة الإصلاح ..

٤ ـ قيد جعل إيقاع الطلاق فى اختصاص القضاء ..

وفى هذا الأمر يكتب ليقول :

«.. يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة فى إنه إنما يريد الانفصال من زوجته ... وان لمريد الإصلاح أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما ... **فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد فى الاخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاشهاد شرط فى صحة الطلاق ، كما هو شرط فى صحة الزواج ، كما ذكره «الطبرسى» ، وكما تشير إليه الآية الواردة فى سورة الطلاق ، حيث جاء فى آخرها: (وأشهدوا ذوى عدل منكم)**[٥٦] ، أليس هذا أمرا صريحا بالاشهاد ، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهودة لدى العموم ليسهل إثباته ؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا ؟ .... نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة فى زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة ، كما هو شأننا اليوم» .

ثم يستطرد قاسم أمين ليصوغ مشروعا بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطـلاق فيقول :

«... بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتى :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته عليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد فى الكتاب

---

(٥٦) الطلاق : ٢ .

والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : اذا أصر الزوج ، بعد مضى الأسبوع ، على نية الطلاق ، فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : اذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق إلا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية ... وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وإنما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ! ... إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج »[٥٧] .

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة ، فتبنى فى سنة ١٨٩٩ م فكر خصومه فى سنة ١٨٩٤ م ، كما تبنى خصومه فى سنة ١٨٩٩ م فكره هو فى سنة ١٨٩٤ م ؟ ! ..

* * *

تعـــدد الـزوجـــات

والقضية الثالثة التى نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هى موقفه من « تعدد الزوجات » .. فعلى الرغم من أن كلا من كتابيه (المصريون) و (تحرير المرأة) يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة ، إلا أنه فى (تحرير المرأة) كان أكثر ميلا لتغليب منع التعدد على إباحته وتجويزه ، كما كان كذلك أكثر تنبيها على مضاره ومخاطره .. بل لقد تحدث فى (المصريون) عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد ، ثم عاد فى (تحرير المرأة) فرآها خطرا يجب لأجلها منع هذا النظام ..

فهو فى (المصريون) يتحدث عن موقف الشرع الإسلامى من التعدد فيذهب إلى أن

---

(٥٧) (تحرير المرأة) . فصل : (الطلاق) .

الشرع الإسلامى يتحدث إلينا، عن التعدد، قائلا : «من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة، إننى أنصحكم بذلك من أجل راحتكم، فإذا حدث حادث حطم، لسبب من الأسباب، حياتكم الزوجية، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة. ولكن، فليكن معلوما لكم أننى لا أبيح لكم ذلك إلا اذا كنتم مضطرين إليه وخاضعين لضرورات محددة.. وإننى أفرض عليكم.. أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعا، فى كل الأمور، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة، وأن تكون هذه النسوة جميعا زوجاتكم على نفس المستوى، وأن تقوموا بكل نفقاتهن، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهم أولادكم، فتسهرون على تعليمهم جميعا بنفس الاهتمام واليقظة.. فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتنوعة، وإذا وجدتم أنفسكم فى حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة. وإلا فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة. وهذا أفضل..».

كما يعرض قاسم أمين. فى هذا الكتاب. لرأى الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييدا شديدا، لأنه قد أصبح مصدرا لشيوع العداوة والبغضاء بين الأخوة المولودين من أمهات عدة، فيرفض هذه الحجة ويقول : «يتخيل الناس، بصفة عامة، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم. بالضرورة. أن يتبادلوا الكراهية، وأن يتعاركوا صبحا ومساء. ومع ذلك **فإن هذا لا يحدث. والمسألة مسألة تعود!!**»[٥٨].

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية فى (تحرير المرأة) تطورا ملحوظا.. فهو يقول : «.. لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة. اللهم إلا فى حالة الضرورة المطلقة.... وغاية ما يستفاد من آية التحليل ـ (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة. أو ماملكت أيمانكم. ذلك أدنى أن لا تعولوا..)[٥٩] ـ إنما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن من الجور. وهذا الحلال. كسائر أنواع الحلال. تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى. من المنع والكراهية وغيرهما. بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح. **فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات، كما هو مشاهد فى أزماننا. أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة، وشيوع ذلك إلى حد يكاد**

---

(٥٨) (المصريون). فصل : (تعدد الزوجات).

(٥٩) النساء : ٣.

يكون عاما ، جاز للحاكم . رعاية للمصلحة العامة . أن يمنع تعدد الزوجات . بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة ..»[٦٠] .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد فى العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد . وهو ماكان ينكره من قبل .. وهو هنا يتحدث عن جواز إصدار تشريع يمنع التعدد مطلقا اذا غلبت المفاسد الناشئة عنه فى المجتمع . ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردى والتصرف الفردى كما كان عليه موقفه فى كتاب (المصريون) ..

وهو تطور ملحوظ فى فكره حيال هذا الموضوع ..

* * *

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤ م ، عندما أصدر رده على دوق داركور وما بين سنة ١٨٩٩ م عندما أصدر (تحرير المرأة) .. وهو التطور الذى سقنا عليه الأدلة ، وقدمنا النماذج والأمثلة التى تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات ..

لكن .. يبقى سؤال هام لابد من الإجابة عليه .. وهو :

لماذا كان هذا التطور الفكرى ، عند قاسم أمين أساسا وبالدرجة الأولى ، **فى تحديد رأى الشرع الإسلامى** من القضايا التى كانت مثارة يومئذ بين الباحثين فى قضايا الأسرة والمرأة وشئونها؟ وبالتحديد فى قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟ ..

إننا لا نلحظ تطورا فكريا بارزا فى آرائه الأخرى ، مثل آرائه فى : الأدب ، واللغة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والمنهج ، والحضارة .. الخ .. الخ .. الخ .. الخ .. والذى لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التى حواها كل من (المصريون) و(تحرير المرأة) باعتبارها رأى الشرع الإسلامى فى مشكلات الأسرة وعلاجها ..

وأهمية هذا السؤال ، ومن ثم أهمية الإجابة عليه ، تكمنان فى ذلك الرأى والموقف الذى أبديناه من قبل عندما كتبنا الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومها : إننا مع القائلين بأن للإمام محمد عبده مشاركة فى تأليف كتاب (تحرير المرأة) ولقد قدمنا أدلتنا التى تثبت أن الفصول التى عرضت لرأى الشرع فى قضايا الحجاب

---

(٦٠) (تحرير المرأة) . فصل : (تعدد الزوجات) .

والزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، بهذا الكتاب ، هى للأستاذ الإمام، وليست لقاسم أمين ..

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات ستثبتها هنا عقب هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين عند حديثنا عن اعماله الكاملة .. ونود ان نضيف هنا :

إن هذه الدراسة التى قدمناها ، فى هذا الفصل ، عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يدعم ذلك الرأى الذى سبق لنا أن قررناه .

ذلك ان جوهر الحجة التى قدمناها ، ودللنا عليها يومئذ ، هو أن الفكر الإسلامى المتخصص الذى قدم فى هذه الفصول هو من صنع امام مجتهد فى الإسلام ، ولم يكن فى ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الادلاء بهذه الاجتهادات واصدار هذه الاحكام ، وان هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما ان جوهر حجة خصوم هذا الرأى كان ان قاسم أمين ليس غريبا عن الشريعة الإسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع ..

ولكن .. بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكرى .. لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتى ١٨٩٤ ، ١٨٩٩م ؟!.. أم قبل ذلك بكثير؟!.. ان المعلوم أنه تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١م ، وأنهى دراسته القانونية فى فرنسا سنة ١٨٨٥م .. ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء ، فى النيابة أو مستشارا فى محكمة الاستئناف .. فإذا ما جاء فى سنة ١٨٩٤م وقدم لنا فى كتابه (المصريون) تلك الآراء التى قال عنها انها آراء الشرع الإسلامى فى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات ، كنا مطالبين بأن نقول : ان هذه هى ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الإسلامى ، وفهمه له فى تلك المباحث .. وإذا ما قدم لنا فى (تحرير المرأة) آراء الشرع الإسلامى ، فى هذه القضايا ، على نحو مناقض لما فى (المصريون) كان لنا ، ان لم يكن علينا ان نؤيد ونزكى قول من قال : ان الفصول التى حواها (تحرير المرأة) عن رأى الشرع فى هذه القضايا إنما هى للاستاذ الإمام محمد عبده ، أسهم بها مع قاسم أمين فى تأليف هذا الكتاب ..

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان هذه الصفحات التى قدمناها عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يضاف إلى الادلة التى سبق ان قدمناها ونحن نقدم لاعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب (تحرير المرأة) .. والفضل فى اضافة هذا الدليل الجديد

يعود ، فى الاساس ، إلى احتواء هذه الطبعة ، التى نقدمها ، على كتاب (المصريون) ، الذى يترجم عن الفرنسية للمرة الأولى ، والذى كان الدليل الأول على هذا التطور الفكرى القائم فى آثار قاسم أمين ..



حـــرّية المـــرأة

[هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية ... فشكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية ، والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية ... ففى الشرق نجد المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحكومة .. وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .

وافتقار المرأة المسلمة إلى الاستقلال بكسب ضروريات حياتها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، ونظر إليها نظرته إلى حيوان لطيف ، يكفيه لوازمه كى يتسلى به ! ..]

قاسم أمين

إن التعميم فى الحكم على الميراث العربى والشرق فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة إليها وتقييم دورها فى المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذى واجهه قاسم أمين ومعاصروه عندما فكروا فى دخول هذا الميدان من ميادين الإصلاح الاجتماعى .. إن التعميم فى الحكم على هذا الميراث هو خطأ ، وخطأ كبير..

ذلك أن تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا إلى حد كبير فى هذا الموضوع .. فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة فى صفوفها دورا ملحوظا ، نسبيا ، ووجدنا فى فكر هذه الحركات والتيارات حديثا مشوبا بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها فى الحياة .. نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة ..

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهام الأولى للحركات الفكرية هى التبرير لمظالم الحكم وإضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة والنظر إليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كى تتزين به القصور ويستمتع به الرجال ..

ولما كانت الغلبة والسيادة ، إن فى الزمن طولا أو فى الصوت قوة وعلوا ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثانى والتقييم الأخير ، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بكل ما يحقر المرأة ويغض من شأنها ، ورسخ ذلك فى فكرية المجتمع الشرق ، خصوصا بعد أن طال ليل العصور «المملوكية ـ العثمانية» ، حتى لقد غابت من الميراث الفكرى الذى كان الناس يتداولونه أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى فى تراثنا ، التى تنصف المرأة وتضع اعتبارا لدورها الإيجابى فى الحياة ..

ومن هنا نستطيع أن نتخيل : أى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها من الحرية ونصيبها من المساواة ؟ ! .. وهذا التخيل أمر ضرورى ، لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيق الذى بذله وأنجزه قاسم أمين ، فى ذلك الميدان ، التقييم الذى يستحقه فحسب ، بل ولادراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جدا ، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلا ، فضلا عن الآمال التى مازالت تسعى فى سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل ..

ونحن نستطيع أن نكثف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل ، فى هذا الموضوع ، بالإشارة إلى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة ..

أولهما : يعبر عن المقولة القائلة **بأن موت المرأة خير من حياتها** ، وان بطن الأرض أكرم لها وللحياة من ظهرها ! ! .. ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمى (٩٣٥ - ٩٩٣ م) عندما يكتب إلى رئيس «بهراء» معزيا فى وفاة ابنته ، فيقول :

«... ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب أمرها ، **لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية ! فإن ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ! ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة إلى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر !** قال الشاعر :

ولم أر نـعـمـة شملت كريما ... كـنـعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بـنـيتى ووددت أنى ... وضعت بنيتى فى لحد قبرى

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات ... بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر :

سميتهـــا إذا ولـــدت : تموت والقبر صهر ضامن وبيت ! ! »[٦١]

وثانيهما : ــ أى ثانى النصين ــ هو المعبر عن سيادة المجتمع الانفصالى ، وصرامة هذا الفصل بين الرجال والنساء .. ويعبر أبو العلاء المعرى (٩٧٣ ــ ١٠٥٧ م) عن هذه المقولة عندما يقول :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وإن خالفتنى وأضعت نصحى فأنت ، وإن رزقت حجى ، بليد
ألا ان الـنساء حبال غى بهن يُضَيَّع الشرف التليد ! »[٦٢]

تلك كانت مواريث الفكر ، عن المرأة ، التى واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين .. ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم أمين عندما **ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة** ، فى فترات طويلة ، حياة الشرق ومجتمعاته .. فلا الإسلام ولا طبيعة الأشياء ، ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها ، هى التى ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وإنما هو الاستبداد الذى جعل من المرأة إحدى فرائسه ، فكبلها بالقيود والاغلال .. ومن ثم فإن تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد ، أى بتحرر المجتمع ككل .. وهو يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن «أن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، **والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها ... فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، فى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .**

وإن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وإن لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزليـة والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو

---

(٦١) (الهلال) تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة ناشر (أسباب ونتائج) ص ٤ ، ٥ .

(٦٢) (لزوم ما لا يلزم) جـ ١ ص ٢٤٧ . تحقيق أمين عبد العزيز الخانجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه ! ثم انظر إلى البلاد الأورباوية ، تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ! »[٦٣] .

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضا ، وعاها قاسم أمين ، عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى «الاستقلال الاقتصادى» ، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع جعلاها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها .. وإدراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج الاجتماعى الذى استخدمه فى دراسة المجتمع وتفسير التاريخ .. وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره فى تحريرها اذ «لو تبصر المسلمون لعلموا **إن اعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها . فإن الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء استأثر بالحق فى المجتمع بكل حق . ولم يبق للمرأة حظ فى نظره إلا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه ، على أن يتسلى به ! »**[٦٤] .

ذلك هو الميراث الفكرى ، المعبر عن الواقع العملى ، أى وجها العملة المجسدة لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى عندما نادى بتحريرها قاسم أمين ..

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية لذلك الوضع المتخلف الذى كانت عليه النساء فى مجتمعه الذى عاش فيه ..

* * *

ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعى إلى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين ..

فهى ، اجتماعيا ، لا وجود لها ، لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم .. وكما يقول قاسم أمين : فإنه «ليس بين الأمهات إلا عدد قليل جدا يعرف القراءة والكتابة وليس واحدة لها المام ، ولو سطحيا ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ، ولا تدرى شيئا من المعاملات والتجارة ولا من

---

(٦٣) (المرأة الجديدة) . فصل : (المرأة فى حكم التاريخ) .
(٦٤) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

نظامات وقوانين البلاد التى تسكنها ، فضلا عن الإلمام بأى شىء من أحوال البلاد الأخرى ، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة : **انهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة ... باقيات على ماكن عليه فى تلك الأوقات !** »[٦٥] .

ولم يكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله ، فلم تكن ، كما قد يتوهم البعض ، ملكة لمملكة المنزل ، وإنما كانت مخلوقا ضعيفا قد أعد ويعد للاستمتاع أولا وقبل كل شىء .. وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين :

«وأما من الناحية المعنوية ، فهى ـ (أى المرأة) ـ مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تأملية ، وبعيدة عن الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، تحب دينها ، لكنها لا تمارسه ! ، ليس لها مثل أعلى ، وتتأقلم مع الحياة الواقعية ، وهى زوجة نموذجية ، وأم حانية ، لكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى ! » .

فهى مخلوق ذبلت مواهبه وإمكانياته من طول تعطلها وحرمانها من التدرب على ممارسة ماخلقها له الخالق سبحانه ! .. ولقد بقيت لها من هذه المواهب والإمكانيات ماكان متعلقا منها «بالشكل» ، فهى على قدر لا بأس به من الجمال «يتجلى على وجه الخصوص فى نسب أعضائها ، ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشى العيون التى تتطلع إلى فلاحة جميلة تمشى مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالاحلام ، طويلة تقريبا ، فى كفيها وقدميها دقة رائعة !.. أما ماتتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبها المرء عينى «ملاك» ، والمعبرتان ، حتى ليفهمها المرء قبل أن تتحدث هى ! »[٦٦] .

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض اللذين قوبلت بهما صيحات قاسم أمين ، فإن مطالب الرجل كانت متواضعة ، بل شديدة التواضع ، اذا ما قيست بما يجب لتحرير المرأة حقا من إنجازات وإصلاحات . ولكن هذه المطالب كانت تمثل ثورة حقيقية وتغييرا جذريا فى فكر المجتمع وأعرافه بالقياس إلى واقع المرأة الذى أشرنا إلى الملمح العام من ملامحه ..

* **فى التعليم** : لم يطلب قاسم أمين مساواة المرأة بالرجل فى جميع مراحله .. بل طلب لها فقط المساواة به فى التعليم الابتدائى ؟ ! .. وعبر عن مطلبه المتواضع هذا عندما قال :

---

(٦٥) (أسباب ونتائج) . مقال : (الامهات والتربية) .

(٦٦) (المصريون) . فصل : (النساء) .

«.. ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم ، فذلك غير ضرورى ، وإنما أطلب الآن ، ولا أتردد فى الطلب ، أن توجد هذه **المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل** وان يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين».

وهو لا ينسى فى حديثه عن تعليم المرأة أن يميز بين التعليم الجاد الذى يطلبه لها ، وهو الذى يصبح فى حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها إيجابية ، ويطورها بتطور مجتمعها ، وبين ذلك التعليم الذى ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور.. ولذلك فهو ينتقد ما كان موجودا يومها من «تعليم» تتلقاه المرأة ، كى تظل به «متعة» أكثر جودة... فيقول :

«.. أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية ، وشيئا من الخياطة والتطريز ، والموسيق ، **ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت إليها** ، وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول : نهارك سعيد ، باللغة الفرنساوية ، فقد فاقت أترابها ، وارتفع شأنها ، وسما عقلها ، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضى حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قل ما تفيد إلا فى إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة إلى دخان السيجارة التى تقبض عليها !..

أكثر ما تعرفه المرأة ، التى يقال الآن أنها متعلمة ، هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى إليها ، وما بقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تتفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شىء . أين هذه القشور من **الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم** ؟ !»[٦٧] .

ذلك هو حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات.. وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم.. ومطلبه فى تعليم النساء..

* **وفى الحجاب** : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذى وصل إليه أمرها هذه الأيام.. وهو كذلك لم يطلب إباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم لها.. وإنما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفها

---

(٦٧) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

العامة والطبيعية والضرورية ، وحبذ الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعى منه وفق آراء الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذى تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته فى معترك كسب الرزق والحياة .. وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

«ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فإننى لاأزال أدافع عن الحجاب ، وأعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير أننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة.

والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهو الذى أدعو إليه ..» [68] .

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء ، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى ، عند نفر منهم ، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين.

* **وفى العمل** : تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعا لتطوره الفكرى إزاء تحرير المرأة .. وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث :

١ ـ فى البداية : وهى مرحلة كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤ م ، كان يطلب تعليم المرأة ، ويطلب كذلك أن تظل فى البيت ، خاصا بها ومختصة به ، وينتقد اشتغالها ، لا **بالوظائف العمومية** ، بل **وبالأعمال المدنية** التى يقوم بها الرجال .. وهو فى التعبير عن هذه الفكرة يقول :

«إننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن يجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه. فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى يبدو أنهن خلقن من أجلها ، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل

---

(٦٨) (تحرير المرأة). فصل : (حجاب النساء).

على العكس من ذلك . إن مشهد الأم المتفانية يملؤنى حنانا ، كما يحرك سرورى منظر الزوجة التى تعنى ببيتها ، فى حين أنى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على فى خطى الرجال ، ممسكة كتابا فى يدها ، وتهز ذراعى فى عنف ، وهى تصيح بى : «كيف حالك يا عزيزى ؟» بل لعلى أشعر بشىء غير بعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفات والسياسيات ـ (ولست أتحدث إلا عمن اتخذن حرفة الادب وتجارته) ـ هل هن حقيقة نساء ؟ وما هى أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتى رأين كل شىء ، وقرأن كل شىء ، وفعلن كل شىء ، واللاتى لم تعد وجوهن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتى ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟ ! .

إننى احتقر ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكننى نصير متحمس لأخذ المرأة **قدرا نسبيا من التعليم** . إننى أعنى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق ، يجب أن تعرف المرأة دائما ما يكفى لكى تلقن أبناءها مبادئ الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحا علميا للأشياء التى تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائما كيف تجيب ، دون أن تخطئ ، على تساؤلات الطفولة التى لا تنقطع .. »[٦٩] .

٢ ـ **وفى المرحلة الثانية** : مرحلة كتاب (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض تولى المرأة «**الوظائف العمومية**» ، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل الرجل «**جميع الأعمال المدنية**» .. علاوة على شئونها الخاصة .. ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله :

«إن الناظر فى الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة فى بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منها تتعلق **بعيشتها الخصوصية وحريتها** ، وأن الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة ، **وحصر الوظائف العمومية فى الرجال** ، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه ، إلى الآن ، التمدن فى أوربا ـ (لم تكن المرأة الأوربية قد نالت حقوقها السياسية بعد) ـ ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها ، وما من عاقل

(٦٩) (المصريون) . فصل : (النساء) .

يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة فى **جميع الأعمال المدنية** ـ ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل ـ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق»[٧٠] ..

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية ، اذا تعلمت ، لإجادة كل «**الأعمال المدنية**» التى تجيدها المرأة الغربية .. كما يرى فى ذلك عاملا هاما ينمى ثروة المجتمع ويدفع بتطوره إلى الأمام ، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مُسْتَغَل ، بل لقد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجال .. «فلأن النساء ، فى كل بلد ، يقدرن بنصف سكانه ، على الأقل فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفى .

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل ، مثل الغربية ، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة ، إلا جهلها وإهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم فى الأعمال الحيوية ، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك ، لا كما هى اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها ، ولكان ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه .. »[٧١] .

٣ ـ **وفى المرحلة الثالثة** : من تطوره الفكرى ، إزاء هذه القضية ، مرحلة كتابه (المرأة الجديدة) سنة ١٩٠٠ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة «**بالاشغال العمومية والوظائف العامة**» أى العمل السياسى ووظائفه العليا ، ولكنه يتقدم فكريا عن ذى قبل ، عندما يعلل للفروق القائمة بين الجنسين ، والتى أهلت الرجل ، دون المرأة ، لهذه الوظائف السياسية العليا ، فبعد أن كان يرى ذلك تقسيما فطريا وأبديا للعمل ، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين ، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه ، وهو الأمر الذى حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قرونا طويلة ، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران ، وهما فى الامكان ، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب .. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه ، فهى التى يقول فيها :

---

(٧٠) (تحرير المرأة) . فصل : (المرأة والامة) .

(٧١) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

«إنى ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية ، **لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الاشغال العمومية ، حجرا عاما مؤبدا ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية ..»**[٧٢] .

هكذا رأى قاسم أمين قضية «عمل» المرأة .. وهكذا تطور فكره إزاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م ..

* * *

والآن .. لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال .:

أية امرأة تلك التى ركز قاسم أمين حديثه عنها ؟؟

وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التى سعى لتحريرها ؟؟ ..

لقد سبق لنا وأثبتنا أن قاسم أمين كان داعية مصلحا يبشر بقيم المجتمع البورجوازى ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كى تتطور فتخلف عصر الاقطاع وراءها وتدخل إلى رحاب التنوير البورجوازى ... والآن نقول : **إن المرأة التى شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين ، هى ، فى الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التى كان ينتمى إليها . بنت الطبقة الوسطى ، التى كانت متميزة عن بنات الأرستقراطية الاقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركى والشركسى والانتساب لعناصر المتمصرين . والتى كانت متميزة كذلك عن بنات الفلاحين ..**

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصبا لطبقته الاجتماعية ، ولا انغلاقا على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية ، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل ، وان غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعى .. ولكن مبعث هذا الاهتمام أنه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الارستقراطية الزراعية ، فهن مثل طبقتهن غريبات عن روح هذه الأمة وقضاياها المصيرية ، يعشن كطبقتهن على هامش هذا المجتمع ، ولا صلة بينهما إلا صلة

(٧٢) (المرأة الجديدة) . فصل : (الواجب على المرأة لنفسها) .

الاستغلال الاقطاعى واستنزاف ريع الأرض من الفلاح ..

أما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف .. فلقد رآها قاسم أمين عضوا عاملا فى المجتمع وطاقة منتجة .. صحيح انها لا تقرأ ولا تكتب .. صحيح أنها غير «متعلمة» .. ولكن انخراطها فى الحياة العامة مع الرجل ، وفى مساواة له ، قد جعلها «**مثقفة**» بالخبرة والتجربة ، فهى ليست قيدا على تطور المجتمع إلى الأمام ، وإن تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها .. إن بينها وبين الرجل ، فى طبقتها ، مساواة إلى حد كبير ! .

أما امرأة الطبقة الوسطى فإنها كانت موضع أمل ، بل عليها ــ مثل طبقتها ــ تعلق الكثير من الآمال فى قيادة نهضة الأمة وتطورها .. ومع ذلك فهى وإن «**تعلمت**» إلا أنها بمقاييس «**الثقافة**» دون امرأة الريف والحرفيين والتجار ــ فهى الطاقة المعطلة حقا وتماما من بين النساء اللاتى تتعلق بهن آمال المصلحين ... ومن ثم فإن اتخاذ قضية تحريرها محوراً لقضية تحرير المرأة عموما هو أمر له ما يبرره ، خصوصا من مصلح مثل قاسم أمين ..

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا اذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين ..

فهو فى المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : «تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا فى الملبس والحلى . بل يمكن أن يقال : **إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ، وإن آخر طبقة من نساء الأمة وهى التى تسكن الارياف ، هى أكملهن عقلا ، بنسبة حالها .**

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركهما فى مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريبا . مع أننا نرى المرأة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة ، ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفن فى الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا»[٧٣] .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن «الحجاب» ، فيقول :

«وإذا أراد القارئ أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقى

---

(٧٣) (تحرير المرأة) . فصل : (تربية المرأة) .

للريب معه مجال ، فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله **تعلمت** وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها **تعليم** ، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب «البيانو» ، ولكنها **جاهلة بأطوار الحياة** ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وأن الثانية ، مع جهلها ، قد أحرزت **معارف** كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها وأن كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فإذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى»[٧٤] .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم يفدها الثقافة والمعارف والخبرات .. بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف والخبرات الخاصة بالحياة من العمل .. وما ذلك إلا لأن الأولى تعيش مجتمعا انفصاليا عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها ، فخاضا معا غمار الحياة ..

* * *

تلك هى أفكار قاسم أمين عن مشكلات المرأة الشرقية.. وآراؤه فى إصلاح أمرها..

وهذه هى المرأة التى من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير..

(٧٤) (تحرير المرأة). فصل : (حجاب النساء) .



فى التمدّن الإسلامى

[يجب أن نرجع إلى التمدن الإسلامى القديم ، لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ماكان فيه ، بل لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة .. لقد انتفعت به الإنسانية ، واستكملت ماكان ناقصا منها فى بعض أدوارها .. ولكن كثيرا من ظواهره لايمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .

إن علينا أن نزنه بميزان العقل ، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها ، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى مايستقبل من الزمان .

وعلينا كذلك أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ..]

قاسم أمين

نعنى « بالتمدن الإسلامى » ، هنا ، تلك الآراء والنظرات التى أبداها قاسم أمين عندما عرض « للدين » الإسلامى ، و « الحضارة » الإسلامية ، وموقفه من القضية الهامة التى طرحت فى عصره عندما اختلف الناس فى الإجابة على سؤال : هل نعود ـ ونحن ننهض ونستيقظ ـ إلى منابعنا الإسلامية نستوحيها ونحتذيها ؟ أم نجعل وطننا قطعة من أوربا فكرا وقيما وحضارة وعلما وعملا ؟..

وقاسم أمين لم يكن مصلحا إسلاميا ، وخلفيته الفكرية الإسلامية لاتؤهله لأن يكون كاتبا إسلاميا فضلا عن أن يكون مصلحا إسلاميا .. بل إن طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتى كانا ينأيان به عن أن يكون الكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين ، ولكنه كان ، مع ذلك ، غيورا على الإسلام ، وتستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين ، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت أعلام الحملة على الإسلام .. ولقد كانت هذه البضاعة رائجة فى عصره ، لأنه كان يشهد المد الاستعمارى الأوروبى على الشرق ، وهو المد الذى استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية فى العصر الوسيط ..

ولعل ذلك هو الذى جعل أغلب حديث قاسم أمين فى الإسلام ، ودفاعه عنه يأتى فى كتابه (المصريون) الذى رد به هجوم دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين .. وفى هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

« لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة وبحرصى على مراعاة اللياقة العامة ، غير أن على فى هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل اننى لأكاد اعتقد أنه هو

الذى كان حافزا على وضع كتابه ، ولهذا فإنى أستأذنه فى أن أخصص له بدورى عدة سطور »[٧٥] .

ونحن إذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الإسلامية فإننا نستطيع ، فى نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها فى عدد من النظرات والتقييمات ، منها ماهو صائب ومنها ماجاوزه الصواب ..

١ ـ فهناك ذلك التقييم الذى قدمه قاسم أمين لشخصية الإنسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضارى ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعى .. فهو فى المنهج يؤمن بوحدة القوانين التى تحكم التطور فى الظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية ، ويؤكد ـ كما سبق وعرضنا ـ على أن القوانين التى حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوربية ورقيها لابد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين .. ولكنه فى نظراته الإسلامية يسلك سبيلا مناقضا لمعطيات هذا المنهج فنراه يقدم للشخصية الإسلامية صورة تتبدى له فيها قسمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء وتجعل منها نسيجا انسانيا مختلفا اختلافا جذريا عن غيرها من الشخصيات فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية إلى ماهو أدخل فى التغاير « الطبيعى » بين المسلم وغير المسلم ..

والذى نعتقده سببا فى ذلك ، هو أن قاسم أمين قد جعل ماهو « واقع » « طبيعى وأبدى » وليس « عارضا » يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها ..

فهو ، مثلا يقول : «إن للمسلم أفكارا عن كل شىء تختلف عن أفكار الأوربى عن هذه الأشياء ، حتى أن مايلائم أحدهما لايلائم الثانى إلا نادرا »[٧٦] .

وانطلاقا من هذه المقولة يصور « شخصية المسلم » تصويرا يضع يدنا على ملامح « شخصية صوفية » متواكلة وانعزالية ، لاتربطها أية روابط بالواقع فى الحياة ، حتى أن أحدنا إذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة فى نفسه أو جيرانه ، بل وفى ذوات جماهير الناس فى عصر قاسم أمين ، فإنه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن

---

(٧٥) (المصريون) . فصل : (الدين) .
(٧٦) (المصريون) . فصل : (الدين) .

جماهير المسلمين.. ويكفى لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم، حيث يقول:

«المسلم: أولا لاينتظر سعادته فى هذه الحياة، إن له، أيا كان فكره، عالما خياليا تذهب إليه أحلامه طواعية، ويفضله على الواقع مهما كان ساحرا، فهو، بعامة، لايبالى كثيرا بكل مايجتذب الأوروبى ويستحوذ على مشاعره. وإذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض السحرية الجذابة، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانا كبيرا فى حياة الغربيين فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم.

وكما أن المسلم. بعامة. لايقدر السعادة التى يبحث غيره عنها فى هذا العالم، فإنه لايؤمن بإمكان تحققها على الأرض، ومن هنا يعتكف فى عالم أحلامه التى تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره. عزوفا عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التى يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم. وهذا مايجعله يبدو جادا صموتا سوداوى المزاج.

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وسائل الاداء، ويهرب من العالم. لأنه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر، ولايهوى كثرة الكسب حرصا على ضمان شرف الوسائل، وهو فى الواقع يحمل احتقارا عميقا لهذا المعدن الخسيس ـ (الذهب ـ النقد) ـ ولعله لهذا ينفقه دون ندم، وقد ضاعت ثروات كثرة من المسلمين فى اندفاعهم لنجدة إخوانهم. فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود؟.. وإذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا، فلست أعرف مسلما واحدا يقرض ويأخذ ربا على ذلك. ولعل الشيء الذى لايكاد يصدق هو أنه لايرى فى اللذة الجنسية إلا اشباعا سفيها لإحدى الحاجات الجسدية، حتى أن فنون الهوى التى أبدعها العشاق العباقرة، والتى يهتم بها الغربيون، لاتحدث أثرا فى نفوس المسلمين الانقياء!»[٧٧].

هكذا صور قاسم أمين «الشخصية العامة» «لعامة المسلمين.. وهى صورة أقل مايقال فى نقدها: أنها أخذت ماهو جزئى ونادر وشاذ فجعلته عاما وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الإسلامية، ومن هنا جاءت أشبه ماتكون بصورة يرسمها «سائح» عابر سبيل، رغم أنها قد جاءت فى كتاب يرد به قاسم على «سائح» وينتقد فيه منهج

(٧٧) (المصريون). فصل: (الاخلاق).

« السائحين » فى رسم وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التى فيها يسيحون !

٢ ـ أما الإسلام ، كدين ، فإن فهم قاسم أمين له كان فهما بسيطا وجيدا فى ذات الوقت . فهو يرى أن الكثير مما أضيف إلى الدين ، بمرور العصور ، الدين منه برىء فالجانب « الدينى » فى « الحضارة الإسلامية » محدود ومحدد ، لأن الإسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة اصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التى سبقته إلى الظهور ، وبعبارته هو : « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت دينية بأقل مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبى ، ببساطة إصلاح المسيحية بإنقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير كما أراد ادانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والإغريقية » .. [٧٨] .

هكذا ، ببساطة وعمق ، الإسلام كدين ..

وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط ان يذهبوا إلى مصدره الأوثق : القرآن ، ثم إلى قلة من الأحاديث الصحيحة التى تجمع عدة شروط : شرط الصحة رواية .. وشرط تعلقها بأمور الدين ، بأن تكون تفسيرا لمجمل فى القرآن مثلا .. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته .. أما ماعدا ذلك من الأحاديث ، حتى ماصح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شئون الدنيا ، فهو ليس من الدين .. ذلك « أن أقوال النبى لاتشكل جزءا من الدين ، ومن الطبيعى أن ننحى من هذه الأقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية والحكم الفلسفية التى تتضمن ، دون شك ، نصائح قيمة ، ولكنها لاتشكل التزامات وواجبات دينية .. كما يجب أن ننحى أيضا كل ماليس له علاقة بالفقه والتشريع . وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل التوجيهات التى يتضمنها القرآن الكريم ، والتى لاتعد جزءا من الدين إلا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه .. » [٧٩] .

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم والعلماء ، حتى من اختلف منهم مع أصوله ومعطياته ، إذ « لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الإسلامى أن ثارت

---

(٧٨) (المصريون) . فصل : (الدين) .

(٧٩) (المصريون) . فصل : (الاسلام والتعليم) .

حرب ضد العلم ، وقد عانى من أشد النظريات مادية ، فلم يسئ أبدا معاملة واحد من العلماء ، وقد أذن لكل المعتقدات أن تحيا جنبا إلى جنب » ..[٨٠] .

ومن هنا ، ولهذا الفهم المستنير الذى فهم به قاسم أمين الدين الإسلامى ، كانت اشارته الهامة إلى تلك الامكانيات الغير محدودة المفتوحة أمام انتشار الإسلام فى أوروبا .. فالنهضة والاستنارة والعقلانية التى سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لايتلاءم مع أهلها إلا دين يتميز بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد فى الغيبيات .. وهذا الدين هو الإسلام ..

ولقد كان قاسم أمين ، برأيه هذا ، يشارك عددا من المستشرقين والأوربيين الذين دخلوا الإسلام ، وآخرون منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا أن الاصلاح الدينى البروتستانتى هو استعارة واستفادة جزئية من روح الإسلام وتعاليمه ، وأن خط سير أوربا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيريها شيئا فشيئا إلى الإسلام ..

أما عباراته التى صاغ فيها فكرته هذه فهى التى تقول :

« انى ابعد ما أكون عن التعصب ، غير انى اعتقد **أن الاسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة واحدة ، ذلك أن الإسلام ببساطته وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبإيجابيته الخلقية ، وإمكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات ، وبتسامحه الكبير الذى يتميز به ، يجمع ، فى رأيى ، مؤهلات تكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله** . وذلك هو ما اعتقد أنه الحلم الذى كان يطمح إليه القرآن والذى أوشك أن يتحقق فى إحدى اللحظات ، ذلك أنه دين الفطرة فى شكله البسيط ، المؤهل لإرضاء الجزء الأعظم من البشرية التى لاتستطيع ، رغم كل شىء ، أن تقبل الحياة دون أن يعشش فى وجدانها أمل خيالى رائع ![٨١] ... إن الإسلام الذى ظل طويلا يمثل القوة والنور فى العالم كله ، مايزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة !.. »[٨٢].

هذا عن الإسلام كدين ..

---

(٨٠) (المصريون) . فصل : (الاسلام والتعليم) .

(٨١) (المصريون) . فصل : (الاسلام والتعليم) .

(٨٢) (المصريون) . فصل : (العلوم والآداب)

٣ـ ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الإسلام .. وهذا الواقع البائس يتمثل عنده فى « الفقهاء ورجال الدين » ..

صحيح أن الإسلام ليس به « سلطة دينية » ، ومن ثم فليس به مايسمى « رجل الدين » ، وكما يقول : « فإننا لانملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التى تسمى الكنيسة وليس هناك شىء يمثل السلطة الدينية وسطنا . إن كل مسلم هو نفسه سلطان روحه. **وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليس لهم من السلطة إلا مانعترف به نحن لمعارفهم** »[٨٣] .

ولكن هذا المبدأ الإسلامى الجوهرى الرائع شىء والتطبيق الواقعى شىء آخر ، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى فى أمور كثيرة ، قلدناهم فى ظهور فئة من « علماء » الدين امتهنوا الدين مهنة ، فتحولوا ، عمليا إلى « رجال » دين !.. ثم كان لهم ، تاريخيا ، الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين كما يقول قاسم أمين مصورا الدور السلبى الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا الحضارى .. « فلقد أسست المدنية الإسلامية على الأساس الدينى والأساس العلمى ... ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لايؤيد أكثرها بشىء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية ، وانتقدوها ... ومازالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية ، بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها إنها لابد أن تقف عند حد لايجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقرروا أن ماوضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدى الذى لايجوز لأحد أن يخالفه ! »[٨٤] .

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحى حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر وفعل فعله فى عدد عديد من الدوائر الفكرية ، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الدينى الرسمية ... وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء عندما يقول :

« ... ذلك هو الحال الذى تردى فيه بعض شيوخنا ، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا

---

(٨٣) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .

(٨٤) (المرأة الجديدة) . فصل : (التربية والحجاب) .

وصفا تفصيليا عن السماء والجنة والنار توحى لنا دقته بالإيمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية بينما هم يجهلون كل شيء عن الأرض ! .. وليس فى هذا مايثير الدهشة ، ذلك أنهم بدلا من أن ينظروا إلى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم ، نجدهم لايجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية ، ولايوسعون أبدا نطاق دراساتهم ، ولذلك **فإن هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليل** وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها ، وينصبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية ، ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقائه وحسن تطبيقه .. إن هؤلاء ليسوا إلا أدعياء شديدى الوقاحة ، يخنقون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للافلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية .. إننى أعلن ، مع ذلك ، ضرورة ادخال اصلاح محدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية ، حتى يستطيعوا بوساطة التعليم أن ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين ، وان يرشدوهم إلى طريق العودة إلى بساطة قواعد الإسلام الخمسة ، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الإسلام فى جميع أرجاء العالم ، ومازال وحدها قادرة على انقاذه من كارثة مدمرة ...»[٨٥] .

٤ ـ أما الحضارة الإسلامية ، وبالذات التنظيم السياسى فى هذه الحضارة ، فلقد اختلف ازاءه موقف قاسم أمين ، أو تغير وتطور فى تقييمه لهذا الجانب من جوانبها .. ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتى بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف وايضا كبديل للأخذ بالنمط الأوربى الذى جاء إلى الشرق فى ركاب الغزاة ؟.

فنحن نلمح قاسم أمين فى مرحلة كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤م يميل إلى وجود «**تنظيم ونظام سياسى إسلامى**» ، كقسمة فى حضارتنا الإسلامية ، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم إلى تطابق نظامهم السياسى مع تعاليم دينهم ، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء .. فالعيب هنا ، كما يراه ، ليس فى النظامات السياسية .. فهو يقرر «ان المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم **تنظيم سياسى إسلامى** ، وبخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقتين مع الاخلاقيات والوصايا الإسلامية التى بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا

(٨٥) (المصريون) . فصل : (الاسلام والتعليم) .

عنها . ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم الإسلامى لوضعت إهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك ..»[٨٦] .

ولكنه يرجع عن هذا الرأى فى مرحلة كتابيه (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م و(المرأة الجديدة) سنة ١٩٠٠م فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظامات السياسية اصلا فى مجتمعاتهم وتاريخهم ، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة فى تاريخهم إلى افتقادهم هذه النظامات .. فيقول مثلا :

« تجردت الجمعيات الإسلامية - (أى المجتمعات) - على اختلاف الأزمان والأماكن من **النظامات السياسية** التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما .. وأساء حكامها فى التصرف .. بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ، ولايستثنى منهم إلا عدد قليل لايكاد يذكر بالنسبة إلى غالبيتهم ..»[٨٧] .

ثم يعود إلى تقرير نفس الفكرة فى مرحلة تالية ومكان آخر فيقول :

« ... وأما من جهة **النظامات السياسية** ، فإننا مهما دققنا البحث فى التاريخ - (الإسلامى) - لانجد عند أهل تلك العصور مايستحق أن يسمى نظاما ، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين ... ربما يقال : إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة ، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر.

ونحن لاننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لايتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر...

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا إلى ماوصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى ادارة شئونها .

---

(٨٦) (المصريون) . فصل : (الدين) .

(٨٧) (تحرير المرأة) . فصل : (التمهيد) .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع **قانون يبين الأعمال التى وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددون العقوبات عليها** ، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة ..

ولست محتاجا أن أقول : **إنهم ماكانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية** ... فإذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟! »[٨٨] .

ونحن نعتقد أن هذا التقييم الذى أعطاه قاسم أمين لقسمة النظامات السياسية فى حضارتنا هو تقييم ظالم غريب جانب صاحبه الصواب .. كما نعتقد أن الأسباب التى تكمن وراء ذلك أهمها :

أ ــ أنه لم يفرق ويميز بين « الحضارة » وبين « التاريخ » .. ففى حضارتنا فكر سياسى وضع قواعد للشورى ، وأشار إلى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل بين السلطات ، وأعطى توصيفا وتحديدا رائعا للجرائم والعقوبات ..

ويكفى أن ندلل على خطأ قاسم أمين ، هنا ، وهو ينفى أن يكون المسلمون قد وضعوا قانونا يحدد الجرائم والعقوبات ، بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الإسلامى عندما أشار فى كتاب (المصريون) إلى أصالة هذا الفقه ، ووصفه بأنه « **أعظم نصب اقامة العقل البشرى** » ونفى أن يكون منقولا عن القانون الرومانى ، وأكد « أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول »[٨٩] .

لكن قاسم أمين نظر فى « التاريخ » ، والتاريخ السياسى بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردى بالحكم تغطى المساحات الشاسعة من قرون الحكم الإسلامى والبلاد الإسلامية ، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضارى وابداعها فى السياسة والنظم السياسة والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق ..

ب ــ لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التى استمرت طوال عصور التاريخ الإسلامى تجاهد كى تضع فى التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرى فى القانون والشورى والعدل الاجتماعى .. ولو أنه التفت إلى

---

(٨٨) (المرأة الجديدة) . فصل : (التربية والحجاب) . هذه الاعمال .
(٨٩) (المصريون) . فصل : (الاسلام والتعليم) .

دراسة هذه القسمة لرأى أشياء أخرى مشرقة تقف إلى جانب ظلمات الحكم الاستبدادى الذى عرفه هذا التاريخ.

جـ - وأخيرا .. فلو اتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة فى الفكر الاقتصادى، وماكتبه علماؤها فى (الأموال والخراج) لرأى جذورا عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحا نحو العدل والانصاف، ولما قال: إن المسلمين «لم يعرفوا شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية!» ..

بل لو قد اطلع على قوائم عناوين تراثنا فى الفكر السياسى والاقتصادى - قوائم العناوين فقط - لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام؟!.

٥ - أما قسمة (الفكر الاجتماعى) فى الحضارة الإسلامية والتمدن الإسلامى فإن قاسم أمين يعجب بها كل الأعجاب، كما أن رؤيته لها تستحق هى الأخرى منا التقدير والإعجاب ..

فهو يرى أن الإسلام يتميز بالانحياز إلى «نوع من الجماعية» و «الاشتراكية» قد اقامه على رفض «الفردية» التى أشعلت بغضاء الصراع الطبقى فى المجتمعات الأوربية، وعلى استبدال هذه «الفردية» بتقريره «اشتراك» الأمة فى ثرواتها، وبالتحديد «اشتراك» الفقراء فى الأموال التى هى فى حوزة الأغنياء .. وبسبب من هذه الفلسفة التى هى محور الموقف الاجتماعى للإسلام فإن «العمل» هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادى وان الشعار - الاشتراكى - القائل: «من كل حسب عمله»، هو شعار إسلامى تماما ومقبول من المسلمين بالتأكيد .. وبسبب من هذه الفلسفة ايضا فإن الإسلام يرفض الحواجز الطبقية التى عرفتها وتعرفها المجتمعات التى فرقتها الملكية والامتيازات إلى طبقات ثابتة، كما يرفض أن تكون الوراثة أو الثروة معيارا يحل محل العمل فى كسب الجاه أو النفوذ ..

«فالاسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة. وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام ... فليس من العدالة أن تكون صدفة الميلاد فى إحدى البيئات مصدرا لوضع متميز ... لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين، والقائل: (من كل حسب عمله) وسيبقى، دائما شعارنا، أننا جميعا ابناء اعمالنا ... لقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء. وهذا - كما هو واضح - حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية.

أو لا ترى فى مثل هذا الدستور مايوفق بين المصالح ، ومايهدئ جميع الخواطر ، أليست هذه الاشتراكية أكثر سموا وأقرب إلى الواقع العملى من تلك النظم التى تتحدث عنها أوربا ، والتى يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟.. إننى أشهد فى أوربا نفوسا حائرة ، وعقولا قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتتراءى اعراض زلزال هائل رهيب .. ان أى مجتمع إسلامى لايمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديمقراطى ، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والاخاء .. ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية ، فى أوربا ، والتى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامة . فالكل داخل فى الكل ، وامتزاج الطبقات كامل ..

أو يمكن بعد أن يعرف الإنسان كل ذلك أن يتذوق شيئاً آخر ويحبه ؟!»[٩٠] .

فهو هنا لا يسوى بين « جماعية الاسلام واشتراكيته » وبين نظيرهما فى الفكر الاوروبى ، بل يميز بينهما ، ويفضل المنطلق الاسلامى لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته ــ فلسفة الاسلام ــ فى هذا الميدان ..

٦ ــ واخيرا .. نأتى إلى تلك النقطة الهامة فى فكر قاسم أمين عن « التمدن الاسلامى » .. والخاصة بالموقف من « نوع » الحضارة التى يدعو إليها قومه ، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف « المملوكى ــ العثمانى » ، ويشير باعتمادها نمطا للتقدم والتطور ..

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمرارا لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذى بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر .. ومعلوم كذلك ان دعاة النهضة كانت تتوزعهم دعوتان اساسيتان :

الاولى : ترمى الى الاخذ بنمط الحضارة الغربية كاملا . وتستهدف جعل مصر ــ ومن ثم الشرق ــ قطعة من أوربا ..

والثانية : ترمى إلى الاستفادة من « أدوات » النهضة والحضارة الاوربية ، مع جعل منطلقاتنا عربية اسلامية ، وطابعنا عربيا اسلاميا ، وبناء حضارة عربية اسلامية معاصرة ومتطورة ، تتميز كثيرا عن حضارة الأوربيين .....

ولقد بدأ قاسم أمين ميالا ، وإن يكن فى تردد شديد ، إلى التيار الثانى ، ثم عاد فانخرط تماما فى سلك دعاة التيار الأول ..

---

(٩٠) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .

فهو فى مرحلة كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤ م يقارن بين الحضارة الاوربية وبين الحضارة الاسلامية ، ثم يحكم بأن الظفر انما هو من نصيب الحضارة الاسلامية الاصيلة .. يقول : انه « اذا كانت توجد اليوم حضارة اسلامية خالصة الى جانب الحضارة الأوربية فإن الاصالة هى الظافرة ! » [٩١] .

ثم يعود فيتردد فى الاختيار بين الحضارتين ، وبخاصة عندما يكون المقام خاصا بالحديث عن « الاختيار » والبدائل المطروحة امام النهضة المصرية .. يتردد ، ولكنه ينبه الى أن مصر قد اختارت ، بالفعل ، النمط الأوربى ، وأن العودة عنه تكاد تدخل فى عداد المستحيلات .. ذلك أن أمام مصر طريقين : **العودة** إلى تقاليد الإسلام ، أو **محاكاة** أوربا . وقد اختارت الطريق الثانى .

وليس على ان أحكم على جدارة هذا الاختيار . لقد مضت فى أثر حركة الحضارة الاوربية التى تجتاح كل مكان ، والتى **تبدو استحالة مقاومتها** .. انها قد خطت اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى **ليصعب عليها الارتداد عنه** . ان مصر تتحول الى بلد أوربى بطريقة تثير الدهشة ، وقد أخذت اداراتها وابنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوربى ، إنها تهتم بكل ماتكتبه أوربا أو تفعله ، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوربا صداها هنا ..» [٩٢] .

وفى مرحلة كتاب (المرأة الجديدة) سنة ١٩٠٠م يحسم قاسم أمين هذا التردد ، وذلك عندما يقرر ان التمدن الاسلامى ليس فيه ، حضاريا ، ما يصلح للعطاء المعاصر ، وان دراستنا له يجب ان تستهدف الدراسة التاريخية ، للتقييم ، وكشف الجذور ، والاستفادة من الاخطاء حتى لا تتكرر .. اما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضارى الذى ساد فى تلك العصور .. يقول :

« انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه ، **لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة** ، ويجب عليه ان يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ماكان ناقصا فى بعض ادوارها ، **ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .... يجب علينا ان نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم** ، **ونرجع إليه ، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ماكان فيه سواء**

---

(٩١) (المصريون) . فصل : (الدين) .

(٩٢) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .

بسواء ، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى مايستقبل من الزمان .. » .

ثم يزيد الامر وضوحا عندما يقول :

« ان تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر ، ولايوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير، كأن كُلاًّ منا يناجى نفسه قائلا لها: اتركى الفكر والعمل والعناء ، واستريحى فليس فى الامكان ان نأتى بأبدع مما كان ! .

هذا هو الداء الذى يلزم ان نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصلها وفروعها وآثارها ! »(٩٣) .

* * *

تلك هى أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه « التمدن الاسلامى » .. وهى أفكار ونظـرات جمعت بين ماهو خطأ وماهو صواب ، وشهد بعضها تطورا من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب !.

(٩٣) (المرأة الجديدة) . فصل : (التربية والحجاب) .

مصر والمصرية .. والمصريون

[إن المصريين ـ مسلمين وأقباطا ـ ينتمون إلى جنس واحد .. والمصرى لايرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات لأن السلطة أفقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها !.. إنه لاتنقصه القوة الجسدية ، ولا الطاقة المعنوية .. إن مايحتاج إليه هو النهوض والتوجيه السليم لكى يصبح قوة عظمى ..

وليس يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ..]

قاسم أمين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد .. فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن المسلمين هم اقباط اسلموا ، وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئ النية ! ..

وهو يؤمن كذلك ان اختلاف المصريين فى الدين لم يكن له تأثير فى يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة . تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التى تجمعهم جميعا بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات .. فعنده ان « من المؤكد ان المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن ، وبخاصة فى الريف . ليسوا من نسل العرب . **وليسوا عربا إلا باللغة والدين** ، وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية . وإننى أومن – وهو ماتؤكده الملاحظة أيضا – أن المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطا اعتنقوا الدين الإسلامى ...

ويشكل المسلمون والاقباط – رغم اختلاف الدين – كلا متناسقا يتحدث نفس اللغة ويرتدى نفس الثياب . ويمارس نفس العادات . ولم يحدث قط منذ بدأوا يعيشون معا جنبا إلى جنب ان وقع بينهم خلاف جاد . لقد ربطت المآسى المشتركة بينهم **بعاطفة وطنية** . جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق الاختلافات الدينية . ويكفى أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا . **بأن الاقباط أثناء ثورة عرابى كانوا يسيرون مع المسلمين يدا فى يد . وانه لم يطف بخيال مسلم ايامها ان يحرك القلق فى قلب قبطى . بينما وصف المسلمون الاتراك والشركس بأنهم أعداء مصر !** »(٩٤) .

فنحن هنا بازاء شعب واحد . تربط ابناءه جميعا روابط الوطنية بمعناها الحديث ..

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التى شهدتها مصر منذ حكم محمد على فى تكوين

---

(٩٤) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .

هذا « الوطن » المصرى الحديث .. فى ظل هذه النهضة قامت « الدولة المدنية » الحديثة وبرزت « حقوق المواطنة » لكل المصريين كرباط يعلو على غيره من الروابط الاعتقادية .. وفى ظلها كذلك أطلق العنان ، إلى حد كبير ، لملكات الإنسان المصرى فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضارى العريق فى كل الميادين .. وبسبب كل ذلك عرف الإنسان المصرى معنى الافتخار الوطنى والاعتزاز بالوطن .. مما جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بما له من طاقات وما أحرز ويحرز من انجازات .

« ... **فيوم تشكل الوطن المصرى ، أو وطن المصريين على يد محمد على الطيبة** ، لم يبخل المصريون بدمهم فى سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن .. ان المصرى ليس جبانا البتة ، وانه لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه ، حتى ظن انه مخلوق لمعاناة نزواتها . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية ، ان ما يحتاج اليه هو النهوض ، والتوجيه السليم لكى يصبح قوة عظمى »[٩٥] .

وان تلك الاهانات والمظالم التى توقعها السلطة الجائرة بالانسان المصرى ، يجب ــ فى رأى قاسم أمين ــ ألا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن إدراك الجوهر الحقيق والرائع لذلك الانسان المصرى الأصيل .. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام ، ولكنه أبدا لا يغيب ولا يذوب ولا يزول .. « صحيح أننا ما نزال نعرف شقاء كبيرا فى ريفنا ، فالفلاحون والاطفال يعيشون فى حالة حرمان من النظافة وفى إملاق مثير للشفقة .. **غير انه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفا دائما ، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم ، وغالبا ما تشمخ فوق هذا الجسد ــ كما تشمخ الزهرة ــ رأس ذكية !** »[٩٦] .

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين إلى أن يدعو قومه إلى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف اصلاحه وتطويره ، وما بين ذلك النقد الهادف إلى الاستعلاء على الوطن والبراءة من الانتساب الى « المصرية » .. فقال قولته الرائعة :

« **انه لا يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالاسف والحنو !** » .

وهذا « الغضب » يعنى عنده أن ننهض نحن « بانتقاد عيوبنا بنفسنا ، وعدم اخفاء شىء

---

(٩٥) (المصريون) . فصل : (كفاءة المصريين القتالية) .
(٩٦) (المصريون) . فصل : (المصرى) .

منها ، حتى لانغفل عن تلافيها ، إذ ذلك أولى من أن يلقيها يوما فى وجهنا عدو لنا ! »[٩٧] .

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن وأهله ، محتجين بأن لهم أصولا ـ تركية أو عربية ـ غير مصرية فإن قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم ، ويراهم خارجين على الواجب الذى يقتضى احترام جوهريات القومية وقسماتها الأساسية .. يقول : ذلك « لأن أهم شىء يحفظ الامم ويزيد رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية ، مثل : الدين ، والوطن ، والسلطة العمومية ، والعائلة ، والعلم ، والفضيلة ، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع ....

ونحن معاشر المصريين ، وياللاسف ! ، لا نحترم وطننا ، ولا نعرفه ، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ، ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن ان يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال ، وفاتنا **ان كل عيب منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا** ، حتى ان كلمة (فلاح) ، التى كان الاتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى ، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا .

ومن هذا القبيل أيضا نرى بعض الاشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها ، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم ، ولم يبق لهم أمل فى العودة اليها ، يجتهدون دائما أن يثبتوا انهم من اصل تركى أو سورى أو عربى ، ولا يكادون يعترفون ـ وخصوصا امام الاجانب ـ انهم من أبناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها ..

وبديهى ان المصريين لوكانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر احد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه ! »[٩٨] .

وهذا الحس المصرى الصادق الذى تميز به قاسم أمين ، لا تجد فيه شائبة تشير الى أصله التركى ـ كما هو واضح من عباراته السالفة ـ بل انه يؤكد ان التعلق « بالتركية والاتراك » هو محض وهم ، لأن العناصر التركية التى استقرت بمصر قد ذبل دورها ، وفقدت دورها المستقل فى المجتمع ، « فهذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب فى المصريين [٩٩] .

كما ان هذا الحس الوطنى الصادق لم يجعله يتخذ الموقف « المتعصب » الذى ينكر مزايا

---

(٩٧) (اسباب ونتائج) . مقال : (عيوب تربيتنا : احساس الاحترام) .

(٩٨) (اسباب ونتائج) مقال : (عيوب تربيتنا : احساس الاحترام) .

(٩٩) (المصريون) فصل : (المجتمع المصرى) .

الآخرين .. فهو يذكر لبعض الاوربيين ، الذين خدموا مصر ، فضلهم فى تنوير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء(١٠٠) .

ويذكر للاتراك ــ رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها ــ ما استفادته منهم « الأمة المصرية » ، فلقد « وجدت فيهم انسانية راقية ، فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفنن فى الملبس والمأكل ، وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الادبية .. »

ويلفت النظر الى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات . ويرجعه الى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة(١٠١) ..

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية . والى نفر من الأوربيين الذين كان همهم الاول « جمع الثروات فى أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك » عن مصر ، دون أن « تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلى » الذى قام به اليهود فى استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيفوا إليه إنتاجا يوازى مايحصلونه من أرباح ، فيقول عنهم : إن « اليهودْ يشكلون أكثر أجزاء السكان ــ (فى مصر) ــ استفادة ، فهم ــ عدا استثناءات قليلة ــ لاينتجون شيئا ، ويجنون مع ذلك أرباحا كثيرة ..»(١٠٢) .
وهو بذلك يدرك وينبه إلى حقيقة أنهم إنما يهتمون بالكسب من المهن « الوسيطة » والسمسرة و « العمولات » ، ولايقبلون على المخاطرة بتوظيف أموالهم فى مشاريع الإنتاج ..

* * *

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذى أعطاه قاسم أمين لمصطلح « الوطنية » .. ولتحديده أن الوطن المصرى قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلائقها فى ظل النهضة الحديثة التى أقامتها تجربة محمد على .. لكل ذلك كان تقييمه لهذه التجربة امرا يستحق منا إلقاء بعض الاضواء ..

ويزيد ذلك الامر أهمية ان قاسم أمين هو واحد من مدرسة الامام محمد عبده الفكرية ولقد كانت لمحمد عبده آراء فى محمد على وتجربته شوهت الكثير من ايجابيات تلك التجربة

---

(١٠٠) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .
(١٠١) (كلمات) .
(١٠٢) (المصريون) . فصل : (المجتمع المصرى) .

بسبب ذلك الصراع الذى قام بين الأستاذ الامام وتياره الفكرى وبين الخديوى عباس حلمى والاسرة الحاكمة .. ومع ذلك فإن قاسم أمين قد قيم تجربة محمد على تقييما ايجابيا ، وكان منصفا فى عرض منجزاتها الوطنية كل الانصاف ..

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التى ظهر فيها « الوطن المصرى الحديث » .. والمناخ الصالح الذى أظهر الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطنى المصرى ... ويرى فى القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذى ظل يمارسه محمد على السلبية الأساسية التى شابت روعة هذه التجربة الحضارية ..

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر فى عهد محمد على ، وبين ما أصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه الذين فرطوا فى الميراث الغنى الذى خلفه لهم مؤسس هذه التجربة .. وان كان لا ينسى ان يذكر للخديوى اسماعيل فضله على التعليم والرى والانشاءات ، وانجازاته الشورية والدستورية ، وهو الفضل والانجازات التى غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت التكأة للاجنبى كى يطمع فى احتلال البلاد ..

كما استطرد قاسم أمين ـ فى تقييمه تجربة مصر الحديثة ـ الى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م) ، فرآها ـ وهو الاصلاحى الرافض للثورة كطريق للتغيير ـ خطأ دفع إليه تعجل الأمة تحقيق الاصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد ! [١٠٣] .

انه ليكفى فى الدلالة على الموقف الايجابى ـ لقاسم أمين ـ فى تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه انه قد حكم بالادانة على كل فترات تاريخها مابين عصر ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر ـ وهذا العصر الذى قام فيه حكم محمد على .. وهو فى كل ذلك يقول :

« لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الانواع ... فى الفترة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب **وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على . لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظاما واعتدالا ، ففتحت المدارس ـ وانتظم التجنيد فى الجيش ـ وأنشئت الاساطيل ـ وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ، وأخذت تتطور جميعا ـ وحفرت القنوات ، وعبدت الطرق ـ وفى كلمة واحدة : أقيمت حكومة حقيقية .**

صحيح أن بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن لآخر ، غير أن الناس كانوا

(١٠٣) (المصريون) ـ فصل : (الحكومة) .

سريعى المغفرة لمحمد على ، وكانت الانجازات الطبية التى يحققها والتى يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة ، وكان ينظر اليه كوالد شديد القسوة ، لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة المعاملة ! .

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون ولحكم أنفسهم بأنفسهم . وكانت التجربة فى صالحهم ولخيرهم ... وقد أدهشوا العالم الذى ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون !...»[١٠٤] .

« ان مصر قد ايقظها ـ بعنف من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن ، واذاقها رحيق العلوم ، فأخذت تتمثله فى نشوة ، ومن يومها وهى مقبلة على التعليم . وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهى تتجه إليه فى خطى وئيدة ، ولكنها ثابتة ودؤوبة ...»[١٠٥] .

* * *

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيد .. وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التى نشأ فيها « الوطن » المصرى و « الوطنية » المصرية بمعناها الحديث .... ولعل فى نصوصه الواضحة والحاسمة التى قدمناها هنا ما ينفى أية شبهات يحاول البعض إلقاءها على هذا الجانب من تفكيره ..

---

(١٠٤) (المصريون) . فصل : (الحكومة) .

(١٠٥) (المصريون) . فصل : (العلوم والآداب) .



فى الوطنية

[إن التمدن الأوربى يطأ بقدمه جميع أنحاء المسكونة ويستولى على منابع الثروة فيها ، بقوة العقل أو بالعنف .. وإذا صادف أمة متوحشة أبادها أو أجلاها عن ديارها .. وإذا صادف أمة كأمتنا ، لها نوع من المدنية ودين وشرائع وأخلاق ، عاملها بالمعروف ... لكن لايمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة . ولاسبيل أمامنا للنجاة إلا أن نستعد لهذا القتال ، مستجمعين من القوة مايساوى القوة التى تهاجمها .

إن أمام مصر عقبة رهيبة هى أوربا .. لقد حاربناها طويلا من أجل استعادة مكاننا فى العالم ..]

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحدا من أبناء المدرسة السياسية التى تكونت من حول الإمام محمد عبده .. يؤمن ابناؤها « بالاصلاح » طريقا للتقدم والتطور ، ويرفضون « الثورة ».. ويعلقون الآمال على « الصفوة المستنيرة » و« النخبة المختارة » وليس على « العامة والجماهير » .. وهذه « الصفوة » عندهم معيارها « الاستنارة الفكرية » ، وليس الوضع الطبقى والثروة المالية والجاه الموروث ..

وفى ظل الاحتلال البريطانى لمصر ، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لابد لمن يريد « الاصلاح » أن يتعامل معه ويدخل واياه فى علاقات .. وبسبب من منهج « الاصلاح التدريجى » الذى اتبعته هذه المدرسة فإنها لم تطرح قضية الجلاء الفورى للمحتل عن البلاد كشعار لها ، لأنها كانت تؤمن بأن « الصفوة » التى لابد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد ، ومن ثم كانت ترى أن « الجلاء الفورى » ـ حتى مع افتراض تحققه ـ سينقل السلطة الكاملة إلى الخديوى ـ وهم يناوئون حكمه وأسرته إلى حد ما ـ أو إلى الدولة العثمانية ، وهم ضد عودة سلطانها إلى مصر ، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة ، وبعضهم يؤمن « بالقومية » المصرية بالمعنى العصرى والحديث ..

ومن هنا مثلت هذه المدرسة ، فى السياسة ، تيارا معتدلا .. تهادن مع الاحتلال وتعامل معه ، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والاصلاحات العصرية التى أراد المحتل بتطبيقها تحقيق مصالحه ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والاصلاحات فى تكوين هذه « الصفوة » المستنيرة ، ومناوأة التيار الفكرى المتخلف والمتمسك بفكرية العصور « المملوكية ـ العثمانية » فى فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة ..

أى أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطنى الداعى إلى « الجلاء

الفورى » .. وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) والحزب الوطنى .. وهو الذى كان أكثر شعبية وأقرب إلى « الثورية » ، وأصدق فى التعبير عن الموقف الوطنى النسليم .. كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال ، واليائسين من حصول مصر على الاستقلال والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة ..

كان قاسم أمين واحدا من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة .. وإن لم تكن السياسة بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم ..

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة « المعتدلين » عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعى نيابى حقيقى ، فيقول : لقد « باتت كثرة من **المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم** » تطلب قيام هذا المجلس ، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة فيقول : « غير أننا نود ، بالطبع نظاما تكون فيه الغلبة **للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى !** »[١٠٦] .

ولقد فرض هذا « الاعتدال » على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب « الاثارة الثورية » الذى استخدمه مصطفى كامل فى بعث الروح الوطنية واذكائها فى نفوس المصريين .. فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى كامل بأنها « نوبات صرع ! » .. كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن « الوطنية » ، ودخوله فى كل شىء فى البلاد ، على حين أن ذلك ـ من وجهة نظره ـ ليس ضروريا لإثبات حبنا للوطن اليوم ، كما لم يكن ضروريا لإثبات حب الوطن عند الآباء والاجداد .. « فمنذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟.. عاش آباؤنا ، وتعلموا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة . **أما الآن فأينما قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع إلا : حب الوطن والغيرة الوطنية ، والتفانى فى خدمة الوطن ، والجريدة الوطنية ، والمدرسة الوطنية ، وحزب الوطن . والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا ، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا ؟ !** »[١٠٧] .

---

(١٠٦) (المصريون) (خاتمة) .
(١٠٧) (كلمات) .

ونحن نود أن ننبه إلى أن « خطأ » هذا الموقف « المعتدل » فى السياسة وفى الوطنية يجب ألا يختلط « بالخيانة » و « العمالة » للاستعمار ، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحى هذه المدرسة الفكرية التى انتمى إليها قاسم أمين .. فهناك من الأدلة على « زيف » هذا الاتهام الكثير والكثير ..[١٠٨] .

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسى والوطنى لهذه المدرسة ، فإننا نهتم بأن نشير هنا إلى موقف قاسم أمين من الصراع الذى شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار ..

لقد أدرك قاسم أمين ، على نحو جيد ، أن بين مصر وبين أوربا صراعا حضاريا ، ومن ثم وطنيا ، يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ ، وحدد ، على نحو ناضج وحاسم ، أن العقبة أمام تطور مصر ، وبلوغها المكان الطبيعى التى تأهلت له ، هى أوربا ! ! ..

« .. **إن أمام مصر عقبة رهيبة هى : أوربا ! ..**

لقد أخذ تأثير أوربا يتزايد فى مصر منذ عهد سعيد - (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) حتى أصبح له فى عصر إسماعيل - (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) - سيطرة حقيقية علينا ، إذ باتت كل افعالنا ولفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين ، وأضحى وزراؤنا يميلون مرة إلى اليمين ، ومرة إلى اليسار ، خاضعين دائما لاوربا .... **إن أوربا استخدمت دائما هذه السيطرة ضد مصر**... ولقد آن الأوان لتدرك أوربا أن المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وأن العدالة تفرض عليها واجب اصلاح ما أفسدته ... وفى انتظار الوقت الذى تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية .. اسجل : **أن أوربا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التى كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا فى العالم ! ..**»[١٠٩] .

هذا عن أوربا ، بشكل اجمالى وعام ، أما انجلترا التى أصبحت المحتل الذى انفرد باستعمار مصر ، فإن قاسم أمين يقف منها موقف « الناصح » لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء « بالواجب » عليها ، ويعلق عليها « الآمال » فى أن تساعد فى تطور مصر إلى الإمام ، ويثنى

---

(١٠٨) انظر الفصل الذى كتبناه فى التقديم (للاعمال الكاملة للامام محمد عبده) تحت عنوان : (الاصلاح .. فالثورة .. فالاصلاح) . جـ١ ص٣٣ - ١٠٠ طبعة بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر . سنة ١٩٧٢ م .

(١٠٩) (المصريون) . فصل : (أوروبا) .

على ماتحقق فى ظل احتلالها من «تقدم» فى عدد عديد من الميادين .. ولكنه يستنفر قومه إلى النهوض، محذرا اياهم من ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف والنهب الاستعمارى، **فهو «يأمل» فى الانجليز، ولكنه يطلب «المشاركة» ويحدد ان قانون «البقاء للأقوى والاصلح» هو الحكم فى هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار!!..**

فهو يطلب «أن تحمل انجلترا مسئولية مستقبل مصر، مادامت تمسك مصيرها بين يديها» ويأمل ألا يسمح «اخلاص انجلترا» بعودة «الفساد الدكتاتورى» مرة أخرى إلى البلاد، ويرى أن مصر «قد بدأت تنتظم بالفعل فى طريق الحضارة»[110] وأنه قد أصبحت لديها «حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر ابوية»[111] .. وان مصر قد دخلت «عصر النظام والحرية»[112] .. ويحدد ان كل هذه الانجازات إنما هى من فعل الانجليز وان الكثير منها قد تم فى وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم، «فكل ماوجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبى، وعلى رغم أهلها!»[113].

ولكنه لاينسى ان «يتحفظ» بعض التحفظ على ذلك الاسراف الذى يتجلى فى تقييمه لدور الاستعمار فى مصر، وهو الاسراف الذى يجافى الحقيقة، أو يعرض جانبا واحدا من جوانبها، فيتساءل قائلا: لكن، «هل يعنى هذا ان لدينا حكومة كاملة، وأن كل شىء على أحسن مايرام؟؟» — (وننبه إلى أن الاجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) — ثم يجيب: «.. **الحق، أن لا .. فما يزال أمامنا عمل كبير، ومايزال علينا أن نعيد تنظيم ادارة الأقاليم التى بقيت مأوى لعقلية النظام القديم .. اننى أعلن حكومتى، أيضا، بالحاجة إلى تمثيل وطنى حقيقى، وان يكن فى صورة مبسطة!**»[114].

وبالطبع فنحن نؤمن بأن هذا الموقف «الوطنى المعتدل» لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها فى ذلك التاريخ ... ولكننا لانود أن نظلم قاسم أمين إذا تركنا القارئ يتصور أن آماله فى التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط على اصلاحات الانجليز فى ادارتها ومرافقها

---

(110) (المصريون). (خاتمة).
(111) (المصريون). فصل: (العلوم والآداب).
(112) (تأبين الأستاذ الامام).
(113) (كلمات).
(114) (المصريون). فصل: (الحكومة).

فلقد كانت آمال الرجل معلقة أيضا ، بل وبالدرجة الأولى ، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب وانتزاع مواقعهم فى بلادهم بجدارة ، والاستبسال فى سبيل الفوز فى هذا الصراع ، الذى حذرهم مغبة الاخفاق فيه .. إنه يحدد جانبى الصورة كما رآها يومئذ ، ايجابياتها التى دخلت إلى الواقع المصرى ، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها .. فيقول :

« انى لا أجد فى ماضيها ـ (مصر) ـ عصرا انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام فى انحاء البلاد ، وتهيأت الأسباب للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن .

ولكنها ، من جهة أخرى ، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ماهى فى هذا الزمن . فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء ، حتى فاض من منبعه إلى جميع انحاء المسكونة .. وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة وصناعة وتجارة .. وإن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فإنه إنما يسعى إلى السعادة .. يطلبها أنى وجدها ، وبأى طريقة يرى النجاح فيها ، وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله ، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما ... وهو لايطلب الفخار والمجد .. بل المنفعة .. وتحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لايعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها ... فإن صادفوا أمة متوحشة أبادوا أهلها وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا واستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى أفريقيا .. وإن صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل . ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشىء من النظامات الابتدائية . خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . ولكن لايمضى زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة .. وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ماسماه « داروين » : قانون التزاحم فى الحياة .. فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لامندوحة عنها ، وهى أن تستعد الأمة لهذا القتال ! ، وتأخذ له أهبتها . وتستجمع من القوة مايساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت .. »[١١٥] .

فهو موقف « وطنى معتدل » إذا يبالغ فى تقييم انجازات الاستعمار الانجليزى فى مصر ، أو

---

(١١٥) (تحرير المرأة) . فصل : (المرأة والامة) .

على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات ، لا كل القسمات .. ولكنه يستنفر امته « للقتال » دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والاساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوربيين..

وهو لذلك ، أيضا ، يدعو إلى جعل « الاحساس الوطنى » أحد أسس ثلاثة لابد أن يقوم عليها نظام « التربية » عندنا .. ومعه : الاساس الدينى .. والوازع النفسي وتنمية الضمير..[116] .

* * *

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين ـ تتعلق « بتطور » موقفه هذا فى سنوات حياته الأخيرة .. ذلك انه ـ مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة ـ قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم وأهدافهم الاستفادة من أسلوبه العصرى وبرامجه فى الاصلاح .. كما شعروا بأن عددا من اصلاحاته التى كانوا قد استبشروا بها خيرا قد عادت وتعود نتائجها الإيجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ، فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتلال ونمو ثروات التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عوائد اصلاحات الرى والزراعة والرواج التجارى فى البلاد .. ولم يبق لأبناء الوطن إلا الفتات .. وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد أصبح هو العائد الأساسى والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم ولم تحدث إضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات ابنائها العقلية ... بل لقد عاد الإمام محمد عبده ، فى مرضه الأخير ، فأثنى على نظام التعليم الذى أقامه محمد على ، وفضله على اصلاحات الانجليز التعليمية ، بعد أن كان قد علق عليها الآمال[117] .

وهذا التطور الذى نقول أنه قد حدث فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين ، يتجلى لنا إذا نحن تذكرنا حديثه الذى سبق أن أوردناه . والذى انتقد فيه النمط الذى سلكه مصطفى كامل فى الدعوة إلى الوطنية ، ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعميقة التى سطرها فى مذكراته عندما

---

(١١٦) (اسباب ونتائج) مقال : (أصول التربية) .

(١١٧) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) . دراسة وتحقيق محمد عمارة . جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ . وجـ ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧٢ .

شيعت مصر جثمان مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨م .. وهى العبارات التى يقول فيها قاسم أمين :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨م .. يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق .. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم « دنشواى » .. لقد اتحد يومها شعور الناس .. ولكنه بقى مكتوما فى النفوس .. أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع انحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل »[١١٨] .

فنحن هنا نشعر أن قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه فى الوطنية ومسلكه فى البعث الوطنى ، وهو هنا يحيى هذا « الانفجار » الوطنى الهائل الذى جاء يبعث الدفء والحرارة فى « القلوب الجامدة الباردة » التى نأت عن مواقع الوطنية الثائرة ولهيب حرارة الحركة الوطنية الجديدة ..

وكما كانت خيبة الآمال فى إصلاحات المستعمر سببا فى ذلك التطور .. فلقد كان من أسبابه ـ كما نعتقد ـ : تعاظم التيار الوطنى الذى قادة مصطفى كامل والحزب الوطنى .. وايضا اخلاص هذا النفر من ابناء مدرسة الاعتدال الوطنى لقضية بلادهم .. ذلك الاخلاص الذى دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم « الاعتدال » ما أملوه لخير الوطن وتحرره من الاستعمار ..

(١١٨) (كلمات).

هذه الأعمال

هذه (الأعمال الكاملة لقاسم أمين) التى قدمنا بين يديها دراستنا التى سلفت ، والتى نقدمها الآن لقراء العربية ، مجموعة محققة للمرة الأولى ، هى حلقة فى تلك السلسلة التى بدأنا أخراجها منذ سنة ١٩٦٨م.. سلسلة «الأعمال الكاملة» لأعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضارى الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الإسلامى المستنير..

وفى هذه السلسلة ، صدرت :

١ ـ (**الأعمال الكاملة لجمال الأفغانى**) .. ونحن نعيد تحقيقها الآن ، مرة أخرى ، كى تتضمن تلك النصوص التى اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفى مقدمتها تلك النصوص التى كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده .. وهى نصوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتى فى ثلاثة مجلدات ، بعد أن كانت طبعتها الأولى فى مجلد واحد..

٢ ـ (**الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى**) .. ولقد صدرت طبعتها الثانية حاوية نصوصا ووثائق لم تنشر للكواكبى من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والاضافات التى أدخلها على كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) قبل وفاته ... وفى الطريق ـ الآن ـ طبعتها الثالثة ـ بعد نفاد الطبعة الثانية ـ وفيها نصوص جديدة للكواكبى اكتشفت أخيرا ..

٣ ـ (**الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده**) ...ولقد اكتمل صدورها .. بظهور كل أجزائها .. وفى الطريق الآن طبعتها الثالثة .

٤ ـ (**الأعمال الكاملة ـ لرفاعة الطهطاوى**) .. وصدورها يقترب الآن من الاكتمال ..

٥ ـ (**الأعمال الكاملة لعلى مبارك**) .. وصدر منها ـ حتى الآن ـ ثلاثة مجلدات .. فأعمال قاسم أمين ، إذا ، هى الحلقة السادسة فى هذه السلسلة ، التى نرجو لها النمو كى تضع

بين أيدى مفكرينا وباحثينا وقرائنا الثمرات العقلية الفذة والبارزة التى صنعت عصر نهضتنا الحديثة ، والتى لاتزال فاعلة ، مؤثرة فى حركتنا الفكرية حتى الآن .. وهو انجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى ، لشدة حاجة حركتنا الفكرية إليه ، وحتى لانكون بدعا بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث ، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار وتحقيقها والتقديم لها ، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية ، رغم غنانا الفكرى وشدة حاجتنا إلى وصل خيوط تطورنا الثقافى ، وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه ..

* * *

وإذا كان لابد من كلمات عن النصوص التى تكون (الأعمال الكاملة لقاسم أمين) فإننا نقول : إن مفردات نصوص هذه الأعمال هى :

(١) (**كلمات**) .. وهى الخواطر واللمحات التى كتبها قاسم أمين فى « مفكرته الخاصة » ، والتى كانت بمثابة « مذكرات نفسية خاصة » .. كتبها لنفسه ، وأودعها خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره ، صاغها فى أسلوب جاء غاية فى الرشاقة والجمال ..

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ (كلمات) لصديقه أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ ــ ١٩٦٣م) فلما توفى قاسم سعى لطفى السيد إلى الأسرة بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ــ ١٩٢٧م) حتى حصل عليها ، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ ــ ١٩٢٤م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد ــ (الجريدة) ــ سنة ١٩٠٨م ..

* * *

(٢) (**أسباب ونتائج**) .. وهى خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ، دون توقيع ، فى صحيفة الشيخ على يوسف (المؤيد) مابين سنة ١٨٩٥م وسنة ١٨٩٨م .. مقدمة وأربع عشرة مقالة ، عالج فيها عددا من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى تهم دعاة الاصلاح .

* * *

(٣) (**أخلاق ومواعظ**) .. وهى مثل (أسباب ونتائج) ، مقالات خمس كتبها فى (المؤيد) فى نفس الفترة الزمنية ـ ١٨٩٥ ـ ١٨٩٨م ـ دون توقيع ، وقصرها على علاج مشكلات «الموظف والوظيفة والتوظف» فى عصر كان التسابق فيه على العمل «الميرى» ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج ، وتنمى فى هذا الشباب اخلاقيات التواكل والارتزاق ..

* * *

(٤) (**المصريون .. رد على دوق داركور**) .. وهو الكتاب الذى أصدره ، بالفرنسية ، قاسم أمين سنة ١٨٩٤م ، ردا على الكاتب الفرنسى «دوق داركور» الذى أصدر كتابا عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣م امتلأ بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الإسلام والمسلمين ..

ولقد قال قاسم أمين عن ملابسات كتابته لهذا الرد : «انى حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام ، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائى ، قبل أن يرد على خاطرى فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، وأحزننى أنه حاول انتزاع جميع آمالى ، غير انى أخذت استرد هدوئى شيئا فشيئا ، وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ماكتبه عنا ، وتأملت جميع المشكلات التى وضعها وحلها ، وخلعت عنى صفتى المزدوجة ، كمصرى مسلم ، لأحلل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم أسترشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة ، حتى استطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله أجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف ، ويقيمها بطريقة محايدة ..» .

ولقد ظل هذا الكتاب الذى يمثل قسمة متميزة فى فكر قاسم أمين ومرحلة فى تطوره الفكرى حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيدا عن اللغة العربية ، حبيس أصله الفرنسى ، حتى هذه الترجمة التى نقدمها له فى هذه الأعمال ..

ولقد كان سببا من أسباب مجىء أغلب الدراسات التى كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن ادراك تطوره الفكرى .. وهما الأمران اللذان تحققها ، ضمن ماتحقق ، الدراسة التى قدمنا بها لهذه الأعمال .

أما إنجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الشاعر والأديب الأستاذ محمد البخارى .. ولنا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر فى نصه من أسماء الأعلام ..

* * *

(٥)(**تحرير المرأة**) .. وهو اكثر كتب قاسم أمين شهرة وذيوعا .. بل اشهر كتاب عربى صدر فى عصره .. صدر سنة ١٨٩٩ م فأثار أول معركة فكرية كبرى سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا فى بداية القرن الماضى ..

ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم للاعمال الكاملة للامام محمد عبده ، إلى أن للاستاذ الامام دورا فى تأليف هذا الكتاب ، وقدمنا فى ذلك المقام أدلتنا على أن رأى الشرع الاسلامى فى قضايا : (الحجاب) ، و (الزواج) ، و (الطلاق) ، و (تعدد الزوجات) ، الذى تضمنه (تحرير المرأة) هو للاستاذ الامام .. والآن ، وفى التقديم (للاعمال الكاملة لقاسم أمين) نجد لزاما علينا أن نضع بين يدى قارئها تلك الصفحات التى كتبناها من قبل .. وهى التى تضم حججا وأدلة قد زاد يقيننا بها بما تكشف لنا من التطور الفكرى الذى حدث لقاسم أمين ، وهو الامر الذى أشرنا اليه فى مكانه من الدراسة التى قدمنا بها لهذه الاعمال .

* * *

عندما أصدر « قاسم أمين » كتاب (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩ م أحدث فى المجتمع المصرى بخاصة والمجتمع الشرقى بوجه عام معركة فكرية فريدة ، هزت هذه المجتمعات من الأعماق .. ولقد شهدت بلادنا من قبل ومن بعد معارك فكرية كبرى ، مثل معركة كتاب : (الاسلام وأصول الحكم) الذى أصدره الشيخ على عبد الرازق سنة ١٩٢٥ م ، وكتاب الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) .. ولكن عنف هذه المعارك كان فى نطاق محدود .. نطاق السياسة والمشتغلين بها ، او نطاق المثقفين .. أما معركة كتاب (تحرير المرأة) فقد كانت أكثر شمولا وأوسع مدى ، وذلك لارتباطها بحياة الاسرة ، لبنة المجتمع الاولى ، ولتناولها المباشر للشئون الخاصة بكل بيت فى المجتمع المصرى والمجتمعات العربية والاسلامية .. ومن ثم كانت نبوءة الذين ابصروا خطر هذا الكتاب صادقة ، عندما قالوا منذ اليوم الأول لصدوره ما قاله الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) : « اننا نظن ان يكون ظهور هذا الكتاب مصدر

تغير عظيم فى أفكار الأمة ، ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم فى اخلاقها .. »[119] ومن هنا ايضا كانت الاوصاف التى خلعت على قاسم أمين .. مثل محرر المرأة ، و « لوثر » الشرق .. الخ .. الخ ..

وفى كل الكتب الهامة التى صدرت وأثارت ضجة فى حياتنا الفكرية والاجتماعية كان الجدل دائما منصبا ومحصورا فى القضايا الجديدة التى طرحتها مثل هذه المؤلفات .. ولقد لعب الزمن والتطور العملى للمجتمع ، فكريا وواقعيا ، الدور الحاسم فى تحديد المنتصر والمنهزم من هذه الأفكار ، وبيان الصالح والضار من القضايا الجديدة التى طرحتها هذه المؤلفات .. ولعل احدا لا ينكر اليوم ان التطور السياسى والاجتماعى قد انتصر لفكر على عبد الرازق ضد دعاة احياء الخلافة الاسلامية فى أسرة محمد على بعد أن محاها «أتاتورك» من أسرة آل عثمان .. كما أن التطور الفكرى قد انتصر للمنهج الذى تبناه الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) .. ان لم يكن قد تجاوزه ـ وذلك بصرف النظر عن الصواب والخطأ فى هذه الأفكار ! ـ .

وأكثر بداهة من ذلك ما أثبته التطور الاجتماعى فى بلادنا للقضايا التى تناولها كتاب : (تحرير المرأة) ، فنحن عندما نتصفحه الآن ، بعد مضى ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن على صدوره نبتسم ، بل ونضحك من المعارضة الشديدة التى قوبل بها هذا الكتاب .. ونتخيل الانفعالات والمواقف التى سيقفها معارضوه عندما توضع امامهم صورة مجتمعنا هذه الأيام .. فالكتاب لم يكن يطالب بأن تعمل المرأة عمل الرجل وتتحرك معه فى الحياة العامة .. وانما كان يطلب فى مجال التعليم أن تتساوى بالرجل فى التعليم الابتدائى فقط ؟! فيقول :

« ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى ، وانما اطلب المساواة فى التعليم الابتدائى على الاقل ... » .. وفى قضية : « الحجاب » و « السفور » دافع الكتاب عن « الحجاب » بالنسبة للمرأة ، وكل ما طلبه هو « الحجاب الشرعى » المنطبق « على ما جاء فى الشريعة الاسلامية » والذى يتمثل فى أن تكشف « المرأة وجهها وكفيها ، ونحن لا نريد أكثر من ذلك » ؟ .

فالذين ينظرون اليوم الى أهداف هذا الكتاب ، بالمقارنة الى ما بلغته المرأة فى عصرنا ، يحكمون ببداهة بأن التطور والزمن قد حسما هذه القضايا لا لصالح الكتاب فقط ، بل وبدرجة أبعد مما كان يحلم به أو يتخيله قاسم أمين ! ..

---

(١١٩) (المؤيد) . فى ١٥ مايو سنة ١٨٩٩ م .

واذا كان هذا هو شأن كل الدراسات والكتب التى كانت رائدة ومجددة وثورية فى عصرها . فإن كتاب (تحرير المرأة) ينفرد من بين هذه الكتب بقضية لم تحسم حتى الآن .. ذلك ان الخلاف الذى دار من حول هذا الكتاب لم يتعلق فقط بما فيه من قضايا وافكار وانما تناول أيضا عملية تأليفه .. وشخصية المؤلف .. من هو ؟؟ .. وصاحب الفكرة فى اخراجه ؟ من هو ؟ . أو من هى ؟ . وحول هذه القضية الهامة والطريفة ثار الجدل منذ صدور هذا الكتاب ، ولا يزال يثور حينا ويخفت أحيانا حتى هذه الايام .. فإذا كان التطور قد حسم الخلاف حول قضايا الكتاب .. فإن الوقت قد حان ـ بل نعتقد انه قد تأخر ـ لحسم القضية الخلافية حول : من الذى كتب هذا الكتاب الذى وضع على غلافه اسم « قاسم أمين » .. وهو الأمر الذى نحاوله فى هذا المقام .

دور السياسة فى القضية

ومن الأمور التى أكسبت هذه القضية شيئا من الطرافة ان السياسة والصراعات السياسية قد تدخلت فى الموضوع ، فعندما صدر الكتاب كان الخديوى عباس حلمى الثانى يسلك مسلكا متشددا فى علاقته بسلطات الاحتلال فى مصر ، وكانت علاقته باللورد « كرومر » تمر بفترة من الجفاء ، وكان يولى رعايته للتيار الوطنى الثورى فى الحركة الوطنية المصرية بقيادة مصطفى كامل ، وهو التيار الذى يطالب بالجلاء ويرى فيه الشرط الضرورى والاولى لأى اصلاح مرجو للبلاد .. وفى مقابل هذا التيار الوطنى الثورى كان هناك الوطنيون المعتدلون الذين ينادون بالتربية والتعليم والاستنارة وتكوين الامة الراقية علميا وفكريا . باعتباره الطريق الوحيد لنيل الاستقلال وتحقيق الجلاء ، وعلى رأس هذا التيار كان الشيخ محمد عبده ومدرسته التى كانت تضم العديد من الاسماء . مثل سعد زغلول . ولطفى السيد ، وقاسم أمين .. الخ .. الخ ..

وعندما صدر كتاب (تحرير المرأة) متناولا قضايا ثورية ، بالنسبة لعصره ، وجديدة كل الجدة على كثير من الأوساط الرجعية والمحافظة وفئات واسعة من العامة وبسطاء الناس .. وجد خصوم الشيخ محمد عبده ان الفرصة سانحة لتوجيه السهام اليه والى مدرسته فى الاصلاح والتفكير .. وقيل يومها ، ان الذى امر بوضع الكتاب هو اللورد « كرومر » نفسه ، لأنه قد استاء من قاسم أمين عندما دافع عن حجاب المرأة المصرية ومحافظتها على التقاليد فى رده الذى كتبه بالفرنسية على الكاتب الفرنسى دوق داركور صاحب كتاب (مصر والمصريون) .. وان

«كرومر» أوحى إلى الشيخ محمد عبده أن يصلح قاسم أمين خطأه هذا فى كتاب جديد !.

وقيل يومها كذلك ان الذى أمر بوضع كتاب (تحرير المرأة) هى الأميرة « نازلى هانم فاضل » ، حفيدة ابراهيم باشا ، وابنة فاضل باشا ، الذى كان من المطالبين بالدستور على عهد السلطان العثمانى عبد المجيد ، والذى كان يلقب يومئذ ، لذلك بلقب « أبو الاحرار » .. وكانت ابنته « نازلى » مثقفة ومستنيرة وصاحبة صالون أدبى وسياسى يلتقى فيه المعتدلون من المفكرين المصريين .. قيل ان نازلى هى التى أمرت بوضع هذا الكتاب ، لأنها غضبت من رأى قاسم أمين المدافع عن الحجاب ، واعتبرت نقده للنساء المصريات المقلدات للاوربيات موجها اليها هى بالذات .. والذين نسبوا الأمر الى «كرومر» ، والذين نسبوه الى « نازلى » يتفقون على أن « الامر » قد صدر الى الشيخ محمد عبده ، وانه قد قام بدور كبير فى تأليف الكتاب .. بل يرى البعض انه هو الذى ألفه ، ثم وضع على غلافه اسم قاسم أمين تجنبا للحرج والعاصفة التى كانت ستهب عليه مباشرة اذا ما وضع اسمه عليه ، وهو الشيخ الازهرى ، ذو المناصب الدينية الكبرى ، ومنها منصب مفتى الديار المصرية !.

ماذا يقول هذا الفريق ؟؟

من بين الذين عاصروا هذا الكتاب ، وزاملوا قاسم أمين والشيخ محمد عبده فى التردد على صالون نازلى هانم فاضل ، وتحدثوا عن انها هى السبب فى تأليف هذا الكتاب « فارس نمر باشا » صاحب (المقتطف) .. وايضا « داود بركات » .. وعندما كتب فارس نمر مذكراته حدثنا عن هذه القضية فقال : « وهنا أصرح بحقيقة لا يكاد يعلمها إلا ندرة فى مصر ، وهذه الحقيقة ان كتاب قاسم أمين الذى رد فيه على دوق داركور لم يكن فى صف النهضة النسائية التى كانت تمثلها الأميرة نازلى ، بل كان الكتاب يتناول الرد على مطاعن المؤلف الفرنسى ويرفع من شأن الحجاب ويعده دليلا على كمال المرأة ، ويندد بالداعيات الى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة ، وكان قاسم أمين اذ ذاك أحد قضاة محكمة الاستئناف ، ولما ظهر كتابه ساء ما به اخوانه الآخرين أمثال محمد المويلحى ، ومحمد بيرم ، وسعد زغلول ، ورأوا فيه تعريضا جارحا بالاميرة نازلى ، وتشاوروا فيما بينهم فى الرد عليه ، واتفقوا اخيرا على أن أتولى الكتابة عن هذا المؤلف وعرض فصوله وانتقاد ماجاء به خاصا بالمرأة .. وبدأت فى كتابة سلسلة مقالات عنه ، ولكن ذلك النقد لم يرق قضاة محكمة الاستئناف ، ورأوا فيه مساسا بهيئتهم ، اذ أن قاسم أفندى كان أحدهم ، ورأوا أن أفضل وسيلة يبذلونها لكى أكف عن

الكتابة عن مؤلفه أن يرجوا الأميرة نازلى فاضل لكى تطلب إلى ذلك ، وتطوع الشيخ محمد عبده للقيام بهذه المهمة .

وذات مساء حضرت الى صالون سمو الأميرة ، كما حضر ايضا الشيخ محمد عبده ، ومحمد بيرم ، والمويلحى ، وغيرهم . وبعد قليل تحدث الشيخ محمد عبده فى هذا الشأن مع الأميرة فالتفتت الى سموها وقالت لى : انها لا تجد بأسا فى أن أكف عن الكتابة فى الموضوع ـ وكانت هى لم تقرأ الكتاب ولم تعرف انه يشمل الطعن فيما تدعو اليه ـ فلما رأى ذلك محمد المويلحى قال لسموها : انه يدهش من طلب الامبرة ، وبخاصة لأن هذا الكتاب يعرض بها ، فبدت عليها الدهشة ، وكانت احدى نسخ الكتاب موجودة عندها . وعبثا حاولت ان اقفل باب الحديث فى هذا الشأن ، وبخاصة بعد أن لمحت عليها معالم الاضطراب والجد والعنف . فلما اطلعت على ما جاء به ثارت ثورة شديدة ووجهت القول بعنف الى الشيخ محمد عبده ، لأنه توسط فى هذا الموضوع ..

ومرت الايام بعد ذلك ، واتفق الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، والمويلحى وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار الى سمو الاميرة ، فقبلت اعتذاره ، ثم أخذ يتردد على صالونها ، وكلما مرت الايام ازدادت فى عينيه وارتفع مقامها لديه ... واذا به يضع كتابه الاول عن المرأة ـ (تحرير المرأة) ـ الذى كان الفضل فيه للأميرة نازلى .. والذى أقام الدنيا وأقعدها عليه .. بعد أن كان أكثر الناس دعوة الى الحجاب .. »[١٢٠] .

ويروى « داود بركات » القصة نفسها فى مقال له احتفالا بذكرى قاسم أمين ، ليستدل على أن الصدفة هى التى جعلت قاسم أمين محررا للمرأة المصرية ، ثم يحدد الامر أكثر وأكثر فيجعل من كتاب (تحرير المرأة) عملا قام به قاسم أمين ليصلح خطأه فى حق الأميرة نازلى فيقول : ان غضب الاميرة من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين «كان نتيجته ان يصلح قاسم أمين خطأه بكتاب ينشره » ، حتى لا يفقد هذا الحزب نفوذ الأميرة فى صراعهم ضد قصر عابدين والخديو عباس حلمى[١٢١] .

والذين قالوا ان اللورد «كرومر» هو الذى أوحى بهذه الفكرة ، قالوا ذلك بناء على العلاقة الوثيقة التى كانت بين الأميرة نازلى « وقصر الدوبارة » ، وبناء على تبنى سلطات

(١٢٠) مجلة (الحديث) . حلب . يناير سنة ١٩٣٩ م ص ٨٨ ، ٩٢ .

(١٢١) (الاهرام) ـ فى ٤ مايو سنة ١٩٢٨ م .

الاحتلال للحزب الوطنى المعتدل ، الذى لم تكن ترى فيه خطرا عاجلا اذا ما قيس بخطر الحزب الوطنى الثورى على احتلالها للبلاد ..

على ان أمر علاقة اللورد «كرومر» بالكتاب هو أهون الأمور .. ذلك ان الادلة عليه لا تكاد توجد ، حتى اذا افترضنا انه كان يرى تحرير المرأة المصرية من الحجاب ، فإن رأيه هذا ليس وقفا عليه ، فإذا ما نادى به قاسم أمين أو غيره ، فإن ذلك لا يبرر نسبة هذا الرأى الى عميد الاحتلال فى مصر فى ذلك الحين .. ولقد سفه المرحوم أحمد لطفى السيد رأى القائلين بهذا القول عندما كتب عن قاسم أمين عقب وفاته مباشرة ، ورأى أن هذا الرأى فرية افتراها الحاقدون والاعداء السياسيون لقاسم أمين(١٢٢) .

ولكن بقى أمر العلاقة بين الاميرة نازلى وهذا الكتاب معلقا حتى الآن .. كما بقيت علاقة الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب دون تحقيق أو حسم حتى هذه اللحظات ..

علاقة نازلى بالكتاب

ونحن نعتقد أن الذين صوروا تأليف كتاب (تحرير المرأة) ونشره فى صورة التنفيذ « للأمر » الذى أصدرته الأميرة نازلى للشيخ محمد عبده ، أو فى صورة الاعتذار الذى أصلح به قاسم أمين خطأه فى حق الأميرة .. نحن نعتقد أن هؤلاء القوم قد خانهم التوفيق ، وهم لم يحسنوا قراءة المذكرات التى كتبها المعاصرون لأحداث القصة ، كما لم يحسنوا دراسة الكتاب والمقارنة بين أفكاره وأفكار الكتاب الذى رد به قاسم أمين على دوق داركور .. ومن ثم فإن القضية لن يجلو حقيقتها إلا النظرة الموضوعية والتحقيق العلمى للنصوص والأفكار التى تضمنها هذا الكتاب ، ومقارنتها بأفكار الشيخ محمد عبده فى الموضوع ، ودراسة الخصائص المميزة لهذا الكتاب ، مع مقارنتها بمؤلفات قاسم أمين التى ليس هناك خلاف حول تأليفه لها ونسبتها إليه .. ونحن نعتقد أن السبيل لحسم هذه القضية رهن مجموعة من الحقائق نجملها فيما يلى :

* ان كتاب الدوق الفرنسى داركور قد صدر سنة ١٨٩٣ م . وقرأه قاسم أمين وشرع فى كتابة الرد عليه فى أواخر العام نفسه ، ثم صدر كتاب قاسم أمين فى الرد عليه فى أوائل سنة ١٨٩٤ م .. بينما صدر كتابه الثانى (تحرير المرأة) قرب منتصف سنة ١٨٩٩م .. أى بعد نحو

---

(١٢٢) الجريدة فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٠٨ م .

ست سنوات ، فتصوير (تحرير المرأة) فى صورة الاعتذار يجعل منه اعتذارا قد جاء متأخرا عن مناسبته الطبيعية ست سنوات ؟ ! .. وهذا يسقط قول الذين يقولون بذلك .. ويسقط أيضا قول الذين يرون فيه تنفيذا «لأمر» الأميرة نازلى الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ..

• وحتى اذا تجاوزنا عن مقتضيات المنطق ، فإن مادة كتاب (تحرير المرأة) تقطع بأنه لم يكتب اعتذارا للاميرة نازلى هانم فاضل .. ذلك لأن القائلين بهذه الدعوى يقولون انها غضبت من أمرين : **الاول** : هو رأى قاسم أمين المؤيد للحجاب والمعادى للسفور ، **والثانى** : هو تعريضه بالنساء المصريات المقلدات للافرنجيات .. ونحن اذا قرأنا (تحرير المرأة) بإمعان نجده يقف من هاتين القضيتين قريبا من الموقف القديم ، فليس هو اذن بالاعتذار عن هذا الموقف القديم .

ففيما يتعلق بالحجاب يقول الكاتب : « سبق لى البحث فى الحجاب بوجه اجمالى فى كتاب نشرته باللغة الفرنساوية .. وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها .. ربما يتوهم ناظر اننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة . لكن الحقيقة غير ذلك ، فاننى لا أزال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها . غير انى اطلب ان يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية .. هو الحجاب الشرعى ؛ وهو الذى أدعو اليه .. كشف المرأة وجهها وكفيها . ونحن لا نريد اكثر من ذلك . » .. فهو هنا لا يعتذر عن موقف قديم ، فيغيره ، بل يثبته ويدافع عنه . ويزيده تحديدا وتفصيلا[١٢٣] .

وفيما يتعلق بالموقف من المصريات المقلدات للنساء الافرنجيات لايختلف موقف (تحرير المرأة) عن موقف قاسم أمين السابق فهو لا يزال يهاجم « التقليد الشكلى » الخالى من « المضمون المفيد » ، ويسخر من النساء اللاتى « تظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول : نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها ، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية . فتقضى حياتها فى تلاوة اقاصيص وحكايات قل ما تفيد إلا فى ثارة ، صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة إلى دخان السيجارة التى تقبض عليها ؟! » ، فهو هنا لايعتذر للمقلدات ، ولا يدافع عنهن .. ومن ثم فإن مادته ونصوصه وأفكاره تبعده تماما عن أن يكون عادا من جادا من قاسم أمين للأميرة نازلى هانم فاضل .

---

(١٢٣) هناك تطور حدث لفكر قاسم أمين فى جوانب من هذه القضية . اشرنا اليه فى الدراسة التى قدمنا بها لهذه الاعمال . انظره فى الفصل الخاص بتطوره الفكرى .

ولكن تبقى قضية العلاقة بين الشيخ محمد عبده وهذا الكتاب قائمة ! ! هل هو مؤلفه ، ام قاسم أمين ؟ ! أو أن الكتاب قد جاء ثمرة عمل مشترك منهما معا ؟؟ وماذا يقول التحقيق العلمى للنصوص فى هذا الموضوع الهام والخطير ؟ ! .

علاقة محمد عبده بالكتاب

الرأى الذى أومن به ، والذى نبع من الدراسة لهذه القضية ، هو أن هذا الكتاب انما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين .. وان فى هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الامام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين .

ولدينا على هذا الرأى مجموعة كبيرة من الادلة .. يحسن أن نقدم بين يديها عددا من القرائن نجملها فى هذه النقاط :

* إن نشر الكتب والمقالات والأبحاث بأسماء الغير ، أو بالأسماء المستعارة ، كان أمرا كثير الشيوع فى ذلك التاريخ ، فجمال الدين الأفغانى قد كان ينشر أفكاره تقريبا بأسماء تلاميذه ، والشيخ محمد عبده كتب الكثير من المقالات بتوقيع «مؤرخ» و «عالم فاضل» .. الخ .. الخ .. وعبد الرحمن الكواكبى نشر فصول كتابه (طبائع الاستبداد) فى (المؤيد) بدون توقيع ، ثم طبعه كتابا ووضع عليه كلمة : «الرحالة : ك» ! ! .

* ان مبدأ اشتراك أكثر من مفكر فى إنجاز عمل فكرى واحد كان معروفا ومألوفا ومطروقا ، بل إن هناك ما يثبت أن قاسم أمين قد بذل محاولات للاستعانة بأحمد شفيق باشا فى كتابة هذا الكتاب ، فالأخير يكتب قائلا : «.. واختمرت فكرة تحرير المرأة وتعليمها فى بعض الرءوس ، وهمّ قاسم أمين بك بإخراج كتابه فى هذا الصدد ، وعرض على أن أشاطره العمل ، فمنعنى من تلبية طلبه سببان ، **أولا** : عملى الحكومى الذى لا يسمح لى بالتفرغ لمسألة أعلم أن تأليف كتاب فيها لا ينتج الثمرة المرجوة ، **ثانيا** : يقينى بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة»[(١٢٤)] .

* فى الكتاب الذى وضعته الدكتورة درية شفيق ـ بنت أحمد شفيق باشا ـ بالاشتراك مع الدكتور ابراهيم عبده عن (تطور النهضة النسائية فى مصر) نقرأ صراحة أن الذى شارك قاسم

---

(١٢٤) احمد شفيق باشا (اعمالى بعد مذكراتى) ص ٣٥٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٤١ م .

أمين فى هذا العمل هو الاستاذ الامام ، يقول الكتاب : « اما الامور التى عالجها الشيخ محمد عبده من الناحية الدينية ، فيما يختص بحقوق المرأة ، فقد تناولها قاسم أمين بالبحث من الناحية الاجتماعية . وقد وجدت آراء قاسم أمين تأييدا تاما عند الشيخ محمد عبده . وحدث فى سنة ١٨٩٧ م ان اجتمع الاستاذ الامام وسعد باشا زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين فى جنيف واخذ الاخير يتلو على الامام بعض فصول من كتابه عن تحرير المرأة فكان يوافق على ما فيها . وقيل ان بعض فقرات هذا الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه » .

* وهذا « التقسيم للعمل » الذى تشير اليه د . درية شفيق بين محمد عبده وقاسم أمين حيث تناول الاول القضية من الناحية الدينية ، بينما اختص الثانى بالناحية الاجتماعية .. هذا الامر على جانب كبير من الأهمية .. فعلاوة على كونه الامر الطبيعى المتفق مع ثقافة كل منهما وتخصصه فإننا نجد الكتاب ـ (تحرير المرأة) ـ يحدد لنفسه هدفين عندما يقول : « .. تبين للقارئ مما سبق أن ما يريد إدخاله من الإصلاح فى حالة النساء ينقسم إلى قسمين : قسم : يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية .. والقسم الثانى : يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الإسلامية والعارفين بأحكامها إلى مراعاة حاجات الأمة الإسلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء » . والدارس للكتاب فى ضوء هذه المؤشرات يرى أن الفصول التى كتبت فيه عن «الحجاب الشرعى» و «الزواج» و «تعدد الزوجات» و «الطلاق» هى بحوث فقهية لا يمكن أن يكتبها إلا إمام مجتهد فى الإسلام ، وليس فى ذلك العصر من كان يستطيع ذلك سوى الأستاذ الإمام . بينما بقية فصول الكتاب هى أقرب إلى ثقافة قاسم أمين الاجتماعية ، وأسلوبه فى تناول القضايا والأمور ... وسيأتى تفصيل هذه القضية الهامة بعد قليل .

ومن القرائن الدالة على ان الابحاث التى تناولت هذه القضية ، من الناحية الدينية ، فى الكتاب هى من انشاء الاستاذ الامام ، ما نجده من التطابق فى الافكار بين ما جاء فى (تحرير المرأة) وماكتبه الشيخ محمد عبده فى (الوقائع المصرية) قديما ، وقبل الثورة العرابية وبالذات فى شهر مارس سنة ١٨٨١ م .. ففى العدد ١٠٥٥ من (الوقائع) الصادر فى ٧ مارس سنة ١٨٨١ نجد له مقالا عنوانه (حاجة الانسان الى الزواج) يتحدث فيه عن « أن سعادة الانسان فى معيشته ، بل صيانة وجوده فى هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة (الجنسية) بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة » . وفى العدد التالى لذلك مباشرة يتحدث تحت عنوان

(حكم الشريعة فى تعدد الزوجات) .. يتحدث عن وجوب العدل بين الزوجات عند التعدد والزواج بأكثر من واحدة ، «وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة » .. كما يتحدث عن أن الواقع المشاهد يقطع بعجز الانسان عن تحقيق العدل المطلوب ، ويصل الى المعانى التى نراها شديدة التحديد كثيرة الورود فى الفصول التى كتبت فى (تحرير المرأة) حول هذا الموضوع .. والذين يقرأون هذه المقالات ، ثم يقارنون بينها وبين مثيلاتها فى صفحات الكتاب يعلمون قدر هذه «القرينة» فى الدلالة على دور الأستاذ الإمام فى إنشاء بعض فصول هذا الكتاب .

* وقرينة أخرى تتمثل فى رأى الأستاذ الإمام فى اشتغال الأميرة نازلى هانم فاضل بأمور السياسة ، فهو يرى ذلك من عيوبها واخطائها .. فيقول فى حديث مع الشيخ رشيد رضا فى سنة ١٨٩٧ م : ان « هذه الاميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد فى تهذيب البنات ، فإن من حولها من الاميرات ينفقن نفقات كبيرة اسرافا وتبذيرا ، ولو انها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن ، واستحضرت لهن معلمات من الآستانة أو سورية لكان خير عمل تعمله ، وما كن ليخالفنها ، فإذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرسا أو بذرا تجنى ثمرته ولو بعد حين »[١٢٥] .. هذه القضية التى يثيرها الامام قبل صدور كتاب (تحرير المرأة) بسنوات ، هى التى نجدها فى الكتاب محورا تعلق عليه الآمال فى تنفيذ ما أشار به الكتاب من الاصلاح ، وذلك عندما يتحدث الكتاب عن أن « أحسن طريقة لتنفيذ ما عرضناه فى هذا الكتاب هى أن تؤسس جمعية تتولى التعليم والتهذيب والتحرير للنساء المصريات » .

* ومن القرائن الدالة أيضا فى هذا الباب ، موقف الأستاذ الإمام من الكتاب بعد صدوره . فلقد أيده ودافع عنه بطريقة غير مباشرة ، وامتنع عن التعليق عليه أو المشاركة بشكل مباشر فى المعارك التى دارت من حوله ، وبالذات عندما أراد خصومه احراجه وطلبوا منه أن يفتى ـ بحكم منصبه الرسمى ـ فى الموضوع ..

أما دفاعه ـ غير المباشر ـ عن الكتاب فيتمثل فى وقوف الشيخ رشيد رضا ومجلة (المنار) الى جانب الكتاب ، فلقد تناولت (المنار) الكتاب بالمدح والتقريظ أكثر من مرة ، واعتبرته

---

(١٢٥) د . ابراهيم عبده ، د . درية شفيق (تطور النهضة النسائية فى مصر) ص ٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ ..

مع (رسالة التوحيد) للاستاذ الامام ، و (سر تقدم الانجليز السكسونيين) الذى ترجمه فتحى زغلول « أهم الاعمال الفكرية فى ذلك العصر »[١٢٦] .

ولقد أراد خصوم الشيخ محمد عبده إحراجه يومئذ فطلبوا منه أن يصدر فتوى فى هذا الموضوع ، وعندما صدر كتاب قاسم أمين (المرأة الجديدة) بعد عام من صدور (تحرير المرأة) طبع خصوم الإمام سؤالا موجها إليه باسم أحد المواطنين ـ محمد أفندى عبده البابلى ـ يسأل فيه « هل رفع الحجاب عن المرأة ، وإطلاقها فى سبيل حريتها بالطريقة التى يريدها صاحب كتاب (المرأة الجديدة) يسمح بهما الشرع أم لا؟؟ » ..

وإمعانا فى الإحراج والاستفزاز طبعوا هذا السؤال ووزعوه على الجمهور فى صورة كتاب مفتوح الى المفتى .. بل وطبعوا « استلفاتا الى هذا الكتاب المفتوح » .. ووزعوه كذلك على الجمهور .. ولكن الاستاذ الامام ظل ملازما للصمت ازاء هذه القضية التى كانت الشغل الشاغل للناس فى ذلك الحين .. وتقدمت (المنار) للدفاع عن هذا الصمت ، وساقت لتبريره عددا من الأدلة لا أراها إلا قرائن على العلاقة الايجابية بين الاستاذ الامام وهذا الكتاب .. فهى تقول فى الاعتذار عن عدم اجابة الاستاذ الامام على هذا السؤال :

١ ـ إن الاستفتاء جاء على خلاف المعهود ، بأن وزع على الجمهور .

٢ ـ إن الجواب عليه يستلزم قراءة الكتاب ، فى حين أن المفتى مثقل بالأعمال ؟ ! .

٣ ـ إن الفتوى لا يفهمها الناس إلا إذا قرأوا الكتاب ، وهو ما يؤدى إلى نشر ضرره إذا كان ضارا ؟ ! .

٤ ـ ان فتوى الامام ستكون على المذهب الحنفى الذى عينته الحكومة ليفتى على أساسه فى حين ان بعض المذاهب قد اباحت كشف المرأة لوجهها ويديها وجواز معاملة الرجال فى غير خلوة . وهذا كل ما يطلبه (الكتاب) من ابطال الحجاب « ثم استطردت (المنار) لتقول : « .. كل هذا يدلنا على أن السائل أخطأ فى السؤال . وانه لا يلقى جوابا » ! ![١٢٧] .

---

(١٢٦) (المنار) عدد اول يوليو ، وعدد ١٥ يوليو وعدد ٢٦ اغسطس سنة ١٨٩٩ م .

(١٢٧) عدد ٦ فبراير سنة ١٩٠١ م .

وإذا كانت هذه القرائن كافية فى ترجيح الحكم باشتراك الأستاذ الإمام فى تأليف هذا الكتاب ، فإن هناك اعتراضا من بعض الباحثين على هذا الرأى . يقولون : ان أسلوب الكتاب هو لقاسم أمين وليس للاستاذ الامام .. ومن الضرورى أن نناقش هذا الاعتـراض قبل تقديم الدليل القاطع على رأينا ، من خلال عملية التحقيق والنقد لنص الكتاب ومقارنته بالكتابات الاخرى المقطوع بنسبتها لقاسم أمين ..

مناقشة اعتراض

عندما مات قاسم أمين كتب المرحوم ابراهيم رمزى ـ صاحب مجلة (المرأة فى الاسلام) ـ كتب افتتاحية جريدة (الجريدة) تحت عنوان : (مصابنا فى الرجال) ، فتناول قضيتنا هذه وقال : « ولقد كان الأستاذ الامام وقاسم أمين صديقين حميمين ، حتى مات كل منهما راضيا عن عمل الآخر . ولذلك قال الناس عند ظهور (تحرير المرأة) : ان للامام يدا فيه . ونحن لا نعرف لهذه الدعوى حقيقة ، لأن أسلوب الانشاء فى الكتاب كان من أساليب قاسم الخاصة »[128] .

والأمر الذى ننكره نحن هو أن يكون «أسلوب الإنشاء فى الكتاب من أساليب قاسم أمين الخاصة به» ، لا لأن قاسم أمين لم يكن يحسن الكتابة باللغة العربية ـ كما يزعم البعض ـ فلقد كان الرجل أديبا وكاتبا اجتماعيا ممتازا ، تشهد له بذلك مقالاته فى (المؤيد) التى جمعت فى كتابه (أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ) ، وأيضا كتابه (كلمات) .. وكذلك كتابه (المرأة الجديدة) الذى لم تثر من حول نسبته إليه أية شبهات ..

ونحن اذا أمعنا النظر فى كتابات قاسم أمين ، وجدناها متحلية بزينة الأسلوب الأدبى فيها حلاوته وطلاوته ، وفيها ، أحيانا ، شاعريته .. وهى صفات لا نجدها أبدا عند الأستاذ الإمام ، الذى نشعر ونحن نقرأ له أن العقل هو الذى يلقى إلينا بالجمل والكلمات ، فضلا عن المعانى والمضامين .. كما نجد فى كتابات قاسم أمين الخاصة به ، وكذلك فى الفصول التى نراها له فى (تحرير المرأة) حديثا ملحوظا عن المجتمعات الغربية ، وتأثره بها ، والمفكرين الغربيين ، وقراءته لآثارهم ، وإعجابه بنظرياتهم ، وهى أشياء لا نلمحها أبدا عند الأستاذ

---

(١٢٨) (الجريدة) فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ م .

الإمام .. كما أن هناك الكثير من القضايا الفكرية ، التى يرتبط بها نمط مميز ومتميز من أنماط التعبير ، ـ والتى لا يتسع لها هذا المقام ـ هناك الكثير من هذه القضايا والأساليب نجدها فى كتابات قاسم أمين مميزة لأسلوبه من أسلوب الإمام محمد عبده ، ومميزة كذلك لأسلوبه هذا عن الأسلوب الذى كتبت به الفصول المشار إليها فى (تحرير المرأة) .. والذين يقرأون فى كتابه (كلمات) عن علاقة الشر والخير بالإنسان ، وعن فكرة الخطيئة الأولى للإنسان ، وعن أسباب انحطاط الأمة المصرية ، وعلاقة تأخرها بتأخر الفنون الجميلة والتمثيل والتصوير والموسيقى .. الخ .. الخ .. يدركون أنهم بإزاء كاتب متميز فى الفكر والأسلوب عن الأستاذ الإمام فى كثير من القضايا ، وفى كل أنماط التعبير..

نظرة نقدية من داخل النصوص

والآن .. يمكننا أن نقدم الدليل الذى نراه قاطعا على أن فصول « الحجاب الشرعى » و « الزواج » و « تعدد الزوجات » و « الطلاق » فى كتاب (تحرير المرأة) انما هى فكر خالص وصياغة خالصة للاستاذ الامام .. وذلك من خلال نظرة نقدية ودراسة موضوعية لنصوص هذه الفصول ـ مع مقارنة بينها وبين بعض فصول من كتاب قاسم أمين(المرأة الجديدة) وعلى ضوء ما هو معروف للجميع من الخصائص الفكرية والثقافية وطبيعة الاهتمامات التى يتميز بها كل من الرجلين عن صاحبه ..

فنى (تحرير المرأة) ، وبالذات فى الفصول التى تتناول وجهة نظر الشريعة والدين فى هذه القضية ، نلتقى بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لا يستطيع أن يبحثها ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين.. بل وأهم من ذلك نجد أحكاما كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث هذا الأمر فى جميع مصادره الرئيسية فى الفكر الإسلامى ، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية ، وهو الأمر الذى لا نعتقد أنه قد توافر فى ذلك العصر سوى لقلة قليلة فى مقدمتهم جميعا الأستاذ الإمام .. ونحن نستطيع أن نضع يدنا على هذه الأمثلة إذا نحن ، مثلا ، رأيناه :

* يصدر حكما قاطعا على المسائل التى ميز فيها الشرع الرجال على النساء ، فيقول : « **ولم أر إلا مسألة واحدة** ميز الشارع فيها الرجال على النساء ، وهى تعدد الزوجات » وهو حكم

لا يصدره إلا من استقصى البحث فى هذا الموضوع .

* كما يقول : « **واتفق أئمة المذاهب** .. على انه يجوز للخاطب أن ينظر الى المرأة التى يريد أن يتزوجها .. » .. وهو حكم لا يتأتى إلا من مفكر اطلع ودرس واستقصى ماكتبه أئمة المذاهب ، كل المذاهب ، فى الاسلام .

* كما يتحدث عن « الحجاب » الذى ورد حديث القرآن عنه .. فيقسمه الى حجاب خاص بنساء النبى ، وآخر لنساء المسلمين ، ويورد نصوص كل قسم ، سواء ما جاء منها فى القرآن أو السنة النبوية .. وهو يتناول هذه القضية بمستوى المفكرين المجتهدين وليس فقط بمستوى الدارسين أو الهواة ..

* بصدد حديثه عن النصوص التى وردت فى الحجاب . والخاصة بنساء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصدر مثل هذا الحكم القاطع فيقول : «**ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت** ، **ولا فى كتب التفاسير** فى أن هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى» .. فمن يستطيع أن يصدر مثل هذا الحكم القاطع ، بعد هذه الإحاطة الشاملة ؟؟ لا أعتقد أنه قاسم أمين ... ولا أظنه إلا الأستاذ الإمام ...

* كما نطالع مثل هذا القطع فى الحكم ، بناء على اتساع الاطلاع وشموله ، فنقرأ قوله : « ان نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها .. » .

* كما يناقش قضية الطلاق مناقشة مفكر مجتهد ، ويتحدث فيها عن « الأصول » وعن « الفروع » .. ثم يقول : « ان شرعنا الشريف قد وضع أصلا هاما يجب أن ترد اليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهو أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة » .

* ثم يواصل الحديث عن الطلاق ، فنقرأ له حديثا يدل على مستوى من العلم والاحاطة بمصادر الفكر الاسلامى لا يتوافر إلا لقلة قليلة ، مثل أن يقول : ان « المطلع على كتب الفقه وان كان يجد أن **جميع الائمة** قد نظروا على العموم الى أن هذا الاصل الجليل من شأنه العمل على تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان ، لكنه لابد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساويه ، ويرى أن الفقهاء من أتباع الائمة قد

توسعوا فى أمر الطلاق ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الاحكام على الوقائع .. » .. فهو حكم مفكر أحاط بما قدمه أئمة المذاهب .. وايضا بما قدمه الفقهاء من أتباع هؤلاء الائمة من أحكام ، كما أحاط بالتطبيقات التى أجروها لهذه الاحكام على الوقائع وما نتج عن ذلك من تفريعات .. فأين قاسم أمين من مثل هذه الميادين ؟ ! .

* وأخيرا ، وهو يتحدث عن الطلاق كذلك ، نجده يقارن بين المذاهب الفقهية ويستخدم عبارات مثل : و « **اتفق أغلب المذاهب** ... » الخ .. الخ .. مما له دلالة فى هذا الميدان .

* * *

وأمر آخر جدير بالملاحظة فى كتاب (تحرير المرأة) ، وبالذات فى الفصول التى نراها من انشاء الاستاذ الامام ، هو كثرة الاقتباسات المأخوذة عن أمهات الكتب فى الفقه الإسلامى والتى لا نعتقد أن ثقافة قاسم أمين الشرعية قد بلغت حد الاحاطة حتى بأسماء مثل هذه المؤلفات وأصحابها ، فضلا عن الغوص فيها ، والاقتباس عنها ، وتوثيق النصوص المقتبسة بذكر اسم المرجع ورقم الجزء ورقم الصفحة فى صلب نص الكتاب وفى هوامشه كما يصنع كبار المحققين .. ويكفى هنا أن نشير الى أسماء بعض الكتب وبعض المؤلفين ليعلم القارئ من صاحب هذا الجهد ومن هو فارس هذا الميدان .

* فهو ينقل عن الامام الغزالى .. وعن (حواشى ابن عابدين) .. وعن (كتاب الروض) فى المذهب الشافعى.. وعن كتاب (تبين الحقائق فى شرح كنز الدقائق) لعثمان بن على الزيلعى .. وعن كتاب (حسن الاسوة) للسيد محمد صديق حسن خان بهادر ... وعن (تاريخ الرسل والملوك) للطبرى .. الخ .. الخ .. وفى عشرات النصوص التى يقتبسها من هذه المصادر الأصلية فى الفقه والفكر الاسلامى يوثقها بذكر الجزء والصفحة واسم المصدر الذى رجع اليه ، ويضع النصوص بين الأقواس . والى جانب ذلك يورد من القصص الاسلامى ، واخبار النساء فى صدر الاسلام ما يدعم وجهة النظر التى يقدمها ..

* فاذا ما انتقلنا الى كتاب (المرأة الجديدة) المقطوع بنسبته الى قاسم أمين لا تطالعنا هذه المباحث الفقهية الاسلامية ، بل ونجد بدلا من اسماء المفكرين المسلمين ، ونماذج النساء

العربيات المسلمات ، نجد بدلا من ذلك اسماء المفكرين والكتاب الغربيين مثل « هيرودوت » المؤرخ .. والسياسى الامريكى « الموسيو شامبل » ، وخلفه « جون هويت » .. والقاضى الامريكى « جون لينجهان » .. والأساتذة والشعراء والفلاسفة والكتاب : « فرشلو » .. و « مانتجازا » .. و « فلورى » .. و « سملس » .. و « شيلر » .. و « روسو » .. و « فنلون » .. و « لامارتين » .. و « بول دروزيه » .. و « أفلاطون » .. و « سبنسر » .. و « ادمون ديمولان » .. و « استوارت ميل » .. الخ .. الخ ..

ومن أسماء السيدات الغربيات تطالعنا أسماء السيدات : « غوردون » ، و «كارى رينار» ، و «ستون» ، و «ماريه متشل» ، و «كارولين هرشل» ، و «تريز دوبافير» ، و «صوفى جرمين» ، والمركيزة «كلمنس رويه» ، و «مدام استيل» ، و «مدام تارنوسكى» و «مدام لافايت» ، و «جورج صند» ، وزوجة «باستور» ، وبنت «لمبروزو» ، وبنت «لمارك» .. الخ .. الخ ..

وهى اسماء تعكس ثقافة قاسم أمين واهتماماته ، وتميز هذه الثقافة والاهتمامات عن مثيلاتها عند الأستاذ الامام .. وتجعل من عملية استقراء النصوص فى كل من الكتابين ــ (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ــ الطريقة المثلى والعلمية فى تمييز ما لهذا وما لذاك فى هذا الانتاج الفكرى ..

* وملاحظة اخيرة ، نستخلصها من هذه المقارنة ، تتعلق بالفكر والمدى الذى يقدمه كل من الكتابين بصدد الحديث عن حرية المرأة المصرية والشرقية ، ففى (تحرير المرأة) ــ الذى ترك الاستاذ الامام على مجموعه بصمات فكره ، وأنشأ بعض فصوله ــ يقف فى مطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم عند التعليم الابتدائى ، كما قدمنا ، أما فى (المرأة الجديدة) فإن قاسم أمين يطلب المساواة التامة فى هذا الميدان ، فيقول عن التربية : اننا « لا نجد من الصواب أن تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل » . ولذلك نجده يرتب على ذلك تحبيذ اشتغال المرأة بالحياة العامة وانخراطها فى سلكها ، فهو يطلب أن تتقن المرأة ، على الأقل ، حرفتين أساسيتين ، وان تحترفها ، وهما : حرفة صناعة تربية الأطفال ، وحرفة صناعة الطب .. وهو تعليم عال وجامعى ، وانخراط فى سلك الحياة العامة كانخراط الرجال .. وهو اذا ما أضيف الى نموذج المرأة الغربية التى زخر الكتاب بضرب الامثلة عن غزوها لمختلف مجالات العلم والعمل

التى يعمل فيها الرجال .. اذا ما لاحظنا ذلك بدت أمامنا الفروق واضحة بين فكر الكتابين وهى الفروق النابعة من موقف كل من الرجلين من تلك القضية .. موقف الاستاذ الإمـام وموقف قاسم أمين ..

* * *

٦ ـ (**المرأة الجديدة**) .. وهو الكتاب الذى أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التى قدمت ، فى الكتب والرسائل والصحف والمجلات والمنتديات ، ضد كتابه (تحرير المرأة) .. كما ضمنه تطويرا أكثر جرأة فى عدد من القضايا التى تناولها فى (تحرير المرأة) فى تواضع أو على استحياء ..

* * *

٧ ـ (**انشاء الجامعة**) .. وهى كلمة لقاسم أمين ألقاها فى اجتماع من الاجتماعات التى عقدت سنة ١٩٠٨ م للتحضير لإنشاء الجامعة المصرية .. عرض فيها لاهمية التعليم الجامعى ودوره فى خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين.

* * *

٨ ـ (الإمام محمد عبده) .. (أخلاقه وفضائله وإمامته) .. وهو خطاب قاسم أمين الذى ألقاه فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأبين الأستاذ الإمام ، فى ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الأستاذ الإمام ، ودوره فى الفكر العربى الإسـلامى والمدرسة الفكرية التى تكونت من حوله ..

* * *

تلك هى مفردات (الأعمال الكاملة لقاسم أمين) .. وهى الأعمال التى جمعناهـا وحققناها ، وقدمنا بين يديها تلك الدراسة المستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانه من حركتنا الفكرية فى عصر نهضتنا الحديث ..

وهو الجهد الذى نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق .

دكتور

محمد عمارة

القهرة ـ يونيو سنة ١٩٧٥ م .



نصوص الأعمال الكاملة لقاسم أمين

كلمـــات

[دونها قاسم أمين فى مفكرته الخاصة ...

فجاءت : آية من آيات الخواطر الصادقة مع النفس ...

ونموذجا راقيا للمذكرات التى يوحيها القلب وتسكبها العاطفة ..

وصورة من صور الشاعرية التى سطرها قلمه الرشيق ..] .

بسم الله الرحمن الرحيم

● **الحرية** : (١٢٩)

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

* * *

● **لا يغرنك** المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعرا .

* * *

● **ان الذى** مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .

* * *

● **رب كلمة** يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها .

* * *

● **اذا استشارك** عدوك فأخلص له النصيحة ، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك .

* * *

● **فى مصر** : كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا ، فإذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا ، فإذا امتاز ببعض الحذق أو اظهاره عد من النوابغ .

* * *

---

(١٢٩) العناوين الفرعية التى وضعت لفقرات هذه «الكلمات» من انشائنا نحن وليست من وضع المؤلف .

● **الايمان :**

ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية ، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

* * *

● **بين العلم والدين :**

تعصب أهل الدين ، وغرور أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى ،لا فى الحال ولا فى الاستقبال ،مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره ـ بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم ، أى بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

* * *

● **العشق :**

لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، اذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته ، فلا يقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين اميالها ، ويذهب همومها واحزانها ، ولا يطمئن إلا إذا قطعت العلاقات مع غيره ، واصبحت كلها له كأنها ولدت معه فى يوم واحد وتفنى معه فى ساعة واحدة ، لا تعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها ، فإذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحا وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه ، سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثرا ، لأنه لا يعبأ بها ، سارة أو ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين .

* * *

إن كان فى الوجود إنسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

* * *

كل عشق شريف . فإن كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما ، وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقتيا ، حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصلهما .

* * *

ليس ما يكتب على أبواب الامكنة دائما صحيحا . فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذى تراه سائرا فى الطريق متمتعا بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل أبوابها على نساء فيهن من هى أوفر حشمة وأدبا وأكثر بعدا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتى تنحنى الرءوس أمامهن .

* * *

يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوبا ، واذا كان غير محبوب فيجد فى ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر ، من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعالات شديدة فى النفس وبالاجمال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بإرضاء شهوته فى الربح أو فى الخسارة .

* * *

● **من اختبارى** لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم يظهر لى أن الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار لتوقد فى القلب ـ حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثرا بعدها .

* * *

● **الكاتب** :

فى الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بإبداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هى ، ينشر الحقيقية منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأى أمر كان . هو العاشق الذى يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله . ولا يبالى بذم الناس ، بل يجد فيه نوعا من حماسة الغضب منها لأعصابه منشطا لقواه مغريا له على الاستمرار والثبات .

* * *

● **كلما** اردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

* * *

● **بعد** سن الأربعين يبتدئ العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتى . وأن الثروات الجميلة التى نحبها ونقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد فى الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها .

* * *

● **الخطيئة** :

لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة ـ العفو عن أكبر خطيئة العفو عن كل خطيئة ـ .

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول ؟ وما هى درجة مسئوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها ، لكن حلها يكاد يكون محالا ، اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها : الادبى ، والمادى ، والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا ، وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على أنه لم يكن متولدا عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له فى شره وأطماعه وشهواته ، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم ، خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضا مؤقتا ..

فالخطيئة هى الشيء الذى لا محل للاستغراب منه ، هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة

الإنسان ، هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التى يتخيل لى أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذى تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقا إلى الفضيلة ، العاجزة عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل إلى بلوغه إلا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل .

وأخيرا فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لإصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هى عولجت .

* * *

● **أمر** لا تدرى متى يغشاك لا يمنعك مانع أن تستعد له قبل أن يفجأك .

* * *

● **لا تصحبوا** الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

* * *

● **فى اللغة :**

لا أدرى ما هى غاية الكتاب الذين إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن فالكلمة الأجنبية التى أعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج إلى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمراً مستحيلا ، اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها .

* * *

يظهر أن باب الاجتهاد أغلق فى اللغة كما أقفل فى التشريع ، فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شىء .

لكى يكون هذا الاعتقاد صحيحا يجب أن نفرض أن هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها فى العالم ، وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين

التحول والرقى العام ، وتابعة فى أطوارها لسير الإنسانية ، فهى إذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التى لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت فى الماضى . ولا أدرى لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانا فى لغة العامة بحجة أنها لم ترد على لسان العرب .

نحن خلفاء العرب فى لغتهم . فكل ما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا بالطبع .

* * *

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب إصلاح اللغة العربية .

لى رأى فى الإعراب هنا بوجه الإجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الأفرنكية واللغة التركية أيضا يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة ، اذ تبقى مفرداتها كما هى .

فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة (ع ل م) يمكنه أن يقرأها عَلِم (١٣٠) أو عُلِم (١٣١) أو عِلم (١٣٢) أو علم (١٣٣) أو علَّم (١٣٤) أو عُلِّم (١٣٥) . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك القراءة عندنا من أصعب الفنون .

* * *

---

(١٣٠) بفتح العين وكسر اللام .
(١٣١) بضم العين وكسر اللام .
(١٣٢) بكسر العين وكسر اللام .
(١٣٣) بفتح العين واللام .
(١٣٤) بفتح العين واللام المشدودة .
(١٣٥) بضم العين وكسر اللام المشددة .

كان المؤلفون فى القرون الوسطى هم ابن سينا(١٣٦) وابن رشد(١٣٧) وابن مسكويه(١٣٨) وأضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة ، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ، مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام ، واللغات الأوربية أخذت تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة ـ صارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث .

رغما عن هذا قد أجمع قومنا على أن لغتنا لاتزال حتى الآن حافظة مركزها الأول ، ويزعمون أنها سيدة اللغات ، كما اجتمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا .

* * *

● **الابتكار :**

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فى ما يكتبون ، وإنما فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والسماع ، ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التى ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم . كل عملهم محصور فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن ، فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا ! ! آه فلان ما أحلاه ! علان ليس فى العالم مثله ! .

* * *

● **طلب الحقيقة لذاتها :**

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، أى لكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس ، وبالإجمال التعلم للتعلم فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة فى هذا الذى لا فائدة فيه .

* * *

---

(١٣٦) أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب شهير فى التراث الاسلامى ، لقب بالشيخ الرئيس . وهو صاحب نزعة اشراقية فى الفلسفة .

(١٣٧) أبو الوليد بن أحمد بن رشيد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) فيلسوف قرطبة . والشارح الأكبر لآثار ارسطو ، وأبرز فلاسفة التيار المشائى المسلمين .

(١٣٨) أبو على الخازن (المتوفى سنة ١٠٣٠ م) فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء . وله فى الأخلاق كتاب [تهذيب الأخلاق] وفى التاريخ [تجارب الأمم] وغيرهما كثير .

● **صحافتنا :**

إذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى ، واذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارف تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ، ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه .

* * *

● **يوجد** عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، أحسنها طريقة واحدة : هى التى يجدها الكاتب المجيد .

● **حدود الإنسان :**

عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذى لا نهاية له ، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا ، لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم .

* * *

المقلد فى إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة الملابس ، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول : إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وان كان موجودا ربحت مع الرابحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد حتى الاله من نصبه .

* * *

● **الأخـلاق :**

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان فى جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنا من السقوط يوما فى الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتى يوما بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئا يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنـده

إنما هى فى تحليل وتركيب ، فى تكون مستمر ، يعتريها الانحلال زمنا وتعود بعده إلى التماسك .

* * *

الإنسان أسير الشهوات مادام حيا ، وإنما تختلف شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عند الطفل ، وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا . متى وقع فيها أحدنا يجب عليه ألا يترك نفسه إلى تصرفها ، ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته ، عليه أن يوجه إرادته إلى مصارعتها والتغلب عليها ، عليه أن يحول فكره عن الامس الذى كان فيه قبيحا وينظر إلى غده الذى يكون فيه جميلا .

لا يطلب الكمال من المرء وإنما يطلب منه أن يكون فى كل يوم أحسن منه فى اليوم الذى مضى .

* * *

فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوما مهاجما ويوما مدافعا ، كذلك الحال فى جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذى عرض نفسه إلى استهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التى هى الفضيلة الحقيقية ، خلافا للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلا ، واذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها .

* * *

● **بعد** سن الأربعين كل زلة خطرة .

* * *

● **عين** الطماع حينما تبصر شيئا تشتهيه ، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل فى نفسه ما يفعله الاختطاف الحقيقى . هذه النظرة رأيتها كثيرا عند المعتاد لعب القمار .

* * *

● **يوجد** أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود .

● **لا تكمل** أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه .

* * *

● **أصحاب النفوس الكبار :**

زارنى أشهر أديب يكتب الآن فى مصر باللغة العربية ، وكان فى يدى كتاب فرنسوى يشتمل على حكم ومواعظ موضوعة فى جمل مستقلة لا ارتباط بينها ، فقرأ عبارة هذه ترجمتها : « إنى أخشى ما أتمنى » فقال : كيف ذلك ؟ لابد أن يكون فى الطبع خطأ ، قلت : لا . قال : فسرلى حينئذ كيف يخشى الإنسان الشىء الذى يتمناه ، فأجبته : كل إنسان يخشى ما يكره ، وليس كل إنسان يخشى مايتمنى ، وإنما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة ، وتكون سببا لشقائهم ، يرى الواحد منهم وردة جميلة فى البستان فيتمنى أن يقطفها ، ولكن يبعده عنها ما حولها من الشوك ، يشتهى تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التى ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها على الأرض وهو يشتهيها ، يلاقى المرأة التى كان يراها فى مخيلته مثال الجمال ، فيود أن يلقى نفسه تحت قدميها ويعطيها قلبه وحياته ، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها ، يتمنى صديقا ويخشى أن يجده خائنا . يتمنى ... يتمنى كل شىء ، ويخشى ألا يجد فيه كل ما تخيله . وهكذا يقضى حياته بين الأمل والخوف من تحققه ، وتنتهى به الحال إلى أن يرى أن السلامة فى ترك الأمانى .

* * *

● **كل** مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منها اظهار الحقيقة ، ولكنك لا تجد إلا شخصا يريد أن يعلمك ما ليس له به علم ولا يصغى إلى شىء مما تقوله لأنه ليس مشتغلا إلا بما يقوله .

* * *

● **الوحـدة :**

وجدت السآمة غالبا فى الاجتماعات ، وما شعرت بها فى الوحدة . اشتاق إلى الناس فإذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدنى فيهم فأفر منهم وأرجع ملتجئا إلى نفسى فأجد فيها الراحة والسكون .

* * *

● **الصديق والعدو** :

من الذى يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر؟ أهو الذى يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هى ؟ أم الذى يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثانى هو العدو المحبوب .

* * *

● **الرياء** :

من الناس من اذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لإعلانه . فإذا رأى شهودا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة ، فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى إلى شكواه ويشاركه فى ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوى عزيمته ، فإذا قدم إليه مساعدة مادية دسها فى وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح احساسا شريفا . يحتال فى انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله ، فإذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع فى ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن فى الجسم ما ينبغى غض النظر عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

* * *

● **التجارب** :

أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة . وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية فى الاشياء والناس .

* * *

● **فى الأمة** الضعيفة المستعبدة حرف النفى (لا) قليل الاستعمال ..

● العقوبة فى التربية :

من مروري فى المدارس والمكاتب أحفظ تذكارا ثابتا لا يزول أبدا ـ وهو الخوف من الضرب ـ فى الكُتّاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام ـ كنت أذهب إلى محل التعليم مصحوبا باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم ، وبعكس ذلك أرى الآن الاطفال يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين ـ نتيجة منع الضرب فيها ودخول الالعاب الرياضية .

* * *

● الحرية :

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر .

فى البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألدّ خصومه فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ .

* * *

● العبقرية :

يظهر لى أن الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبى ، فأكثر الناس استعدادا للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون ، أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم ، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو وليا طاهرا أو فيلسوفا حكيما أو نبيا كريما .

* * *

● **الفنون الجميلة :**

لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فإهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور .

* * *

دخلنا قصر اللوفر ، وكنا اربعة من المصريين ، لنتمع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم ، فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت ، وها أنا منتظركم هنا . وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى ، وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار ، ومازال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح : (هذا ألطف ما فى هذه الدار) ! وصلنا إلى تمثال آلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع . فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا عرضت للبيع ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العـالم تساوى كل ما يملكه الإنسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها .

* * *

● **الاتراك :**

مهما كان الرأى فى حكم الاتراك لمصر فلا ريب عندى أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيرا ، وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى الملبس والمأكل وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .

واذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة فهى لا تزال إلى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى أنك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالاولى بقدر ابتعادهم عن الثانية ــ واليوم وجد المصريون والاتراك أمامهم انسانية أرقى ، اختلطت بهم اختلاطا كبيرا . فأخذوا يقلدون الأوربيين فى جميع شئون حياتهم ، ولا أرى أن هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى إنقاذ أمتنا من الحال التى هى فيه الآن .

* * *

● **الرأى العام :**

إذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة ، ساخطا عليه ، شديد الرغبة فى سقوطه ، فاعلم أنه غالبا رجل طاهر وعامل نافع .

وإذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب ، وأعد له خصوما يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه ، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف ، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق .

ما هو الرأى العام ؟

أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله ، عدو التغيير ، خادم الباطل ، ومعين الظالم ؟ .

لو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء .

* * *

● **اللذة : ومضة لا تتكرر :**

صنف الطعام الذى أعجبك ، أو قطعة الغناء التى أطربتك ، أو ليلة الانس التى راقتك مع محبوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لأجله قلبك ، إذا قصدت تكراره فإنك لا تستطيع أن تجدد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى اعادته .

* * *

● **الجبان المدعى :**

قبيل الغروب وقف بنا «وابور النيل» الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا ففر وهو يصيح «ثعبان ثعبان ثعبان» .

أما الآخر فتقدم إليه حاملا فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ، ثم تركه فى مكانه ، وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله ، ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة ، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترسا على أطراف قدميه شاخصا إلى الحيوان ، واقترب منه بطيئا بطيئا ، ولما وصل إليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه بالفأس طعنة قوية .

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به إلى الجسر ، وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة ، فاستوقف الاطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلا : (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الاطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا ، وهو فى مقدمتهم حاملا فريسته . أليس هو الحال دائما فى جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفّع من رجال العمل عن حب الظهور ، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها .

* * *

● **سحر المطبعة** :

يفعل الكلام المطبوع فى نفس الجاهل فعل السحر فيستولى على عقله ، فإذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة : هذا مدون فى الكتب ، واذا نقل عن جريدة قال : هذا مذكور فى الجرنال .

فإذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وأن الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال . أجابك : نعم ، ولكن لابد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لأن صناعته تقضى عليه بذلك .

* * *

● **توجد** كلمات ألصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة . فحيث تكون إحداها تكون الأخرى . حتى ملت طول العشرة . كالعالم العلامة . والحسيب النسيب ، والصديق الحميم . والسيدة المصونة . فإما طلاق يرد إليها حرية الاقتران بكلمات أخرى ، وإما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح فى أثنائها من هذه الشركة القهرية .

* * *

● **الذوق** :

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم .

الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية ، هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب مالا يناسبه .

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا ، الذين هم على يقين من أن الذوق لم يخرج من مصر .

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية والعاقل يكتفي بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجانا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين .

* * *

● **صداقة :**

كان خمسة من أرباب المعاشات ، خمسة شيوخ ، مروا على فروع الإدارة المصرية القديمة وتقلبوا فى مناصبها العالية من مديرية إلى مجلس الأحكام إلى ديوان الأوقاف إلى السكك الحديدية ، اختاروا بيت أحدهم ، أكبرهم رتبة ، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح إلى الظهر ومن العصر إلى بعد الغروب ، جالسين على الكراسى فى بستان عتيق مهمل ، ولكنه واسع الارجاء ، تطاول أشجاره السماء ، هواؤه معطر بروائح الزهور ، لا يصل إليه شيء من ضوضاء الطريق ، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ، ماذا كانوا يقولون ويفعلون ؟ كانوا يقضون الايام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع ، مكتفين به لسد فراغ حياتهم . وفى بعض الاحيان يلعبون النرد ، فيتقدم منهم اثنان إلى ميدان المبارزة . ويلتف حولهما الباقون للفرجة ، واذ ذاك ترتفع أصواتهم ـ شيش يك ـ بنج جهار ـ خانة ـ اضرب ـ ويتناقشون بحدة ، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب ، فإذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضى حياتهم وسيرتهم فى أعمالهم بالتفصيل والتدقيق فى تواريخ السنين والشهور ، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين ، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد اخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم ، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة عن حدة الشهوات والتأثر ، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحيانا على وجوههم . وهناك موضوع كان يتردد فى غالب الاحيان فى حديثهم ، هو تقدير سن كل واحد منهم ، متى طرقوه جرهم إلى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط فى الأرقام والوقائع وعوج فى الرأى وإباء للحق ومغالطات ظاهرة كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ، ومهما

بلغ جهدهم فى الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة . وظل كل منهم حافظا مركزه متمسكا بزعمه . وفى يوم حضروا كعادتهم إلى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى إلى بيت أحدهم . واستمروا هم الأربعة على حالهم المعهـودة ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو إليهم انفرادها وتدعوهم إلى الانضمام إليها . فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر . وماتوا واحدا بعد الآخر فى مدة قصيرة ، وبقى خامسهم إلى الآن منفرداً كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيتـه لا يدرى ماذا يصنع بحياته ، ويرقب الموت الذى يخلصه منها .

* * *

● **ليس نقدا :**

أتعرف حسين بك ؟

ـ لا ـ ؟

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم . اذا قال لك : نهارك سعيد ، ضحك . وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك . وإذا سمع أن زيدا مات ضحك . زينة المجالس ، وأنيس النوادى . يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ومنوطا بنشر التفريح حوله . يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت ، وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال لابد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء بها وجعلها أضحوكة للناس .

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلى الصحيح فرق عظيم . الانتقاد الهزلى الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر إلى موضوع العيوب فى الإنسان وجهات الضعف فى الحوادث فيبتسم بسكون ولطف . وإذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايته بل يعده وسيلة للفت النظر إلى شىء يحزنه وأمر يبكيه .

غرضه الإصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التى يراها مناسبة لاستعداده الطبيعى . لا يحقر احساسا شريفا ولا يصغر عملا كبيراً وإنما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بها أخف ما يمكن من الضرر ، فى هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين فى أوروبا . وعدوا من أعظم رجال الأدب والفلسفة .

* * *

● **تحـايـــل :**

أخبرنى موظف فى الأزهر ، لا يخفى عليه شىء من أسرار الطلبة ، أنه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن يسير وراء شهوته ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر قدره خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك ، فإذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقدا أنه برىء من كل ذنب .

* * *

● **سئل** ح . بك ـ ما رأيك فى كتاب [تحرير المرأة] ؟

فأجاب : ردىء ! .. هل قرأته ؟ ـ لا ـ أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟ ـ ما قرأت ولا أقرأ كتابا يخالف رأيى ! .

* * *

● **اخلاق** جديدة عند الشبان : علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتى يرشحون أنفسهم لخطبتهن ، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن ، فيرصدون فيها ما تملكه من الاطيان والاماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها وسن والدها والأمراض التى يكون مصابا بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته الخ معلومات لا يفكر فى جمعها أشد المرابين احتياطا إذا أقرض مبلغا جسيما بدون تأمين .

* * *

الحجاب الفتنة :

رأيت يوما فى شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامها خادم ، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم ، عمرها بين العشرين والثلاثين ، فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما ، الجزء الاسفل بارز عند الارداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل ، والقسم الأعلى غير مستور ، وإنما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين ، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه ، تحجب فاها وذقنها حجابا لطيفا شفافا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة . كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المرسح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان

واستسلام ، وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم ! .

● **كتبت** والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : «من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم ! » . كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزا محبوبا .

* * *

● **لا فرق** بين من يفشى سرا اؤتمن عليه وبين من يختلس مالا أودع عنده .

* * *

● **الزواج** :

المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع الموقت هم تابعون لقانون الحب والامانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم ، قانون أعلى من مبادئ حب الذات التى وضعها بعض فقهائهم .

* * *

● **ما دام** الطلاق متروكا إلى رأى الزوج يستحيل أن يثبت فى نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة إلى آخر الحياة .

* * *

● **الزواج** عندنا حيازة رجل لامرأة يوما أو شهرا أو سنة أو عدة سنين ، حيازة تنتهى بمجرد ارادة الرجل . ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها : اخرجى .

* * *

● **السآمة** علامة النفس الشريفة .

* * *

● **التربية** :

يولد الانسان شريرا خبيثا قاسيا محتالا كذوبا . الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يألم إلا من نفسه ، وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو

مع الطفل ، وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة اذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

* * *

● **الوطنية :**

من ذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الامم ، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة ، أما الآن فأينما قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع إلا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن ، والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا ! .

* * *

● **التقلب :**

اردنا أن نحصى تقلبات أحد معارفنا فى آرائه العمومية ، فوجدنا أنه كان عرابيا ، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه ! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين ، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم إلى اعدائه ، وصار أكثرهم سفاهة فى الطعن عليه ! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئا من قصر الدوبارة ! كان يتودد إلى أحد أصحاب الجرائد ، ويمده بأفكاره وأخباره ، ثم قطع كل علاقة به وتحول إلى أشد خصومه ! وأخيرا اشترك فى تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر ! ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة ، لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب إليه بالدعاء والصلاة ! .

* * *

● **اللذة الحقيقية :**

اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولاشرف النسب ولا علو المنصب ،

ولا شيئا من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ، وانما هى أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم .

* * *

● **البلاغة :**

الكاتب الحقيق يجتنب استعمال المترادفات ، فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشوا فى الكلام مستهجنا ، ودليلا على فقر فى الفكر والخيـال ولكن اذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطلوبا إذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التى بينها. كذلك الكاتب المجيد لايضع صفة بجانب الاسم إلا إذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا ، أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسبر غور احشائه والتسمع على نفسه لإدراك مايدب فيها من النزعات والخواطر والاميال والحركات ، ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا .

* * *

● **جنازة :**

ما رأيت جنازة مسلم إلا أخجلنى منظرها . هذه الجمال التى تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكينة التى يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا وليس فيهم إلا الاعمى والاعرج والاعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثيابا قذرة، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة . وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال ، وأحيانا يطير فى السماء ان كان من الأولياء المقربين ! ! .

وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوهن ، وعفرن بالتراب رءوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة . ما هذا كله ؟ أجمع

مجانين؟ أم نفر بهم مس من الشياطين؟ ألعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟ ! .

فى الجنازة التى تمر فى الطريق شيء من جميع ذلك ، ولا ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو : اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

* * *

لما كنت فى الآستانة توفى فى الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقا لبيتنا ، فلم أسمع عويلا ، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية ، وفى الضحى خرج النعش ونقل الميت إلى القرافة مشيعا بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة على النبى ، بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رءوسهم ، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت إلى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم .

* * *

● **شراهة :**

دعينا للعشاء عند م . باشا ، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب ، مسرورين باجتماعنا مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف ، وبينما نحن متجهون إلى قاعة الطعام إذ دخل علينا زائر من المشايخ ، فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا ، فدخل أمامنا ، واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسى القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برما محكما فانكشف الساعد إلى المرفق ، فتمثل لى جالسا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء ! ، اشتغل بالاكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ، ولما كان بعيدا عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه على ملابسه ، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة ، فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الاكل فيقذفها من فيه بقوة يمينا وشمالا .

وبينما نحن شاخصون إلى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا ـ آه يا عينى ـ وقام واضعا يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينه ، فتأملنا فلم نجد فيها أثرا ، فضحك وقال : انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر ! .

* * *

● **الشكل والجوهر :**

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب فى النظام لا

فى الرجال ، وفكروا فى وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء ، مؤملين أن يجدوا الاصلاح الكبير .

مثلهم كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير أثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول ـ تعب ضائع .

* * *

● **الرغبة والاستعداد :**

بنتى الصغيرة التى عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتى بنفسها كل ما ترانى أعمله ، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لى : أنا أيضا أرفعك ، وتمسكنى بيديها من افخاذى وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملنى كما حملتها .

واذا رأت أن رجلا عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله ، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل . كذلك الرجل الجاهل ، يخيل له أنه كفء لأصعب الأعمال ، ومستحق لأعظم المناصب ، ومساو لأرقى الرجال ، يظن أنه منح استعدادا فطريا يجعله قديرا على كل شىء يظن أنه يطيق كل ما يريد .

* * *

● **عرس :**

كنت فى ليلة فرح ، وكانت الحفلة من أفخم وأجمل مارأيت من نوعها ، انفق فيها الذهب بلا حساب . وعند العاشرة دخل العريس ، وصدحت الموسيقى اعلانا بذلك ، فقلت لصديق كان جالسا بجانبى : هذا اعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين ، كان من حسن الذوق أن يبقى مستورا . وما أحسن ما اعتاده الغربيون ، فإن الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد ، ويغيبان عدة أسابيع ، فوافقنى صديقى على ذلك ثم قال : أتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئا رأيته بعينى ؟ قلت : نعم ، فقال :

كان سنى لا يتجاوز تسع سنين ، ولا تزال صورة الواقعة التى سأقصها الآن محفوظة فى ذاكرتى كما لو كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئا فشيئا لحفلة كبيرة ، نصبوا من أجلها سرادقا واسعا ، ووضعوا فيه الكراسى المذهبة ، وعلقوا البيارق والنجف ، وكل يوم يمر يزيد فى رونق الزينة وترتيبها ، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت

الشموع ، وصدحت نغمات الموسيقى ، وتقاطرت وفود الرجال والنساء إلى البيت ، يدخلون فيه أفواجا ، فيجلس الرجال فى الصيوان ، وتختفى النساء فى بيت الحريم الذى كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه . ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلا من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعا ، فرحين بهذه المناظر البراقة والانوار الزاهية والاضواء المنتشرة ، نجلس ونقوم ونجرى ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار .

فلما زف العريس بعد العشاء على الطريقة المعهودة ، دخل إلى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم ، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول إلى الصف الأول ليشاهدن العريس داخلا . وكان أحد أقاربه ماشيا أمامه ، فصار يدفعهن بيديه ليخلى له الطريق حتى وصل إلى غرفة عروسه ، فأدخل فيها وأقفل الباب عليه وحينئذ وقفت النسوة أمام الباب كأنهن يترقبن حادثا كبيرا ، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ، ومن حين إلى حين تنادى إحداهن : (هس ياستات) ، وتستمر هى فى الكلام أكثر من غيرها . ما الزمن الذى مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدرى ، ثم سمعت صياحا متكررا أتى من داخل الغرفة ، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء ، ومازال يتضاعف حتى أدى بهن إلى الدق على الباب وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عارى الرأس بارق العينين محتقن الوجه ، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاما شديدا مصحوبا بإشارات الغضب ، ومن وقت لآخر كان يقول : ماذا أصنع .. لا أقدر .. ! وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان ، وتبعه الجيش الذى كان واقفا وراء الباب مدفوعا كالسيل ، وقد جريت معهم حتى صرت قريبا من السرير ، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت ، وقبضت إحداهما على ذراعيها ، والأخرى على فخذيها ، فزاد صياح البنت وبكاؤها ، وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء ، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم ، فخرجت هاربا من هذا المنظر الشنيع ، لا أشك أنهم ذبحوها !.

* * *

● **التحرر :**

فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة محمد على أو اسماعيل تكفى لإعدام من يغضب عليه أو ارساله إلى البحر الأبيض ، فى تلك الأيام السوداء التى كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة

تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم .

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم ؟ من ينظر نظرا سطحيا يظن أننا بلغنا من استقلال الرأى مبلغا لاينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الامة أدنى أثر للخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس أن الاستخفاف بها صار عاما ، وأنه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم إلا اذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة ! .

ولكنه اذا حقق النظر لا يلبث أن يرى أن حرية الانتقاد لم تستعمل إلى الآن فى أعمال الحكومة إلا لأن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالاحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم يتجه فكر الباحثين إلى انتقادها ، فهل لم ير أحد منهم فيها عيبا ينتقد ؟ كلا ! وإنما هم يرون العيوب ولا يجرأون على إظهارها .

* * *

● **المشروعات الخيرية :**

قال أحد أعيان الاقاليم : فى هذه الايام التى كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده أحد من الامراء والذوات وكبار الموظفين والاغنياء المقيمين فى العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءا من مغارمها ، يجب على عمد القرى وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم ، يسمونها جمعية منكوبى المشروعات الخيرية ! .

* * *

● **كلما** قدرت على أن اقوم بخدمة طلبها منى صديق اسفت على خسارته وعددته عدوا جديدا .

* * *

● **أعرف** قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ! .

* * *

● أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها .

* * *

● **قادتنا :**

ليس فى مصر عالم محيط بجميع العلم الإنسانى ، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص فى العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، ولم يظهر منا فيلسوف أكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته ، أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الامم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون ــ والحقيقة المجردة عن الأوهام والاغراض أن كل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الاجنبى وعلى رغم أهلها .

* * *

● **طالب وظيفة :**

زارنى أحد أصحابى ، وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم فى هذه السنة دروسه ، وطلب منى أن أتوسط له ليحصل على وظيفة ، فمددت يدى إلى هذا الشاب مسرورا فوضع فيها يدا فاترة وسحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسى فاستحسن أن يجلس على « الكنبا » التى أردت أن أخص قريبه بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد أن تحقق من انتظام ثناياه ثم قعد ووضع رجلا على الأخرى . سألته عن الوظيفة التى يرغبها فعلمت أنه يريد أن يعين فى وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهاًفى الشهر ، فأفهمته انه يطلب المحال ، وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب ، فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الادلة على أن الحكومة إذا شاءت يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية ، فقلت له : ولكن ماهى المسوغات التى تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذى تطلب ان تتمتع به ؟ فقال : كفاءتى ، فقطعت عليه الكلام ، وكررت له ان طلبه غير مقبول فحول وجهه عنى وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت الى وقال : « ممنون ، نهارك سعيد » ، وخرج ، وتبعه قريبه بعد ان اعتذر لى بكلمتين ، فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورأيت ، وتأملت فى حال هذا الشاب ، ووردت على خاطرى احوال اخرى وقعت من امثاله معى ومع غيرى ، احوال تنذر بوجود حالة ادبية سيئة عند الكثير من شبابنا ، تجعلهم صنفا خاصا لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضى التى عاشرت كثيرا من افرادها ، ولا الشبيبة التى

عرفتها فى البلاد الغربية واختلطت بها زمنا . هذه الواقعة حركت فى نفسى حياتى الماضية ، ومثلت فى ذاكرتى صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشباب فى هذه الأيام ، وانما الفرق هو أن الشيء القليل الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السموات والأرض .

* * *

● **العبقرية** :

العقل والجنون شيئان متضادان ، ولكن حدودهما متجاورة مختلطة . وفى الحقيقة لا يعرف أحد أين ينتهى العقل وأين يبتدئ الجنون . ان كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل ، فالنبوغ فى المدارك والخيال يكون غالبا نتيجة اختلال فى هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال بشذوذ فى الأخلاق أو نوبات عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية أو افراط معيب فى تطلب الشهوات أو بالأنفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ فى الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفا أو زائدا عما تشاهد عند متوسطى الحال فى الذكاء والاحساس .

ربما كان الابداع فى الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الاعصاب والجهد فى توليد المعانى من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذى يجعل النابغة انسانا غريبا زائدا من جهة وناقصا من جهة أخرى .

بهذا قضت القدرة البصيرة اذ وضعت ميزانيتها على أتم قواعد الاقتصاد ، فإذا جاوزت الحد المقرر فى منح قوة عوضته بالتضييق والتقتير فى قوة أخرى .

* * *

● **معاقبة** الشر بالشر اضافة شر الى شر .

* * *

● **مصطلحات** :

العقل والادراك والنفس ألفاظ لا تدل على أشياء حقيقية ، بل وضعت لملكات كان يتوهم وجودها بالذات ، فى زمن كان العلم فيه قاصرا يستمد مادته من الخيال ، ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعانى إلى الفهم .

والحقيقة أن البحث العلمى لم يجد فى الحياة الفسيولوجية إلا خلايا متنوعة قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا أخرى .

* * *

● **البخت :**

اذا قدم البخت انسانا من غير معنى، انسانا لا ينفع ولا يضر، لا يفكر ولا يعمل، يدور مع الحوادث دائما ولا يديرها يوما ، انسانا لا طعم ولا لون له ، تحمله الناس ورضوا عنه ، وانما يتحمسون بالبغض والعداوة إذا صادف البخت انسانا مستحقا ! لم ذلك ؟ لأن الأول منهم وقريبهم ، يعرف لسانهم وطرق معاملاتهم فيحصل لهم أنس بوجوده واطمئنان على آمالهم ومطامعهم ، أما الثانى فهو أجنبى عنهم لا يجمعه بهم شبه فى الخلق ولا فى الفعل فيحصل لهم وحشة بوجوده ويشعرون بأنه حائل بينهم وبين أغراضهم .

* * *

● **الاسلوب :**

أجمل الفعال تتغير وتفقد قيمتها اذا وقعت على شكل غير مستحسن . يكره الرجل الفاضل ولا تثمر أفكاره مهما بلغت من العلم والحكمة اذا خاطب الناس مظهرا الاعجاب بنفسه والثقة فى عصمته من الخطأ . ويبغض الصديق المخلص اذا خالف الذوق السلم وحسن التربية فى حديثه ومعاملته مع من يحبهم . ويضيع عمل المحسن إذا اقتصر على بذل ماله ولم ينفق معه شيئا من قلبه ، فإن الناس لا يسألون كم أعطى وانما كيف أعطى . وفى الحقيقة أن طريقة العطاء هى فى الغالب أحسن مما يعطى .

* * *

● **مصطفى كامل :**

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى :

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الاصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ،

وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله . وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من احشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل ! .

* * *

● الحب :

أكثر الناس لا يفهمون من الحب إلا أنه تمتع يشبه أكلة لذيذة اذا حضرت أكلوها هنيئا ، واذا غابت استعاضوها بغيرها . والحقيقة أنه احساس عميق يستولى على النفس كلها ، ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل إلى الشمس والغريق إلى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفيها ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا ! ومرض يقاسى فيه العاشق عذابا يظهر باحتقان فى مخه وخفقان فى قلبه واضطراب واختلال فى نظام حياته ، يظهر على الاخص فى الأكل وفى النوم وفى الشغل ، ويجعله غير صالح لشىء سوى أنه يقضى أوقاته شاخصا إلى صورة محبوبته ، مستغرقا فى عبادتها ، ذاكرا أوصافها وحركاتها واشاراتها وكلماتها . نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا ، وتجعله يتخيل أنه ماش فى طريق مغروس بالورد أو راكبا سحابة وطائرا فى المرتفعات العالية فوق قريب السماء! فى هذه اللحظة يكون سعيدا أسعد من أكبر ملوك الأرض ، فاذا انقضت عاد إلى ماكان فيه من العذاب والالم .

* * *

● كل مذهب جديد يكره من أجل الحقيقة التى يحتوى عليها ، ومع ذلك فإنه لا يعيش إلا بهذه الحقيقة .

● **قصور اللغة :**

كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئا عاديا أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن مافى نفسه بقى فيها مختفيا .

لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة .

* * *

● **الحب :**

أول الحب هزل فى الغالب وآخره جد .

فإذا كانت علاقات الحبيبين ترمى إلى اختلاط الارواح وتعانق النفوس واختيار الرفيق الوحيد كانت هذه الغاية الشريفة دليلا على رقى الاخلاق وعلو الشعور ، ومنبعا مستمرا يتفجر منه الخير لها ويفيض على الناس . لم ذلك ؟ لأن العشق هو الاخلاص وبذل النفس للغير ، وذلك هو كل ماتبتغيه التربية الأدبية .

* * *

● قلما توجد حقيقة لايختلط بها بعض الخطأ ، وقلما يوجد خطأ لايختلط به بعض الحقيقة ، لذلك يجمل بنا أن نسمع كل قول .

* * *

● **السرور :**

أكبر سرور السرور الوحيد الذى يخفف عن الإنسان حمل الحياة ويرغبه فى بقائها ، وينسيه الزمن والساعة ويجعله يتمنى أن يحكم عليهما بالوقوف ، هو أن يوجد فى بيت صديق عزيز ويجلس على كرسى يستريح فيه محاطا بأشياء اعتاد أن يراها بنظره ويلمسها بيده وفى هذا الجو الذى يشرح صدره ويسكن أعصابه يقضى زمنا من الليل فى إحراق سجائر وهو ينظر إلى الدخان الذى يتصاعد منها إلى السقف ، يتحدث مع أشخاص يحبهم فيخاطبهم ويسمعهم بلا تكلف ولاتحضير ولاحساب يفتح قلبه ويفرج على احساساته المحبوسة ويترك زمام عقله فيسير على هواه يمشى ويرمح وينط فرحا بحريته فى اختلاط الأفكار وائتلاف القلوب ، يجد على هذا الشكل لذة مسكرة لاشبيه لها .

● **الوصول :**

أسهل الطرق للتقدم وأكثرها استعمالا هو أن يترقب المترشح عربة تجر رجلا يشغل مركزا عظيما فيرمح وراءها ويتعلق فى عجلتيها الخلفيتين ولايتركها مهما سب أو ضرب بالكرباج حتى يصل إلى المحل المقصود !.

* * *

● **تناقض :**

تجرى أمور الدنيا كأن القدرة الإلهية لاتلاحظها ، أو كأنها تحابى الجبناء وتبارك فى أعمالهم وأعمارهم وأموالهم وذريتهم !.

* * *

● **النفس :**

النفس الضعيفة تنحنى للقوى وتنكمش أمام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة ، وبعكسها النفس القوية تجد فى اظهار جرأتها على هؤلاء وأمثالهم منفذا يخرج منه مايزيد عندها من القوة عن حاجة حياتها .

أسبابٌ ونتائجُ

[دراسة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع .. كتبها قاسم أمين فى شكل مقالات ونشرها ـ أولا ـ فى (المؤيد) دون توقيع .]

تقديم

يشرح المؤرخ اطوار أمة فى زمن من عمرها ، بتعريف اخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها وحالتها الاقتصادية والسياسية ، داخلا وخارجا ، وما هى عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين فى خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة حتى يخيل للقارئ مع ذلك البيان والشرح والتعريف المفيد ، أنه كان عائشا فى وسط أهلها ، وقد لايعتنى إلا قليلا بسرد الحوادث ، كما يفعله مؤرخونا ، بإجلائها أمام أبصار الطفل وهى تكاد تروغ من الدهشة والاستغراب .

وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى .

وكما يفعل المورخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال ، فيدرسون زمانهم درسا تاما ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم حتى يتبين لهم ماهم عليه بكيفية لاتقبل الشك . إن هذه الأمور إنما هى العلل التى انتجت تلك الحالة ، وأن تغييرها لايكون بالصدفة ، وإنما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائما متلازمان عقلا وعادة متى وجد أحدهما وجد الآخر حتما .

وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله ، فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل .

وهذا القانون الإلهى وإن كان لايظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية :

أولاً : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الإنسانى هى فى الحقيقة فى أول نشأتها وعلى حداثة عهدها .

وثانياً : لأن الحادثة الاجتماعية لاتتكون من سبب واحد بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة .

وثالثا : لأنها تظهر دائما أنها تحت ارادتنا وأن لنا سلطة فى إيجادها وإعدامها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره .

وآية (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١٣٩] هى أساس لذلك القانون وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه القضية كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجالا أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها بإصابة إدراك .

على أن حالة الأمة فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل إنها نتيجة لازمة لاتتغير إلا إذا تغير مابنفس تلك الأمة .

فإن كانت أمة نشيطة مترىبة متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا ، وإن كانت كسولة جاهلة ذات اخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها .

والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول ، فهى لاتتغير أبدا إلا بحال آخر ، بمعنى أن إرادة شخص أو مائة أو اصدار قانون أو مائة قانون كل ذلك لايؤثر فيها بشىء محسوس .

وعليه فإذا أراد من يهمهم اصلاح أمتنا من رجال الحكومة وابنائها الذين يفتكرون فى الطرق اللازمة لاخراجها من حالها ونقلها إلى حال آخر أن يفعلوا شيئا نافعا : فعليهم أن يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها ، مهما كانت مرة المذاق أو مخجلة ، وأن يربوها على التجمل بالعوائد الحسنة إن لم يكن بالتأثير على معاصريهم فعلى ذراريهم من بعدهم .

ولذلك شرعت فى هذا العمل ، باحثا عن حالتنا الحاضرة ، لامن جهة السياسة ، فإنى لست مشتغلا بها إلا من حيث كونى مصريا أحب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى وللسياسة الآن رجال قائمون والحمد لله بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال ، بل من الجهات الأخرى كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين .

والغرض الوحيد الذى أسعى وراءه إنما هو الوصول إلى الحقيقة ، لأنها وحدها هى التى تحتوى على البذور الجيدة التى تنمو وتثمر .

---

(١٣٩) الرعد : ١١ .

الحالة الاقتصادية فى مصر

اعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة

تقول العامة : «إن مصر أم الدنيا » ، والاصح اذا قورن بينها وبين مدن الممالك الاخرى مثل لندره وباريس وهامبرج وبروكسيل وأمثالها أن تسمى « خادمة الدنيا » ، لانها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة ، كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قذرة فى جانب عروس متجلية بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها .

وفى الحقيقة ان مصر بلدة فقيرة جدا ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشيء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا ، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين :

الاول : يشمل التجار والصناع ، وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالى ملىء .

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا مّا فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم ان حيل بينه وبين مرتب المعاش شهرا واحدا وقعوا فى العسرة والضنك الشديد .

أما أرباب الاطيان ، من الذوات والعمد والمشايخ والاعيان فى البلاد ، فحالهم كحال « رابيل » المؤلف الفرنساوى المشهور اذ قال فى وصيته : « انى لا أملك شيئا ، وعلى ديون كثيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء ! » .

والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها ، مادام فقرها ، ان تؤمل خيرا فى المستقبل . لان حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، اذ بالمال يتم كل شىء ، وبغير المال لا يتم شىء مطلقا .

والمملكة لا تكون غنية إلا اذا كان أهلها أغنياء ، ولذلك قال أحد السواس المشهورين : أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة ..

وعلى هذه القاعدة وجهت كل أمم أوروبا التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء ، فأنشأت نظارة للتجارة وللصناعة وللمستعمرات ، وأكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل ، والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد : فلا تتأخر واحدة منهن عن بذل المال والروح فى توسيع دائرة تجارتها ، وفتح الأبواب لتصريف مصنوعاتها ، حتى أن

رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لابد من الحرب يوما بين انكلترا وألمانيا لأن المنافسة بين الامتين فى جميع انحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن إحداهما لايمكن أن تستمر فى طريقها إلا إذا سحقت الأخرى .

ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك إلا الاشراف على ميدان هذا التنافس للتفرج على المتنافسين ، والاعجاب بهذه الأمة والاستهزاء بتلك ، كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا إلى هذه الدنيا للتفرج على أهليها أياما معدودة ثم العودة إلى أوطاننا بعد ذلك بسلام .

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن ، نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منهما ان يبتلعها فى جوفه .

وبمثل تلك المساعى المتقدمة توصلت الأمم إلى اقتناء الثروة ، وكثر فيها الأغنياء والماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات .

ولكن الشىء المهم الذى أرجو ملاحظته هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هى نتيجة عمل صاحبها . ترى الرجل مثلا فى أمريكا يبتدئ فى تجارة أو صناعة حقيرة فيصل بعد بضع سنين إلى مصاف الماليين الذين يحرزون الملايين . فلماذا ؟ ـ لأنه يشتغل ليكسب فالواحد منهم يشتغل دائما ، يشتغل فى النهار ، ويفكر فى شغله بالليل ، وهو قد تربى على أن يشتغل ، وتربى على أن يعتمد على نفسه (وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)[١٤٠] . فالتربية والعادة قد أوجدتا فيه الاقدام على الشغل والعمل فهو يتفكر فى كل شىء ، ويلاحظ كل شىء ، ويجرب كل شىء ، فإن وصل فاز ، وشجعه النجاح على الاستمرار ، وإن خاب ووجد فى طريقة عقبة ولم يستطع ازالتها بهمته استأنف السعى فى عمل آخر ، أو فى نفس العمل من طريق آخر ، فهو على كل حال حى ثابت عامل ، جسمه يتحرك ، ومخه يؤدى وظيفته كأنه آلة ، متى غادر سرير نومه فى الصباح أدار دولابها فتدور وتستمر دائرة إلى وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم .

وعلى العكس من ذلك الواحد منا معاشر المصريين ـ أو الشرقيين كافة ـ فهو كالبرزون الذى يعلق فى الساقية ، يمشى الهوينا خطوة فخطوة وعلى عينيه غماء ، وقد يقف بعد كل خطوة حتى يسمع صوت «الفرقلة»[١٤١] فيجاهد بنفسه خطوة ثم يقف ، وهكذا حتى المساء حيث يقدم له

---

(١٤٠) النجم : ٤١ .

(١٤١) اداة تنبيه وضرب للحث على العمل خاصة بالحيوان .. وهى من أدوات الفلاحة ، تصنع من الكتان أو =

« علفه » فيأكله ، طيبا أو رديئا ، ثم يهوى بجسمه كالشبح المرضوض على الأرض فينام تعبا كسولا ، بل مكسرا مهشما حتى الصباح .

(الاستقلال فى المعيشة قبل كل الاستقلال)

إن أول شيء يجب على كل فرد من أفراد أى أمة أن يكد فى طريقة تضمن له معيشته ، ان لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلى الأقل لايعود منه ضرر عليها ، لأن أمر معيشة الإنسان هو فى مقدمة كل احتياجاته .

فعلى كل نفس تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب أن تكون مستقلة ، غير محتاجة للغير ، تكفل نفسها بعملها ، ولا يباح لها مطلقا أن تكون عالة على غيرها .

ولكن من الأسف نحن نرى فى مصرنا عددا غير قليل من أهليها عائشين بكيفية تأباها كل طبيعة شريفة ، فقد لا يخلو بيت من وجود شاب أو رجل بلغ الأشد أو كهل ذى أعصاب قوية وقامة قويمة مقيم فيه آكلا شاربا بحجة انه قريب لصاحب المنزل أو صاحبته .

وربما كان هذا الرجل مستخدما فرفت فلا يلبث أن يحتل دار أحد أقاربه احتلالا أبديا ، يأوى إليها ويأكل منها ويمضى أكثر أوقاته فى النوم . وإذا لم يكن نائما تراه جالسا على كرسى أمام الباب أو على حانوت أو قهوة مجاورة له ، وفى الغالب تكون فى يده سبحة يحرك حباتها بأنامله . وقد يذهب إلى الجامع فى أوقات الصلاة ان كان من الأصل صالحا أو طالحا وأناب إلى الله مؤقتا بعد رفته ، حيث يستمر كذلك إلى أن يعود إلى الخدمة فيعود إلى فسوقه .

ويعيش على هذه الحال الأيام والشهور والسنين بلا سعى ولا عمل ولا حركة . وإذا تحرك وسعى يوما فقصارى جهده أن يذهب إلى أحد دواوين الحكومة ليستعطف رؤساء المصالح أن يذكروا اسمه عند خدمة تقوته ويعيش منها .

ومركزه فى المنزل الذى يأويه مركز حرج ، فلا هو سيِّد ولا هو خادم ، وهو فى الحقيقة ممقوت من الاثنين وناقم عليهما ، حيث يخيل له أن قريبه قد مل مقامه عنده ، وصار يلحظه شذرا ، أو يغض عنه النظر ، أو لا يعطيه مايكفيه من الدخان ، أو لا يفتكره بخمسة قروش

= (التيل) ، أعلاها أغلظ من طرفها الأسفل ، ويدها مصنوعة من الحديد تسمى (الدهقس) ، وباليد «حلقات» تحدث بالاهتزاز أصوات التنبيه للحيوان .

فى اليوم ، وأن الخادم يعامله بالخشونة ، أو لا يسمع كلامه كثيرا ، أو يسخر منه ويزدرى به من طرف خفى . وهكذا .

وإذا خلا بصاحب له يقول له : ماذا أصنع ياأخى فى هذا الوقت الصعب ، والحكومة أقفلت أبوابها فى وجوه أبنائها ؟ ! .

ماذا تصنع ؟ ! إذا أنت أصغيت لنداء ضميرك فاصنع كل شىء :

كن تاجرا ، كن مزارعا ، كن صانعا ، كن خادما ، كن كيفما تستطيع أن تكون ، فإنه أحسن لك وللناس مما أنت فيه .

هب أن الحكومة قررت ألا تأخذ من الآن موظفا مصريا ، فهل يموت المصريون جوعا ؟ ألا تنظر كيف يصنع الاجنبى ؟ ـ ولا أتكلم عن الانكليز فى بلادنا فإن لهؤلاء نفوذا ظاهرا ـ ولكن أتكلم عن الرومى والارمنى والسورى والهندى والعجمى والطليانى وأمثالهم .

أنت تعلم أن الفرد من هؤلاء يأتى خالى الوفاض ، صفر اليدين ، فيبتدئ شغله بحرفة صغيرة ، مهما كانت دنيئة هى أشرف من البطالة التى هى حرفة الكثير من المصريين . وهو إذا ربح اليوم قليلا قليلا فقد ينمو وتزداد ثروته بعد ذلك حتى يصل إلى أعلى درجات الثروة . وأنت أيها المصرى البطال ، ابن البلاد ، وأدرى بما فيها ، ولك فيها القريب والحبيب ، فلماذا لاتفعل كما يفعل النازحون إلى بلادنا ؟ .

أنا لا أجهل أن للإنسان على الإنسان ، وخصوصا على القريب ، حقوقا مقدسة ، وان مساعدة ذوى القربى واجب دينى واجتماعى ، ولكن ليس من الواجب بل ولا من البر مساعدة الكسلان والتشجيع على البطالة ، إنما البر عند الاحتياج الحقيقى ، وهو يكون إذا وجد المانع عن الاحتراف والتكسب .

أما مساعدة الشخص القادر على العمل فيجوز أن تكون وقتية لعذر طارئ ، ويجوز أن تكون لتحسين حالة شخص يكسب قليلا . ولكن من العبث أن يقوم شخص بجميع حاجات شخص آخر ، ومن العار على هذا أن يقبل مثل هذه المعيشة وألا يرضى بحال كل حرفة مهما كانت منحطة فى أعين الناس فلا يمكن أن تكون أحط منها .

ولهذا أتمنى قبل كل شىء أن أرى يوما جميع أهل بلادى مستقلين فى معيشتهم يعيش كل فرد منهم بنفسه .

* * *

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا)

أجزل وصية نطق بها الإنسان للإنسان : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ونحن نقتصر على الوصية الذهبية الأولى ، لأن المصريين أصبحوا فى خمود أشبه بالموت فهم الآن أعوز إلى التذكير بالحياة منهم بالموت .

من البديهى ان الإنسان لايشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد . فعلى الإنسان أن يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالتيه المادية والأدبية . فإن كان يكسب فى اليوم قرشين فعليه أن يجتهد فى توصيلها إلى خمسة ثم إلى عشرة وهكذا . أما المحافظة على حالة معيشة دنيئة فذلك أمر لا يرضاه إلا قليل الحيلة قليل العقل قليل الشعور بمزية الحياة الطيبة ، ان لم يكن عديمة بالمرة .

ومن الأسف اننا قد وصلنا بالخمول الذى حافظنا عليه فى المعيشة إلى حدود السكون فالموت .

سر يوما بين الأسواق المصرية القديمة تجدها كما كانت قبل الطوفان حقيرة غير منظمة . لا تحرز إلا نوعا أو نوعين من أصناف البضائع العتيقة المهجورة الاستعمال ، وتشاهد صاحب الدكان يجلس من الصباح إلى المساء فى شرب الدخان ومطاردة الذباب عائشا عيشة بهيمية لا يتخللها تصور ولا فكر إلا إذا كان وقيعة بالغيبة والنميمة فى حق جاره .

ان حضرت اليه امرأة أجلسها بجانبه واخذ يحاذبها أطراف الحديث ساعة أو ساعتين ، وإن حضر له رجل أجلسه وأمر له بالقهوة ، ومن بعد التحيات والسلام والاكرام يتبادلان الأخذ والعطاء ، فالمناقشة فالجدال والنزاع كخصمين لدودين ، فالأيمان الكاذبة ، ثم ينتهى الحال على أن يبيع قطعة أو قطعتين كل النهار فيربح قرشا أو قرشين .

نترك هؤلاء وننظر إلى طائفة أخرى من أرباب الاشغال العقلية ، فترى هذا الطبيب أو ذاك المهندس مستخدما فى الحكومة بمرتب قليل ، نحو خمسة أو عشرة جنيهات فى الشهر ، يعيش بها هو وأولاده وزوجته ، وفى الغالب انه يعول واحدا أو اثنين من أقاربه ، فإذا خرج من ديوانه أو فرغ من أداء وظيفته الذى لا يستغرق إلا سويعات من نهار ، قضى بقية أوقاته فى الزيارات والقهاوى .

فهلا خطر ببال ذلك التاجر أو هذا الطبيب أو المهندس وأمثالهم أن يخرجوا من هذه الحالة الدنيئة ، وان يزيدوا فى أعمالهم فيزيدوا فى جنى ثمراتها ؟ ! .

وليس الغرض من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف إلى العلاء ، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى فى استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وان يستعمل مايزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية فى ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة ، وان يأتى من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع مايغبط غيره على فعله .

ولا تحسبن ان المانع من اهتمام المصرى بترقية شأنه قناعة فى النفس وزهد فى الاموال ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الامر كذلك ما وجد مصرى حاسدا غيره على نعمته ولا ناظرا لذى غنى نظرا شذرا . والمصريون كلهم بين شاك ومشكو من هذا الحال ، فالمصرى اذا طماع كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره . ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه .

فهو اذن يحب أن تمطره السماء ذهبا وأن تنبته الأرض فضة . يحب أن يكون أغنى الناس على شرط ألا يتعب جسمه ولا يجهد فكره .

والسبب فى سقوطه هذا أمران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فانها بغدرها وظلمها أضاعت الامانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ، ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل .

والثانى : سوء تربيته ، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الاعضاء والجلوس ساعات ، بل واياما ، على المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ ، وترك النظر فى الاشياء ، مع شدة التمسك بالاقوال والامثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتكرار سماع القصص والاحاديث التى وضعت فى الأصل لتسلية الفقير وازالة الاحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة . ولكن غشيتنا جهالتنا وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها وحشيناها ووشيناها حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا . كل ذلك قد انتهى مع الزمن ، وبتأثير الوراثة الى اضعاف قوانا شيئا فشيئا . فاذا نادينا يوما أعضاءنا وطلبنا منها حركة مهمة ، ولو كانت صغيرة خانتنا فلا تسمع نداءنا ، واذا سمعت وأردنا الاستعانة بأفكارنا وهنت فطاش سهمنا . وعلى كل

حال فلا نلبث أن نشعر ونحس بعجز أنفسنا فلا نجد لنا ملجأ إلا الراحة التى اعتدنا عليها وبئس المصير .

وهذا هو السر فى أن جميع الاعمال القليلة التى شرعنا فيها كتأسيس مدرسة أو انشاء جمعية أو تشكيل ناد أو عقد شركة لم تعش إلا بقدر ماتعيش الوردة .

* * *

(لماذا لا يوجد فى مصر أغنياء ؟)

كان المصريون إلى عهد غير بعيد ينظرون إلى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون انها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار . والى الآن لايزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ووضعوا النشانات على صدورهم وعلقوا فى مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم إلى الأرض تخيلوا أنهم من انسانية أخرى أعلى من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم ويباشرون بأنفسهم حل وعقد البضائع ويقفون فى حوانيتهم باشين فى وجوه الوافدين منتظرين أن يطلبوا منهم شيئا فيحضروه بين أيديهم فى الحال . وهم يرون كل خدمة غير أميرية وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها .

ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة إلا فئة قليلة برهنت على إرادة واقدام وأصالة رأى تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها ولو قارن أى إنسان لم يعمه الجهل بين هؤلاء التجار الذين دخلوا فى ميدان الحياة وألقوا بأنفسهم فى معامع الكفاح والتنازع حتى خرجوا منها فائزين ، وبين أولئك الذين منبع ثروتهم فى الأغلب العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! .

وقد مرت على أوربا أزمان كان فيها أمراء البلاد متى قدم لهم رجل يسألونه : ابن من أنت ؟؟ . ثم أتى حين بعد ذلك كانوا يسألونه فيه : ماذا تصنع ؟؟ . والآن لا يسألون إلا عن قيمة الشخص فى حد ذاته من حيث مبادئه وأعماله .

ونحن لانزال على شىء كثير من تلك الأوهام والوساوس القديمة ، متعلقين بأهداب خدمة الحكومة ، معتبرين انها أشرف مطمح .

وأنا أخاطب اليوم كل أب لابن وأسأله : ماذا يقصد من تعليم ابنه ؟ فاذا قال : انه يريد أن يهيئه لخدمة الحكومة فقط ، لينال الشرف والرتب والوسامات مثله ، فليس لى معه كلام ! . واما اذا كان ممن يحسبون ان خدمة الحكومة هى الطريق الذى يضمن مستقبل ولده فليعلم انه مخطئ خطأ فاحشا .

ولست محتاجا قبل كل شىء أن أذكره بأن زمن العطايا قد انقضى ، بل يكفى أن أثبت له أن قد صار من المستحيل اليوم أن يصل الانسان من طريق الحكومة ـ لا إلى الثروة حيث الامر واضح جلى لا يحتاج الى دليل ـ بل الى درجة من اليسر الذى بدونه لا يمكن الانسان فى وقتنا الحاضر أن يقوم بجميع حاجاته .

ولتوضيح ذلك نضرب للقارئ مثلا :

خرج الشاب من مدرسة الطب وفى يده شهادته ، فاذا أراد أن يستخدم فى الحكومة عينته حكيما لأحد المراكز ، ولكن بعد انتظار سنة على الاقل ، بمرتب متوسطه سبعة جنيهات . ثم ان كان له حظ بعد ذلك ـ وهيهات هذا الحظ ـ ترقى كل ثلاث سنوات مرة بإضافة جنيه أو جنيهين على مرتبه .

فإذا وصل مرتبه بعد عشرين سنة الى عشرين جنيها مثلا كان محسودا من جميع اقرانه .

ولا يختلف مستقبله عن مثل ذلك ان كان مهندسا أو متشرعا أو كاتبا أو معاونا .. الخ .

هذا اذا استمر فى وظيفته كل هذه المدة ولم يرفت بالاستغناء أو مجلس التأديب . أما اذا رفت ، ولم يكن له معاش ، أوكان له معاش قليل ، فحسبك أن تراه بعد ذلك تعيس الحظ فى حيرة لا يدرى معها ماذا يصنع بعد أن نشأ وشب مطبوعا على التوكل على الله ثم على الحكومة ، وبعد أن قضى أحسن وقت فى عمره بدون مجاهدة نفس وتفكر وبلا شغل يذكر .

ولو فرضنا الآن أن الشاب اعتاد من أول نشأته على أن يتوكل على الله ثم على اشتغاله وكده ، وسارت معه وظائف فكره وأعضائه تنمو بدوام الشغل والعمل ، وطار بأجنحة آماله فى الدنيا ، وذاق حلاوة الكسب من عرق جبينه ، فلا تراه بعد تعب عشرين سنة ، كالتى قضاها ذلك الموظف ، إلا ذا ثروة عظيمة ما لم يكن خلقه الله مجردا عن كل استعداد طبيعى .

فعلى الآباء أن يعدوا أبناءهم الى غاية الوصول الى السعادة ، وان يفتحوا أمامهم أبواب

الآمال ، لأنها أبواب الثروة الحقيقية ، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، وأول شيء يجب أن يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة .

إن الأوربيين يجمعون الأموال الهائلة ، لا لأن الله خلقهم أشد منا عضلا وأتم تركيبا ، ولا لأنهم أوتوا مفاتيح كنوز خفية لايمكن أن نصل إليها نحن ، بل لأنهم فهموا أن التجارة هي علم الثروة ، وهي علم حقيق لايقل في الفضل عن أشرف العلوم ، يدرس في المدارس ويتمم بالاختبار والعمل ، ويوجد الآن في ألمانيا عشرون ألف تلميذ يتعلمون التجارة في المدارس وتوجد في النمسا اثنتان وستون مدرسة تجارية يتعلم الشبان فيها مسك الدفاتر ونظام البنوك والحساب والرسم والقانون التجاري والجغرافية الاقتصادية وقيمة النقود باختلاف البلاد والتأمينات واللغات الأجنبية .

وفي انكلترا وفي أمريكا كل تربية لا تعتبر تامة إلا بعد أن يمكث الشاب ستة أشهر أو سنة في مدرسة تجارية .

فالاوربيون اذن لم يصيروا أغنياء إلا بسببين :

الاول : احتقار الاستخدام في وظائف الحكومة وعدم الالتجاء اليها إلا عند الحاجة .

والثاني : احترام التجارة والاقبال عليها أكثر من اقبالهم على بقية العلوم الاخرى .

ونحن على عكس ذلك : نحترم الوظائف الاميرية ونعدها منتهى الفخار والشرف ، ونحتقر التجارة ، ولا نقبل عليها حتى عند الحاجة المطلقة ــ فكان نصيبنا الفقر الأسود .

* * *

(لماذا لا يوجد في مصر أغنياء ؟ أيضا ..)

لأنه علاوة على الاسباب التي سردناها في الشذرات الماضية ، يوجد سبب مخصوص يجب الالتفات اليه : ألا وهو سوء تربية الاولاد .

فقد وجد في مصر عدد كبير من الرجال الذين أحرزوا ــ اما بكدهم وجدهم واما من عطايا الولاة السابقين ، واما من مجموع ذلك ، أو من طرق أخرى لا حاجة لذكرها الآن هنا ــ ثروة تذكر في مصر ، ولكن لسوء حظهم أو حظ الامة المصرية الاسيفة انهم اعتنوا بجمع الاموال جهد الطاقة ، ولم يعتنوا مطلقا بتربية أولادهم .

ولهذا شاهدنا ونشاهد كل يوم انه متى فارق الاب الحياة الدنيا ، وقبل أن تجف دموع الباكيات عليه ، تستطير نيران الشقاق بين وارثيه ، بانين منازعاتهم على الطمع والغباوة والعناد حتى يخسروا الجزء الأعظم من التركة بين مصاريف قضائية وأجر للمحامين ، ثم اذا كانت بقية بعد ذلك ألقوها فى حجر عاهرة ، أو بعثروها على طاولة القمار ، بحيث لا يمضى على الوارث الجديد بضعة أشهر أو بضع سنوات حتى يكون فى حالة يرثى لها .

ولو كان المتوفى رحمه الله التفت الى تربية أولاده عشر ما التفت الى جمع المال ، فغرس فيهم الاخلاق الحسنة ، وأفهمهم ما هى المعيشة ، واشركهم فى أعماله وأفكاره ، وفتح عيونهم فى منظر الدنيا الحقيقى ، وأيقظ عقولهم ، لحافظوا على ما ترك ، وجعلوه فى المزيد .

وان الثروات الطائلة الهائلة التى نشاهدها فى أوربا أو نسمع عنها ليست ثمرة عمل شخص واحد ، بل يشترك دائما فى تكوينها عنصران أو ثلاثة ، فتنتقل من شخص لابنه فحفيده ، وهكذا تنتقل نامية مضاعفة .

ولذلك ترى بيوت تلك البلاد السعيدة على الحالة التى تركها عليها الاب أو الجد أو هى ــ على الغالب ــ أحسن مما كانت عليه .

ترى هنالك بيوتا محترمة تمضى عليها العشرات من السنين ، بل القرون ، قائمة جميلة تذكر اسم مؤسسها ، وتشهد لحائزها الحالى بأنه من نسل عريق فى النعمة والمجد والشرف : هذه الصفات التى تلازم دائما الانسان الذى يبرهن على قدرة فى العمل .

أما عندنا فالامر على العكس من ذلك : نشاهد بيوت ذواتنا وكبار سراتنا أياما معدودات ، ثم لا نلبث أن ننساها بالمرة بعد موتهم .

يكون الرجل منا فى كوكبة جلال وأبهة ومظهر نعمة فخيم ، ثم إذا قضى نحبه شاهدت البيت الذى كان بالامس كعبة الوفاد والقصاد ، مظهر النعمة والجلال والجمال ، على عكس حالته الاولى : خاويا كئيبا خربا ، يسكنه العنكبوت والبوم والفيران والجرذان ، أو يسكنه غلام لا يليق الاجتماع به .

على انه لو كان تبديد الثروة على هذا المنوال راجعا بالفائدة على أهل البلاد بحيث يخرج المال من يد الوارث الى أيديهم لكان الضرر محتملا . ولكن كل يعلم انه توجد طائفة من سكان القطر

تطوف دائما متخللة المنازل والجدران ، فمتى أبصرت تركة مفتوحة حديثا حامت حولها وتزاحمت على الوارث كما تجتمع الطيور المفترسة على الجيفة .

يتقدمون للوارث يبذل المال عن كرم حاتمى فيظن هذا المسكين انهم اخوان صفاء ورجال مروءة فيكب عليهم بجميع أهوائه ويقترض منهم ويمضى على أوراق لا يفهمها ، ثم يستمر كذلك على أن يسلسل منهم دينارا بعد درهم ومئات بعد عشرات حتى اذا آن الوقت المناسب ونضج لحمه واستوى ، انقضوا عليه بمخالبهم وطعنوه الطعنة القاضية على حياته .

ذلك هو تاريخ كل ثروة فى مصر ، إلا بعض مستثنيات نادرة . ونحن نراه كل يوم ونسمع ونتحدث به ونأسف عليه ، والاغنياء أنفسهم يعلمون مصير ثروتهم من بعدهم ، ولكن نراهم مع ذلك يتثبتون من النتجة ولا يفتكرون فى المقدمات والوسائل التى تزيلها ، وأن افتكروا فلا يعملون لإزالتها ، وان عملوا أهملوا أهم شيء وهو التربية ، لأنها شيء صعب يحتاج الى عناية جسيمة ومراقبة مستمرة غير متقطعة .

كثيرا ما يتخذ أغنياؤنا بعض احتياطات لحفظ ثروتهم من بعدهم ولكنها فى الغالب لا توصل للمقصود ، وقد يترتب عليها أعظم ضرر للهيئة الاجتماعية مثل أن يقفوا أملاكهم — كما سنبين ذلك .

* * *

(الوقف ونتائجه)

اذا نظرنا الى القصد الاول من الوقف ، من حيث هو ، وجدناه من أجمل مزايا الشريعة الاسلامية ، لأن تجرد الشخص من أملاكه وتخصيصها فى حياته أو بعد موته لعمل خيرى هو أمر لا يصدر إلا عن نفس طيبة وعواطف شريفة وأميال بارة وفكر عال .

ومقصد شرعنا الشريف من تشريع الوقف ألا تكون حوائل بين نية الخير وعمله ، فسوغ لكل انسان عنده نزعة الى الخير أن ينفذ قصده مهما كان وبأى طريقة شاء وفى أى وقت أراد .

وهذه الحرية التى لم يصل الى درجتها كثير من الشرائع والقوانين الاجنبية ، وعلى الاخص القانون الفرنساوى ، قد لوحظ بلا ريب عند سنها فى شريعتنا السمحاء أن تتشعب طرق الخير

فى ملتنا ، وأن تعود منها الفوائد الجمة على العالم الاسلامى . ولا مراء فى أن خير وجوه النفع للمسلمين انشاء المدارس لنشر التعليم ومعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والبائسين ، وما يشابه ذلك من الاعمال النافعة العمومية التى تحفظ حياة الامم وتزيد فى قوتها .

وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف أزمانا طويلة . فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التى تعطى لطلبة العلم الفقراء ونرى آثارها العديدة أو معالمها القائمة منتشرة فى البلاد طولا وعرضا تشهد لأجدادنا ــ (أولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) ــ انهم كانوا رجالا يعملون بعقل وروية لإصلاح شئون بلادهم ومنافع أمتهم .

أما الآن فقد صار الوقف من الاعمال الاحتياطية التى يتخذها الاغنياء ضد أولادهم . فالواقف صار أول قصد له أن يحبس المال ، لا لفعل الخير ، بل ليحول بين ورثته وبين تبديده . وهو إن كان يترك منفعته بعد انقضاء ذريته الى محل خيرى فذلك لأنه يرى من المناسب أو الواجب عليه أن يجعل عمله مطابقا فى الشكل لأحكام الوقف . ففكرة الخير من عمله آتية على سبيل اللزوم والتبعية . وما القصد الاول كما قدمنا إلا أن يغل أيدى أولاده الذين يعلم أنهم أغبياء جاهلون وفسقة مبذرون ، وكأنه لا يدرى أن الابناء اذا كانوا على هذه الصفة فكل احتياط معهم ذهب هباء منثورا .

ونحن مما نشاهد ويقع بين أيدينا كل يوم يمكننا أن نحكم : هل منع الوقف شيئا مما كان يتوقعه الواقف ؟ هل أدى الوقف الوظيفة الحقيرة التى أراد الاغنياء أن يستخدموه فيها ؟

ألم تدلنا المشاهدات والتجارب كل يوم على أن الاولاد اذا لم يكن لهم رادع من أنفسهم فهم بحكم الضرورة خاضعون لتأثير الشهوات المنتجة للفقر والعسرة الشديدة فيستدينون حتى يستغرق الدين ايراد الوقف فى الحال والاستقبال ؟ ألسنا نشاهد الاملاك الموقوفة فى جميع القطر شرقا وغربا وكيف آلت الى الخراب بسبب تنازع المستحقين وسوء ادارة النظار ؟ ألم يصل الى علم الجميع أن الاملاك الموقوفة تعامل الآن كما تعامل الاموال المباحة ، وهى مطمح الكل ، وكل يريد ان يختطف منها نصيبا ؟ .

ولئن اعترض علينا بأن اكثر الاعيان الموقوفة فى كفالة الاوقاف فأصبحت فى حرز المثل ومشمولة بادارته . فالجواب أن ديوان الاوقاف لا يمتاز على غيره من نظار الوقف إلا من جهة واحدة وهى انه يفعل كبيرا ما يفعله النظار صغيرا ، وان هذه المصلحة فضلا عن سوء ادارتها الظاهرة ، سواء فيما يختص بتنمية إيراداتها أو بطرق صرف أموالها ، قد فقدت أميال الأمة

وثقتها ، لأنها ، فوق إهمالها الأعمال العمومية النافعة ، قد تحولت عن الغرض العام الذى أنشئت لأجله ، وهو اعطاء الحق لذويه ، فصارت أكبر خصم يصادفه المستحق إذا طلب حقه .

ولو كان لمصر نصيب من الحظ لكانت هذه المصلحة اليوم كشجرة عالية منبسطة أغصانها الباسقة حيث يلتجئ إليها ويستظل بها فقراء الأمة كلهم ، أو كقلب الأم الذى يخفق إذا هى حزنت أو فرحت ، ويمد عروقها وشرايينها بالدم الذى يهبها الحياة الطيبة .

فبالله كيف تصبح المصلحة الكبيرة النفع كآلة لهو فى أيدينا نلعب بها ونحن نتلفها كما يتلف الطفل كل ألعوبة تقع فى يده ؟ ! .

ويا ليت شعرى كيف يتحول استعمال الشرائع فينتج نتائج مختلفة بقدر ما يوجد من اختلاف وجوه تنفيذها ؟ وكيف أن الاخلاق تؤثر على القوانين والنظامات فتغيرها وتقلبها وتفسدها وتحول بينها وبين الوظيفة التى وضعت لأدائها ؟!.

ولقد كنت هممت أن أنصح الناس ألا يقف أحد شيئا من ماله ، ولكن أمل النفس تغلب على همامتها . فاذا لم يكن عندنا رجاء فى اصلاح الماضى فلا شىء يمنعنا — اذا أردنا — أن ننظر الى المستقبل من ان نرد الى الوقف اعتباره الشرعى وذلك يكون بأمرين :

الاول : أن يخصص الواقف منذ الآن جزءا ، قليلا أو كثيرا ، ليصرف من اليوم الذى يبتدئ فيه تنفيذ الوقف على مصلحة عمومية يعود نفعها على البلاد ، كمدرسة أو كتاب أو مستشفى أو اجزاخانة أو مساعدة الفقراء الذين يشتغلون أو الذين لا يستطيعون الشغل بحال — وهذا الباب الاخير واسع يقبل صرف الملايين اذا وجدت — ولكن على شرط أن تكون مساعدة الفقراء بتمييز وفكر على النمط الذى نراه فى أوروبا ، فيمكن مثلا تخصيص الصرف على تربية الاطفال اللقطاء أو العائلات التى تفقد عائلها أو بصفة مكافآت سنوية لمن يؤلف أحسن كتاب فى تاريخ الاسلام أو يترجم عددا من الكتب الاجنبية التى يجب نشرها فى بلادنا . وهكذا .

والثانى : ان يعين الواقف الأشخاص الذين ينيط بهم إدارة الوقف من أهله أو أصحابه أو غيرهم ممن يرى فيهم الاستعداد والضمان لتنفيذ ارادته ، ولكن على شرط ألا تئول النظارة إلى ديوان الأوقاف أو غيره من مصالح الحكومة بأى حجة كانت ولأى سبب كان ، لأنى أعتقد أن كل وقف تمسه يد الحكومة ليس للأمة منه نصيب .

أما اذا أراد أغنياؤنا أن يتمتع أولادهم بعدهم بثروتهم فالوسيلة الوحيدة التى يجب

استعمالها – مع التأكد من نجاحها – إنما هي ألا يقصروا فى تربيتهم .

* * *

(كيف يصرف المال ؟)

ان كان كسب المال صعبا فمعرفة صرفه كما ينبغى ان يصرف صعبة ايضا . لأنه يحتاج الى تفكر وتدبير وتحكيم عقلى وعلم تام بجميع حاجات الانسان كما يحتاج الكسب من الوسائل المتشعبة .

وأول شىء يجب أن يفهمه صاحب المال ان المال الذى يكسبه بكده ومجاهداته ليس هو الغاية المبتغاة لذاتها ، وإنما هو واسطة للقيام بحاجات النفس ، فكل مايصرف فى المحافظة على صحة الجسم ووقايته من العلل أو معالجة أمراض حاصلة ، سواء كان بتحسين التغذية أو اختيار المسكن الأجود أو بالرياضة ، من الحاجات اللازمة ، وكل مايصرف فى سبيل التعليم والتربية كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة لازم ايضا .

وفى رأيى انه لا يجوز مطلقا الاستغناء عن صرف الاموال فى هذا السبيل الاخير ، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة . فلو فرضنا رجلين لكل منهما ابن وقدرنا ان النفقات اللازمة لتربية كل منهما ألف جنيه ، فجاد بها أحد الوالدين على ابنه وضن بها الآخر قائلا : انى أجمعها فى الصندوق حتى أتركها له كرأس مال بدلا عن انفاقها فى سبيل تربيته لكان الاول قائما بالواجب عليه دون الثانى ، بل الاول يحسب حكيما مقتصدا والثانى يعد مهملا مبذرا . لأن التربية هى رأس مال لا يفنى ، أما المال فما أقرب ضياعه ، وخصوصا من يد الغبى الجاهل .

وليس بلازم أن يكون الانسان غنيا ليقوم بهذه الواجبات ، لأن التربية من ضروريات الحياة كالاكل والشرب ، وكل اقتصاد فيها غير ممدوح .

ومما يؤسف عليه ان الموسرين فى بلادنا لا يعرفون كيف يصرف المال ، اذ هم فى الغالب فريقان كل منهما أحط من الآخر واجهل :

ففريق : يصرف المال .... فى : ألا يصرف منه شيئا ! بل يفضل حبسه فى الصندوق على كل شىء ، فيرضيه أن تراه دائما قذر الثياب ساكنا فى مكان لا تسمح ذمتك أن تربط فيه حمارك ، منعزلا عن الناس ، حائزا لا مرأة صبور ترضى بالقليل على أن تنال يوما – ولو بعد

موته ـ الكثير ، وقد يكون له عدة أولاد يتركهم الى التيه بلا تربية ، بل ولا نصيحة أو موعظة حسنة أو كلمة حنو ، همه الوحيد فى أن ماله يزيد .

والفريق الآخر: يصرف المال بأن يلقيه ، بملء اليد ، فى كل وقت ، وفى كل مكان.

وظاهر ان كلا النوعين يصرف ماله بكيفية مضرة له وللهيئة الاجتماعية . ولو درى أغنياؤنا كيف يصرف الغربيون ، رجالا ونساء ، أموالهم لماتوا خجلا ، ان كانوا يألمون ويخجلون !.

نرى فى كل مدينة من مدن أوروبا بين عشرين ومائة محل من المحال الخيرية ، بحيث قد تربو وجوه مصارف الخير على عدة أنواع الفقر ، والحرف والفنون والعلوم التى يراد علاجها أو خدمتها بأعمال البر بين الناس .

نشاهد تلقاء كل نوع من تلك الانواع مصارف خيرية قد خصصت لها ، وجميع مواردها قائم بالعطايا والوصايا التى تسديها اليها الاغنياء .

ان فى أوروبا نساء وهبن فى دفعة واحدة نصف مليون ومليونا ومليونين من الفرنكات : هذه « لا سبتالية » يعالج بها العساكر الذين جرحوا فى الحروب ، وتلك للشبان المصابين بداء السل ، وأخرى للمخترعين الذين لا يستطيعون أن يتموا مشروعاتهم لقلة ذات أيديهم ، ورابعة لأول مكتشف طريقة للمواصلات بين كوكبنا وكوكب آخر . وخامسة لاحدى البنات التى تشتهر بفضيلة مخصوصة ، وسادسة للعائلات التى تصاب بكثرة الاولاد على غير ميسرة . وهلم جرا .

ولا يتوهمن القارئ ان هؤلاء الاغنياء الذين يهبون ويوصون بمثل هذه المقادير ليس لهم بنون وأقارب ، كلا ، بل ان جميعهم أو أكثرهم من المعقبين ، ولكنهم يفتكرون ـ وهم مصيبون ـ ان الانسان اذا ترك لوارثه جزءا من ماله يكفيه لقضاء حاجاته المعيشية فقد فعل فوق ما يجب عليه .

فلو فرضنا أن رأس مال احدهم يساوى مائة ألف جنيه ، فأوصى بنصفه أو ثلثيه الى وجه من وجوه الخير وحفظ الباقى لورثته قد وفق بين مصلحتهم الخصوصية وبين المنفعة العامة . وليس من النادر كذلك فى أوروبا أن يحرم شخص جميع ورثته من كل ماله ويعطيه لجمعية خيرية اذا تبين له انهم على أخلاق فاسدة .

فما لنا لا نقتدى بأمثال هؤلاء ونحن أولى بأعمالهم منهم اذ اننا على دين من أركانه الزكاة وفيه أن اطعام المسكين كفّارة للذنب ؟ ! .

* * *

(التربية)

التربية ، بوجه عام ، هى : تنمية القوى المودعة فى الانسان الناطق أو الحيوان الاعجم .

وقد مارس الانسان وظيفة التربية لنفسه وفى كل شىء وقع تحت تصرفه حتى وصل الى نتائج تشبه المعجزات .

ففى النباتات مزج الالوان وعظم الحجم وحسن النوع ونسخ هيئته التى فطر عليها . وفى الحيوانات قد استأنسها واستخدمها وعلمها واستولد من الانواع المختلفة انواعا جديدة .

ولكن أكبر شىء يحق للانسان المباهاة به والافتخار ، بل والاعجاب والزهو ، هو تربيته نفسه .

ولو رجعنا بالفكر القهقرى سائرين فى الطريق الطويل الصعب الوعر الذى قطعه الانسان من أول خلقته ، وتخيلناه فى ذهننا من مبدئه الى المحطة التى وصل اليها الآن ، لشعرنا بدوار عظيم أشبه بالدوار الذى يستولى على الدماغ ويستهوى بحواس أحدنا إذا وجد نفسه فجأة على محل شاهق جدا وألقى الى هاوية سحيقة كذلك .

وقد يتيه العقل ويذهب اذا تخيل الانسان الحالة التى ينتظر ان يرقى اليها النوع البشرى على القياس السابق بعد نحو ألف عام أو ألفين . لأن هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقى ، هى قانون الحياة الانسانية التى خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية التى لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان افريقيا وأمريكا ممن وصفهم العلماء بأنهم قردة متمدنة عندما شاهدوا أن المسافة التى بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التى بينهم وبين أناسى أمة متمدنة ، حياك الله .

ولو لم يقف هؤلاء العلماء على البراهين التاريخية القاطعة التى استخرجوها من بطون الأرض فأثبتت أنهم آدميّون لحكموا بإخراج هؤلاء الاخوان التعساء من دائرة الإنسانية .

وها هو الانسان لم يزل يتمشى صاعدا مرتقيا متنقلا من دور الى دور حتى وصل الى هذه

المدنية الجميلة التي جعلته حقيقة سيد الكون وأشرف المخلوقات ، وسيستمر كذلك بإذن الله الى حد لا يعلمه إلا هو .

وهذه المرتبة العالية لم ينلها الإنسان إلا بتربية نفسه ، فلا غرو ان صارت التربية عند الامم المقدرة لها حق قدرها صاحبة المكان الاول فى النفوس ، معتبرة اياها عماد حياتها .

والتربية هى التى انتجت كل الرجال الذين نسمع عنهم ونشاهدهم متحلين بمزايا الاستقامة والصدق والكرم والشجاعة والشفقة وحب الوطن واحترام الحق والدفاع عن الحقيقة والخضوع للواجب ، وبذل النفس والمال فى خدمة العلم والدين والجامعة الوطنية . والتربية هى التى أنتجت أيضا رجال أوروبا الذين نقول عنهم ، عندما يفيض اعجابنا بهم ونريد أن نسلى أنفسنا بما يخفف تبكيت الضمير: (إنهم أخذوا كل فضائلهم عنا وعن ديننا وعملوا به). وهى التسلية التى حقها أن يكون وخزها فى القلوب أشد من طعن الاسنة والرماح ، أو هى كما يقول المثل : « عذر أقبح من الذنب » .

ولقد فعل المصريون شيئا يذكر فيما يختص بتعليم أبنائهم ، بعد أن كان لا يمكن ادخال أبنائهم فى المدارس إلا بالقوة والارهاب من عهد ليس ببعيد صرنا نراهم الآن يسعون وراء التعليم مجتهدين فى ادخال أبنائهم المدارس ، مجانا أو بمصاريف ، بل ويتظلمون من أن الحكومة لم تفعل كل مايجب عليها. وقصارى أمانيهم التى يسهل استنباطها من أقوالهم وشكاويهم ان تفتح الحكومة فى كل مديرية وفى كل محافظة مدرسة طويلة عريضة فسيحة الارجاء تسع كل أبناء سكانها . وربما لا يكتفون بذلك فيأملون أيضا أن تعطيهم بلا منةعليهم : الملبس ، ولا بأس من أن تعطيهم ، فضلا منها : بعض نقود ليصرفوها على أنفسهم فى فسح أيام الجمعة وثمنا للدخان الذى يشربونه ! .

ثم اذا أتموا دراستهم بدون عطل ولا تدقيق زائد فى الامتحانات كان على الحكومة أن تمنحهم الوظائف العالية فالرتب والنياشين ، حتى اذا مات أحدهم فعلت مثل ذلك مع أبنائه ! وإذا ناقشتهم فى مطالبهم هذه رأيتهم مقتنعين بأن الحكومة إذا فعلت ذلك كله كانت قائمة بالواجب عليها فقط ، وانه ليس فيما يطلبون شىء خارج عن حد الاعتدال ولا فوق المستطاع ولا ما يزيد عن الواجب . وليت شعرى لماذا لا يطلبون مع ذلك من الحكومة أن تتكفل بترويج بناتهم حتى لا يبقى عليهم حمل ثقيل بعد ذلك ؟ ! .

ومن الاسف ان المصرى لا يزال يظن ان تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة وانه متى

علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه ، مع أن التعليم هو فى الحقيقة أقل فروع التربية شأنا وفائدة .

نعم انه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة اذا شئت . ولو أنى أعتقد أن التعليم النظرى لا يفيد الغلام فائدة محسوسة ، خصوصا اذا كان فى السن الذى يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لا يفيد شيئا اذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية ، وأن الجرعات العلمية التى يبتلعها الغلام من سن السابعة من عمره الى سن العشرين ليس فيها الغذاء اللازم لتكوين روحه . اذ هذه الجرعات أشبه شىء بالحبوب المذهبة التى ينشر عنها مخترعوها الاعلانات المشوقة فى الجرائد . حيث ينسبون لها جميع المزايا الصالحة لشفاء جميع الامراض . وليس فيها فى الحقيقة ونفس الأمر إلا مزية واحدة : هى أنها لاتضر .

أما تربية الروح فإنها تكون بتعويد الطفل لا على أن يفهم هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا . بل على ان يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع . لأن إدراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا أمر سهل . وقد لا يكاد يوجد انسان يفعل امرا مذموما وهو يعتقد أنه ممدوح . فالسارق والقاتل والخائن والبخيل كلهم يفهمون أن ما يرتكبونه رذيلة من الرذائل ، ولكنهم تعودوا استعمالها كما تعودوا أن يجفوا الفضائل .

فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية . ولكن كله ينحصر فى اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا . أو غرسها فى نفوسنا . وتقويتها واحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا . ومتى وجدت لتربية بهذا المعنى لازمت النفس الفضائل وتجافت الرذائل بقدر تلك الملازمة .

وبديهى أن التربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب أو من قراءة وحفظ قواعد علمية ، بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام ، بل وقبل ذلك كما سنبينه بالبرهان .

وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم . طبعا ، الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم . ثم اذا أضفنا الى ذلك ماتحتاجه هذه التربية من العناء والصبر والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لاتتم إلا

بواسطة من انتخبتهم الفطرة الالهية ـ أو كما يسميها بعضهم الطبيعة ـ لهذه المأمورية العالية وهما الوالدان .

فإصلاح الانسان لا يكون إلا بالتربية ، والتربية لا تكون إلا بالعائلة . ولهذا اعتبرت العائلة أساس كل جامعة .

* * *

(التربية ، أيضا)

قال أحد الفلاسفة : « لو عهدت الى تربية النوع الانسانى لقومت كل اعوجاج فيه حتى يصبح ولا عيب فى خلق من أخلاقه » .

ومغزى هذه العبارة الجوهرى : ان التربية تصلح كل اخلاق الانسان ، وتجعله ـ اذا تمت فيه على ما ينبغى ـ قويما منزها عن العيوب والنقائص التى تلاحظ فى مجموع النوع الانسانى . وليس فى هذه الدعوى أدنى مبالغة بل هى الحقيقة التى لا ريب فيها .

أما النسق اللفظى لتلك الحكمة الباهرة فهو مبالغ فيه لا محالة . لأن الشخص الواحد لا يمكنه أن يتولى تربية شخص مثله من جميع أطرافها فى جميع أطواره ، بل فى مثل هذا المقام يظهر عجز الانسان الضعيف وتتجلى قدرة الله فى خلقه حيث جعل الكل عونا للكل .

وبيان ذلك أن التربية لا يمكن أن تنتج فى الامم ، بل ولا فى الاشخاص ، نتائج سريعة الى مثل هذا الحد الذى يرمى اليه ظاهر لفظ ذلك الحكيم الفيلسوف ، وان التقدم الادبى والارتقاء العقلى لا يخلقان من العدم البحت الى مظهر الوجود الكلى مرة واحدة ، بل المشاهد عكس ذلك ، حيث سير التقدم البطىء غير محسوس يكاد لا تشعر به الامة التى يزورها ، وقد يحتاج لرسوخه فى النفوس والعقول لعدة أعصر متوالية فيترك كل عنصر إلى مايليه تركته ويرث الخلف من السلف كل مملوكاته التى ورثها من أسلافه والتى اكتسبها بجده الذاتى .

وهذا ما يسمى عند علماء الطبيعة بقانون الوراثة : ذلك القانون الذى لا يزال تطبيقه سرا غامضا يجعل جميع الأعصر متضامنة مع بعضها تضامنا مفيدا أو مضرا حسب اختلاف اخلاق أهل كل عصر .

ومن البديهى ان الانسان كما يرث عن والديه وأمته وجنسه الصفات الجسمانية التى امتازوا بها يرث كذلك من هاته العناصر كلها القوى العقلية والأدبية التى تكون مختصة بها .

ولهذا لا يستطاع أن نطلب من التربية أن تفعل ما يفعله السحر الذى يقلب العصا حية ، فإن تحويل الأمة دفعة واحدة من التوحش الى التمدن لا يقل عن قلب العصا حية تسعى .

وحسب التربية شرفا وفضلا انها هى الوسيلة التى تمكن الأمة من الارتقاء فوق أعلى منصات المدنية والحضارة اذا لازمتها وراعت التحرز والاحتياط وتبعت الجد وابتعدت عن الطيش فلم تنقل رجلا من مكانها صعودا إلا بعد أن تثبت الاخرى على الدرجة التى فوقها وإلا عرضت نفسها الى خطر الانزلاق والسقوط واضطرت بعد ذلك أن تعاود الصعود وتكرره ، فيضيع الوقت بين صعود وهبوط وتقدم وتأخر .

وقد اختلف العلماء فى كيفية وضع قواعد التربية . وأتى كل منهم بمذهب على ما رأى ، وليس محل بيان تلك المذاهب هذا المقام . اذ الاطلاع عليها سهل لكل من أراد ، ولكن كلها مجمع على لزوم البدء فى التربية منذ يستهل الطفل ويلتمس رضاع لبن أمه ، ولا غاية للتربية إلا بالموت ، اذ الانسان محتاج لها حتى يفارق الحياة الدنيا .

ويلزم أن يكون البادئ فى مباشرة التربية الوالدين حتى يبلغ الطفل رشده ، أو بعبارة أخرى : حتى يكون رجلا مستقلا بنفسه ، ثم هو يتولى تربية أخلاقه وتقويم ما يجده فيها من اعوجاج .

ولكن من البديهى أن أصلح ضروب التربية انما هو ما يلازم الطفل فى مهده ، فإن أكبر عيوبنا يستولى علينا ونحن أطفال ، وهو الامر الذى أغفله الوالدان عندنا بالمرة . وكثيرا مايتركان أولادهما يلعبون بتعذيب الحيوانات . أو يضربون خدمهم ، أو يشتمونهم بأقبح ألفاظ السباب والشتائم ، وهم يضحكون انبساطا من هذا الإنسان الصغير الذى يقدر على هذه الكبائر . وكثيرا ما يعجب الوالدون بأولادهم اذا اخترعوا واقعة كاذبة أو استعملوا حيلة لحصولهم على فائدة أو لتملصهم من ذنب ، وقد يصيحون قائلين: ما أنبه هذا الصبى وما أشد ذكاءه ! .

وكثيرا ما يضرب الوالدون أولادهم ضربا مؤلما لغرض تأديبهم أو يخاطبونهم بالعنف والتهديد وغليظ الصوت الذى يلقى الفزع والرعب فى قلوبهم : مع ان هذه الاعمال كلها هى البذور التى تنتج فى المستقبل نبات القسوة والحمق والخيانة والجبن والنذالة .

وأغلب الوالدين عندنا يساعدون على غرس وتنمية العيوب فى الاطفال . وقد يعتبرون الطفل كألعوبة وهبها الله اياهم ليقضوا بها أويقاتهم فى الفرح والسرور والضحك فلا يفكرون

إلا فى ترويح نفوسهم به ، حتى إذا ماكبر الطفل وبلغ سبع سنين ولم يبق صالحا لتسليتهم بأقواله وحركاته هجروه وطردوه يلعب فى الطرقات مع أولاد الحارة أو يقعد على الباب مع الاتباع والخدم فيرتبط الطفل بهم وتتكون علاقة بين نفسه ونفوسهم وروحه وأرواحهم ويأخذ منهم أضعاف ما يأخذ من أهله ، فيشب على عادات رديئة واخلاق رذيلة تبقى معه مادام حيا .

وحسب كل منا أن يمعن النظر فى اخلاق نفسه فلا يصعب عليه ان يكتشف عيوبا نشأت فيه وشب عليها من الصغر ، ولو حاول يوما ما أن ينزع نفسه منها ويتجرد عنها بالكلية لوجد شخصه عاجزا عن تلك تمام العجز . وقصارى ما يصل اليه جهد الانسان أن يلطف هذه العيوب قليلا . بمعنى انه اذا وضع الواحد منا عيبه نصب عينيه وحاذر من الوقوع فيه كفى شره بالاجتناب عنه مادام يقظا محاذرا . ولكن استمرار الحذر غير متيسر فى كل وقت لكل أحد ، فإذا ذهل ذلك المحاذر عن عيبه سويعة من الزمان ، واشتغل بأمر آخر ، فلا يشعر إلا وهو مغمور فى ذلك العيب الى رقبته ، ولهذا كان المثل المصرى الشائع « الطبع والروح فى جسد » من أحكم الامثال وأصدقها .

لهذا تجب ملاحظة الطفل فى كل أعماله وحركاته وأقواله ملاحظة مستمرة حتى لا تلتصق به عادة رديئة . ويجب على الخصوص اجتناب الاعمال القبيحة امامه ، لأن المثل يعدى ، خصوصا مع الاطفال .

ولا ينتظر لمباشرة التربية ان يتعقل الطفل الأشياء ويفهم المعانى ويعى ما يقال له ، بل يجب الشروع فيها من أول ولادته بتعويده على انتظام الغذاء والنوم والنظافة وعدم البكاء ، بل قد تطرف فريق من العلماء فجعل مبدأ زمن التربية من بدء ظهور الحمل فى بطن أمه ، وهذا الرأى مع ما فيه من الغرابة ليس ملقى على عواهنه أو خاليا من الصواب ، لأننا نشاهد الآن الأم تؤثر على ولدها تأثيرات مادية لا يمكن انكارها . فترى فى بعض الاحيان عندما يولد الطفل آثارا ظاهرة فى جسمه يكون سببها الوحيد تأثر الأم أثناء مدة الحمل بحادث مخصوص هيج احساسها إلى الرغبة فى الشىء أو النفور منه(١٤٢) .

وتوجد مشاهدات كثيرة تدل كذلك على أن الامهات اذا طرأ عليهن فى مدة الحمل فزع شديد أوكدر عظيم أو شهوة قوية أثرت هذه الحوادث على أخلاق أولادهن وأورثتهم الشراسة

---

(١٤٢) الاشارة إلى الآثار المترتبة على ما يسمى بـ «الوحم» ..

أو الحمق أو العناد أو التهور فى الاقوال والاعمال .

فليس اذن من المستحيل أن نعتبر بقاء الأم مدة الحمل على حالة اعتيادية . واجتنابها كل ما من شأنه أن يثير عواطفها ويهيج حواسها من أول الحقوق التى يكتسبها الطفل عن والدته وأول الواجبات التى تفرضها عليها تربيته .

وعلى كل حال فإن تأثير الوالدين ، وعلى الخصوص الأمهات ، فى تربية الطفل أمر ثابت ونتيجته تكون مفيدة لسعادة الطفل ان راعى الوالدان الذمة وأخلصا النصيحة الصادقة فى تربية أولادهما وتكون ضارة وسببا فى شقائه إن كانا على عكس ذلك .

* * *

(أصول التربية)

ونعنى بالأصل هنا : الأسّ الذى يشيد عليه البناء قائما ثابتا . لأن كل نفس صنعتها تربية حسنة تكون قائمة على قواعد متينة تحفظها من السقوط فى مهاوى التلف . وتمكنها من مقاومة عواطف الشهوات والحوادث التى لابد من مصادفتها فى الحياة . ومن الاسف اننا اذا نظرنا الى نفوسنا وجدنا تربيتنا كبناء على شفا جرف هار .

وأول أساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو : الاساس الدينى . فالدين للانسان هو الشىء الوحيد الذى يمثل بين يدى كل نفس صورة الكمال الحقيقى . وغرس بذور محبة الدين فى نفس الطفل يجعل وجهته فى كل حركاته وسكناته نحو الكمال فى كل شىء ويخلق عنده رغبة كاملة فى كل ما يراه جميلا .

وليس فى الحياة وقت أحلى وألذ على النفس من أن الانسان يجرد نفسه سويعة من الزمان من كل ما يحيط به من عالم الكون الذى هو فيه ، ويذهل عما فيه من القبائح والمظالم والمصائب ، بل ومن الافراح التى لا تخلو دائما من شائبة كدر تمازجها أو تتبعها : تلك الافراح الكاذبة الغاشة كما تغش التفاحة بهيئتها النضرة ظاهرا وقلبها مسكن الديدان ، فإن جردها ، كما تقدم ، وقلب وجهه فى السماء زمنا خاشعا ساكنا حيران راجيا ناسيا كل شىء - حتى ذاته - ثم رجع بعد ذلك إلى نفسه وجدها شيئا تافها حقيرا ناقصا ، فتميل روحه ، إذ ذاك ، إلى

الترفع عن الاشياء المادية ، والتنزه عن الدنايا والشهوات ، ويرى نفسه ساعتئذ عالقة بمحبة الكمال فى كل شىء .

نتج من هذا انه اذا تعود الطفل عندنا على محبة دينه ـ وهو دين قويم على كل الكمالات ـ ثم غذى بتاريخ الاسلام وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالجملة كل الرجال الذين اشتهروا بالكمالات من المسلمين ، ودأب أهله على محادثته بأمثلة ذلك التاريخ الشريف ، واضعين بين عينيه الكتب التى تشتمل على هذه الفضائل بدلا من قصص «أبو زيد» والزناتى وحكايات الجن والعفاريت ، فلا ريب أن الطفل يشب على اخلاق كريمة ، فيصبح بعد ذلك رجلا له فى جانب عقله روح كبيرة ونفس مترفعة عن الدنايا واحساس عال قوى : وكلها عناصر لايكون الرجل بدونها إنسانا ، بل ولا رجلا .

ونحن واأسفاه ! نكاد نكون مجردين عن الاحساس الدينى الذى يودع فى الشخص تلك الكمالات ويربيها . ولست أتكلم عن أبناء المدارس فقط ، بل وعن طلبة العلم الذين قصروا تعلمهم على ما يلقى فى الجامع الازهر الشريف من العلوم الدينية وما يتبعها ، وأمثالهم ، لأن هؤلاء قد تعودوا أن يتلقوا أحكام الشريعة كعلم يجب حفظه فى الذهن مهملين مع ذلك كل ما ينتج تولد الاحساس الدينى الحقيقى وتنميته .

وعلى عكس ذلك نرى الاوروبيين . فإنهم وإن كانوا أقل من المسلمين معرفة بأمور دينهم ، ولم يعتادوا الاشتغال بدراسته مثلنا ، لكنهم على الدوام يظهرون فى أقوالهم وأعمالهم احتراما شديدا لكل ما يختص بدينهم ، واحترازا عظيما عن كل ما يمسه ولو أقل مساس .

وكلهم يرونه عنوان المدنية ومنبع الآداب والوسيلة الوحيدة لتهذيب النفوس ، وربما كان اقلهم اعتقادا فى صحته أكثرهم احساسا بمحبته واحتراما له .

والاساس الثانى للتربية هو : الاحساس الوطنى . وهو يتولد كذلك عند الطفل من الحديث والقراءة والاحاطة بكل ما يعلى شأن الوطن وما يسقطه ، وتعويده على النظر اليه كشىء محترم جليل مقدس ، وتفهيمه بأنه وحده ليس لعمله قيمة ولا لوجوده اعتبار ذاتى وانه بانضمامه لأمته يكون قوة عظيمة ، وان منفعة الانسان صغيرة زائلة ومنفعة الامة كبيرة راسخة . وانه يجب علينا أن نعمل لمن يخلفنا فى وطننا مثل الذى عمله أسلافنا لنا .

تأمل ايها القارئ برهة تر أن بلادنا مثلا ماوجدت فى الدنيا بالحالة التى هى عليها الآن

بل ان كل ما تراه فيها نتيجة أعمال ألوف من القرون كل قرن يتلقى من سابقه ما تركه ناقصا فيتمه ، ويهيئ غيره إلى خالفه ، سواء كان فى الزراعة أو الصناعة أو المبانى أو العلوم أو اللغة أو الكتابة أو الشرائع أو التوسع فى الفتوحات أو المحافظة على الامن داخلا وخارجا . فإن كنا اليوم نتمتع بهذه المزايا فعلينا أن نشكر آباءنا وألا ننسى أن سيخلفنا خلف لهم علينا حقوق ولنا عليهم واجبات كما كان بيننا وبين آبائنا سواء بسواء . والوطن هو الذى يمثل للذهن هذه السلسلة مرتبطا بعضها ببعض ، ولسنا إلا حلقة فيها .

أما الاساس الثالث فهو : مراقبة الوازع النفسى ، أو ما يسميه بعضهم تنمية الضمير ، ويسميه الاوروبيون المحكمة الباطنية التى يحاكم الانسان نفسه أمامها .

وقد يظهر أن رجوع الانسان الى نفسه بهذه الطريقة امر فطرى . إلا انه ليس هذا صحيحا إلا عندما يقع فى عمل يوجب التبعة والمسئولية ، إذ فى ذلك الوقت يكون حكم الضمير قويا صارما . فيعرف الانسان انه مذنب ومقصر ويندم على فعله .

ولكن أى الناس يحاسبون نفوسهم على أعمالهم اليومية ؟ أى الناس يستعملون الذمة مع أولادهم وأزواجهم وأقاربهم وأصحابهم وخادميهم ومن يتعاملون معهم بالبيع والشراء والاجارة وغير ذلك ؟ بل نرى ونشاهد أكثر الناس مشغولين بمراقبة أعمال غيرهم حاكمين عليها أشد الاحكام ، وكأنما هم لم يخطر على بالهم أن يراقبوا أعمالهم لحظة واحدة ، ولا أن يحكموا على أنفسهم ولو بمنتهى الحنان والشفقة يوما واحدا ! .

ولهذا يجب تعويد الطفل من الصغر على ان يتداول مع نفسه ويختار ويحكم ويحاسب ذاته أمام ضميره .

* * *

(عيوب تربيتنا : «حب النفس»)

حب النفس فطرة فى كل انسان ، ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس . وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية ، بل هو خلق وجد مع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه .

ولما كان الانسان فى حالته الفطرية الاولى . قبل كل اجتماع ، كانت ملكة حب الذات

لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التى تنازعه فى معيشته ، بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذى يتبعه فى سلوكه ، فلا يتأخر عن فعل أمر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحا أو فيه شر للناس .

ولكن منذ اليوم الذى ابتدأ الانسان فيه أن يعيش فى جامعة من أبناء جنسه متضامنة فى وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص عند كل فرد من أفراد هذه الجامعة . لما تحققه من أن حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده ، بل هو من وظيفة جميع أعضاء العائلة التى هو منها ، فالقبيلة التى تشمله ، فالحكومة التى ترعاه .

ومن ذلك اليوم وجد فى جانب هذا الواجب الذى تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها فى ألا يعمل فرد منها عملا يعود عليها أو على عضو منها بالضرر . ومع التقدم رويدا رويدا فى نظام الاجتماع صار كل عضو من الامة يتمتع بأعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء . وعلى ذلك صارت الحقوق والواجبات متشيعة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد منا اليوم مرتبطا بأهل بلده ارتباطا شديدا لا يمكن أن أشبهه بأحسن مما يعبر عنه المتشرعون فى اصطلاحهم بارتباط التعهدات المتضامنة .

نعم ان حب النفس لا يزال فى فطرة كل انسان . بل انه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل لأحدنا ان كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج فى الحقيقة عن كونه شعبة من حب الانسان لنفسه بالواسطة . بمعنى ان الانسان يحب نفسه فى كل انسان وفى كل شىء يميل اليه ! . لكن لا ريب فى أن الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعى حتى أضعفه أو على الاقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها . فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة . وهى ممنوعة اذا كانت بعكس ذلك . وضرر الغير تعينه الشرائع وآداب كل أمة .

والتربية الحسنة النافعة انما تظهر فى اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقا لمصلحة الهيئة الاجتماعية . فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس فى آن واحد . وفى الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم فى تحقيق آماله . لأن العمل اذا كان يحتوى على منفعة عمومية رضى به الناس أجمعين وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم ، وهذا التعضيد يساعد العامل ، ولا شك ، فى تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد . واذا تأملنا فى تاريخ الرجال

المشهورين الذين صارت لهم المكانة العظمى فى التاريخ كبسمارك[١٤٣] وغلادستون[١٤٤] وغامبتا[١٤٥] لم نجدهم مجردين عن احساس حب النفس ، بل بالعكس ربما كانوا أشد الناس حبا لأنفسهم ، لكنهم عرفوا كيف ينتخبون مطالبهم الذاتية موافقة للمصالح العمومية ، وتسنى لهم بذلك أن يخلطوا بين منافعهم الشخصية ومنافع أوطانهم ، فجعلوا المنفعتين واحدة غير متجزئة ، حتى اذا استمروا على هذه الخطة زمنا صار من الصعب على الناس وعليهم أيضا أن يميزوا الحد الفاصل بين المنفعتين ، وهذا ما حدا بأهل بلادهم أن يقيموا لهم التماثيل لتخلد ذكراهم اعلانا لرضاهم عنهم وارتياحهم من أعمالهم .

ولكن من الاسف نرى أهل بلادنا قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس فى تربية أولادهم فنشئوا على مانراه ممتازين بمهارة غريبة فى انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير ، فهم يتهافتون على العمل النافع لهم اذا كان فيه اضرار بالمصلحة العامة ، وقد لا يقبلون عليه اذا تجرد عن ذلك .

فالموظف المصرى يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقا واحدا وهو الشغل .

والفرد من الأهالى لايستعين فى طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات وبجميع عمال الزور . حتى ضد أقرب الناس اليه .

وهذه الحالة . التى تمثل أكبر عيب فينا . هى ايضا نتيجة الحكومات الاستبدادية الماضية . لأن الاستبداد اصل كل فساد فى الاخلاق . وقد أهملناه فى تربيتنا فنما هذا النبات الخبيث نموا شديدا حتى ضعضع كل ما يوجد فى جانبه من احساس شريف وعاطفة بشرية وارتباط اجتماعى . وعلى الخصوص ارتباط عائلى .

وها نحن نعيش اليوم كل واحد فى جانب الآخر بدون ان يمتزج به إلا امتزاجا سطحيا

---

(١٤٣) بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨ م) سياسى المانى شهير . كان قطبا من أبرز أقطاب السياسة الأوروبية فى عصره . كما لعب دورا هاما فى وحدة ألمانيا القومية . ولقد اعتزل المناصب السياسية أواخر حياته .

(١٤٤) جلادستون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) سياسى انجليزى ، تزعم حزب الاحرار البريطانى . وتولى المناصب الوزارية عدة مرات . وتولى رئاسة الوزارة اربع مرات .. وكان رئيس الوزراء عندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ م .

(١٤٥) سياسى فرنسى من مشاهير ساسة القرن التاسع عشر . كان رئيسا لوزراء فرنسا عندما دارت أحداث احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ م .

كل منا سائر فى طريقه ، مهتم بنفسه ، لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط : مع اننا نرى غيرنا على خلاف هذه الاخلاق .

نرى الأمة المكونة من اربعين مليونا من النفوس مثلا افرادها على قلب رجل واحد ، اذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفا من جمعيات سياسية وجمعيات علمية واخرى فنية وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون ، بل ترى لكل نوع من انواع الرياضة كركوب الخيل والمصارعة ولعب الكرة والسباحة وما اشبه ، جمعية مخصوصة ، ترى حب الاجتماع فى كل شىء وفى كل انسان حتى اذا لم يبق شىء يكون موضوعا للاجتماع اجتمعوا لمجرد التشابه فى الجسم ، كالجمعية التى انشئت من ستين فى باريس لكل من يزيد وزنه عن مائة كيلو ، أو للتشابه فى الميول كجمعية العزاب .

وظاهر أن هذه الأمور هى أسباب للاجتماع فقط ، واما الغاية الأصلية فهى الاجتماع .

ولهذا يلزم تعويد أطفالنا على الاجتماع بأمثالهم كما يفعل الغربيون حتى اذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم فلايكون حب النفس من العيوب المفضية إلى انحلال اجزائنا والاضرار بجامعتنا كما هو الآن .

* * *

(عيوب تربيتنا : «الكسل»)

ان لكل امة عيبا مشهورا تعرفه فى نفسها كما يعرفها به الاجانب . وعيبنا الكبير الذى يشاهد بوجه التقريب عاما بيننا ويكاد لا يخلو منه احد ، وان كان يختلف قلة وكثرة : هو الكسل .

نعم ، نحن كسالى فى اعمالنا وفى اقوالنا وفى افكارنا وفى رياضتنا . نحن كسالى فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها . نحن كسالى فى الجد . وكسالى فى الهزل ، وكسالى امام المصائب وامام الافراح وتلقاء النافع وازاء الضار ! .

نحن كسالى فى الصباح وفى المساء . نقوم من النوم كسالى ، ونذهب الى النوم كسالى ونعيش بين هذين الوقتين كسالى ! .

انظر فى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوءا بالاكل والشرب والنوم ورواية القصص القديمة والنوادر المضحكة والتنكيت والضحك الصناعى والاقوال الفارغة والالفاظ التى

معانيها غامضة أو ظاهرة نصف الظهور. وقد لا تجد فى صحيفة واحدة من صحف احدنا عملا يذكر.

وليس المقصود ان نعمل ما فوق الطاقة ، او أن نأتى بالعجائب والغرائب ، بل نقول : اننا لا نعمل الاعمال العادية التى بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل

فمن لوازم الجسم أن يصرف فى كل يوم مقدارا من القوة لتحريك الأعضاء وتمرينها سواء كان ذلك بالمشى أو الركوب أو اللعب أو الشغل والا سقط فى الهزال والضعف المورثين للكسل.

وكذلك العقل يقع فى مهوات الكسل إذا لم تتوارد عليه صور أشياء شتى ، لأن المخ هو فى الحقيقة مخزن واسع تأوى اليه الصور التى تتكون بواسطة حواسنا حيث الاجهزة العصبية للنظر والسمع والشم والذوق واللمس ، هى الينابيع التى يستمد منها المخ مادته ، وتتكون منها وظيفة التفكر. وتتألف بها أجزاء المعانى ، فإن كانت الاحساسات متوفرة متنوعة كان العقل كبيرا وان كانت قليلة كان صغيرا.

والارتقاء العقلى لا يكون إلا بتوارد احساسات جديدة من شأنها تحريك الصور القديمة والاضافة إليها ووضع المخ فى حالة التنبه التى دونها لا يتأتى ان يؤدى وظيفته وهى توليد المعانى وانتزاعها من بين تلك الصور.

ونشاط الجسم والعقل يتعلق ببنية الشخص وتربيته ، ونحن لايكاد لنا سلطان على البنية ولكن لنا سلطانا قويا أو مايقرب من ذلك على التربية : فإن كانت البنية سليمة أمكننا ان نحافظ على صحة الجسم بالتمرينات والاشغال المادية التى تبعد عن الكسل ، وان نحافظ ايضا على نشاط العقل بالتعويد على التفكر والتأمل والمطالعة كل يوم ، وإذا نشأ الطفل على هذه العادة فلن يتركها.

ونحن معاشر المصريين قد اهملنا تربية الجسم وتربية العقل معا. اما الاولى فلأننا لم نعتد من الصغر على التمرينات التى يستعملها الغربيون. واما الثانية فإننا لا نحسب إلا انه يلزمنا الاجتهاد حتى نحصل على شهادة تفتح لنا أبواب الوظائف حتى اذا بلغنا هذه الامنية لم يبق علينا بعد ذلك شىء آخر.

يقول الاوربيون كثيرا : ان المصرى من السنة السابعة من عمره الى سن العشرين يضاهى الاوربى فى الفهم والحفظ والنشاط ، ولكنه بعد ذلك يأخذ فى التقهقر شيئا فشيئا حتى ينسى

ماتعلمه ويسقط فى مهوات الجهالة والخمول التى فيها جنسه .

وهذا الرأى مهما كان قاسيا بالنسبة لنا فهو صحيح من جهة وباطل من جهة أخرى ، اما بطلانه فلأنهم يريدون ان يحكموا على الجنس المصرى بأجمعه فى الحال والماضى والمستقبل بأنه غير قابل للارتقاء لوجود عاهة طبيعية اختلفوا فى تشخيصها ، وهو زعم لا دليل عليه ، بل التاريخ أعظم شاهد على بطلانه .

وأما كونه صحيحا فلأن المشاهد أن المصرى لما يكون فى زمن التعليم يستفيد كغيره منه ، وفى بعض الاحيان يفوق التلامذة من الاجناس الأخرى ، بل كثيرا مانبغ التلميذ المصرى هنا وفى أوروبا وبرهن على ذكاء متوفر ، ولكنه متى أتم دروسه وأخذ شهادته وانخرط فى سلك موظفى الحكومة طوى الكتب وهجر العلم وظن أن زمن التعليم قد انقضى وأنه لم يبق مستعدا ومتهيئا إلا لأن ينال وظائف سامية ومرتبات فائقة ، فإذا مضى عليه زمن يسير وهو على هذه الحالة ضاعت القواعد التى كانت تملأ ذهنه وتبخر علمه وطار فى الهواء ولم تبق لديه إلا كلمات يظنها معانى وقطع من جمل وأجزاء من عبارات واصطلاحات محرفة تكفيه إذا نطق أن يوصف بالجهالة ويرمق بعين الازدراء والاحتقار !.

وعلى عكس هذا القياس نرى غيرنا من الامم الاخرى . فإن المتخرجين من معاهد التعليم فيها يجهدون انفسهم بعد انتهاء دراسة التلمذة أضعاف ماكانوا عليه زمنها ، فيتقنون بذلك الفرع من العلم أو الفن الذى اختصوا به ، دائبين على البحث فيه ، متطلعين الى ما يقال أو يكتب فيه ، لأنهم يعلمون ان العلم لا يقف عند حد ، وانه دائما فى تبدل أو تقدم .

* * *

(عيوب تربيتنا : « إحساس الاحترام »)

إحساس الاحترام هو محك التربية . فكلما كان ناميا فى امة كانت تربيتها جيدة ، واذا فقد كان فقدانه انذارا بانحلال جامعتها وسقوط ابهتها وعظمتها .

وان أهم شىء يحفظ الامم ويزيد فى رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الاساسية ، مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة ، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع .

واذا كان هذا الاحترام عاما عند الجميع وشاملا لجميعها كان دليلا على قوة تربية الامة

حيث لا يجرأ على مخالفة هذا التيار القوى إلا نفر قليل .

ونحن معاشر المصريين ، ويا للاسف ! لا نحترم وطننا ، ولا نعرفه . وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ، ونحكم عليه كما نسمع من الاجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الاحوال . وفاتنا ان كل عيب منسوب له فى الحقيقة لنا . حتى ان كلمة (فلاح) التى كان الاتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا .

ومن هذا القبيل نرى الاشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها بعدما ترك أجدادهم بلادهم ولم يبق لهم أمل فى العودة اليها يجتهدون دائما ان يثبتوا انهم من أصل تركى أو سورى أو عربى . ولا يكادون يعترفون ـ وخصوصا أمام الاجانب ـ انهم من ابناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها .

وبديهى أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه ! .

وأنا لا أقول انه لا توجد فى الأمة المصرية عيوب كبيرة قل أن يوجد مثلها فى أمة أخرى ولا انه لا يباح للمصرى أن يذكرها . ونشر هذه الجمل فى هذه الجريدة يدل على عكس ذلك . وعلى وجوب انتقاد عيوبنا بنفسنا . وعدم اخفاء شىء منها حتى لا نغفل عن تلافيها اذ ذلك أولى من أن يلقيها يوما ما فى وجهنا عدو لنا ـ ولكن أقول : انه لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالاسف والحنو .

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراما فى نفوسنا . لا فى الماضى ولا فى الحال . اذ فى الماضى كان المصريون يخشونها ويرهبونها أشد الرهبة ، حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة . واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة انقلب الخوف ، بناء على حركة رد فعل طبيعى وبمحرضات أخرى . إلى استخفاف . وكلاهما بعيد عن الاحترام الذى يلزم أن يكون متبادلا بين الهيئتين الحاكمة والمحكومة .

فإذا توفر هذا الاحترام من الجهتين . من جهة الحكومة بالتفاتها إلى راحة الأمة والاعتناء بسماع ندائها . وتنفيذ رغباتها . كما ينبغى وبحسب الامكان . ومن جهة الامة بأن تثق بوكلائها . ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التى تراها لازمة لها ، وتغيير القوانين التى تراها

مضرة بها ، بلا تردد ولا خوف ، وتقدر اعمالهم حق قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم ان أخطأوا وتشجعهم على الاستمرار فى الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاما لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة .

والعائلة ـ يلزم ان يكون أساسها الاحترام . ونحن مع الاسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة ، وكثيرا ما يتغلب عليها هوى النفس . فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولادا ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها ، وقد يترك هذه حاملا ليأخذ غيرها كذلك وهكذا يقضى حياته فى تشييد بناء عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده ، لأنه لم يفكر إلا فى لذة دنيئة لاتذكر فى جانب الاضرار التى تنجم عنها

وإن أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق ـ وهو أبغض وجوه الحلال الى الله ـ وقد اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جدا لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل .

نعم ان شريعتنا الغراء جعلت بقاء العصمة بين الزوجين على مبدأ الحرية ، فكان الرجل مالكا لأمر الطلاق ، وهو حر فيه ، ولكن هذه الحرية ما اعتبرت مبدأ له إلا لأنه ليس فى الوسع حصر الاسباب التى تستدعى حل رباط الزوجية ، وعلى الخصوص حتى لا يكون الرجل ملزما بالافصاح عن هذه الأسباب ، وحاشا أن تقصد شريعتنا الشريفة تسهيل قضاء الشهوة البهيمية على الشرهين فيها ليشغلوا أنفسهم بالتمتع بالنساء واحدة عقب الأخرى ويتركوا أولادهم هملا شردا فى الطرقات بلا مأوى ولا نفقة ولا تربية .

وأقبح شيء شائن فى اخلاقنا هو اعتياد الازواج على الحلف بالطلاق كلما نوقشوا فى شيء ، حتى فيما لا علاقة له بالزوجية على الاطلاق . ولو اقتفينا أثر رجل من أصحاب هذه العادة الذميمة يوما من الايام وأردنا حصر اعداد الطلاق فى الايمان الكاذبة التى يلفظونها بهذه الطريقة السخيفة لوجدناها تفوق حد النصاب الشرعى تكعيبا وجذرا ثم جذرا وتكعيبا وهكذا . وهو ما ينبغى ان يستدعى التفات الحكومة والعائلة معا الى هذا الامر المهم الذى له أعظم مساس بالهيئة الاجتماعية .

فعلى الآباء ان يحترموا انفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هى الآن : ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشاتمون ، وقد يتضاربون ويفترقون .

ونحن كذلك مجردون عن احساس الاحترام للعلم والفضيلة ولذلك لا نميز فى المعاملات بين

صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة ، بل فى بعض الاحيان قد يكون احترامنا للثانى أكثر من الأول .

على ان المدنية الصحيحة تعتبر اكبر مكافأة لمن عمل عملا صالحا ان يحترمه الناس وأكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث ان يحتقروه .

ولا يمكن ان تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته . ولايوجد شيء يبرهن على فساد أخلاق الأمة أكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها ، اذ لا شيء أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة .

وكأننا نحن لا نريد ان نعترف لأحد منا بالفضل ، نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم ، ونرى شبابنا يهزأون بالشيوخ ولايثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم ـ ان كانوا من أصحابها ـ ويزاحمونهم بالاقوال والاعمال ولا يتأخرون عن ان يتسوروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم .

* * *

(الأمهات والتربية)

إذا كان للأم المحل الأول فى التربية ، كما بينا ، فهل يصلح أن تكون هى نفسها مجردة من كل حلى التربية ؟ .

وإنى ليؤلمنى أن أكتب حرفا واحدا وليس فيه معنى الاحترام العظيم لكل والدة . لأن الاحترام والأمومة فى نظرى شيئان لا يسوغ فصل أحدهما عن الآخر . ولكن للحقيقة سلطانا يصعب على كل ذى نفس ألا يحس به وألا يخضع لحكمه ..

وعلى ذلك فأرانى مضطرا أن أجهر باعتراف يشق على كثيرا ، ألا وهو أن الأم المصرية لم تهيأ مطلقا لأن تقوم بوظيفتها فى العائلة ، وكأننا استغنينا عنها بوجود الاب ، وهو خطأ عظيم . لأنه فضلا عن كون الأم صاحبة الحصة الاولى من تربية الطفل ، فى المدة الاولى من عمره ، فوجود الأب نفسه بجانب الطفل ليس مضمونا ، اذ قد يحرم منه بموت ، أو بانفصال الوالدة عنه ، فتصبح الأم رئيسة العائلة (أو الحاضنة الشرعية لولدها) ، وعندئذ يقع على عاتقها الحمل الثقيل الذى كان ينوء به ظهر زوجها ، فتكون هى المكلفة ، والحالة هذه بالقيام

بشئون واحتياجات المنزل وطلب الرزق وإدارة الأموال وتربية الأولاد .

ولما كانت الأم فى بلادنا مجردة عن كل تربية عقلية أو أدبية كان تأثيرها لغاية الآن على الاولاد رديئا سيئا ، وكانت هى السبب فى عدم نجاح القليل من التربية التى يكتسبها الطفل من والده ومن تعليم المعلمين .

وإذا صرح لى أن أبدى كل فكر أقول : إن الأم فى بلادنا صارت مدرسة ثابتة عملها الوحيد مكافحة كل مايتلقاه الطفل من سواها . وقد يحتار هذا الضعيف المسكين بين من يصدق ومن يكذب ومن يتبع ومن يخالف ، إلا أن مدرسة الأم لاشك فائزة على كل حال ، لأن الطبيعة تشتغل معها وتساعدها بما أودع الله فى نفس الطفل من الميل إلى الوالدة ، ولأنه يعاشرها أضعاف ما يعاشر غيرها .

ويكفى الواحد منا أن يلتفت الى الوسط الذى هو عائش فيه الآن ثم يرجع بفكره الى عهد شبوبيته الاولى فمهد طفوليته ليحكم بنفسه ان حالة الامهات لا يمكن السكوت عليها والاستمرار على قبولها ، وانها لا تناسب حاجات الوقت ولا تتفق مع ضالتنا التى ننشدها ونوجه لتحقيقها كل مساعينا وآمالنا .

ليس بين الامهات إلا عدد قليل جدا يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة لها إلمام ولو سطحيا بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ولا تدرى شيئا من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التى تسكنها فضلا عن الالمام بأى شىء من أحوال البلاد الاخرى ، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وامة داخل الامة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة أنهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة . وقد كنا نحن على حالتهن الحاضرة من ثلاثمائة سنة وأكثر . ثم تقدمنا وارتقينا وهنّ باقيات على ما كن عليه فى تلك الأوقات .

قلنا إنهن آثار عتيقة لأزمان خالية ، ولكنها آثار حية غير بالية ، لها عمل وتأثير على عكس ما تريد ، فهن لا يروقهن شىء من أفكارنا كما لا تعجبنا أفكارهن .

هن يعتقدن أن قواعد الصحة أشياء باطلة ، وان دواء الطبيب لا يؤثر على الامراض وأن الحركة والسكون فى أيدى الاولياء والمشايخ والجن والعفاريت .

فإذا مرض الولد بادرت الأم فأخذت (أتره)[146] وأسرعت الى الشيخ المشهور فيأمرها باستعمال بخور أو يكتب لها « حجابا » ، ولا شيء فى الدنيا يمنعها من اتباع رأى الشيخ ، وهى تمنع كل شيء سواه ، فكيف يمكنها مع هذا ان تحافظ على صحة ولدها ، وكيف تمنع عنه الخرافات التى تفعل فى عقله ما يفعل السم فى البدن ؟ .

ان الأم لا يمكنها أن تبعد ولدها عن صفات الكذب والتحيل والغش والحمق والكسل والسفاهة اذا كان لا يخطر بفكرها أن هذه العيوب تبقى عند الطفل متى اعتاد عليها بل ولا انها عيوب شائنة .

وهى لا يمكنها ان تنصحه أو ترشده أو تشجعه على دراسته أو شغله اذا كانت لا تعلم شيئا منها ، ولا تتخيل فى ذهنها منفعة الشغل والمطالعة .

فهى نفسها طفل كبير لا تزيد عن ولدها الصغير من جهة العقل ولا من جهة العواطف ولا تختلف عنه إلا فيما ينتج حتما من اختلاف السن بينهما . فهو يحب اللعب وهى تحب اللغط وكثرة الكلام ، وهو يحب الحلوى وهى تحب شرب الدخان والقهوة ، وهو يضرب أقرانه بيده أو بالعصا وهى تضرب قريناتها بحد لسانها ، ومتى خرجت من هذه الدوائر الصغيرة فهى لا تستطيع أن تفهم كلمة ولا أن تعبر عن معنى .

ومن الأسف أنى شاهدت بنفسى مرات عديدة صبية يختلف سنهم بين ١٠ و ١٢ سنة وسمعتهم يتكلمون عن والداتهم بما يقرب من الاحتقار والازدراء ، ويسخرون بما تقوله لهم وما تفعله معهم ، فإذا كان الصبى قبل أن يبلغ رشده يرى نفسه ـ وله الحق ـ أرقى من والدته ، فليت شعرى ما يكون مع هذا حال الأم ؟ ! .

ولعله لهذا السبب عينه ترى الأمهات ترمين دائما أولادهن الذكور بالخسة وعدم الوفاء . اذ يرينهم يميلون إلى آبائهم أكثر من ميلهم إليهن ، ولكن لو كان عند الأمهات قليل إدراك لعذرن الأبناء ، إذ هم يألفون بالطبع من يفهمهم ويفهمونه ، وهم يشعرون ولا ريب أن آباءهم أرقى منهم ، يجاوبونهم على كل سؤال بما يتحقق منه الأبناء أن آباءهم يعلمون ما يعلمون هم وأكثر منه ، فينجذبون إلى معاشرتهم والاختلاط معهم أكثر من أمهاتهم ، والبنات بعكس ذلك .

---

(١٤٦) أى شيئا من حاجياته الخاصة .

ونتيجة ما تقدم كله أن الرجال فى مصر محرومون من أكبر لذة تقتضيها الحياة : ألا وهى محبتهم لوالداتهم وبناتهم وأخواتهم بقدر ما ينبغى .

وليس مرادى أننا صرنا إلى حالة نكره فيها أقاربنا النساء ، أو أننا مجردون عن الحنو لهن ولكنى أقول : إن المحبة الجوهرية التى تتكون من اتحاد الفكر واتحاد الإحساس ـ هذه المحبة الحقيقية الكلية التى تمزج الشخصين وتجعلها شخصا واحدا ، هذه المحبة التى نتمتع بها حتى مع الصديق الأجنبى عن عائلتنا عندما نأنس معه بالحديث فى الجهر وبالسكوت فى السر كأنما الأرواح تناجى بعضها وتتواصى بأشياء لطيفة ـ لا يمكن أن توجد بين رجل وامرأة مصريين .

فإذا أردنا أن نتحصل على أمهات محترمات يلدن رجالا ينفعون أنفسهم وأوطانهم فما علينا إلا أن نبادر بتربية البنات ونصرف فى سبيلها أكثر مما نفعله . أو على الأقل مثل ما نفعله فى تربية أبنائنا .

أخـــلاق ومواعظ

[وهى شذرات كتبها قاسم أمين فى شكل مقالات ..
ونشرها ـ أولا ـ فى (المؤيد) دون توقيع] .

(الموظف : فـلان بـك)

لم يأت وقت على مصر فشت فيه المنافع الشخصية بين الموظفين . واستعملت فيه الدسائس لقضاء الشهوات والأنانية الدنيئة مثل هذه الأيام التى يعدها بعضهم عصرا جديدا لتقدم المصريين .

نعم . حدثت نهضة خفيفة فى قوة التمييز . واستعدت العقول للبحث عن الحقيقة المطلقة علمية كانت أو أدبية أو سياسية . ونمت القوة المدركة قليلا بقدر ما يلوح الفجر ولكنى أقول والحزن يملأ قلبى : إن أخلاق الموظفين . وعلى الخصوص الكبار منهم ، لم تتقدم عن ذى قبل بل هى تقهقرت تقهقرا بينا .

ومهما كان إثبات أمر من هذا النوع مخجلا . فقد رأيت من الواجب على أن أطرق باب البيان فى هذا الموضوع عل الذكرى تنفع المؤمنين .

وإن من يتأمل فى حركات الموظفين يشاهد منظرا عجيبا ذا فصول متقنة التمثيل لنوع أخلاقهم . وفصول تتحدد فى كل آن بطرق مختلفة ، وقد أحببت أن أقربها بالبيان لأفهام أخوانى المصريين الذين يحول بينهم وبينها ستار المناصب فأقول :

هذا الموظف : «فلان بك» . الذى يرشح نفسه فى كل يوم ثلاث مرات . مرة عند الجناب الخديوى . ومرة عند قنصلاتو انكلترا . ومرة عند أحد النظار العاملين .

وهو رجل مشهور عند القوم . ومن أين جاءت له هذه الشهرة ! من غفلتنا جميعا . لأننا نحكم عليه بما نسمعه عنه منه . فيقول لنا : أنا صنعت كذا وكذا . وقلت كيت وكيت . وطلب منى فلان العظيم ذاك الشىء فامتنعت . وأجبت فلانا الباشا بكذا . ووبخت المستر فلان على فعل كذا . وهلم جرا . ونحن السّذّج البسطاء نصدق ذلك . ونعتبر ما يقوله حقا مطابقا للواقع . فيلذ لنا بعد ذلك أن ننشر عنه تلك الفضائل . ونؤسس شهرته بأيدينا . ونحسبه من الأفراد الذين يعدون على الأصابع . والذين يدخرون لوقت الحاجة .

نراه اذا كان فى مجلس تحقق أنه يكره الانكليز كان أول من يلعنهم ، واذا وجد نفسه فى جمعية انكليزية كان أول من يذم أبناء جنسه . صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين يقول لهم : آه لو كان الفرنساويون هم الذين دخلوا بلادنا لكنا أسعد الناس ، فإن المصرى ميال بطبعه إلى الفرنساوى ، ونحن نعتبر أن كل تمدننا هو عمل الأمة الفرنساوية .. وسمعته مرة أخرى بين جماعة من الانكليز وقد فتح أزرار قلبه فى خطابه لهم يناجيهم : أنا أقول لكم فكرى بالصراحة ولا أخشى من مخالفة أغلب المصريين لرأيى ، أنا أعتبر من حسن الحظ لبلادى أن فرنسا أحجمت عن الدخول فى مصر ، وأن الأمة التى احتلت وطنى العزيز هى الأمة الانكليزية العظيمة الشأن ،لأننى لا أنسى أبدا ما فعله الفرنساويون فى مصر عندما احتلها بونابرت .

يقول للسورى : إنه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم . وإنه لا يجب التمييز مطلقا بين أفراد امتين تجمعهما جامعة واحدة . ويقول للقبطى : إنه ممن يبغض السوريين ، ويعلم كراهية المصريين لهم لأنهم أجانب . ولكن الأقباط والمسلمين أمة واحدة فيلزم أن يتحد الفريقان ليستأثرا بمنافع بلادهما .. الخ .

وعلامة هذا الموظف المشهور هى أنه متى وجد فى مجلس لابد وأن يترك له أثرا يذكر به بعده فى نفوس بعض الحاضرين ، ان لم يكن كلهم وعلى الأقل المهمون منهم . والأهمية عنده تكون على الترتيب الآتى فى الظروف الحاضرة :

الانكليز . ثم الأوروبيون عموما . ثم الأقباط . ثم السوريون . ثم نصارى الشرق على العموم . ثم اليهود . ثم المصريون المسلمون .

هذا الشخص يظن أن علم السياسة العملية هو غش الناس بكل وسيلة . ومن الغريب أنه يحفظ لنفسه مكانة بهذه الطريقة ولا يكشف حقيقة أمره إلا نفر قليل إذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف كما تضيع قطرة الماء فى الأوقيانوس الأعظم .

أيحب الناس من يغشهم دائما ؟ أم قوة التمييز لا تزال ضعيفة فيهم ؟ انى لا أعلم أيهما حقيقة الواقع .

ومن ذا الذى يعلمنى أن رجلا غشاشا يكره الناس ولا يريد مطلقا الخير ـ لا يحب إلا نفسه ولا يهتم إلا بمنافعه الشخصية ، أن رجلا يده مغلولة إلى عنقه ، وقلبه جاف لا يفرح يوما لفرح غيره ، ولا تدمع عيناه لأحزان أقرب الناس إليه ، إن رجلا يهزأ بالناس كلهم حتى يتخذهم

آلات لقضاء شهواته وأطماعه ـ يستطيع أن يعيش محبوبا محترما مشهورا بين قوم متمتعين بقواهم العقلية ؟؟؟ ! ! ! .

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا !

(المـوظـف : وأنــا مــالــى)

هذا الموظف كثير العدد فى مصالح الحكومة ، ومنتشر فى جميع طبقاتها ، الكبيرة والوسطى والصغيرة ، انتشار الذباب فى الأماكن القذرة .

يذهب فى الصباح إلى الديوان ، حتى اذا دخل فى قاعة شغله وجلس على كرسيه أخرج من جيبه علبة السجاير وأحرق واحدة منها ، وفى خلال ذلك تأتيه القهوة فيشربها رويدا رويدا ثم يتثاءب ، ويتثاءب ، وبعد ذلك إما أن ينتقل إلى مقعده ليضّجع ولو نصف اضجاع ، واما أن يمن الله بالزائرين ، وينفتح باب المقابلات ، ويدخل عليه الطالبون والملحون ، ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم إلى الديوان من الأصحاب والمحسوبين عليه ، ومن استدعاهم لقضاء مصلحته : كجزار يحاسبه ، أو طباخ جديد ليجربه ، أو مرضعة لنجله تطالبه ، فيلقون منه ما تقتضى شعائر المروءة والبشاشة والوعود حيث يخرجون واحدا بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه فى أثناء ذلك كأنما نشط من عقال : غاب كسله ، وذهب تثاؤبه ، يبتسم مسرورا لا يأنف من شىء ، ولا يمل من إنسان ـ إلا اذا كان طالبا ملحا ـ يحكى بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم لا يستعمل قط حرف : (لا) ، لأنه نفى قاطع ، ولكنه يعد ويعد ويعد بعبارات لا ترفع الأمل ولا تستوجب اليأس ، ولو كان ذلك الأمر مستحيلا : مع أنه يكون مصمما على ألا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنال .

ولكن انظر بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين بورقة يريد عرضها عليه ، تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تقطب وجاهد فى استحضار قواه ليسمع ما يعرض عليه ويعى ـ وأنى له أن يسمع ويعى ـ فيقول المستخدم المسألة مرة ومرتين وثلاثا ، متفننا فى طرق التفهم عساه يوقظ الفكر النائم ـ وهو ليس هنا ـ .

ثم يلاحظ أن من حوله شاخصون ساكتون منتظرون فيتدارك الأمر ويجيب بأى عبارة صادفت أو لم تصادف ، وربما حوله على فلان المرءوس له بحجة أنه مشغول الآن ، أو أمره

بإرجاء عرضها إلى وقت آخر لأنها مهمة أو غير مهمة ، فيخرج المستخدم المسكين كما دخل والمسألة باقية ، وعليه صرفها بأى طريقة كانت .

لو سألته : لماذا ترك مسألة مهمة ، أو لماذا لم يعارض فى أمر كان من الواجب والنافع أن يعارض فيه ؟ أجابك : يا أخى ماذا أصنع ؟ الانكليز ... الخديوى .. النظارة[١٤٧] ...

فإذا ألححت عليه ساق الحديث إلى اختلاف الجو بين أوروبا ومصر ، أو إلى كدورة الهـواء أو إلى اشتغاله بإنحراف صحة أهل بيته ، أو إلى بيت لطيف تذكره من قول أبى نواس ! .

وأكره من هذا النوع على الخصوص : «الموظف وأنا مالى» ، الفشار الذى يفهمك أنه قال وعمل ما يجب أن يعمل .

يقول : نعم أنا ما سكت ، واستلفتّ أنظارهم إلى جميع أطراف المسألة ، وشرحت لهم جميع نتائجها ، وما يترتب على عملهم من المضار ، ولم اتأخر برهة عن اقامة الحجة عليهم بكل ما وسعنى ، واظهرت لهم بالصراحة أننى لست مشاركا لهم فى الأمر ، وأنهم يعملون على نقيض مبدئى بالمرة — ثم يختم كل عباراته هذه بقوله حينئذ : وأنا مالى ! ! ! . مع أنه فى كل ذلك لم يكن قد نطق بكلمة واحدة .

يقابلك بغاية اللطف وحسن المحيا والإشارات المطيبة للخاطر ، فتظنه شريكك فى الإحساس ، حتى اذا قصصت عليه شيئا مما يشغلك ألفيته بعيدا عنك ، أبعد من ساكنى القمر إليك ، وترى اذا أمعنت النظر فى وجهه كأنما رسمت عليه هذه الكلمة بأحرف جلية : وأنا مـالى وأنا مالى ، وأنا مالى .

آه لو لم يكن مطلوبا منه أن يتكلم فى بعض المسائل الخطيرة لكان «الموظف وأنا مالى» سعيدا ، سعيدا ، سعيدا .

ولذلك تشاهده ما سعى ولن يسعى إلا على وظيفة لا تكون ذات أهمية إلا فى مرتبها ومتى إدركها طمحت نفسه إلى غيرها أهم منها من جهة المرتب أيضا ، وهكذا يستمر متنقلا من مرتب مهم إلى أهم منه حتى يأتى اليوم السعيد الذى يناديه فى كل آن فيحال على المعاش بمبلغ مهم جدا جدا جدا ! .

* * *

---

(١٤٧) أى : الوزارة .

(الموظف الغاش بوطنيته)

كنت يوما فى منتدى جمع بين جماعة من خيار الموظفين والشبان الأذكياء الذين يدأبون على المطالعة ، ويحبون الجد والنشاط فى الأعمال ، ممن يربطنى وإياهم اتحاد الفكر ، وتجمعنى معهم وجهة الاحساس والشعور بحاجة جامعتنا ، فدار الحديث بيننا على تعيين أحد رفقائهم فى وظيفة عالية ، وقد اتفقنا جميعا على أن هذا التعيين يكون مجلبة خير كثير للبلاد ، ثم مضت على ذلك ستة أشهر أو حوالى ذلك ، واتفق أننا اجتمعنا مرة أخرى وقد دار الحديث على ذلك الموظف ـ الذى لم يزل فى وظيفته العالية ـ فاتفقنا جميعا على أن تعيينه كان مجلبة شر كثير للبلاد .

وذلك أن هذا الموظف كان دائما يتأوه معنا على حالة الانحطاط الاجتماعى من حيثية الأخلاق التى نحن فيها ، وكان يقول ، كما نقول نحن : إن أكبر أعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم ، واعتبروا أن الوظائف ماخلقت إلا لكى تخدمهم لا لكى يخدموها. وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكمنا على أنفسنا ، لأنه كان مثلنا يرى من الواجب على الموظف أن يقوم بالمسئولية الملقاة عليه حق القيام ، بل كان يزيد علينا فى الرأى بأن هذا الواجب يتعلق بالموظف أيا كانت الظروف والأحوال على درجة واحدة ، حيث كنا نختلف معه من هذه الوجهة ، ونقف بالواجب فى كل حالة عند الحد الذى يناسبها بالحكمة والاعتدال بمعنى أن الإنسان لا يلزم إلا بالواجب المستطاع أداؤه فى كل وقت ، بلا مغالاة ولا تقصير لأن السير الحسن فى الواقع ونفس الأمر هو ما يترتب عليه نفع للوطن ، ولو كان مذموما عند بديهة النظر بين الناس ، وأن السير القبيح هو على العكس من ذلك بشقيه ، ومن هذه الوجهة كان يطول بيننا وبينه الجدال ساعات ما أحلاها لو تعود كما كانت عليه .

ولكنها لا تعود : فقد ثبت عند الخاص والعام أن الوظيفة كانت لدى صاحبنا هذا كلمة كغيرها يلفظها اللسان من أطراف مخارج الحروف فلا يعرفها القلب ، كانت معدة لديه قنطرة ليجتازها بقدميه توصلا إلى مكان مقصود له بالذات ، كانت قلعة اختارها للدفاع عن نفسه من مهاجمة أعدائه ، كانت راية تتبعها شهوات دنيئة ، وكان التفافنا حولها خطأ

على أن غاية ما كنا نؤمله فى وطنيته أن ينهج خطة الرشد فى العمل ، ويألف مقال الحق ويشتغل على قدر ماتجود به قوته وتسمح به استطاعته . وأن يساعد أبناء جنسه ويوجد لنفسه بعمله ونشاطه ويقظته وحسن سياسته مركزا يجعله إنسانا فعالا نافعا خادما أمينا لأبناء وطنه .

فلما وصل إلى حيث كان يرمى صار مثل كل جبان يحب ذاته ويعبد أنانيته ، لا يهتم ولا

يتحرك إلا لصيانة مركزه الخصوصي وتحسينه ، ومحا من ذاكرته ـ محوا نهائيا ـ تلك الأقوال الجميلة الشائقة التي كان يطنطن بها عندما كان الحديث يدور على أعمال الغير ، بل صار مستحقا للاحتقار أضعاف ذلك ، لأنه غش الناس واستعمل الحيل لإيهامهم أنه يحرز شمائل وصفات لا يوجد ظلها فى الحقيقة عنده : وأنى لفى حيرة من أمره ! .

ما الذى حمل هذا الرجل الذى توفرت لديه وسائل وأسباب كثيرة تمكنه من أن يعيش راضيا مرضيا عنه ومحترما على أن يسلك طريقا لم يكسبه إلا المعرة ؟ ! ! ! ! .

فهو متعلم ونبيه ، ذو قدرة على الفكر والعمل ، لو ولد إنكليزيا أو فرنساويا أو ألمانيا ـ بل أو بلغاريا أو أرمينيا ـ لما وضع صفات التعلم والنباهة والقدرة على الفكر والعمل فى غير خدمة أبناء وطنه ، فهل عيبه الوحيد أنه ولد مصريا فلم يفكر إلا فى خدمة نفسه ؟؟ .

على أن الجمع بين الخدمتين ليس محالا ولا متعذر الحصول . فقد رأينا فى جميع بلاد الدنيا أن الإنسان قد تكون عنده شراهة فى حب المال والكسب وشغف بنوال الألقاب والرتب والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعد إخوانه ويكره أعداءه وأعداء وطنه .

فلماذا يا ترى يخالف الموظف المصرى غيره حتى يعتبر أن منفعته الخصوصية يلزم أن تكون فى جميع الأحوال مضادة للمنفعة العمومية ؟؟؟ .

كيف يتصور أن رجلا ـ تلقى العلم عن أهله ، وتربى على أجود قواعد التربية المتبعة فى أحسن الممالك ، وعاش فى وسط حب الشغل والعمل نام ، وشاهد أحوال الأمم الأخرى ورأى تنافسها لبعضها فى سبيل الترقى ، واحتك برجالهم العقلاء ـ يرضى لنفسه عيشة الخمول والكسل

لا تحركه غيرة ولا تستنهضه غاية شريفة يسعى وراءها ؟ ! .

وماذا يكون بعد هذا الحال ... زيد خلف عمرا ، وبكر خلف زيدا .. الخ .. الخ .. الخ .. وقال كلهم : نحن نأتى بما لم يستطعه الأوائل قبلنا ، نحن ندرى كيف نخدم وطننا ، كيف نذود عن حقوق أهلنا ، كيف نحفظ لجامعتنا شعارها وذمارها ودثارها . فلما جلسوا على الكراسى المذهبة، وتناولوا المرتبات الوافرة، وتصدروا فى المجالس بحيثيات مناصبهم، ورأسوا الموائد فى الولائم والمآدب قالوا لأنفسهم : انها لعيشة جميلة فلنتمتع بها ، وأما بعدنا فلا نزل القَطر :

ألم يفكر المصريون فى عواقب هذه المخازى ؟

ألم يسمع هؤلاء المغرورون أن بعض الأجانب الذين يحبون مصر يقولون جهارا : «اذا كان أبناء هذا العصر هم كما نرى فنحن نفضل عليهم آباءهم وأجدادهم ! » .

* * *

(الموظف السياسي)

إذا كان المقصود بالسياسة الدأب على ارتكاب الأشياء الدنيئة ، كما عرفها (رشليو) [١٤٨] المشهور ، فذلك الموظف يكون جديرا بأن يسمى سياسيا ! . لأنه ماهر فى فن المداهنة واستمالة الخواطر ، واختلاس الثقة من صدور الناس ، والدخول فى دائرة مودة ولاة الأمور بالالحاح والعنف ، والسقوط على أسرارهم إلى أعماق الضمائر ، حتى اذا أخذ كل ما يريده منها كانت له سلاحا يستعمله عند الحاجة لقضاء مآربه .

يقول مالا يعتقد ، ويعتقد مالا يقول ، ويتظاهر بالشفقة على ذويه ، وبإغاثة المظلومين ومساعدة الضعفاء ، ويهتم دائما لأن يكون له ملاذ قوى يلجأ إليه عند الضرورة ، وحزب يتقوى به عند الحاجة إلى استعمال القوة الذاتية ، ومحاسيب يستعين بهم كوسائل لمطالبيه .

عرف الناس جيدا ، ووقف على أخلاقهم ، فوضح له أن أكثرهم يفضل كلمة حلوة ــ ولو لم يعقبها عمل نافع ــ على أنفع الأعمال مجردا عن تلك الحلاوة . فحقق من ذلك لفظة عذبة وحركة ناعمة تكفيان لأن يؤسس عليهما شهرة سامية وسمعة فائقة ! ! ! .

ولاأقول: إنه لاينفع أحدا مطلقا، وإنما أقول: لاينفع إلا نفرا من الناس يرى فيهم الاستعداد لأن يكونوا مماليك فى قبضة يده ، يتحركون حسب إشارته .

أما مبدؤه فعدم المبدأ: كان عرابيا مع عرابى حيث كان رجل الوقت، فلما شام نجمه آخذا فى السقوط تحول عنه وقطع أوداج العلائق معه وأنكر بالمرة معرفته .

ثم كان أول من أخذ طنبورته وغنى عليها نغمة المديح فى الخديوى سيد البلاد ، ولكنه لما رأى

(١٤٨) رشيلو ، ارمان جان دى بلسى ، دوق (١٥٨٥ ــ ١٦٤٢ م) حبر وسياسى فرنسى ، اشتهر بـ الكاردينال رشليو . تولى رئاسة وزراء فرنسا على عهد لويس الثالث عشر . وجمع فى يده سلطات الحكم كديكتاتور طوال حياته فى الرئاسة .. وله فى تشجيع الفنون جهود ، كما يعود اليه فضل تأسيس الأكاديمية الفرنسة .. وهو غير رشيلو . أرمان ايمانويل دى بلسى ، دوق (١٧٦٦ ــ ١٨٢٢ م) الذى وصل هو الآخر إلى رئاسة وزراء ما بين عامى سنة ١٨١٥ وسنة ١٨١٨ م .

قدم الإنكليز يثبت بعد الاحتلال شيئا فشيئا ، وسلطتهم تتزايد يوما فيوما انحاز إلى صفهم وأرشدهم ونصحهم وواصلهم بأخبار «آخر ساعة» ، وقدم لهم قوائم لأسماء المشبوهين ، وأطلق على برنامجه هذا «سر الوطنيين» .

ثم لما رأى مركز الخديوى قد تقوى على أثر تولية مولانا العباس ، وصار كما يجب أن يكون ـ أول عامل فى ادارة البلاد ، أخذ يقدح فى الانكليز من ورائهم ، ويهجو أعمالهم ويشرح مقاصدهم السيئة ، حتى حرك النفوس لدى البعض ، وأثار الشهوات عند البعض الآخر ، وبذر الفتن ، وجهز الزلازل ، ونفخ بفمه ريح العواصف ، وعكر المياه ، فطاب له العيش فى هذا الوسط المحشو بالاخطار . وكنت تراه خلال ذلك منشرحا مسرورا كمن آل إليه ميراث جديد وصار فى نشاط غريب حتى أوصل سياسة الغش والدهاء إلى درجة لم يكن يحدث نفسه بها .

وكان يذهب إلى كل فريق فيخاطبه بالألفاظ العذبة التى تحلو على مسمعه ، فتمكن وقتئذ من الايقاع بأشخاص كثيرين ، اما بنميمة ألقاها فى وسط الحديث ، أو باستعلامات غير حقيقية اخترعها : ولم يفكر لحظة فى النتائج الوخيمة التى تترتب على هذه الأعمال .

وقوة هذا الموظف كونه دائما متيقظا ، وعالما بحركات الناس وأميالهم وصفاتهم وعيوبهم وكونه يشتغل ويعمل دائما بنشاط وحركة لا يقبلان الملل :

لذلك تمكن من أن يكون ذا مركز مهم ومنزلة سامية بين الناس .

يعتبره الأوروبيون من أبناء مصر الفتاة الذين يقدرون أوروبا حق قدرها ، ويعترفون لها بالفضل على مصر ، ويتمنون المعيشة تحت سيطرتها ، والذين منتهى آمالهم أن تكون مصر بلدة مختلطة محكومة بحكومة مختلطة .

ويعتبره الانكليز رجلا نبيها قد يلزم رغما من عيوبه فى بعض الأحيان لحل المعقود أو لعقد المحلول من الأمور على حسب مقتضيات الأحوال .

ويعتبره المصريون أنه رجل ذو دهاء يمكنه أن يؤدى للبلاد خدمات كثيرة وينال من الانكليز بالخديعة والحيلة ما لا يناله غيره .

ولكنه فى الأيام الأخيرة قد اكتشف كثير من المصريين الذين يستعملون دخائل الأمور وما يجرى وراء الستار أن سياسة الرجل لا تخرج عن حيل «قرة كوز»[١٤٩] البسيطة . وأن هذه

(١٤٩) أى الاراجوز

الأوقات الصعبة التى تنتقل فيها البلاد من حالة إلى حالة تستدعى رجالا يفهمون منافع الوطن الحقيقية الدائمة ، ويشيدون آراءهم وأعمالهم على العلم لا على الحيل .

أو لم يكن الأجدر بهذا «الموظف السياسى» أن يستعمل بعض الصفات التى امتاز بها على كثير من غيره فى خدمة بلاده ؟ ، وأن يسعى إلى المجد ورفعة القدر وحسن السمعة من طرقها الحقيقية التى تنحصر فى تقوى النفس وعمل الخير؟ .

* * *

(صاحب المعاش)

ترك الحكومة ـ أو على الاصح تركته الحكومة ـ وهو أكثر ما يكون فى الغالب متمتعا بقواه البدنية والعقلية ، وسواء كان معاشه كافيا لاقتضاء لوازم معيشته أو غير كاف ، وسواء كان غنيا فى حد ذاته أو فقيرا ، تراه دائما كسيف البال آسفا على وظيفته أسفا شديدا ، لأنه يظن ـ كما اعتاد أهل بلادنا أن يعتقدوا ـ أن الإنسان قليل بنفسه كثير بوظيفته ! . ولأنه يشاهد دائما أن الواحد عندما يكون فى وظيفة عالية يحترم ويجل مقامه ويزار وتتزاحم العربات والبغال والحمير على باب منزله ، الذى يكون مزهرا بهجا تحييه حركة مستمرة وتحف به حياة طيبة ، فإذا أحيل على المعاش انقضى كل ذلك وأصبح هذا الشخص بذاته مهملا مهجورا بل ومندهشا : كمن رأى رؤيا مفرحة واستيقظ من نومه فجأة .

فلما يتخيل صاحب المعاش كل ما كان عليه بالامس وما أصبح فيه اليوم لا يستطيع أن يمنع نفسه من التأثر والتحسر .

ولو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين إلا بنسبة قليلة جدا وأن كل إنسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه ، وأن يعلو على أكبر ملك فى الدنيا بفضيلته وعلمه ، لما رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئا .

ولكن كيف يتأتى وجود هذه الملكة فى أمة تصورت أنها خلقت ليحكم نصفها النصف الآخر؟ ! ! ! وعند رجال اذا قلت لهم : علموا أولادكم قالوا : «انا لا نجد فى التعليم فائدة حيث الحكومة أقفلت أبوابها فى وجوه أبنائنا» ! ! ! . كأن العلم لا قيمة له فى حد ذاته أو كأن العلم وكسب المال سهل وحلال فى الحكومة ، صعب وحرام خارجها .

ومما يزيد تألم صاحب المعاش على فراق وظيفته أنها كانت فى الحقيقة الشىء الوحيد الذى

يشغل أوقاته بها ـ لا لأنه كان منهمكا فى تأدية الواجبات المتعلقة بها ـ بل لأنه اعتاد على أن يمضى وقته بكيفية مخصوصة لم يعد فى امكانه استعمالها ، ولذلك ترى أرباب المعاشات فى حيرة لا يدرون معها ماذا يصنعون لأجل أن يقتلوا الزمان قبل أن يقتلهم ، فمنهم من يخرج فى الصباح لزيارة من هم على شاكلته يوميا ولا يعود إلا وقت الظهر ، ومنهم من يقصد القهاوى والأندية العمومية للعب «النرد» أو ما شاكله من الساعة السابعة صباحا إلى أن ينبهه دوى مدفع الظهر أيضا ، ومنهم من يجلس على كرسى أمام باب منزله أو حانوت أو أجزاخانة ليتأمل فى حركة الشارع نحوا من أربع أو خمس ساعات ، ومنهم من يقضى أكثر أوقاته معتكفا فى المساجد ، ومنهم من يطوف على مصالح الحكومة يوميا ليتمتع بمشاهدة السلطة التى حرم منها ، حيث يجد فى الاحتكاك بأهل الحل والعقد بعضا من اللذة أو التعزية .

ولم أر فيهم من أوجد لنفسه عملا يشتغل به بدلا عن وظيفته ! !

أتعرف ، أيها القارئ ، واحدا من أرباب المعاشات الذين يكثر عددهم كل يوم يشتغل فى منزله ساعة أو ساعتين بتعلم علم يجهله أو اتقان فن تعلمه . ومنهم الطبيب والمهندس والعسكرى والإدارى والمشرع ، وبين جميع هؤلاء الغنى والفقير المحتاج ؟؟ فهلا اشتغل الغنى لترقية عقله والفقير كذلك ، أو استعان هذا على معالجة فقره بالسعى فى طلب الرزق ؟؟

أيليق بقوم يطمعون فى تحسين مستقبلهم أن يعيشوا فى وسط التنافس العام بالبطالة والكسل ؟؟ .

ومما يدهش الفكر ويؤلم النفس أن صاحب المعاش يرى من حين تخليه عن المنصب أنه لم يبق من الواجب عليه أن يهتم بشىء مما يحصل فيها بالمرة ، فاذا سمع خبرا محزنا أو نبأ واقعة مكدرة تراه بعيد الشعور بقدر ما هو بعيد عن الوظيفة أو بقدر ما هو قريب أمل الرجوع إليها وأول كلمة تخرج من فيه : «الحمد لله على أنى فى بيتى وبعيد عن نصب المنصب» . كأنه صار أجنبيا عن البلاد بالمرة ، وكثيرا ما يتصامم عن سماع أى حديث يكون موضوعه المصلحة العمومية : لأنه لا يحب أن يتداخل فى شئون الحكومة ! ! ! وقد يفضل على ذلك سماع القصص الخرافية ونوادر الأعصر القديمة التى يحفظها بوعى وذاكرة قوية ليته استعملها لحفظ شىء نافع .



المصريون

[ردّ على دوق داركور]

[وهو الكتاب الذى نشره قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م ردا على كتاب الكاتب الفرنسى « دوق داركور » الذى تحامل فيه على الإسلام ومصر والمصريين ..

وهذا المؤلف هو أول مؤلفات قاسم أمين]

[وهذا النص العربي لكتاب قاسم أمين (المصريون) يظهر للمرة الأولى - باللغة العربية . بترجمة الصديق الأستاذ محمد البخارى .

فلقد كتب قاسم أمين كتابه هذا بالفرنسية ، ردا على كتاب كتبه دوق داركور بالفرنسية كذلك ..

ومن ثم فإن هذا النص يجلو لقراء العربية ، بل ولدارسى قاسم أمين صفحة مجهولة إلى حد كبير ، ويضع بين أيدى مفكرينا ومثقفينا معالم مرحلة من مراحل التطور الفكرى لقاسم أمين لا نستطيع دراسة حياته الفكرية ، المتطورة ، إلا بعد الاطلاع عليها ..

ولقد نشر هذا النص ، الذى يترجم عن الفرنسية للمرة الأولى .. نشر بالفرنسية تحت عنوان :

Les EGYPTIENS
REPONSE A M.LE DUC D'HARCOURI
Par KASSEM - AMIN
Conseiller a la Cour d'Appel du Caire
LE CAIRE. JULES BARBIER, Imprimeur
1894

ولقد قمنا بالتحقيق والتعليق على هذا النص الذى ترجمه ـ كما قلنا ـ الأستاذ : [محمد البخارى] .

(تـقـديـم)

تتضمن هذه السطور التى سيطالعها القارئ ردا موجزا على الأفكار التى تحدث بها عن المصريين دوق داركور فى كتابه الذى لم أتعرض بالتفصيل لجميع ما صادفنى فيه من أخطاء . فقد كان هذا يتطلب منى من الوقت مالا يتسع لى لسوء الحظ ، وهكذا لم يتح لى إلا تسجيل بعض الملاحظات على هامش مؤلف دوق داركور . على أنى عنيت عناية خاصة هنا بالتصدى لهذه القوانين العامة التى أراد استخلاصها من الوقائع التى سجلها ، وليس يعنينى أننا نعيش فى أيامنا هذه فى حالة من التخلف فسوف تجتاز مصر ما اجتازته أوروبا من قبل . غير أن الشىء الذى لا أستطيع قبوله ، هو أن يكون قدرنا أن نخلد فى هذه الحالة من التخلف دون أن نتحرر منها أبدا .

سوف يرى القارئ اننى اعترفت فى صراحة بنقائصنا ، محاولا تفسيرها أو تبريرها .

وإننى أستميح أصدقائى الأوروبيين عذرا اذا كنت قد تحاملت أحيانا على أوروبا ، مؤكدا لهم أن هذا لا يقلل من حبى لهم ، غير أنه كان على أن أقوم بمقارنة بين العادات والتقاليد للكشف عن المزايا والمساوئ وإننى لأتوجه إليهم بالرجاء ألا يضنوا على بالثقة فى حسن نيتى المطلق ، وأن يطمئنوا إلى أننى لم أقل شيئا إلا عن اقتناع كامل به .

ولا يفوتنى أن أتقدم بالاعتذار عن أوجه النقص التى لابد أن يلحظها القارئ فى أسلوب رجل يكتب بلغة أجنبية دون أن يكون له طموح سوى أن يعبر عن أفكاره فى وضوح .

قاسم أمين

(المصــــرى)

يبدو الفلاح المصرى المعاصر ـ مسلما كان أو قبطيا ـ طويل القامة على وجه العموم ، قويا متين البناء ، يتمتع بطاقة جسدية نادرة ، يلبس أبسط الثياب ، ويتناول غذاء هزيلا ، لكنه يأوى إلى مسكن بالغ السوء . ينجز أشق الأعمال فى العراء تحت أشعة شمس حارقة لا يشكو ، بل يبدو راضى النفس بمصيره ، مزاجه معتدل أغلب الأوقات ، يضحك ملء شدقيه لأنه لا يشغل باله بشئون الغد .

والطموح ينقص الفلاح ، حتى لا يعبأ بالتفكير فى جيرانه الأثرياء الذين ينعمون كل يوم بأشهى طعام ، ويرفلون فى أزهى الثياب . فهو يرى أن كل شىء على ما يرام ، صحيح أنه لا يعرف حب الحرية والاقتحام الذى يميز عرب الصحراء ، غير أنه أبعد ما يكون عن الجبن والخور . وإن يكن فى هذا ما يحرك الدهشة فيكم ، فدعونى أبسط الأمر قليلا :

إننى أوكد أن الفلاح لا يتراجع أمام خطر حقيقى أو موهوم ، فإذا داهمته عصابة لصوص لم يتردد فى افراغ رصاص بندقيته أو فى إعمال عصاه الغليظة بكل شجاعته . بل انه ليبحث عن المغامرات تتعرض فيها حياته للخطر ، لأن ذلك يمجد زهوه أو يقربه من شىء يهواه قلبه ، لقد أتاح لى عملى القضائى معرفة عدد من قطاع الطرق الخطرين الذين ينتمون لأسر ثرية ، والذين لم يختاروا هذه المهمة إلا لتتألق أسماؤهم بما ينجزونه من أعمال تتسم بالشجاعة ، ويستطيع الفلاح كذلك احتمال أقسى الآلام ، بل إنه ليستقبل الموت فى استسلام ممتزج بالرضا . وقد شهدت أفرادا محكوما عليهم بالإعدام . وهم يشنقون ، فلم أر واحدا منهم يطلق فى آخر لحظة من حياته صيحة شكوى ، أو تصدر عنه هزة اضطراب . لقد بقى الجميع تقريبا مسيطرين على أنفسهم سيطرة رجل يزمع السفر فى رحلة عمل يعود منها بعد بضعة أيام إلى أهله وبيته ، وقد لا تكون هذه هى الشجاعة الفعالة التى تتملك المرء وتقذف به وسط الخطر . غير ان هذه لا تبعد كثيرا عن تلك . لقد اعتاد فلاحونا استخدام الأسلحة النارية فى يسر كبير ، فهم يطلقونها دائما فى أعيادهم .

غير أن هناك شيئا يخشاه المصريون أكثر من الأمراض وطلقات الرصاص ، وأشد من الموت نفسه ، ذلك هو السلطة ، نعم ، السلطة هى مصدر رعب الفلاح ، السلطة هى التى تطلق ساقيه عدوا ساعة يلمح طربوشا عن بعد . وهى التى تجعله يتقبل جميع الاهانات وألوان الظلم دون احتجاج . وهى التى أتاحت لدوق داركور أن يشهد فى مصر يونانيا يؤدب فلاحا مصريا ، وقد تتساءلون عن سر خشية السلطة إلى هذا الحد ! ان الأمر فى غاية البساطة . فالمرء يمكنه احتقار الموت لأنه يعلم أنه عملية بضع دقائق من الألم النفسى المريع ، بينما لا يعرف المرء متى ينتهى عذاب السلطة له ، فقد تستمر عملية ضربه بالعصا عدة ساعات ، وقد تتصل فترة سجنه سنوات مع تعذيبه خلال شهور . وقد لا تكفى جميع ممتلكات الفقير المنكوب ولا ممتلكات أسرته لإشباع شهية «الموظف» (ممثل السلطة) .

لقد رأيت بنفسى فلاحين مشرفين على الموت بعد اعتداء يونانيين عليهم . ومع ذلك كان العقاب يكال لهم هم . فكانوا يضربون بالعصا ويسجنون ويقترضون نقودا يرشون بها ممثلى السلطة . وشهدت كيف يهوى الموظفون بالسوط على ظهور الشاكين والمتهمين فى حوادث الشجار العادية ، وكيف يعامل الشهود المستدعون للادلاء بمعلوماتهم فى بعض الوقائع حيث يمتهنون ويسرقون ويلقى بهم فى السجن بضع شهور .

ويوم قمت بافتتاح محكمة بنى سويف الجديدة أبصرت مائتى سجين فقمت على الفور بإخلاء سبيلهم ، وكان من بينهم أربعة خفراء متهمين بوقوع خيانة زوجية فى دائرة عملهم . وقد عرفنا جميعا منهج إسماعيل [١٥٠] فى تجريد الفلاحين من مدخراتهم النقدية بواسطة جلدهم بالسوط صباحا وظهرا ، بل وليلا كذلك .

ولم يجد دوق داركور فى هذا الاضطهاد الرهيب سوى فرصة للحديث عن مقدرة المصريين فى تحمل الضربات . فالفلاح - كما يزعم دوق داركور - لا يدفع الضرائب إلا اذا ضرب يا إلهى ! . كيف تريدون له أن يدفع دون قهر ، بعد أن أدى عشرة أضعاف ما فرض عليه دفعه ؟ إنه يتلقى لطمات الأوروبيين وضربات عصيهم . مفضلا الصبر على التوجع والمقاومة لأنه يعلم أنه سيواجه بضراوة الموظفين الفاسدين الذى ينتظرون فى شوق تلك الفريسة الجديدة ، بينما ينعم الأوروبيون بالافلات المطلق من أى عقاب .

---

(١٥٠) الخديوى اسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥ م) حكم مصر فى سنة ١٨٦٣ م حتى عزل بتدخل من الدول الأوروبية الاستعمارية الدائنة لمصر سنة ١٨٧٩ م .

أما اليوم وبعد إنشاء المحاكم الجديدة بدأ الفلاح يعى حقوقه ، ويدرك أنه فى حماية القانون وفى حماية قضاة ذوى نزاهة ، فلم يعد يغتفر مثل هذه الاعتداءات التى ذكرتها إلا نادرا حتى الأوروبيين الذين يصادفون اليوم مصريا واعيا بحقوقه يدهشون لهذا التمرد . وقد استخدمت إحدى صحف الاسكندرية كلمة «التمرد» خلال المقالات العديدة التى خصصتها للحديث عن الحالة المعنوية الجديدة عند المواطنين ، وقدمت تحليلا يشرف كلا من المصور والنموذج معا .

ويحسن الأوروبيون صنعا لو أنهم كفوا عن القلق على المصريين ، فإذا كان المصريون لن يغفروا الاهانات بعد اليوم فلسوف يلقون الأوروبيين بحسن الضيافة التى يحثّ عليها الإسلام .

إن الشعب المصرى شعب رقيق طيب الأعماق ذكى ، نشط ، سريع فى حذق مايتعلمه فإذا وجد التوجيه السليم لم ينحرف أبدا عن الصراط المستقيم .

والفلاح – رغم كل مزاعم دوق داركور – لا يكره التعليم . وليس المثل التركى – كما يقال – المثبت فى كتاب الدوق داركور ، والذى يقول : «اذا أعطى الله الإنسان وظيفة منحه القدرة على مزاولتها» إلا من ابتكار مهرج ساخر .

إن المرء لا يؤلف من أمثال هذه الترهات كتابا يدعى احتواءه على وثائق إنسانية ، بل انه سيكون من المزالق الخطرة أن أناقش وسائل إعلام مماثلة ، فذلك شبيه بترك الوقائع المشاهدة وتجنب التعرف الشخصى على الأشياء التى يريد المرء الحكم عليها ، والجنوح بدلا من ذلك إلى استعارة أقاصيص الرحالة الذين يستحيل التثبت من رواياتهم ، ثم اننى أعرف بخبرتى ذلك النهج الذى يتبعه الأوروبيون فى تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب .

ولو أن دوق داركور كلف خاطره عناء التعرف بنفسه على أفراد شعبنا ، لرأى أنهم لا يحيون – كما أكد – فى العزلة والمهانة ، وأن المثقفين منهم ، وخاصة أولئك الذين درسوا فى أوروبا يشغلون أعلى المناصب فى جهازنا الحكومى ، وللاحظ كم ينالون من تقدير مواطنيهم الذين لا يسخرون أدنى سخرية بالتعليم ، وهو ما يجد دليلا فى ضخامة عدد التلاميذ والمدارس رغم أن التعليم فى بلادنا غير اجبارى . ويضم الجامع الأزهر – اذا اكتفينا بذكره وحده – خمسة عشر ألف طالب ، جميعهم على وجه التقريب من أبناء الفلاحين . ويكشف آخر احصاء ، أعده

أمين سامى بك[151] ناظر المدرسة الناصرية بالقاهرة ، أن مدارسنا تضم الآن ١٥٨٫٠٢١ تلميذا ، بينهم ١٥٥٫١٨٤ صبيا ٢٫٨٣٧ فتاة وهم جميعا مسلمون .

حقا ، كان يحدث فى الماضى أن يلبس الفلاح الحداد على ولده الذى يأخذونه إلى المدرسة . غير أنه اليوم وقد أخذ يشهد قيمة ثمار التعليم ، فإننا نلحظ الجهود التى يبذلها فى سبيل تعليم أبنائه . ونحن نرى خلال هذه السنة وحدها أن ثلاثة من بين الأربعة عشر شابا الذين أنهوا دراسة الحقوق فى باريس هم من الفلاحين ، ويخيل إلى أن آباء الفلاحين الثلاثة الذين فارقوا أبناءهم خلال أربعة أعوام ، وبعثوا بهم بعيدا هكذا ، وانفقوا من جيبهم أكثر من ألف جنيه حبا للعلم لا يشبهون فى شىء ذلك النمط الذى اختلقه دوق داركور . وقد تقدم للمسابقة الأخيرة للموظفين أمام اللجنة الدائمة للامتحانات أربعة آلاف متنافس للحصول على وظيفة كاتب فى إحدى المديريات ! .

ما أندر أن يموت ثرى دون ترك جزء من ثروته للفقراء ولاقامة المدارس . ثم إن لكل مسجد بالقاهرة والأقاليم مدرسته الملحقة به .

وتعمل الحكومة بانتظام على نشر التعليم شيئا فشيئا . كما ترعى فى عدد من مدن أوربا بعثات تعليمية ، يرسل إليها بعض الأفراد كذلك بأبنائهم يتعلمون بها على نفقتهم . وبينهم كثير من أبناء الفلاحين .

أولا يوحى كل هذا بشىء لدوق داركور ؟ أولا تهتز الافئدة المرهفة الحس أمام هذا الاتجاه العام ، والظمأ للمعرفة والجهود التى يبذلها شعب منكود الحظ يحاول النهوض من كبوته واستعادة ذاته والامساك بمقدراته ؟ ! .

إننى أفهم تمام الفهم دوق داركور . لقد أمضى الشتاء فى رحلة لم تنقصها المتعة ، وطالع عددا من قصص كتاب الرحلات . مهما أكثر بمن أساءوا فى كتاباتهم إلى الإسلام . الذى يكرهه من أعماق قلبه ، ورأى من شرفة فندق «نيو أوتيل» وعبر نافذة السيارة التى كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسيط . وبهذه الطريقة ألف كتابه ! ولو أنى تبنيت منطقه هذا ، وشاهدت عند وصولى فرنسا رجلا أعرج ، فهل كنت أسجل فى مذكراتى :

---

(١٥١) هو المؤرخ المصرى ورجل التعليم : امين سامى باشا (١٨٥٧ ــ ١٩٤١ م) ومن مؤلفاته (تقويم النيل) و (التعليم فى مصر) و (النفحات العباسية فى المبادئ الحسابية) .

أن سكان فرنسا مصابون بالعرج؟ وهل أكون بذلك قد قلت الحقيقة عن الأمة الفرنسية؟ . ومع ذلك فإن دوق داركور لم يسلك مع مصر غير هذا المسلك ، أنه لم ير مصر بل أنه لم يرد رؤيتها إلا من جانب واحد ، هو الجانب الخلفي للصورة[١٥٢] وليته اقتصر في حديثه على ماشاهده ، فما أكثر ما نقل ـ حسب اعترافاته هو ـ عن غيره «على عهدة الراوى» و «نمى إلينا» و «يقال» ، وقد شكل وجهة نظره من كل ذلك ، وأقام نظرة يعلن من خلالها تدهور المسلمين الفكرى . إن دوق داركور لم يصور إلا مصر في عهد سابق ، فجميع الأحداث التي ذكرها في كتابه تعود إلى عهد محمد على وسعيد وإسماعيل . إنه لم يلحظ ، أو لم يرد أن يلحظ التحول الذى تم في حياة الفلاح اليوم ، وقد كنت أوشك أن أقول «الثورة» بدلا من التحول ، ومع ذلك فإن التقدم الذى حققه الفلاح هو تقدم هائل .. فما يستطيع اليوم أن يمس جسده ، ويتم دفع الضرائب دون عنف ، وفى مواعيد ثابتة.. فإذا لم يدفع لم تتخذ معه إلا إجراءات قانونية ، من حجز وبيع بالمزاد ، لقد ألغيت أعمال السخرة تماما ، وهكذا أصبح الفلاح أكثر حكمة وإدراكا وسعادة ، وقد أخذ يضاعف مدخراته ، بدلا من رهن ممتلكاته والاقتراض عليها . وأكثر الأحداث أهمية وتميزا هو أنه بدأ يشغل نفسه بالمسائل العامة ويصدر آراء وأحكاما عن أعمال حكومته .

غير أن جوانب التقدم هذه قد حدثت في هدوء ، وبقيت غير معروفة ، لأنها رأت النور وهى واقعة في دائرة الظلال .

ذلك هو الوضع الحقيقى للمصرى الذى مر إلى جانبه دوق داركور دون أن يلمحه .

صحيح أننا ما نزال نعرف شقاء كبيرا في ريفنا ، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفى املاق مثير للشفقة ، وذلك هو أكثر الانطباعات إيلاما التي يمكن أن يحسها الأجنبى الذى يطوف خلال قرانا ، غير أنه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفا دائما بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم وغالبا ما تشمخ فوق هذا الجسد ـ كما تشمخ الزهرة ـ رأس ذكية. ومع ذلك فإن هذا الفقر مهما بلغ ، فإنه لايبلغ الفقر الذى يشاهد في مدن أوروبا الشهيرة حيث يموت كل يوم رجال ونساء من الجوع ، أو ينتحرون فرارا من مستقبل أليم .

وليست قلة نظافة الطبقة الدنيا أيضا غير شىء سطحى ، فقد أشاع الدين الإسلامى النصائح والتوصيات بطهارة الجسد حتى انه لا يوجد مسلم واحد يحمل أى قدر من القذارة الداخلية .

---

(١٥٢) أى الجانب السلبى ، المظلم

ويوم يكتمل نشر التعليم العقلى بين أفراد هذا الشعب ، فإن جميع هؤلاء الأطفال «ذوى الأطراف الهشة» و «البطون المتكورة» سيغدون رجالا يحسب حسابهم .

أعرف أن دوق داركور لا يأمل فى تجدد مصر ، غير أنى أستطيع أن أوكد له أنه يخطئ أشد الخطأ ، إنه لايدرك ـ أنه وهو يدين وضع مصر الحالى ـ أنه إنما يدين مرحلة مرت بها فرنسا قبل مصر . وأننى بكل حسن نية لا أرى لماذا يقف ماضينا ـ كما رأى ، أو حاضرنا كما يراه دوق داركور ـ مهما كان سيئا ، حائلا بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال ، وهو القانون الذى يسود حركة الكون كله . وهذا الماضى ! أولم تعشه فرنسا فى القرن التاسع عشر مثلنا ؟ أولم يكن على ظهرها أقنان يرتبطون بالأرض ؟ أولم يستخدم بعض سادتها الاقطاعيين من الوسائل ما كان يمكن أن يبعث الشرق من خدره الأسطورى ؟ أولم تقر الحقوق بالعنف الوحشى خلال مبارزات قضائية ؟ أو لم يلق أجداد الفرنسيين أحط ألوان التعذيب الجسدى وأكثرها رهبة أو لم يحتقر النبلاء الفرنسيون مهن التجارة والصناعة والفنون الجميلة بل والعلم نفسه ؟ .

وإذن فإذا كان كل ذلك لم يمنع الفرنسيين من أن يصبحوا اليوم أمة عظيمة ؟ فلماذا يريد دوق داركور أن يظل ماضينا إلى الأبد عقبة كأداء فى سبيل نهوضنا وتطورنا .

* * *

المجتمع المصرى

ما هى العناصر التى تكون المجتمع المصرى الحالى !

هناك أولا المصريون الحقيقيون ـ مسلمين وأقباطا ـ الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان . وإنما أسميهم المصريين الحقيقيين ، لأنهم ينتمون إلى نفس الجنس ، ومن المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن وخاصة فى الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عربا إلا باللغة والدين . وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية ، وإننى أومن ـ وهو ما تؤكده الملاحظة أيضا ـ أن المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطا اعتنقوا الدين الإسلامى .

وهم يعملون بخاصة بالزراعة والصناعات الصغيرة ، ومن بينهم يجند الجيش ويختار موظفو الدولة .

إنهم القسم الأكثر كدحا والذى يضمن الحياة فى مصر بمنتجاته والذى يهم اهتماما حقيقيا

بالبلاد ، وينغمس انغماسا كاملا فى أفراحها وأتراحها ، والذى يزود مصر بالرجال الذين يمثلون كافة فروع العلم .

ويشكل المسلمون والأقباط ـ رغم اختلاف الدين ـ كلا متناسقا يتحدث نفس اللغة ويرتدى نفس الثياب ، ويمارس نفس العادات ، ولم يحدث قط منذ بدأوا يعيشون معا جنبا إلى جنب أن وقع بينهم خلاف جاد . لقد ربطت المآسى المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق الاختلافات الدينية ، ويكفى أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا ، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابى كانوا يسيرون مع المسلمين يدا فى يد ، وأنه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق فى قلب قبطى ، بينما وصف المسلمون الأتراك والشركس بأنهم أعداء مصر .

لقد قسا داركور فى حديثه عن مواطنينا الأقباط ، لأنه لم يعرف شيئا عنهم . وقد اعترف بنفسه فى كتابه بأنه لم تتح له فرصة التعرف الشخصى بواحد منهم ، فليس غريبا بعد ذلك أن يسىء الحكم عليهم كما أساء الحكم علينا .

وان كل ما أقوله فى ثنايا هذا الكتاب مفسرا أو مبررا النقائص التى يعيبها علينا الأوروبيون ينطبق على الأقباط كما ينطبق علينا ، باستثناء ما هو مرتبط بالدين .

ثم يجىء الأتراك ، بعد المصريين ، غير أن هذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب فى المصريين ، ومنذ عهد بعيد لم يعد يلعب أى دور فى حكم البلاد . وليس نفوذ الدراويش السحرى ودسائس الباب العالى التى كشفها دوق داركور إلا محض خيال .

ثم يأتى بعد ذلك المشارقة من سوريين وأرمن ويهود ، وهؤلاء اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان استفادة ، فهم ـ باستثناءات قليلة ـ لاينتجون شيئا ، ويجنون مع ذلك أرباحا كثيرة .

وفى المقام الأخير يأتى الأوروبيون الذين يمكن أن يقال عنهم خير كثير وشر كثير أيضا . قلة منهم لسوء الحظ ـ وهم الذين حققت مصر من ورائهم كسبا حقيقيا ، فى حين أن كثرتهم تبدو ولا هم لها إلا جمع الثروات فى أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك . ولهذا لا تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية ، يقوم كل واحد منهم بأداء عمله المحدد ، لا يضيف إليه شيئا آخر . بل إن كثيرين من بينهم يقصرون فى واجباتهم . غير أن هذا لا ينسينى كبار العاملين الذين خدموا مصر وجميع هؤلاء الذين اهتزت مشاعرهم الكريمة عند رؤية مآسينا وأحبونا بإخلاص ، وهم لحسن الحظ عديدون .

لسوف يظل المصريون يذكرون دائما هؤلاء المحبين للإنسانية الممتلئين نبلا ومودة ويعترفون بدور فكرهم كواحد من العوامل الهامة فى نهضة مصر ، لقد قدموا لنا أمثلة رائعة ، وكانوا أول من يسروا لنا فكرهم الاجتماعى والسياسى والفلسفى والعملى ، ومن هذه الزاوية فإن الخدمات التى قدموها لمصر هى خدمات يستحيل نكرانها .

يبدو أن دوق داركور يعيب علينا عدم وجود تفاوت اجتماعى ، وكأنما يأخذ علينا عدم وجود طبقة نبلاء فى بلادنا .

حقا إننا لا نعرف طبقة نبلاء بالوراثة ، ولا نبلاء بغير وراثة ، فجميع السكان فى أى بلد مسلم متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو الدين . والإسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة ، وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .

على أنى لا أعتقد أن فى ذلك شرا ، فليس من العدالة ولا من الخير أن تكون صدفة الميلاد فى إحدى البيئات مصدرا لوضع متميز .

هل يعنى هذا أننا ننكر قوانين الوراثة ؟ أبدا . نحن نرى ـ كما يرى العالم كله ـ أن الذكاء كقوة الشخصية ينتقل غالبا من الأب إلى الابن . غير أننا لا نرى فى كون الأب أحد كبار الباشوات شيئا كافيا لأن يصبح ابنه كذلك منذ مولده . فليكدح هذا الابن لكى يستحق بجهده الشخصى هذا التكريم ، أو منصبا أكبر ، وليبلغه بنفسه . وإجمالا ، نحن نأخذ احتياطاتنا ضد حالات الشذوذ وعدم الانتظام والاستثناءات التى كثيرا ما نلتقى بها فى تطبيق قانون الوراثة ، ونرى أنه توجد للأسف ، حالات كثيرة من التفاوت الاجتماعى لا يحسن أن نضيف إليها جديدا بأيدينا .

كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين والقائل : «من كل حسب عمله» وسيبقى دائما شعارنا ، أننا جميعا أبناء أعمالنا ، واذا كان هذا مثيرا للأحكام الارستقراطية المسبقة لدوق داركور فليس هذا خطأنا إننا باختصار ندين بفكر الشاعر العربى القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا[153] تغنيك أمجاده عن الحسب
ان الفتى من يقول هاأنذا ليس الفتى من يقول كل أبى

الحق أن أى مجتمع إسلامى لا يمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديمقراطى ، فهو ينهض أساسا على

---

(١٥٣) فى النص الفرنسى : كن ابن من شئت واكتسب علما.

فكرة المساواة والاخاء . ولا يتيح فقط للإنسان الذى ينشأ فى أكثر الأماكن تواضعا أن يصل إلى أعلى المواقع ، بل يتيح للرأى فرص الوضوح ، لا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية فى أوروبا والتى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامة ، فالكل داخل فى الكل وامتزاج الطبقات كامل ، لا يخجل الباشا من استقبال فقير فى بيته هنا ، بل يمشي إلى جانبه ويركبه معه عربته ، ويستضيفه على مائدته . والحفلات التى نقيمها هى دائما حفلات شعبية والدخول إليها مباح ، وللجميع الحق فى أن ينعموا بمتعها ، فما يمكن لصاحب البيت أن يبدى اعتراضا على دخول أحد ، كما أن الذين يدخلون دون دعوة لا يحسّون بأنهم متطفلون .

على أن السائحين الذين يفدون إلى بلادنا فى فصل الشتاء يعرفون ذلك ويفيدون منه وليس على الغريب المار أمام منزل ساعة تناول الطعام ـ مهما يكن دينه ـ إلا أن يدخل لكى يشبع جوعه . ويمكنه البقاء ما شاء ، بل قد يستبقيه أصحاب الدار للمبيت عندهم ، دون أن يسأله أحد شيئا عن شخصه ، إنه إنسان . وهذا يكفى .

إننى لا أبالغ أدنى مبالغة ، ويستطيع اليهود واليونانيون والموظفون الأوروبيون الذين يجوبون مدننا وقرانا ، أن يشهدوا بأنفسهم ـ كما أتمنى ـ بكرم الضيافة العربى الحقيقى الذى يقدمه المصريون من جميع الطبقات كل يوم . وقد لا تكون أطعمتنا ملائمة لهم ، لكن هذه ليست غلطتنا . إننا نعطى ما نستطيع عطاءه .

ثم إننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التى تسمى الكنيسة . وليس هناك شىء يمثل السلطة الدينية وسطنا . إن كل مسلم هو نفسه سلطان روحه . وليست لعلمائنا أو لشيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليست لهم من السلطة إلا ما نعترف به نحن لمعارفهم .

نستطيع أن نؤكد إذن أن كل أمة مسلمة لا تتشكل إلا من طبقة واحدة تضم جميع المواطنين ، وبين هؤلاء يوجد القوى والضعيف ، العالم والجاهل ، والثرى والفقير . لكن لا توجد فرق ولا أنظمة(١٥٤) . فالمواطنون جميعا متحدون ، لهم نفس الحقوق ونفس المزايا ونفس المستوى ، ويشكلون فى مجموعهم الشعب .

لقد نظم قانوننا الدينى وضع الفقراء بطريقة حاسمة ومنصفة . لقد كره أن يقدم لهم عطاء يحمل معنى الإهانة ، ولم يرض بالاحسان المسىء ، لقد فرض ضريبة حقيقية ، وليست بالهينة

---

(١٥٤) أى لا توجد أحزاب ولا طبقات تفصل بينها حواجز اجتماعية تحول دون التفاعل والتداخل والانتقال .

لأنها تمثل واحدا على أربعين ، وأحيانا أكثر من الثروة المنقولة ، وجعلها حقا للفقراء فى أموال الأغنياء . وقد جعل هذه «الزكاة» إحدى قواعد الإسلام الخمسة ، ضمانا للمحافظة الدائمة على أدائها .

وهكذا نظم الإسلام توزيع الثرورة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء وهذا ـ كما هو واضح ـ حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أو لاترى فى مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح وما يهدىء جميع الخواطر؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سموا وأقرب إلى الواقع العملى من تلك النظم التى تتحدث عنها أوروبا والتى يتجلى قصورها وصعوبه تنفيذها ؟ إننى أشهد فى أوروبا نفوسا حائرة وعقولا قلقة وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ويصرخ الفقراء ، وتتراءى أعراض زلزال هائل رهيب . وحينئذ يأخذ أصحاب النفوس الخيرة المخلصون من العلماء والكتاب يحلمون بإصلاح كل شىء . ويحاول الجميع من الثوريين المعتدلين حتى الفوضويين الذين يهوون الدعاية لأنفسهم أن يدلوا بدلائهم ، كل يقدم شعاره ، وفكره ونهجه . لماذا لا تأخذ أوروبا من الإسلام الدواء الذى يذهب مرضها . والإسلام هو الذى أنقذ الغرب من بربريته ؟ .

إننى أعتقد أن علماء الغرب وسياسيه يستفيدون أعظم فائدة لو أنهم درسوا هذا التنظيم الاجتماعى وحاولوا المواءمة بينه وبين ظروف بلادهم .

غير أنى أسمع من هنا صوت دوق داركور يصيح لى : ان وضعكم الاجتماعى ليس رائعا إلى هذا الحد ، وفى بلادكم شقاء كبير .

حقا إن النظرة الأوروبية المرتابة قد غزت منذ فترة عقول المسلمين ، وجعلتهم للأسف يهجرون تقاليد الإسلام القويمة ، وقد أغفل تطبيق «الزكاة» تطبيقا محكما ، بخاصة منذ ابتكرت بعض الحيل «اليسوعية» للتحلل من هذا الواجب . غير أن القانون ما يزال قائما ينتظر التطبيق كما كان فى الماضى .

وماأكثر مايزخر الماضى بالمعارف، حتى انه ليدهشنى أن يذهب الإنسان ليبحث طريق السعادة بعيدا عنه. فكروا اذن فى الإسلام الذى آخى بين العرب الأوائل وساوى بينهم. وتذكروا أن عليا رابع خلفاء المسلمين قد استدعى بناء على طلب يهودى للمثول أمام القاضى الذى عينه هو وأنه قدم عن طيب خاطر ، ونوقشت أقواله وهو واقف بجانب خصمه . وتذكروا أن الخليفة الثانى «عمر» كان ذاهبا إلى سوريا راكبا جملا ، فما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى نزل عن

راحلته ، وأركب عبده ومشى خلفه حتى باب المدينة ، مقدما بهذا للكافرين مشهدا فريدا لسلطان يحرس عبده . وقد خطب المسلمين يوما فى المسجد فقال : «من رأى منكم اعوجاجا فىّ فليقومنى» فقام رجل وقال له : «.. والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» وأنه حينما أخذ المسلمون الأوائل يمارسون الاقتراع العام فى اختيار حكامهم فقد كان ذلك استلهاما للمبادئ القرآنية التى أوصت النبى بأن يأخذ رأى أصحابه ، وأن يشاورهم فى الأمر .

ولتصارحونى القول : أو يمكن بعد أن يعرف الإنسان كل ذلك أن يتذوق شيئا آخر ويحبه .

اليوم تعيش جميع المجتمعات الإسلامية فى حالة تفكك كامل . فهى لا تقوم على أساس دينى ولا على أساس علمى . تتركز الدولة فى رئيس يأخذ الحكم وراثة ، لا يهتدى بغير إرادته وطموح حاشيته . يسيطر على كل شىء دون أن تكون للشعوب حقوق غير تلك التى يطيب له أن يمنحها اياها ، ويمثل الجهل والقلق والاهتمام بالمصالح الذاتية واختفاء الاحساس بالتضامن الحصاد الحزين لمثل هذه الحكومات .

وتبدى مصر وحدها بوصفها استثناء من هذه الحالة العامة ، وتكشف عن عزمها على استعادة المكانة التى حددها لها فى هذا العالم ماضيها وموقعها الجغرافى .

ولهذا كان أمامها طريقان : العودة إلى تقاليد الإسلام ، أو محاكاة أوروبا . وقد اختارت الطريق الثانى . وليس على أن حكم على جدارة هذا الاختيار ، لقد مضت فى أثر حركة الحضارة الأوروبية ، التى تجتاح كل مكان ، والتى تبدو استحالة مقاومتها .

على أنها قد خطت اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه . إن مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة ، وقد أخذت إداراتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ، ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبى . إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله ، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها هنا . لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف فى أوروبا . كما اعتاد الأوروبيون قضاء الشتاء فى مصر .

فلعل أوروبا تقدر لمصر مسيرتها ، ولعلها ترد لها بعض هذا الود الكبير الذى تكنه لها مصر .

* * *

كفاءة المصريين القتالية

هجر المصريون مهنة حمل السلاح خلال فترة طويلة . لقد عاشوا دون أن ينعموا بمزايا «المواطن» فلم يرغبوا فى تحمل أعباء واجباتها . لقد ظلوا إلى جانب سادة مصر فى حالة من

اللامبالاة الكاملة ، كما لو كانوا هم الأجانب . ذلك ما جعل نابليون ، حين دخل القاهرة فى مواجهة المماليك وحدهم . كان الشعور الوطنى لدى الشعب المصرى يحول بينه وبين الدفاع عن الأجانب الذين أنزلوا به كثيرا من الآلام ، كان فى عجزه عن طردهم يتمنى أن يظهر منقذ يعينه عليهم . وذلك شعور يمكن فهمه وتبريره . ما فائدة أن يسكب شعب دمه ، لا دفاعا عن وطنه ، بل دفاعا عن ألدّ أعدائه ؟ .

إن حب الوطن يمكن تعليله رغم توهجه الغريزى . حين نحلل الوطن نجد أنه يتكون من كل هؤلاء الذين نعتز بهم . وحين ندافع عنه ، ندافع عن أفضل جزء فينا . وهكذا فيوم تشكل الوطن المصرى أو وطن المصريين على يد محمد على الطيبة ، لم يبخل المصريون بدمهم فى سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن .

لقد قلت : إن المصرى ليس جبانا البتة ، وأنه لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات لأن السلطة أفقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها . إنه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية ، ان ما يحتاج إليه هو النهوض ، هو التوجيه السليم لكى يصبح قوة عظمى ، وذلك ما سوف أثبته بالوقائع التى لا تقبل الجدل .

فى عام ١٨٢٥ م أرسل جيش محمد على لنجدة السلطان محمود (١٥٥) الذى كان قد استنفد كل موارد أمبراطوريته فى معاركه مع اليونان المعروفة للعالم كله شجاعتهم . فإذا به يستولى على نافارين (١٥٦) وتريبوليتزا (١٥٧) عاصمة موريا . كما كان تدخل الجيش المصرى هو الذى أفقد اليونان مدينتهم «ميسولونيا» رغم دفاعهم البطولى عنها .

وحينما احتدم الصراع بعد ذلك بين محمد على والسلطان محمود ، وضع محمد على ثقته كلها فى جيشه واعتمد عليه فى الضغط على السلطان ، ونحن نعرف كيف أثبت هذا الجيش جدارته بهذه الثقة .

لقد انتزع غزة ويافا وعكا ودمشق ثم شتت الأتراك فى قونيه وانطاكية وتابع دون مقاومة

---

(١٥٥) السلطان العثمانى محمود الثانى (١٧٨٤ - ١٨٣٩ م) حكم السلطنة العثمانية بعد خلع السلطان مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨ م ، واستمر بحكمها حتى توفى سنة ١٨٩٣ م .

(١٥٦) ميناء يونانى حدثت به المعركة البحرية الشهيرة التى حطم فيها الانجليز والفرنسيون الاسطول المصرى سنة ١٨٢٧ م .

(١٥٧) وتسمى تريبولس ، وتقع جنوبى اليونان . تأسست سنة ١٤٦٧ م ، وكانت المقر الذى يحكم منه الأتراك المورة .

مسيرته المنتصرة عبر آسيا الصغرى . وما معركة «نيزيب» Nezib [١٥٨] إلا صفحة فخار فى التاريخ العسكرى للمصريين ، واذا أضفنا إلى هذه البطولات انتصارات الجيش المصرى على الوهابيين ، وفتح السودان ، لأصبح من الصعب ـ كما يبدو لى ـ ألا نعترف بأن الجيش المصرى قد كشف عن جدارة قتالية حقيقية .

لنتوقف هنا قليلا لنطرح السؤال الذى صاغه دوق داركور فى عبارته التالية : «هل يمكن الإيمان بأن التعليم العسكرى وحده ، واتقان استخدام الأسلحة حسب نظرياتها ، ثم التطبيق الدقيق للنظم الحربية تنطوى على امكانات لتغيير البشر ؟ هل يمكن باستخدام هذه الوسائل أن تنبثق قوات شجاعة وخلاقة من شعب مستعبد وبائس ومذعور ؟» .

لا شك فى أن هذا سؤال مثير للاهتمام . لأنه يقودنا إلى معرفة القيمة الحقيقية للجندى المصرى . ولكن أليس مما يبعث على الدهشة أن يصمت دوق داركور بعد صياغة هذا السؤال ويتركه بلا أجابه ؟ وكيف استطاع دوق داركور بعد أن أكد أن الجنود المصريين لا يملكون أية كفاءة حربية من جانب ، وبعد أن اضطر إلى التسليم بالانتصارات البراقة التى حققها بقيادة محمد على ، من جانب آخر ، ألا يلحظ خطورة الاعتراض الذى يمكن لأى إنسان أن يوجهه إليه؟ وكيف لم يوجهه هو إلى نفسه ؟ .

ألم يكن من واجبه أن يشرح لنا كيف يوائم بين نقص الكفاءة الحربية عند جنودنا والحقيقة التاريخية التى تقف على النقيض من ذلك وترده فى صرامة ؟ أليس مدينا لنا بكلمة شرح وتفسير ؟ .

وليت دوق داركور ، بدلا من أن ينقل إلينا المحادثة التى دارت بين السيد . ن . وبين وزير خارجية فرنسا والتى أكد فيها السيد . ن . أن الجيش المصرى بقيادة عرابى لم يكن جادا . وبدلا من أن يحدثنا كذلك عن انتصار الإنجليز السهل . حاول أن يثير اهتمام المصريين ، بل جميع سكان مصر ، بشرح الأسباب الخارجية والطارئة والغامضة التى استطاع بتأثيرها ذلك الجيش الذى لا يساوى شيئا فى حد ذاته أن يخرج منتصرا فى صراعه مع هذه الشعوب الشجاعة . ذلك أن

---

(١٥٨) وهى المعركة التى حدثت سنة ١٨٣٩ م وحسمت تفوق الجيش المصرى ضد الأتراك العثمانيين . ولقد مات السلطان العثمانى محمود الثانى قبل أن تصله أنباء هزيمة جيشه أمام جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا فى تلك المعركة .

العالم كله يعرف ـ عدا دوق داركور ـ سر انتصار الإنجليز السهل . بل إن العالم كله ـ كما اعتقد ـ كان يتوقعه ، وليس ذلك كما كان يرى السيد . ن . لأن الجيش المصرى لم يكن جادا . أو كما كان يرى دوق داركور لأن الجنود المصريين لم يكونوا يريدون القتال .

إنما كان ذلك لأن قواد الجيش كانوا منقسمين إلى حزبين : حزب عرابى وحزب الخديوى . وكان ضباط هذا الحزب الثانى يبلغون الخديوى كل يوم ، مع صادق ولائهم جميع الخطط والقرارات التى يتخذها حزب عرابى . وقد تزايد هذا الانشقاق يوم أعلن جلالة السلطان عصيان عرابى ، ألم يكن المصريون جميعا يعلمون الضابط الكبير الذى مهد لهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير ، والذى نال تكريما رسميا بدعوى أدائه واجبه نحو السلطان على أحسن وجه ؟ .

لنترك اذن عرابى وجنوده ، ولنجب على السؤال الذى تقدم طرحه .

صحيح ، أن التعليم العسكرى وحده لا يكفى لتحويل رجل جبان إلى محارب شجاع . وإن يكن التعليم العسكرى مع ذلك ، وحياة المعسكر القاسية ، وقصص المعارك تستحث الشجاعة إلى حد ما ، ذلك ما يجعلنى أقول : انه اذا كان الجيش المصرى بقيادة محمد على قد حارب بشجاعة فلأن الشجاعة لم تكن تنقص جنوده ، وإننى أؤكد أن الجندى المصرى الذى تصدى هكذا لجميع الأخطار أكثر جدارة مائة مرة من الجندى الأوروبى . ذلك أن الأوروبى يجد دائما غذاء طيبا وعناية كبيرة ، واهتماما بالغا بجميع رغباته . وما يكاد يصدر عنه عمل شجاع حتى يكرم وتقدم له التهانى والجوائز . وتنشر مئات من الصحف اسمه لتطالعه الأجيال القادمة ، وإن مات فى ميدان الشرف حظيت أرملته وأطفاله بالحماية من الفقر ، وقابلوا أكفا حانية وثغورا مبتسمة ، وتدافع الكثيرون فى كل مكان لنجدتهم .

أو يحدث مثل هذا لجنودنا ولضباطنا ؟ أو لم يعانوا فى حياتهم ، كما عانت أسرهم بعد وفاتهم خلال فترة طويلة بطش حكومات ظالمة مسيئة وجاحدة ؟ .

أو لاينطوى هذا على سبب حقيقى للتخاذل ؟ ان هذا ، بالإضافة إلى الغياب المطلق لفكرة «الوطن» خلال فترة طويلة ، ليفسر فى رأيى التدهور وعدم الاكتراث ونقص التدريب التى عرضت لجيوشنا فى بعض الأحيان .

غير أن كل هذا لا يمكن أن يعد دليلا على أن جنودنا يمثلون كميات مهملة ، وقد تجلى ذلك

فى حرب عام ١٨٧٧ [١٥٩] . فجميع المصريين الذين حاربوا الروس قد قاتلوا بشجاعة وخلفوا فى استنبول أروع الذكريات .

وأخيراً ، فخلال إقامتى القصيرة فى هذه العاصمة ، لم يكف الضباط الأتراك الذين لقيتهم عن الاشادة بمسلك جنودنا النبيل. وكانوا يسردون علىّ أسماء أبطال (وبخاصة اسم محمد باشا فهمى) ممن تميزوا بأعمال بطولية ، ويعرف العالم كله ماذا تعنى فى فم الأتراك كلمة «برافو» أى (بطل) . قد يحدث لشعب ـ لأسباب مختلفة ـ أن يعيش بمنأى عن الحياة العسكرية خلال عدة أجيال . غير أنه لا يفقد كفاءاته الحربية . فما يأتى يوم قتال حتى تتدفق فى شرايينه فى التو دماء أجداده القدماء . لقد استعاد الجندى المصرى كفاءاته الحربية فى حروب محمد على ، كما فى حروب اليوم . وليس على لإقناع القارئ سوى أن أذكر شهادات الضباط الإنجليز الذين عملوا فى الجيش المصرى :

١ ـ هنأ الجنرال جراهام الضباط والجنود المصريين الذين قاتلوا فى طوكر يوم ٣ مارس على شجاعتهم واستبسالهم . واحتفل يومها بالملازم أول مختار .

٢ ـ هنأ الجنرال ولسلى فى ١٧ مارس ١٨٨٥ فرقة الفرسان المصرية للشجاعة التى أثبتتها فى معركة كيربكان .

٣ ـ وفى ٢٥ مارس وجه الجنرال فريمينتل مديحا للقوات المصرية التى قادها .

٤ ـ فى ١٥ أبريل وجه الجنرال ولسلى تهنئة جديدة للجيش المصرى .

٥ ـ فى ٢٠ يناير ١٨٨٦ وجه السردار الإنجليزى الشكر للجيش المصرى بمناسبة معركة جنيف .

٦ ـ فى ١٠ سبتمبر ١٨٨٨ وجه نفس السردار شكرا للجيش المصرى بمناسبة الانتصار فى كور موسى .

٧ ـ هنأ نفس السردار الجيش ، وأغدق عليه الجوائز الكبرى بمناسبة معركة توسكى الشهيرة التى أسر فيها ستة آلاف سودانى .

---

(١٥٩) وهى الحرب التى اعلنتها روسيا القيصرية ضد الدولة العثمانية فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ م متذرعة بدفاعها عن المسيحيين القاطنين فى الامبراطورية العثمانية . انظر فى تفصيلات اسبابها وأخبارها : محمد فريد (تاريخ الدولة العلية) ص ٣٢٥ وما بعدها . الطبعة الأولى .

٨ ــ وفى مناسبة استعادة طوكر ، تلقى عظمة الخديوى ــ كما تلقى أثر حملات أخرى ــ تقارير متنوعة من قائد الجيش الإنجليزى العام وجنرالاته متضمنة جميعها أكبر مديح للكفاءات القتالية لجيشه .

أو لم يضطر غوردون[١٦٠] نفسه ــ الذى كان متحاملا فى البداية ضد الجنود المصريين مفضلا عليهم الجنود السودانيين ــ إلى الاعتذار علنا والاعتراف فى نهاية مذكراته صراحة بقيمة الجيوش التى قاومت معه حصارا رهيبا خلال أكثر من ثلاثمائة يوم ؟ . وماذا كان يمكن أن يقال عن جنود افتقدوا كل مئونة ولم يجدوا حتى جرذانا ليتغذوا عليها ! .. وكانوا يواصلون القتال إلى جانب قائدهم : وهم يدركون تماما أن أحدا لا يرغب فى نجدتهم . لكنهم كانوا يريدون مع ذلك الاشتراك فى انطلاقة جنون رائعة ومظفرة .

* * *

الـرق

وجد الرق فى أقدم العصور ، وظل باقيا حتى السنوات الأخيرة عند أكثر الشعوب حضارة ، وبخاصة فى أمريكا . ولهذا فليس بغريب أن يتقبل المسلمون الرق بمثل ما فعل الآخرون معه .

ولست أعتقد أن هناك مجالا لمحاكمة الرق .

فقد اختفى إلى الأبد ذلك النظام المخجل . الذى يعد اختفاؤه شرفا للانسانية ، وما يمكن أن يشعر المسلمون بالندم لاختفائه ، والواقع أنه يمكننا أن نلاحظ أن الرق ، كما وجد فى المجتمعات الإسلامية ، كان يمثل عدوانا صريحا على القانون الدينى الذى لا يقر إلا مصدرا واحد للرق ، هو الأسر فى الحرب ، بشرط أن تكون الحرب متمشية مع النظام ، أى مسبوقة بإنذار معلن ، أما ما عدا هذه الحالة ، فكل رق غير مشروع ، ولابد من ادانته بقوة .

على حين أن جميع الرقيق الذين كانوا فى مصر لم يكونوا أسرى حرب . لقد اشترى بعضهم ، واختطف بعضهم . وذلك هو ما يفسر ــ فى رأيى ــ هذه الحماسة التى أظهرتها الحكومة المصرية والمواطنون فى مساعدة انجلترا فى هذه المهمة الحضارية التى حملت شرف

---

(١٦٠) تشالز جورج جوردون (١٨٣٢ ــ ١٨٨٥ م) انجليزى ، عينه الخديوى إسماعيل حاكما عاما على السودان فى سنة ١٨٧٣ م واستمر فى منصبه هذا حتى سنة ١٨٨٠ م ، ثم عاد ليقود حملة استرجاع السودان من الثورة المهدية بعد احتلال انجلترا لمصر . ولقد قتل فى حصار المهديين للخرطوم سنة ١٨٨٥ م .

وجدارة تحقيقها فى العالم بالقضاء على الرق الذى اختفى اليوم من مصر دون أمل فى عودة ظهوره من جديد .

أليس من الجدير أن نلاحظ أن الإسلام كان بعيدا كل البعد عن توسيع أسباب الرق ، كما فعلت التشريعات الأخرى ، وأنه ضيقها ، ولم يبق إلا على واحد منها فقط ، كما أن المسلمين لم يشاركوا الامم الأخرى فى آرائها المسبقة المتحيزة عن انحطاط الجنس الاسود الذى ألهم مونتسكيو[١٦١] صفحات خرافية فى كتابه «روح القوانين» ، وانهم نادوا فى كل العصور بحرية الانسان دون تمييز بسبب الجنس أو اللون .

منذ عصر أرسطو الذى كان يؤكد أن من البشر من يولدون ليكونوا سادة بطبيعتهم ، ومن يولدون ليكونوا كذلك عبيدا ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، بل وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان الرق يستمد شرعيته من رأى الاوروبيين فى انحطاط بعض الاجناس بالنسبة للأجناس الأخرى . ثم إن الأمر لم يتوقف فى القرون الوسطى عند حد استرقاق السود بل حدث استرقاق للبيض الذين لم تختف بقاياهم من أوروبا إلا منذ عهد قصير ، ولا شك فى أن ظروف الرقيق[١٦٢] كانت أسعد من ظروف العبيد ، غير أن الفارق كان ضيئلا فى الواقع بين الفلاح الفرنسى فى ذلك العصر ، وبين الرقيق الخاضع للتشريع الإسلامى . فقد كان السيد يملك سلطة التصرف فى شخصه وأمواله .

وهكذا نرى ، أنه بينما لا يقبل الاسلام أن يسترق إلا أسرى الحرب ، حسب التقليد القديم الذى تبناه الرومان ، والذى دافع عنه بعد ذلك «بوسيه»[١٦٣] فقد وسعت المسيحية حدود الرق لتشمل الجنس الاسود كله ، كما استحدثت استرقاق البيض .

وقد أدهشنى كل الدهشة فى حديث دوق داركور عن الفلاح المصرى ادعاؤه أنه رقيق حقيق . والواقع أنه محق بعض الشىء . فقد قلت أنا بنفسى : إن السلطة قد أساءت إساءة

---

(١٦١) شارل لوى دى سكوندا (مونتسكيو) (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥ م) كاتب وفيلسوف فرنسى شهير . برع فى سخريته الناقدة لمجتمع فرنسا فى عصره . وهو من طلائع فلاسفة الديمقراطية والحكم النيابى الدستورى . ودعاة الفصل بين السلطات .

(١٦٢) لعل المراد «الاقنان» . كما سيتضح من المقارنة التى سيتحدث عنها بعد بين الفلاح الفرنسى ـ أى فى عهد القنانة ـ وبين الرقيق الخاضع للتشريع الإسلامى .

(١٦٣) جاك بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤ م) من رجال الدين الفرنسيين . اشتهر ككاتب بليغ وواعظ متمرس . وعمل مربيا لولى عهد فرنسا ابن لويس الرابع عشر . وكانت لخطبه ومواعظه ورسائله مكانة رفيعة فى الأدب الفرنسى على عصره .

رهيبة إلى الشعب المصرى ، غير أن من المهم أن نشير إلى أنه لم يحدث فى أية فترة من فترات تاريخنا أن أباح القانون قيام تفاوت أو عدم مساواة فى الظروف بين الأفراد أيا كان انتماؤهم العرقى أو الدينى ، وأنه لم يسمح باستغلال الانسان للانسان .

نستطيع أن نرى ، مما سبق ، أن الاسلام يقبل الرق فى حالة معينة ، وأنه أحسن فهم الكرامة الانسانية ، ولم يتسامح فى أن يوجه اليها أدنى اعتداء . وقد كان من المناسب التذكير بهذه الحقيقة فى اللحظة التى انطلق فيها ـ بعد إلغاء الرق فى المجتمعات الاوروبية ـ كتاب وخطباء وقساوسة يتحاملون منذ فترة على المسلمين إلى حد ادعاء أنهم لا يرون الرجل الأسود واحدا من الأسرة الإنسانية .

إن المسيحيين الذين يتشدقون بأن إلغاء الرق هو أحد مآثر المسيحية ، إنما يفرطون فى المبالغة ، يكفى أن نذكرهم بأن المسيحية قد تعايشت مع العبيد والأرقاء خلال قرون عديدة . وأن أرفع رجال الكنيسة مكانة قد برروا العبودية ، ومنهم « بوسيه » من الأقدمين ، و « بابى » و « بوفييه » و « جودينيه » و « ليون » و « بوزان » من القساوسة المحدثين . ولست أجد ـ لإثبات بطلان ادعاء معارضة المسيحية هذه للرق ـ خيرا من أن أنقل هنا عبارات بيير لاروس [(١٦٤)] التالية :

« وفى إيجاز ، لقد واءمت المسيحية تماما بينها وبين الرق حتى يومنا هذا . ومن المستحيل اثبات أنها حاولت إلغاءه يوما ما . وقد كان لابد من ظهور وتطور آراء ومبادئ أخرى لكى نشهد إختفاء هذا النظام . وقد كانت الثورة الفرنسية ، بمبادئها التحررية ، هى التى قضت عليه ، حين أعلنت أن جميع البشر متساوون أمام القانون » .

لننتقل بعد هذا إلى مناقشة وضع الرقيق فى مصر . إن دوق داركور نفسه يعترف أن الرقيق لا يلقى احتقارا . ويقول بالتحديد : « يصعب علينا أن نتصور ألا يكون الرقيق منبوذا فى أدنى طبقات السلم الاجتماعى ، وألا يعانى من هذا الوضع المهين . غير أن الأمر يجب ألا ينظر اليه على هذا النحو فى مصر . فالرقيق فيها يحيا فى ظروف فريدة ، شأنه متواضع دون شك ، لكنه لا يعانى أدنى احتقار . بل إن له امتيازاته التى تعوض همومه والتزاماته » .

---

(١٦٤) بيير لاروس (١٨١٧ ـ ١٨٧٥ م) من مشاهير علماء النحو واللغة الفرنسيين . وهو شهير بقاموسه الذائع الصيت . كما تميز بسعة معارفه . وتحرره الفكرى .

وقد لاحظ كذلك أن عددا منهم قد بلغ حد شغل وظائف كبرى فى الدولة . فمن أين يأتى مثل هذا الوضع الذى يبدو لى أنه لم يحدث فى مكان آخر ؟ لماذا عامل المسلمون دائما رقيقهم بوصفهم بشرا ، وبكثير من الطيبة ؟ هل سبب ذلك ، كما تصور دوق داركور ، هو عدم وجود حركة صناعية وتجارية كبيرة فى البلاد الاسلامية ؟ ذلك تعليل غير كاف . فقد كان اليونان والرومان الاوائل يعاملون العبيد بطريقة وحشية لم تتغير إلا مع تقدم الزمن وتطور الحضارة .

الحقيقة أن الأرقاء وجدوا من المسلمين معاملة طيبة دائما بفضل حماية القانون لهم . وليس من الضرورى أن نثبت هنا العديد من الآيات والأحاديث التى توصى خيرا بالرقيق ، حتى لم يحجم دوق داركور نفسه عن أن يكتب قائلا : « وسيكون من الظلم ألا نقول إن القرآن فى العديد من عباراته قد أوصى بالرفق فى معاملة الرقيق » .

ولست أملك مقاومة رغبتى فى أن أنقل هنا صفحة من كتيب قاض مصرى قدير هو أحمد شفيق بك[١٦٥] عن الرق من وجهة النظر الاسلامية ، كتبه باللغة الفرنسية وقدمه إلى الجمعية الخديوية للجغرافيا ، وقد جاء فيه :

« ويتبين من كل ماذكرناه من آيات القرآن وأحاديث النبى وأقوال الأئمة ووقائع التاريخ . أن الدين الإسلامى قد ضيق مصدر الرق حين حدد شروطه التى لا يقوم بغيرها . كما أنه يسر وسائل الخلاص منه ، وإذا حدث ـ بالرغم من كل هذه الوسائل ـ أن سقط شخص فى الرق ، فقد رأينا أن القانون الإسلامى لا يتخلى عنه ، بل إنه يحميه ، ويشفق على مصيره الحزين فيعده إنسانا ضعيفا . ويوصى سيده بأن يعامله معاملته لنفسه . فيسهر على سعادته ويعلمه ويربيه ولا يحقره ، ويزوجه . أو يتزوج من الأمة ليعجل بذلك تحريرها .

وليس تحرير العبيد أو العتق ، الذى لم أبسط إلا أكثر قسماته ظهورا ، إلا صفحة فخار حقيقى للاسلام . فقد هدمت روح التشريع الاسلامى الاسس التى يقوم عليها الرق . لكن ماذا كان يجب عمله ؟ أكان يمكن بضربة واحدة الغاء نظام يشكل جزءا من عادات العالم كله

---

(١٦٥) (١٨٦٠ ـ ١٩٤٠ م) مؤرخ مصرى . رأس ديوان الخديوى عباس حلمى الثانى . مما أتاح له فرصة التأريخ لأحداث السياسة المصرية واسرارها . فكتب (حوليات مصر السياسية) و (مذكراتى فى نصف قرن) و (أعمالى بعد مذكراتى) .. كما كتب عن (الرق فى الإسلام) .: وتولى كذلك منصب وكيل الجامعة المصرية الأهلية قبل أن تتحول إلى جامعة حكومية .

وتقاليده من بدء ظهور المجتمعات البشرية منذ قرون طويلة ؟ لقد كان يمكن لهذا ـ كما أثبتنا فى بداية الفصل ـ أن يحدث ثورة فى النظام الاجتماعى وتمردا بين السكان . أما نبينا العظيم ، وقد كان دبلوماسيا لا نظير له ، فبدلا من أن يثير المشاعر بإعلان مباشر لإلغاء الرق ، أخذ يدور حول العقبات ليصل إلى نفس الهدف ، فأمر المؤمنين بعتق الأرقاء البائسين فى ظروف عديدة ورغّبهم فى ذلك بالظفر بأعظم مثوبة عند الله . لقد وجه النبى كل جهوده نحو هذا الهدف . وهكذا كان يملى مبادئ العتق وتحرير الرقيق بروح السماحة والكرم ، حتى كان الرقيق يجد أمامه حين يشاء وأحيانا دون أن يشاء ، سبيلا للخروج من حالة الرق » .

* * *

الحكومة

يقرر دوق داركور فى كتابه أن مصر حكمت دائما بطريقة سيئة ، ولست أنا الذى أعارضه فى ذلك : لقد عانى المصرى كثيرا من الرجال الذين حكموه ، حتى أن فكرة الدفاع عنهم لا ترد على خاطره . لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الأنواع وكانت مسرحًا لأكثر المشاهد درامية . إننى أعرف قصصا رهيبة ، واحداثا لا يمكن وصفها ، كما أرتاب فى وجود أشياء أكثر بشاعة . والواقع أنه يصعب على المرء أن يفهم كيف استطاع شعبنا أن يحتمل كل هذه الألوان من القهر الوحشى .

غير أننى اتخطى سريعا هذه الفترة الطويلة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على .

لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظاما واعتدالا . ففتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ، وأخذت تتطور جميعا . وحفرت القنوات وعبدت الطرق ، وفى كلمة واحدة اقيمت حكومة حقيقية . صحيح أن بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن إلى آخر ، غير أن الناس كانوا سريعى المغفرة لمحمد على . وكانت الانجازات الطيبة التى يحققها والتى يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة . وكان ينظر إليه كوالد شديد القسوة لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة المعاملة . وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون ، ولحكم أنفسهم بأنفسهم ، وكانت التجربة فى صالحهم ولخيرهم ، ثم انهم لم يكتفوا فقط بتعلم الدروس الاولى التى تلقنوها على عجل ، بل

انهم عرفوا كيف يستخدمون معارفهم ، وقد أدهشوا العالم الذى ذهل وهو يراهم يحاربون فى شجاعة وينتصرون .

غير أنه اذا كان محمد على عقلية فذة ، فليس من الممكن أن يقال مثل هذا عن خلفائه : فهم لم يبدعوا شيئا ، وليس ذلك فحسب ، بل انهم لم يعرفوا كيف يحافظون على ما خلفه لهم أبوهم ، كان الحكم بالنسبة لهم فرصة لممارسة أرادتهم فى الاستبداد والقهر ، ولا شك فى أن التاريخ سيكون قاسيا مع هؤلاء الذين عرضوا للضياع هذا العمل القيم ، وبخاصة إسماعيل ذلك الرجل الذكى الذى كان حاكما عظيما ، فقد كان كذلك شديد التبذير . على أن الحقيقة تفرض على ان اعترف بأنه إلى جانب الآلام التى جرها على بلاده فإن مصر تدين له بنشر التعليم وخلق شبكة قنوات كبرى للرى ، وتجميل بعض المدن .

على انه فى نهاية حكمه الذى أشاع الافلاس أصدر عام ١٨٧٩ م مرسوما خديويا كشف فيه عن رغبته فى حكم البلاد ابتداء من يومها عن طريق مجلس وزراء يشركهم معه فى الحكم ، ومنذ تلك الفترة لم يتخذ أجراء إلا فى ظل قرار من هذا المجلس ، المسئول منذئذ عن مصالح البلاد .

وكان قد سبق ذلك صدور مرسوم خديوى عام ١٨٦٦ م مؤسس لجمعية تشريعية منتخبة على درجتين وكذلك لمجالس إقليمية . وكان على الحكومة أن تستشير الجمعية فى مشروع الميزانية وطريقة جباية الضرائب . وفى إصدار أو تعديل أى قانون . ومن جميع هذه العناصر تشكل حكم أقرب ما يكون إلى الحكم الدستورى فى عهد الخديوى توفيق .

وقد بدأ هذا العهد ، الذى كان يبشر بخير كثير بداية حسنة الطالع . ونحن نذكر جميعا الاصلاحات الكبرى التى تعود إلى هذه الفترة : إلغاء استخدام السوط ، وتقسيط الضرائب ، وتحديد مواعيد دفعها ، وقروض التمويل المضمونة بعد قانون التصفية ، وإنشاء الرقابة التنايسة بواسطة صندوق الدين العام ، ونشر التعليم وإعادة تنظيمه ، ومشروع إعادة تنظيم المحاكم الأهلية .

كان الجميع يشعرون بالرضا ويحسون أنهم مقبلون على مستقبل ملىء بالوعود الطيبة ، حين ظهر عرابى فجأة على المسرح السياسى . وأوقف هذه الحركة الرائعة خلال عامين ، لماذا ؟ ببساطة ، لأن شعبا مقهورا خلال عهود طويلة ما يكاد يتحسن وضعه حتى ينفد صبره ويشعر بوطأة المساوئ الباقية ويزداد عناؤه ولهفته إلى الخلاص الكامل .

لنقفز عبر هذين العامين الحزينين ، ولنصل مع عودة النظام إلى مصر. نجد أن سلسلة الاصلاحات تستأنف ، والتقدم يمضى بخطى متصلة حتى يومنا هذا ، وانشاءات رى كبرى تنتشر ، وخطوط سكك حديدية تمد ، ومكاتب بريد وبرق تقام فى كل مكان ، ويقدم للدراسة مشروع تعديل لوعاء الضريبة ، وتوضع ضمانات لعدم اقتحام المساكن ولاحترام الحياة الإنسانية والملكية ، ويتم إلغاء السخرة ، وتصبح حرية التعبير والكتابة كاملة . ويستمتع المصرى اليوم بكل ما يتضمنه الإعلان الشهير لحقوق الإنسان . وإننى أضع فوق هذا كله التعديل القضائى الذى أعطى نتائج هامة . فقد أصبحت محاكمنا تدار بواسطة رجال لا يمكن لخيال أحد ، فى أى ظرف من الظروف ، أن يتطرق بالشك إلى ثقافتهم أو استقلاليتهم أو نزاهتهم البالغة الوضوح . وهم يطبقون قانونا منقولا تقريبا من قانون نابليون .

الحق أن لدينا اليوم حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية . وإننى اتحدى من يذكر لى عملا من أعمال التعسف أو منح الامتيازات التى تؤخذ على الحكومة خلال الخمسة عشر عاما الماضية . وليس كل من الخديوى توفيق والخديوى عباس إلا نموذجا للحاكم الدستورى الكامل . كما أن حكام الأقاليم الذين كانوا واسعى السلطة فى الماضى لم تعد لديهم الآن أية سلطة شخصية . لقد انتقلت السلطة كلها للقانون . وإننى أستطيع ذكر أسماء أناس حوكموا جنائيا بسبب لكمات كالوها لأحد الفلاحين . بل ولمخالفات أقل من هذا خطرا . وقد جرت كل هذه التعديلات والاصلاحات بلا ضجيج ، بينما لم يكن أحد يمد قضيبا ، أو يقيم جسرا فى أوروبا دون أن تحمل جميع الصحف هذا النبأ إلى أركان العالم الأربعة .

هل يعنى هذا أن لدينا حكومة كاملة ، وأن كل شىء على أحسن ما يرام ، الحق أن لا . فما يزال أمامنا عمل كبير . وما يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التى بقيت مأوى لعقلية النظام القديم . إنها تصارع مستميتة من أجل الابقاء على الروتين القديم ، وغالبا ما يعشش فيها العجز ، وأحيانا يظهر فيها الفساد فى زيارات قصيرة ، وإننى أعلن حكومتى أيضا بالحاجة إلى تمثيل وطنى حقيقى وان يكن فى صورة مبسطة .

وباستثناء هذين الاصلاحين اللذين أتمنى ألا يطول انتظارنا لتحققهما ، فإن لدينا كل ما يكفل تشكيل جهاز إدارى كفء . فالرجال الموكول إليهم بالوظائف المختلفة التى يضمها هذا الجهاز جديرون بحسن القيام بمهامهم . غير أنه من الطبيعى ألا يعى الشعب على الفور كل شىء وهو الذى يستيقظ فجأة من خدره ، بعد أن أمضى عدة قرون فى صمت وجمود . إن ساقيه ترتعشان كرجل يغادر سرير المرض بعد رقاد طويل . غير أننا نسير دائما وكل خطوة تمثل لنا

تقدما ، وإننى أهيب بالقارئ أن يثق فى أن العمل الذى أنجز حتى اليوم هو عمل عملاق فعلا وأنه لم يحدث مثله فى زمن قصير كهذا .

هل يمكن أن يذهب أحد إلى القول بأن الشعب الذى صبر على اساءات حكامه خلال عهود طويلة لا يمكن أن يصلح لشىء بعد ؟ غير أن الاجابة يسيرة . فقد عرفت جميع البلاد عصورا عانت فيها من فساد الادارة ، كما عانت جميعا خلال فترات متفاوتة الطول من جور السلطة ، وذاقت الكثير أو القليل من نذالة ملوك طغاة .

وحتى عشية الثورة الفرنسية الكبرى لم تكن الضريبة تصفع غير عامة الناس ومن عدا النبلاء . وكانت السخرة تثقل كاهل أهل الريف . كان فقراء الشعب وحدهم هم الذين يكدحون فى المرافق العامة ، كما كانوا فى نفس الوقت يعملون من أجل النبلاء . وكانت طريقة جباية الضرائب نفسها تزيد من أعباء دافعيها لأن الدولة عهدت إلى بعض الرأسماليين بجمع جميع الضرائب ، و « تقديم شىء للملك » حسب تعبير فولتير(١٦٦) الرائع . فكان هؤلاء الجباة يندفعون فى ضراوة بمساعدة السلطات العامة من أجل أخذ ضرائب على كل ما يمكن أخذها عليه ، فكان يحدث ـ كما عبر عن ذلك أحد أعضاء البرلمان ـ « أن نرى كل يوم عددا من الفقراء والمساكين يباعون أو يعدمون لعدم شرائهم ملحا ، وهم البؤساء الذين لم يكن لديهم خبز ! » .

وكانت الملكية نفسها ، حسب نظرية لويس الرابع عشر ، مركزة فى شخص الملك . وكان المفروض أن الملكيات الخاصة إنما هى بطريق التفويض .

وكان الفلاحون يعيشون ـ كما يقول سان سيمون(١٦٧) ـ فى حالة من الفاقة المزرية ، وقد ذكر « تين »(١٦٨) فى كتابه عن أصل فرنسا المعاصرة : « أن جميع السكان تقريبا ، دون استثناء

---

(١٦٦) فرانسوا فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ م) فيلسوف فرنسا ومفكرها الساخر من عصرها ومجتمعها الاقطاعى فى القرن الثامن عشر . لعبت أفكاره دورا بارزا فى التحضير والتعجيل بثورة فرنسا البورجوازية الكبرى .

(١٦٧) سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥ م) أحد فلاسفة فرنسا الاجتماعيين . ومن رواد الفكر والحركة الاشتراكية السابقين على تبلور الاشتراكية العلمية .. وحول فكره وحركته تبلور تيار «السانسيمونية» أو «السيمونية» .. ولقد أودع سان سيمون أفكاره الرئيسية فى كتابه (المسيحية الجديدة) .

(١٦٨) هبوليت تين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣ م) مؤرخ وناقد فنى فرنسى ، امتاز بمنهجه الاجتماعى فى دراسة الفن والتاريخ .. فالتاريخ عنده علاقة وثيقة بالحياة الاجتماعية ، والفن هو الانعكاس للحياة الاجتماعية أكثر مما هو انعكاس لذات الفنان كفرد .

المزارعين والملاك ، يأكلون من خبز الشعير ويشربون الماء القراح . ويعيشون كأتعس البشر من أجل الوفاء بدفع الضرائب المفروضة عليهم ، يسكنون بيوتا من الآجر ، مغطاة بالقش ، وليست لها نوافذ ، وأرضها التراب المسوى ، لا يملكون ثيابا غير رقع من نسيج الكتان ، ولا يعرفون فى « كيرسى » ولا فى غيرها من البلاد جوارب ولا أحذية ، ولا نعالا خشبيةً » . كانت الاجراءات والعقوبات رهيبة فى وحشيتها . وكان الناس عرضة لأن توضع الأغلال فى أعناقهم أو يشدون على أعمدة للتشهير بهم ، أو يجلدون بالسوط أو تدمغ جلودهم ، أو تقطع أو تثقب ألسنتهم ، أو يربطون بعجلة التعذيب ، أو يكوون بالنار ، أو يلقون فى الماء المغلى ، أو تمزق أطرافهم بشدها إلى أربعة جياد .

فى عشية الجمهورية الأولى عرفت فرنسا ملوكا لم يكونوا سوى لعب فى أيدى بعض الطموحين المحظوظين ، والمتآمرين والعشيقات المبتذلات . وقد حكمها شارل التاسع الذى سماه المؤرخون «قاطع الرقاب» وهنرى الثالث رجل المدللين ، ولويس الخامس عشر صاحب حديقة الايائل .

لقد عانت فرنسا فكرة السلطة الإلهية التى كانت تجعل من ملوكها ممثلين مباشرين للإله مشوهة بذلك الله والبشر .

وقد ذاعت شهرة مقالة لويس الرابع عشر : « الدولة هى أنا » . وهى تكشف عن مقدار طغيان هذا الملك . وإننى أنقل عنه جوامع كلمه التالية : « لسنا نحن الأمراء سوى صورة ذلك القوى المتين » . « يجب على الذى ولد تابعا أن يطيع دون أن ينبس ببنت شفة » .

ألا تكشف هذه العبارات عن احتقار بالغ لرعاياه ؟ ثم إن لويس الرابع عشر هذا هو الذى أصدر عام ١٧٤٥ م المرسوم التالى : « إن جميع البافاريين الذين أدينوا بارتكاب جريمة العيب فى ذاتنا الملكية ، نحن ، حاكم بلادهم الأوحد ، المقام من قبل الله القوى الجبار . قد استحقوا نتيجة ذلك الشنق ، ومع ذلك فقد أبت رحمتنا العليا وحناننا الأبوى إلا أن نأمر بإجراء اقتراع لشنق واحد فقط من كل خمسة عشر فردا ! » .

هل يمكن أن نجد نماذج كثيرة لمثل هذه الوحشية فى مصر ؟ ثم ألا تشبه اللوحة التى رسمها «تين» لوضع الفلاح الفرنسى لصورة فلاحينا تحت حكم إسماعيل ؟ .

إن تاريخ تأسيس الدول فى العالم موضوع تأملات متصلة . وهو يؤكد حقا أن النوع الإنسانى ، فى كل مكان ، هو نفسه بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضا بعظمته وزهوه

والقانون الابدى الذى يحول المادة يحول أيضا البشر والانظمة . ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذى لا مهرب منه والذى يحكم حركة التقدم البشرى ، والانسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة وتتبع نفس المسيرة ، وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية وستنتهى إلى الحرية . غير أنها بين هاتين الفترتين مقضى عليها أن تعانى محنة الاستبداد الذى يبدو أنه ضرورى لاختبارها . ما أسعد الدول التى يكتب لها بعد هذه المحنة البقاء ! .

* * *

النساء

تخيل كثيرون فى كل العصور المرأة المصرية فى صورة كائن أقل من الرجل ، تحيا فى عزلة دائمة وفى أخذ وضع الرقيق تقريبا ، ولا تعرف إلا الأفكار المنحطة . وقد جاء دوق داركور بشهادته مدعما هذا الرأى . لكنه أدلى بشهادته بطريقة تتضمن من التناقضات ما يفقدها وزنها . أو لم يقل فى أحد فصول كتابه : إن المسلمين يخفون نساءهم غيرة عليهن ثم قال فى مكان آخر : إن هذا التقليد نابع من اختلال الأمن فى البلاد ، مدعما هذا الرأى الجديد بأن الأقباط والشرقيين كانوا يتبعون نفس هذا المسلك . ثم يقول بعد ذلك : إن هذا التقليد وثيق الصلة بالدين الإسلامى ، وأنه ليس مسألة نهج اجتماعى . ومن المستحيل ألا يدهش القراء أمام تنافر هذه الآراء ، وألا يروا أن دوق داركور يحكم على عاداتنا دون أن يقوم بدراستها ! .

أعترف أننى حين بدأت قراءة الفصل من كتابه الذى يتحدث فيه عن نسائنا ، تصورت بسذاجة أن اخلاصه للمجاملة الفرنسية التقليدية سيجعله يقتصر فى حديثه على ذكر الاشياء الطيبة ، أو أنه على الأقل لن يذكر إلا ما هو صادق كل الصدق . ثم ظهر أننى أفرطت فى حسن الظن ، لقد وجدت نفس الاخطاء ونفس المبالغات الموجودة فى أجزاء كتابه الأخرى . غير أنى لا أجد عليه قصوره عن قول الحقيقة عن نسائنا . فذلك موضوع تشق معرفته عن جميع الموضوعات الأخرى ، فالمصرى هو الإنسان الوحيد القادر على تكشف هذه الطبائع المعقدة ، ولهذا فإننى سأحمل شرف تقديم نسائنا للقارئ :

* * *

تبدو المرأة المصرية من الناحية الشكلية أقرب للقبح منها للجمال ، غير أنها تمتلك بعامة جمالا طاغيا يتجلى على وجه الخصوص فى نسب أعضائها ، ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشى العيون التى تتطلع إلى فلاحة جميلة تمشى مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالأحلام

طويلة تقريبا ، فى كفيها وقدميها دقة رائعة . أما ما تتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبهما المرء عينى « ملاك » ، والمعبرتان ، حتى ليفهمها المرء قبل أن تتحدث هى ! . أما من الناحية المعنوية ، فهى مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تأملية ، وبعيدة عن الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، تحب دينها ، لكنها لا تمارسه ليس لها مثل أعلى : وتتأقلم مع الحياة الواقعية ، وهى زوجة نموذجية ، وأم حانية ، لكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى أما ما سوف يثير دهشة قرائى فهى أنها شديدة القناعة فى الحب ، فهى عذراء قبل الزواج وعفيفة بعده ، لا شىء يعكر هدوءها ، تمضى حياتها فى التطريز وإدارة شئون بيتها حسب كفاءتها وإن لم تبلغ مستوى طيبا غالبا .

على أن الخطأ المطلق أن يقال إن المرأة فى مصر حبيسة الدار ، فجميع النساء يخرجن فى جميع ساعات النهار والليل مثل الرجال ، ويتنزهن وحيدات أو فى رفقة صديقاتهن ، يقمن بزيارات ويستقبلن زيارات بانتظام ، يدخلن المحال لشراء حاجاتهن ، ويتجولن فى الأسواق ، ويترددن على أماكن التنزه ، ويسافرن أحيانا وحدهن . ها نحن أولا بعيدون عن الصورة المعتمة التى رسمها لحياتهن دوق داركور حين قال : « إننا لا نتصور عقابا نتزله بالأشرار فى بلادنا أقسى من أن نفرض عليهم مثل تلك الحياة » .

وموجز القول ، أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال ، تستطيع النساء فعله ، بل ويفعلنه ، وكل ما هو مباح لنا ، مباح لهن . وكذلك فإن كل شىء محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرما علينا ، نحن الرجال ، أن ندخل إلى مجتمع النساء ، فيبدو لى من الطبيعى أن يقع نفس التحريم على نسائنا ، وإننى أكرر من وجهة النظر هذه أن وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما . ورغم ذلك فإن أحدا من الأوروبيين لم تحركه طيبة قلبه إلى أن يرثى لوضعنا . نحن الرجال ، ولهذه الحياة التعيسة التى نعيشها .

ويمكن أن تكتب عبارات من هذا النوع : «الرجال فى الشرق عبيد لنسائهم . فهؤلاء يغلقن عليهم فى الدور ، وحين يخرجن لزيارة صديقاتهن يمنعنهم من متابعتهن ، والرجال مبعدون عن جميع مجتمعات النساء» . نعم ، يمكن أن يكتب كل ذلك دون افتئات على الحقيقية أكثر مما حدث حتى الآن . صراحة أنا لا أعرف ماذا يفعل الأوروبيون لكى يقعوا هكذا كثيرا فى الخطأ . إننى أعزو هذا إلى زيغ النفوس أكثر مما أعزوه لسوء النية ، إن لدينا جاليات تضم مئات الآلاف من الأوروبيين الذين يقيمون فى بلادنا . كما يفد إلينا كل عام خلال الشتاء ، آلاف السائحين ، وكل هؤلاء يرون نساءناوهن فى الشوارع على أقدامهن ، أو على ظهور الحمير ، أو فى

السيارات . ثم لا يحول هذا دون أن يكتب بعضهم قائلين إن نساءنا أرقاء أو معتقلات فى الدور .

ويبدو كذلك ، حين تقرأ مؤلفات هؤلاء الكتاب ، وبخاصة كتاب دوق داركور ، أن نساءنا لا يخرجن إلا فى رفقة خصى ، (من الاغوات) فى حين أن هذا النهج الذى أفرزته الامبراطورية الرومانية ، ولنقل ذلك استطرادا ، والذى صُدِّر إلى الشرق الاسلامى ، لم يعد له وجود تقريبا ، وإننى اؤكد هنا أنه لا توجد فى مصر خمسون أسرة تمتلك مثل هذا الخصى وهي لا تحتفظ بهم لحراسة النساء مثلما تحتفظ بهم من باب الزينة ، والابقاء على احدى عادات الترف القديمة . كما أن الابقاء عليهم هو من باب العاطفة الانسانية اذ يستخدمون كخدم عاديين بدلا من التخلص منهم بعد بلوغهم الشيخوخة بإلقائهم إلى الطريق .

وقد التقيت بواحد منهم يعمل سائق عربة خيل ، وقد تعرفت عليه من وجهه ورقته وتخنثه وخاصة من صوته ، وحين سألته لماذا لا يمارس المهنة التى أعد لها ؟ أرسل زفرة عميقة وأجاب قائلا : «لم تعد توجد نساء ، يا سيدى ! » يريد بهذا إن يقول أن نساء اليوم يسلكن سلوك الرجال .

كما أن من الخطأ القول بأن النساء المسلمات تربين فى أحضان الأفكار المنحلة ، وإذا كان المقصود بذلك هو أن نساءنا ينطقن أو يسمعن بعض الألفاظ دون إعلان استهجانها ، فهذا صحيح ، غيرأن هذه مسألة عادة وتربية ، وإننى أعرف جيدا أن النساء الأوروبيات يعرفن كيف تحمر وجوههن ساعة يردن ذلك ، وكثيرا ما يردن ذلك ، وهو ما يلائمهن تماما ، غيرأنه سيكون من الحماقة أن نحكم على أخلاق أمة من عروض المهرجين (الأراجوز) ودعاباتهم الفجة الجارحة للحياء . إن من إحدى قسمات العادات الشرقية أن يسمى الرجال والنساء أو الأطفال الأشياء بأسمائها . وهو ما لا يعنى أن نكون أسوأ من الأوروبيين الذين يقولون نفس الأشياء التى نقولها بطريقة أكثر مداراة وسترا .

والواقع أنى لا أرى أى فارق بين الوضع المفروض على المرأة الأوروبية وذلك المفروض على المرأة المسلمة ، فالمرأة الشرقية لا تلعب أى دور ولا تمارس تأثيرا فى خارج البيت ، فالبيت مقرها ، وهى فيه الحاكمة المطلقة .

حقا إنه ليست لدينا سيدات بلاط ، ولا نساء سياسيات ، ولا متحذلقات دعيات تأليف أدبى ، ولكن . هل يعد هذا شيئا سيئا ؟ إننى أجيب على استحياء : كلا . مع أنى لا أذهب إلى

حد التأكيد بانحطاط ذكاء المرأة ، هى نظرية بعض الفلاسفة الأوربيين من أمثال سبنسر[169] ولومبروزو[170] . ولا أغالى بمثل ما يغالى شامفور حين يدعى « أن رأس المرأة تنقص ركنا فى حين يزيد قلبها وترا » . فإننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن يجنيها النساء بممارسة حرف الرجال . بينما أرى كل ما سوف يفقدنه ، فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى تبدو أنهن خلقن من أجلها ، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل على العكس من ذلك . إن مشهد الأم المتفانية يملؤنى حنانا ، كما يحرك سرورى مشهد الزوجة التى تعنى ببيتها . فى حين أنى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على فى خطى الرجال . ممسكة كتابا فى يدها ، وتهز ذراعى فى عنف ، وهى تصيح بى : « كيف حالك يا عزيزى ؟ » بل لعلى أشعر بشىء غير بعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفات والسياسيات - (ولست أتحدث إلا عمن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) - هل هن حقيقة نساء ؟ وما هى أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتى رأين كل شىء وقرأن كل شىء ، وفعلن كل شىء ، واللاتى لم تعد وجوههن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتى ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟ .

ولكن فلنوضح الأمور . إننى أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن . لكننى نصير متحمس لأخذ المرأة قدرا نسبيا من التعليم ، إننى أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق . يجب أن تعرف المرأة دائما ما يكفى لكى تلقن أبناءها مبادئ الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحا علميا للأشياء التى تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائمًا كيف تجيب ، دون أن تخطئ على تساؤلات الطفولة التى لا تنقطع . إننى أتمنى أن يعمم هذا التعليم عندنا ، فبدونه لا يمكن أن . نأمل فى وجود مواطنين صالحين ، وإننى فى هذه النقطة أوافق تماما دوق داركور ولا أمتنع عن الأعتراف بدونية مستوى المرأة المصرية عن مستوى المرأة الأوروبية .

غير أن هذه ليست إلا دونية ناتجة عن الجهل وعن القصور فى تثقيف الفكر ، كما جعل

---

(١٦٩) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) فيلسوف انجليزى ، لقب (بفيلسوف التطور) لأنه كان يرى التطور محورا لمذهبه الفلسفى .. ولقد أودع أصول مذهبه فى كتابه : (المبادئ الأولى) .. كما بسط آراءه فى السياسة والاقتصاد بكتابه (أصول علم الاجتماع) .

(١٧٠) تشيزاريه لومبروزو (١٨٣٥ - ١٩٠٩ م) إيطالى ، عمل طبيبا ، وبرز كعالم من علماء الجريمة تعدت شهرته ومؤلفاته المجتمع واللغة الإيطالية .. وكان التركيز على دور الوراثة محور نظرياته فى الجريمة والسلوك .

غياب التعليم المواطن المصرى دون مستوى نظرائه فى أوروبا . ليست هذه الدونية اذن وليدة الدين الاسلامى ، أو من أثر العادات والتقاليد ، انها تتوقف على تعليم النساء ، واذا كان قد أهمل الآن ، فإنه لم يكن مهملا دائما ، وهو ما يثبته العدد الكبير من النساء الشاعرات والاديبات اللائى لمعن بين المسلمين الأوائل . فما نعيشه اليوم هو وضع عابر ، ولو أمعنا النظر فيما يجرى حاليا لأصدرنا حكمنا بأنه سيختفى قريبا ، وانى أختلف تماما مع دوق داركور حين لا يرى فى نسائنا إلا ضحايا بائسات لنظام المجتمع الاسلامى .

لقد سبق أن قلت إن للنساء حرية السلوك المطلقة ، فإذا نظرنا من وجهة نظر أخرى لرأينا أن الوضع الذى أعطاه الإسلام للمرأة هو أكثر تميزا مما تتمناه . فهى كزوجة تتمتع بجميع حقوقها المدنية ، فلها الأهلية القانونية لممارسة أى عمل من أعمال الإدارة أو نقل الملكية ، دون حاجة للحصول على إذن من زوجها أو تصريح من المحكمة . إنها تستمد أهليتها من شخصيتها ذاتها . وليست للقوامة الزوجية هنا إلا دور معنوى خالص . فليس عليها حين تريد الشراء أو البيع أو الهبة أو تلقى منحة أو التقاضى إلا مشاورة نفسها هى ، بينما لا تستطيع أختها الفرنسية ممارسة أى عمل من ذلك إلا إذا راق لسيدها وزوجها أن يأذن لها بذلك .

والمرأة الفرنسية حين تتزوج تصبح كائنا ناقصا ، وترتد إلى الطفولة ثانيا ، والقانون يعدها ناقصة الأهلية ، ويضعها تحت وصاية ، إنها باختصار محرومة من ممارسة إدارة ثروتها الخاصة .

وهذه أشياء لا يمكن لمسلم أن يفهمها ، حتى إن جميع الحجج التى ساقها لى أستاذى القدير لمادة القانون المدنى بجامعة «مونبيلييه» فى تبرير «انقاص أهلية» المرأة لم تنجح فى اقناعى ، ولا أعتقد أنها تقنع غير الأزواج المستفيدين من هذا الوضع ! .

وإذا كان هناك نساء فى أوروبا يدعين أن الرجال وضعوا القانون لصالحهم فإنهن محقات فى ذلك . ولست فى حاجة للقول بأننا نتمنى النجاح لهؤلاء السيدات الجسورات اللائى يكافحن فى بطولة لتغيير هذا الوضع الذى ينطوى على ازدراء بجنسهن ، ولتحقيق أهليتهن فى ممارسة حقوقهن المدنية .

إن الشىء الوحيد المطلوب توافره فى الفتاة المسلمة ، لكى تجد زوجا جديرا بها ، هو أن تكون فاضلة حسنة الخلق ، ومع ذلك فإن أكثر الفتيات فقرا يظفرن ، مادامت لهن بعض المواهب الجسدية ، بزوج طيب ، وأحيانا يسعدن بزوج لم يكن يحلمن به .

وقد قلت قبل ذلك إن أفكارنا لم تفسدها الأحكام المسبقة عن الأصل والغنى . حتى إنه ليس من النادر أن نجد زيجات تجمع بين رجل من أسرة كبيرة وزوجة من عامة الشعب .

إننا لا نسأل المرأة أبدا عما تملكه ، ولا ندخل فى جدل مع أصهارنا حول « بائنة » تدفعها العروس لزوجها . فالرجال عندنا هم الذين يقدمون دائما « مهرا » ومن هذا المهر تجهز الزوجة بيتها ، وأكثر من ذلك فالمرأة مهما كانت ثرية لا تلتزم بتحمل أى عبء من أعباء الزوجية فالرجل هو المكلف فى جميع الأحوال بالانفاق على زوجته وأولاده ، هل ندهش بعد كل هذا حين نلحظ أن لكل امرأة فى الشرق زوجا ، بينما تزحم العوانس الدور فى أوروبا .

لقد كان من بين الأشياء التى صدمتنى فى أوائل وصولى إلى فرنسا ، أنى التقيت بنساء بلغن سن الخمسين وينادين بالآنسات ! . فلم أر هذه الظاهرة فى مصر . ما أكثر ما تمتلئ حياة هؤلاء بالحزن وما تذرف عيونهن من دمع ، وما يكتمن فى نفوسهن من عواطف ويقهرن من حنان ، ويطوين من مرارة وحقد ويأس فى عزلتهن . وكم يستطعن أن يمنحن من حب وعطف وأمومة وتفان يختزنها فى قلوبهن التى تنبض دائما رغم ذلك . لماذا هذه الأنانية فى رجال أوروبا ؟ لماذا يطالبن النساء « ببائنات » لا يملكنها ؟ . وكيف وقد أغلقوا أمام النساء أبواب الحرف والمهن والوظائف يتصورون أن يكون لديهن نقود ؟ هل هذا منطق أو إنسانى إننى كلما تأملت تشريعنا كلما زاد حبى حقيقة له . فإنه وحده الذى وضع النظم العادلة بأفضل مما فعل غيره . وهو وحده الذى استطاع عمليا حماية الضعفاء . وهو وحده أيضا الذى عرف التلاؤم مع حركة الطبيعة ، كما عرف كذلك صيانة الزواج من السقوط فى التفاهة والتحول إلى عملية تجارية ، وشركة مصالح .

وإننى أنهى حديثى بأن أضيف إلى كل هذا : أن تشريعنا يستلهم الحديث السامى الذى يقول فيه محمد : « الجنة تحت أقدام الأمهات » . لا يمكن أن يكون ، مهما قيل ، تشريعا بربريا ، ولا يمكن أن يقر بأية صورة عبودية المرأة .

* * *

تعدد الزوجات

من المسلم به عند جميع الأوروبيين أن تعدد الزوجات نظام مفض إلى الفساد ، وتلك هى إحدى الأفكار المسبقة التى تفشل جميع التحليلات المنطقية والوقائع المادية فى التصدى لها . وما أكثر ما يقال : لا تحدثنى عن تعدد الزوجات ! ما أبشع أن يجمع الرجل بين زوجتين !

وماذا يفعل حينئذ مع الأطفال ؟ ذلك الشيء غير خلق ! وما إلى ذلك . ولا شك أن هذا هو الإحساس الحقيق لمطلق هذه الأقوال . فقد عدت جميع التشريعات الأوروبية تعدد الزوجات جريمة يعاقب عليها بالأشغال الشاقة .

إننى أجد سعادة فى أن أنتهز هذه الفرصة لأحدد فكرى فى هذه المسألة . وأبدأ بلفت نظر الأوروبيين إلى أن التسمية هى التى تصدمهم أكثر من الشيء نفسه .

لقد ترددت كثيرًا على المجتمع الأوروبى فى فرنسا وفى مصر منذ عشرة أعوام . وقد لاحظت أنه إذا أعطى أحد فى الحياة يده اليمنى يوما فهذا لا يعنى أنه يفعل ذلك بيده اليسرى . بل إنه يمد هذه من الصباح إلى المساء ، وبخاصة من المساء إلى الصباح ، وهى لا تعانى الرفض فى أغلب الأحيان ، وهكذا تمارس فى حياة الأوروبيين الزوجية ، وفى هذه القسمة ، كما تدركون جيدًا [١٧١] ، ليست الزوجة الشرعية هى التى تظفر بنصيب الأسد على أن الأمر ينتهى بالطلاق فى تسعة أعشار الحالات ، وساعتها تتكشف الزوجة أبعاد محنتها أو فرحتها ، حسب تكوينها النفسى ، ويطلق على ما حدث ، لحظة ضعف ، أو خطأ ، أو حادث .

ولكن أى زوج هذا فى الواقع : أليس زوج اثنتين؟ فإذا حدث ولم تكن علاقته بالمرأة الأخرى عقيمة فإن الطفل إما أن يتخلص منه بواسطة الجريمة ، وهذا أفضل مصير له وإما أن يعيش حياته كلها نهبا للفقر والعار ، ذلك أنه لا جدال فى أنه لا يوجد غير الاحتقار والجريمة للطفل الذى يوجد خارج حياة الأسرة ، كما هو الأمر بالنسبة للمرأة .

ويبدو التشريع الفرنسى جاهلاً بهذه الأشياء ، إنه يغمض عينيه ، ويظن أنه فعل كل شيء بتحريمه تعدد الزوجات ، أن يشعر بالرضا لأنه قام بأداء واجبه . حقًا إن العقاب شديد الصرامة ولكنه كذلك بعيد عن التحقيق .

هل يمكن أن نجد كثيرًا من الرجال على علاقة بامرأة خارج روابط الزواج مع حماية العادات والقوانين لهم ، يجرؤون على أن يهمسوا لأنفسهم : « إننى أعرف أن العرف يتسامح معى وأن القانون يحمينى ولكننى لا أريد استغلال ضعف هذه المرأة ، وأود أن أتخذ منها زوجة شرعية مسجلة فى الأوراق الرسمية » ؟ إن هذا لا يتصور طبعًا ، والدليل على ذلك أننى تابعت

---

(١٧١) العبارات تتحدث بألفاظ غير مباشرة التعبير عن الخيانة الزوجية فى البيئة الأوروبية .

خلال عشرة أعوام أحكام القضاء الفرنسى دون أن أعثر على غير قضية تعدد زوجات واحدة .

لنبحث الآن عمل المشرع المسلم ، فهو بعد أن خلق العادات التى تكفل حماية الرجل والمرأة من لحظات ضعفهما أخذ يحدثهما قائلا : « من الناحية المبدئية ، تزوجوا بامرأة واحدة إننى أنصحكم بذلك من أجل راحتكم ، فإذا حدث حادث حطم لسبب من الأسباب حياتكم الزوجية فتستطيعون أخذ زوجة ثانية ، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة . ولكن فليكن معلوما لكم أنى لا أبيح لكم ذلك إلا إذا كنتم مضطرين إليه وخاضعين لضرورات محددة .

إننى أفرض عليكم ما أنزل بكم عقابا صارما إذا لم تلتزموا به: «أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعا فى كل الأمور بعدالة كاملة ومساواة دقيقة . وأن تكون هذه النسوة جميعا زوجاتكم على نفس المستوى وأن تقوموا بكل نفقاتهن، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهم أولادكم فتسهرون على تعليمهم جميعا بنفس الاهتمام واليقظة ، والآن ، إذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتنوعة ، وإذا وجدتم أنفسكم فى حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإلا فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة . وهذا أفضل » .

تلك هى تدابير قانون تعدد الزوجات ، كما يوحى بها القرآن وتفسيرات فقهائنا .

وكما نرى ، فقد قدم لنا مبدأ الجمع بين الزوجات بوصفه شرًا ضروريًا ، وهو محاط بصعوبات جادة . تجعل ممارسته نادرة ، وقد اتخذت كل الاحتياطات للتخفيف من الآثار السيئة التى يمكن أن تترتب عليه .

والآن ، ولكى أحسن شرح فكرى أرجو أن يأذن لى القارئ فى أن افترض مشكلة وجدانية أضعها ليمعن فيها النظر والتأمل .

افترض أننى تزوجت منذ عشرة أعوام من امرأة ارتبطت بها بروابط الاعتياد والمودة . وأننى من هؤلاء الذين يتزوجون للانجاب لأخلف ورائى ذكرى ، ولكن زواجنا بقى رغم كل جهودنا عقيمًا ، أستطيع ارتكاب عمل وحشى بتطليق زوجتى . غير أنه يستحيل على أن أنفصل عن هذه المرأة التى أحبها ، والتى ليس لها من سند فى الحياة غيرى . ولست أجد القدرة على هجرها وتعريضها لمصير حزين ، وبعد صراع نفسى ، من اليسير فهم دوافعه ، أقرر أن أتخذ زوجة أخرى مع الاحتفاظ بزوجتى الأولى . هل أكون بهذا أقدم على عمل طيب أو سيئ ؟

افتراض آخر أكثر وجدانية ، أن أتزوج بامرأة وفى صبيحة ليلة الزفاف أو بعد أيام قليلة أتكشف أن زوجتى لا تمثل النموذج الذى يلائمنى ، وإذا بى أحس بضياع أحلامى ، وأعيش حياة الوحدة الحزينة ، وأجدنى فى ظروف ملائمة لكى أسقط فى عشق أنثى ، وبالفعل ألتقى بفتاة أو بأرملة ، تجتذبنى على الفور وتشعل فى نفسى غرامًا كبيرًا . وتتراءى لى السعادة عن بعد ، وأستسلم للغرام المتبادل . ماذا يمكن أن أفعله كمسلم صالح ؟ أتخذ منها زوجة وأضعها موضع التكريم ، وأضمن لها الحياة والشرف والمستقبل ، لها ولأولادها كذلك ؟ ستصبح لى زوجتان شرعيتان ، غير أن الثانية هى معشوقة القلب ، فماذا سيكون مصير زوجتى الأولى ؟ إن أمامها أحد شيئين : إما أن تكون فى غير حاجة إلى ، وحينئذ تتعجل ترك منزل الزوجية فى عزة نفس وكبرياء أميرة اعتدى عليها ، وإما أن تكون للأسف فقيرة فتشعر بسعادة احتفاظها بمأوى يقدم لها فيه غذاء طيب و.. ما إلى ذلك .

والآن ، وأنتم تعرفون كيف يسلك مصرى فى هاتين الحالتين ، فلننظر ماذا كان يمكن أن يفعله زوج أوروبى لو كان مكانه ، إن الأمر لن يطول ، وما أسرع ما يتخذ من هذه الفتاة أو الأرملة عشيقة له ، بكل بساطة ، ويخلق بهذا للمرأة التى اختارها ولأولادها مصدر فضيحة وعار وبؤس لا يتوقف .

ونستطيع أن نخلص كما رأينا إلى أن تعدد الزوجات قد أقر ليضمن المأوى للمرأة والأبوة الأكيدة الدائمة للأبناء ، إن الطفل الطبيعى (غير الشرعى) هو نتاج غربى خالص لم يستطع التأقلم فى بيئتنا .

وليست لجرائم الاجهاض وقتل الأجنة ، التى تبلغ فى فرنسا آلاف الحالات كل عام أية مبررات لكى تحدث فى مصر . ولعل هذا يعفينى من أن أناقش هنا مشكلة معرفة ما إذا كان الرجل بطبيعته جامع زوجات أولا ، ولست فى حاجة إلى أن أذكر المسيحيين بأن المسيحية قد تسامحت فى روما خلال فترة طويلة مع تعدد الزوجات ، حتى أن قساوسة قد تجاوزوا عنه وما رسوه . كما أن عددا من ملوك الفرنجة جمعوا بين عدة زوجات .

وعلى القارئ الذى يريد تعميق هذه الدراسة أن يراجع مؤلفات الكتاب الذين عالجوا هذه المادة . ولنقل ، قبل النهاية ، كلمات عن وضع أطفال فى بيت به عدة زوجات . إذ يتخيل الناس بصفة عامة أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم بالضرورة أن يتبادلوا الكراهية ، وأن يتعاركوا صبحًا ومساء ، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث . والمسألة مسألة

تعود ، ثم ألا يحدث فى فرنسا أن يعيش أطفال أمهات مختلفة فى تآلف تام حين يتزوج أحد الزوجين بعد حادث طلاق أو وفاة زوجة .

إن الأمر لا يختلف هنا فى أى شيء .

على أن الأهم هو أن تعرف ما إذا كان تعدد الزوجات يحدث أو يساء استخدامه فى مصر . وأستطيع أن أؤكد أن حالات تعدد الزوجات نادرة فى مصر ، ونتحدث عن الريف فى البداية ، فالفلاح متمسك بالزوجة بشكل جذرى ، وسبب هذا أنه يكسب ما يكاد ينقذه من الموت جوعا ، أما فى المدن فقد بقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة . ذلك كل شيء ، وليس للموظفين بعامة غير زوجة واحدة ، وأغلبهم من الشباب الذى تربى فى ظل الأفكار الحديثة ، وإذا حدث لأحدهم ، بطريق الصدفة ، أن شغف بعينين جميلتين فإنه قد يتخذ من صاحبتها عشيقة له ممارسا بذلك تعدد الزوجات على الطريقة الأوروبية .

وقد أخذ كثير من المفكرين فى فرنسا يثيرون اهتمام الناس اليوم بمشكلة الأبناء الطبيعيين هؤلاء المنكودى الحظ الذين يجدون، ساعة ولادتهم، باب الحياة مغلقًا أمامهم. وإن دراسة وضعهم الآن هى موضوع بحث المشرعين الفرنسيين ، إن النظرة الأخلاقية الضيقة الأفق ، والتى تجعل بريئا يحمل وزر أخطاء ارتكبها غيره من أجل إنقاذ سمعة الأسرة قد أخذت تنحسر منذ صاح الكسندر ديماس[١٧٢] ضد هذا الوضع الظالم هو ومن تبعه على نفس الطريقة .

إن جميع هذه الجهود ستؤدى يومًا إلى مساواة الأطفال الطبيعيين بالأطفال الشرعيين ولكن الفلاسفة سوف ينشغلون بعد موضوع الأطفال الطبيعيين بموضوع الأمهات اللاتى يستحق مصيرهن الشفقة والاهتمام ، أو لا ترى أوروبا فى اختفاء هاتين المشكلتين الاجتماعيتين فى العالم الإسلامى ، بفضل تعدد الزوجات ، مشهدًا مليئًا حقًا بالدروس النافعة ؟ .

* * *

---

(١٧٢) الكسندر دوماس (١٨٠٢ ــ ١٨٧٠) فرنسى ، يعرف بالكسندر دوماس «الاب» تمييزا له عن : دوماس «الابن» .. وهو كاتب للرواية والمسرحية ، ومن كتاب المذكرات والدراسات التاريخية وأدب الرحلات .. شارك بنشاط فى ثورة فرنسا سنة ١٨٣٠ م .

الطـلاق

(وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا)[١٧٣] .

(وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)[١٧٤] .

« أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

ذلك ما قاله الله تعالى ونبيه الكريم عن الطلاق . فلم يتوقف النصح لنا عند حد عدم إساءة استخدام حق الطلاق فقط ، بل وعدم اللجوء إليه إلا بعد استنفاد وسائل المصالحة . فغالبًا ما يكون الطلاق علاجًا أسوأ من الداء . غير أن له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء فى

بعض الأحيان ، انه عملية بتر يذعن لها المصاب كارهًا دائمًا ، مطلقا صرخات الألم لكنها مع ذلك تنقذه من الموت ، وقد رأى المشرع الإسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما ، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما ، وبمستقبلهما ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بنفسيهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتى . لقد عاشا معا ، ونفذ كل منهما إلى أعمق أعماق الآخر وما يمكن أن تغيب عنهما أدق التفاصيل وهما يقومان الموقف ، وهما اللذان يستطيعان معرفة ما إذا كان استمرار الحياة المشتركة بينهما ممكنا أم لا . إنهما يجدان أنسب الظروف لكى يفصلا فى قضيتهما بملء إرادتهما الحرة .

إننى لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق . فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى . كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك . أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه ، وهو المتقلب الكثير النزوات . وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟ وما هى الوثائق التى سيحكمون على أساسها ؟ إن موضوع هذه القضية هو شخصيتى الصعبة المعقدة التى تحتاج عدة سنوات من عبقرى مثل زولا[١٧٥] لكى يفهمها ويحللها ويحكم عليها .

---

(١٧٣) النساء : ١٩ .

(١٧٤) النساء : ٣٥ .

(١٧٥) اميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢ م) روائى فرنسى . اسهم فى الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعى ، وهاجم الكنيسة =

حقا ، إن لهذه الحضارة الأوروبية المتألقة بقعا مثل بقع الشمس . وهذه إحداها لأنى ـ فى النهاية ـ ومع افتراض ان يستطيع القضاء إدراك موضوع النزاع وتقدير الموقف بطريقة سليمة ـ لا أرى الفائدة التى يجنيها النظام الاجتماعى من نشر تفاصيل حياتى وحياة زوجتى الخاصة ، وطبعها فى الصحف ، من الذى سوف يكسب من كل هذا ، غير جماهير المشاهدين الذين تذكى مرحهم الاقاصيص الضاحكة المسلية التى يسردها المحامون بعد أن يقبضوا نقودنا ! . ان حق الطلاق الذى وضعه التشريع الاسلامى فى يد الرجل ، وفى يد المرأة التى احتفظت بعصمتها فى يدها ، لا يقبل فى فرنسا إلا فى ثلاث حالات فقط ، مع تركه دائما لتقدير المحكمة .

والآن وقد بسطت وجهة نظرى فى ضرورة الحصول على حكم قضائى من أجل الطلاق ، فلنناقش ما اذا كان التشريع الاسلامى قد أساء صنعا حين ترك للزوجين أن يوقعا الطلاق حين يريدان . فمن الممكن مناقشة الموضوعين كلا على حدة رغم تشابكهما .

أرى من الناحية المبدئية أن حرية الطلاق شىء حسن ، وانها توثق روابط الزواج بدلا من اضعافها ، إنها تكشف للزوج الذى قد تزين له نفسه إساءة التصرف عن الخطر الذى يتهـدده فهى تهذب السلوك وتطوع الشخصية ، وتحمل على التنازلات المتبادلة . إنها أشبه بسيف ديموقليدس معلقا فوق رأس الزوجين .

ثم انه يحدث ان يكتشف الازواج بعد الزواج مفاجآت لا يمكن قبولها ومواقف يستحيل تحملها مما يتحتم معه ان يترك باب الخلاص مفتوحا ، ليست الخيانة الزوجية والاعتداءات الخطيرة هى وحدها مبررات الطلاق ، فغالبا ما تكون هناك شكوك متميزة ومريرة ، وهناك عدم التآلف الذى يجعل جميع ذرات الجسدين تتنافر بقوة لا يمكن كبحها . وهناك اختلاف الطباع التى تجعل من الواحد نقيض الآخر . وهناك الغلظة التى تعذب أكثر من العدوان . وهناك مجموعة من الخيانات المعنوية التى تصدم أكثر من الخيانات المادية ، هناك طبائع سيئة وشريرة ، وجاحدة ، وعقليات جامدة ، وامراض نفسية غريبة ، هناك رجال سفلة

الكاثوليكية .. وفى الادب كان داعية للمذهب الطبيعى .. وفى الاصلاح الاجتماعى كان داعية للاشتراكية ، وكتب فى سبيلها كتبا رباعية لم يتمها .. وهو صاحب الخطب المعنونة : (إنى اتهم) التى دافع عن «دريفوس» سنة ١٨٩٨ م فى قضية الشهيرة .

ونساء متوحشات وأمهات مشوهات . نعم يوجد كل ذلك ، كما توجد اشياء اكثر بشاعة مما يمكن ان يحصيها تشريع ، والتى توجد مع ذلك بكثرة .

ماذا يفعل التشريع الفرنسى لزوج منكوب اكتشف فى زوجه احد هذه العيوب التى تفسد الزواج ؟ انه ينصحه بالصبر حتى الموت ! لماذا ؟ لصالح الاسرة ! .

ولكن ألا ترون ايها المشرعون الطيبون ان الميكروب المدمر للاسرة قد تسلل اليها بالفعل ؟ وانه يوجد بيئة مناسبة لنموه . وان العدوى تهدد الأطفال ، وان انفصالا سريعا هو وحده الذى يمكن ان يمنع فواجع عصية على الاصلاح ، فهل ترون انه شيء خلقى وغير خطير ان يشهد الأطفال كل يوم معارك حياة زوجية محطمة ، وان يروا بأعينهم نماذج سيئة ؟ .

من حسن الحظ ان الرجال فى فرنسا ـ كما اعلم ـ اكثر حكمة من المشرعين ، فهم يصححون القانون غالبا بوسائل عبقرية ، واننى أعرف عددا كبيرا من الازواج الذين حصلوا على الطلاق بالتراضى بوضع أنفسهم طواعية فى احدى الحالات التى يبيح فيها القانون الطلاق ، أو بافتعال ذلك من اجل صالح قضيتهم .

وأختم حديثى هذا بأن أؤكد لدوق داركور انه يخطئ حين يريد اقناع قرائه بأن المرأة المصرية حين تقترب من الشيخوخة يطلقها زوجها ، فذلك اتهام جسور لا يقوم على أى سند من الواقع .

كلام عن الحب

يضم المجتمع الاوروبى الرجال والنساء دائما ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب ، وهذا الاختلاط بين الجنسين فى الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة ، فالسحر الذى تشيعه المرأة ، فى كل مكان توجد فيه ، شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور ، وفى مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائما بالمرح ، وغالبا ما يتودد للغير ، ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا ! .

وقد أتيح لى تقييم هذا السحر الفريد وكان شأنى شأن الآخرين فى الاحساس بقدره وبخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفكر الى جمال الجسد ، وقد رمت بى طبيعتى الخجولة

بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة ، وهذا يعنى انني لم أحقق نجاحا فى هذه المجتمعات . غير ان هذا لم يقلل من حبى لهذه اللقاءات الشيقة التى يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به .

يبدو من أفكار الأوروبيين أن استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، بل إن الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب فى الاستئثار بها ، ان عليه ان يتيح لها أن تعاونه وتدلى بدلوها فى ارضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح أصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا إليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسىء النظرة إليهم ، فهم فى الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شىء مما يفعلونه يعد جادًا أو خطرًا ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابات ولا شىء غير ذلك . كما يمنح الزوج فى نفس الوقت اهتماما لزوجات الآخرين . ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجامـلات ويوجه إليهن نفس عبارات الغزل ، تلك هى متعة اللقاءات المشتركة .

هل يمكن ادانة هذه العلاقات ؟ لعل من الظلم الادعاء بأنها علاقات آثمة دائمًا ولا شك فى أن هناك أصحاب شخصيات فاضلة قوية تملك السيطرة على نفسها وتستطيع أن تحلق فى السحب اللازوردية . غير انه يوجد إلى جانب هذه الشخصيات النبيلة النادرة ضعاف يبتلعهم الاعصار ، كما يغرق فى عاصفة الاعتراف بالحب كثير من الشرفاء ، وتحترق مجموعة من القلوب فى نيران الهوى . فمن المسلم به أن المرأة إلـهة يعوزها أن تكون معبودة دائمًا . وليست الاعترافات بالحب سوى الطقوس التى تؤدى بها هذه العبادة . غير انها إلـهة رحيمة لأنها غالبا ما تتقبل الدعوات الموجهة ، فهى لا تشبه فى شىء بعد آلهة الأساطير القديمة الشريرة الخشنة التى لا ترحم ، والتى تصم آذانها حين يطلب إليها شىء ، تلك الآلهة ذات القلوب الجامدة حتى لا تحركها الدموع .

واستميح ابناء جنسى عذرا حين أقول ان من الطبيعى عند الاوروبيين أن يعد الرجال سارقى قلوب حقيقيين ، وانهم لا يتورعون فى سبيل الظفر بقلب امرأة يريدونها عن قول الاكاذيب وارتكاب الحماقات ونسج المؤامرات الخبيثة وفعل الخيانات ، ثم هم يفعلون كل ذلك بأعصاب باردة ، ودون أن يكونوا واقعين تحت تأثير انفعالاتهم العاطفية ، واحيانا يستقبل الصديق فى بيت صديقه بمودة ، ويتناول الطعام على مائدته ، ويدين له بكثير من الخدمات ، ثم يكافئه على ذلك ، بأن يطعنه فى شرفه بطعنة مميتة . إن احدهم لا يفكر

لحظة فى نذالة هذا العمل الذى سيقدم عليه ، ولا فى عمق المأساة التى سيحدثها ، انه يقتحم دائما ، وكلما عظمت العوائق كلما ضاعف حماسته للنصر. والواقع انه شىء حزين ذلك النصر الذى يولد من فكرة سافلة ماكرة ، وينتهى الى عمل مشين.

أيمكن فى هذه الظروف الموافقة على التقريب بين الرجل والمرأة دون خطر على هدوء الاسر وعلى أخلاق المجتمع ؟ إن ديننا يجيب على ذلك السؤال : بلا.

وقد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد. لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، *والقضاء الجذرى على مصدر الشر*. واذا كانوا يقولون ان الظروف هى التى تصنع اللص فإن الظروف أيضا هى التى تخلق الزانى. ان الحب من أول نظرة لا يحدث تقريبا فى الحياة الواقعية ، فالحب يولد ، بعامة ، بعد اعتياد اللقاء والحديث والتفاهم ، وكلما تعمقت هذه اللقاءات كلما أتيحت فرصة الحب. وكلما اقترب الشرر من الوقود كلما خاطرنا بإشعال حريق. انى اعرف انه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس اللطيف ، وأن النساء اللآتى يعرفن إبداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن. غير أنا لا نصادف كل يوم قلاعًا حصينة ، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر و « استراتيجية وتكتيك » ، ثم إنه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه. فالمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح والانطلاق فى الهجوم الحاسم فى اللحظة المناسبة لا قبلها ولا بعدها.

يجب أن نعترف بأن عادات بعض الطبقات الأوربية قد ساهمت ، كما لو كان ذلك عن قصد ، فى زيادة الفرص التى تيسر السقوط ، كما يفعل بعض التجار فى الحث على الاستهلاك ، فلم يهمل أى شىء يفضى إلى ذلك : النزهات الخلوية الفردية فوق العشب الحانى ، شواطئ الاستحمام التى ترتدى فيها المرأة ثوبًا لاصقًا بجسدها ، ويشى بكل المفاتن الخبيئة ، ثم تترك نفسها طيعة بين صديق يعلمها السباحة. والوجبات الشهية التى يحل فيها النبيذ عقدة اللسان ويتيح للأقدام أن تمرح فى يسر تحت المائدة ، ثم حفلات الرقص التى تأتى إليها النساء فى ثياب عارية الأكتاف تشيع عطورًا تسكر ، ثم يستسلمن لعناق الفارس فى دوامة الرقص. إننى أعلم أن كل هذا ممتع ، وإنه لكى لا يحبه المرء يجب ألا يكون رجلاً واضيف : وبخاصة ألا يكون زوجًا !.

ذلك أن الزوج سيجد نفسه بين أمرين : فإن كان محبًا لزوجته هائمًا بها ، فلست أتصور

اختفاء كاملاً لقلقه ، فالغيرة قرينة الحب ، وما أبعد المرء حين يعشق عن الطمأنينة الهادئة إنه يصبح على العكس ممتلئًا غيرة من جميع الناس والأشياء ، وحياته هى أقسى حياة عذاب مرير وحلو يمكن أن يعرفه قلب إنسان . وإن لم يكن محبًا لزوجته ، فالكرامة باقية بكل أبعادها ومطالبها ، قد يمكن ألا يحب الرجل امرأته ، أما أن تسخر منه ، ويصبح الزوج الذى تلعب به امرأته ، وتظهر أمامه مع ندمائها ، فتلك أوضاع جديرة بأن تثير كرامة أكثر الأزواج تسامحًا فى الشرق أو الغرب .

إن أكثر المبارزات والاغتيالات التى تحدث فى فرنسا بسبب خيانة الزوجة لا يثيرها عادة الدفاع عن الحب بل عن الكرامة ، إن سهام الشرف هى التى تسلح أيدى الأزواج الذين تكون قلوبهم غالبًا فى أماكن أخرى .

وعلى نقيض العادات الاوروبية التى يبدو انها خلقت لنشر المتعة على الأرض المسماة عن حق : وادى الدموع ، تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة البسيطة الحزينة . فمن أجلها طولبنا بالتضحية بالمتعة ، ومنذ ألف سنة والمسلمون يقدمون كل يوم هذه التضحية الكبيرة . والغريب حقا ، أن فى العالم الاسلامى مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين وهناك الكثيرون الذين تبنوا العادات الاوروبية فى كل تفاصيل حياتهم ، غير انه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الاوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود .

اننا نحس جميعا ان لنا نظاما يرسخ من الاتحاد بين الزوجين . فلا نعرف نساء غير نسائنا ، كما لا تعرف زوجاتنا رجالا غيرنا ، وهذا ما يجعلنا أزواجا متفاهمين مادمنا نملك أقل قدر من حسن الطباع . لا شىء يعكر هدوء حياتنا الزوجية ، واذا حدث توافق بقى الى الابد . اما الاغراء أو الاغواء الخارجى فانه لا يصل الينا . وتلك الحقيقة يجب أن ينتهى الأمر بالأوروبيين إلى الاعتراف بها .

ثم ان عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نسائنا روحًا مازالت نقية وقلبًا مازال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم . فالزواج عندنا بداية ، فى حين انه عندهم تقريبًا دائمًا نهاية . وخيبة الأمل المرة التى تغزو الفتاة البائسة التى تكتشف صبيحة زفافها عدم اهتمام زوجها بغير الخلود إلى الراحة ، لا تقارن بالسعادة الحقة

التى تدين بها المسلمات لأزواجهن . والمسلم لا يتردد على المراقص ولا مسارح الأوبرا ، أو الموسيقى ، ويبحث عن السلوى فى بيته ، فى رفقة زوجه وأطفاله الذين يعطيهم كل ساعات فراغه .

هل يعنى هذا أن جميع الازواج فى مصر هم نماذج للاخلاص والفضيلة ؟ كلا . لكنى أؤكد ان ما هو القاعدة فى أوروبا ، بخاصة فيما يتعلق بخيانة الازواج ، ليس فى مصر إلا الإستثناء .

وقد لا يعنى هذا أيضا أن الانسان فى مصر أفضل من الانسان فى أوروبا من هذه الناحية ، فأفضل الازواج والزوجات وأكثرهم جدارة هم الذين يستطيعون تجنب فرص الزلل ، أو الخروج منها سالمين .

* * *

الدين

لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة ، وبحرصى على مراعاة اللياقة العامة ، غير أن على فى هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب دوق داركور ، بل اننى لأكاد اعتقد انه هو الذى كان حافزه على وضع كتابه ، ولهذا فإننى استأذنه فى ان أخصص له بدورى عدة سطور .

قدم دوق داركور الاسلام فى أسوأ صورة ، وحاول فى العديد من مواضيع كتابه ان يثبت انه يخلق حالة من الخدر تخنق كل فضول وكل شغف بالبحث ، وقد شاء أن يتطوع بنسبة جميع النقائص التى يعانى منها الشرق الى الاسلام ، ويمكن إيجاز منهجه فى هذا القانون : الإسلام دين سيئ لأنه أحدث العقم الفكرى عند المسلمين . ثم إن المسلمين فى حالة عقم فكرى لأن الإسلام أحدث هذه الحالة ، وتلك حلقة مفرغة بارعة الاحكام .

فلنختبر هذا الرأى جيدا ولنبحث بطريقة معمقة قيمة هذا الرأى : لماذا يحدث الاسلام كل هذه الآثار السيئة ؟

يعرف العالم كله أن دين محمد هو التأكيد المطلق لوحدانية الله . وكل من آمن بهذه الوحدانية وبرسالة النبى فهو مسلم . ثم تأتى بعد ذلك ممارسة الشعائر الدينية والفروض التى يجب على المسلم أداؤها . وهى : الصلوات الخمسة كل يوم ، وصيام شهر رمضان والزكاة ، وهى

ربع عشر الثروة لصالح الفقراء ، والحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلاً . ذلك جماع ديننا كله . وهو شديد البساطة إلى حد يفهمه أقل الناس معرفة وثقافة ، إنه يتشكل من مبادئ ثابتة لم يجر عليها أى تعديل منذ ظهورها حتى يومنا هذا . فهى اليوم كما كانت بالأمس ، وكما ستكون غداً ، ومن المعروف كذلك أن القرآن هو الكتاب المقدس الذى يضم نظرية هذا الدين والمبادئ التى اتخذت أساسا لتنظيمنا السياسى والمدنى .

انه كذلك كتاب أخلاق وفلسفة عملية ومنطقية ، يجد المرء فيه الى جانب قواعد السلوك الحكيمة والوصايا الانسانية تنظيمات اجتماعية وتشريعية رائعة ، بل يمكن أن نقول انها تستغرق معظم الكتاب ، وان الجزء النظرى الخالص لا يشغل إلا مكانا صغيرا .

ان أثر لغته البليغة المدعمة بذكاء النبى العلوى هو الذى خلق من أكثر الشعوب وحشية أمة قوية منظمة ، لقد استطاع كبح جماح غرائزها السيئة ، واصلاح عاداتها ، وتربية روحها ، واعطى العرب ما شاع عنهم من عظمة خلقية ما يزالون يحافظون عليها حتى اليوم . وهو الذى رسخ فى العقول فكرة المساواة والاخوة التى تسيطر على فكر كل رجل مسلم ، وهو كذلك الذى أعطى أجمل الدروس عن حب الحقيقة والكرم والاخلاص والطيبة والتسامح . وهو الذى يدين له المسلمون باحترامهم لأنفسهم وتحملهم المآسى واحتقارهم للحياة . والقرآن هو الذى يوصى المسلمين بالعمل والتعلم والسعى لغزو الارض .

ولست أملك مقاومة الرغبة فى ذكر آيات من القرآن التى تؤيد قولى ، وسأفعل فى إيجاز :

يقول الله تعالى : « وجعلنا لكل شىء سببا »[١٧٦] .

(إن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١٧٧] .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[١٧٨] .

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان)[١٧٩] .

---

(١٧٦) ليست فى القرآن آية بهذا النص ، وأقرب آية إلى هذا المعنى هى قول الله سبحانه : (انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا) : الكهف : ٨٤ .

(١٧٧) الرعد : ١١ .

(١٧٨) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(١٧٩) النحل : ٩٠ .

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[١٨٠] .

(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن)[١٨١] .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[١٨٢]

(وأما السائل فلا تنهر)[١٨٣] .

(والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس)[١٨٤] .

(كلوا من طيبات ما رزقناكم)[١٨٥] .

ثم ان الدين الاسلامى هو الذى ألهم النبى تلك الحكم الرائعة التى نجدها فى الاحاديث العديدة ، والتى أذكر منها قوله : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » وقد اخترت هذا الحديث لشبهه بدعوة المسيح . كما أن الدين أيضا هو الذى ألهم عليًا ، رابع الخلفاء ، هذه الأقوال التى يعرفها كل مسلم ويرددها فى المناسبة : « لقد رأيت أن الأرض لا تنبت ذهبًا والسماء لا تمطر فضة ، فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » . ومن الواضح أن ديننا يؤكد خاصة على الواجبات المفروضة على المسلمين نحو أنفسهم ونحو إخوتهم ولا يعطى الأهمية الكبرى للصلاة[١٨٦] .

---

(١٨٠) البقرة : ١٧٧ .

(١٨١) النحل : ١٢٥ .

(١٨٢) البقرة : ٦٢ .

(١٨٣) الضحى : ١١ .

(١٨٤) آل عمران : ١٣٤ .

(١٨٥) البقرة : ٥٧ .

(١٨٦) أى للصلاة وحدها .. وخاصة اذا لم تثمر سلوكا ايجابيا وطيبا فى المعاملات .. وهناك القول المأثور الذى يقول : «إن الصلاة عادة . والصوم جلادة . والدين المعاملة» وكذلك هناك قول الرسول كذلك : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » .

لكن دوق داركور ، مثل أغلب الأوروبيين الذين ألقوا نظرة خاطفة على القرآن ، يؤكد أن هذا الكتاب ملىء بالمتناقضات ! . أليس من الصلف الحكم هكذا على كتاب دون معرفة اللغة المكتوب بها ودون إدراك لروح قوانينه ، وفكر مشرعه ، والظروف التى أمليت فيها آياته . هل يمكن على سبيل المثال تقييم قانون نابليون دون مراجعة النصوص المتضمنة مناقشة مواده والفكر الذى ساعد على اقراره ؟ .

إن التناقضات التى تصدم الأوروبيين ليست إلا ظاهرية ، إنها لا تبدو كذلك لمن يعرف أسرار كتابنا المقدس . غير أن تفاسير القرآن هى التى تتضمن أحيانا بعض التناقضات . وذلك شىء لا مفر منه . وقد حدث يوما أن شب نقاش بين عمر وابن عباس حول الخلافات التى يمكن أن تنشب فيما بعد بين المسلمين على طريقة فهم أنظمة القرآن . وقد دهش عمر وسأل صديقه كيف يمكن لقوم نبيهم واحد أن يفهموا القرآن بطرق مختلفة ؟ . فأجابه ابن عباس الحكيم قائلا : « يا أمير المؤمنين . لقد ظهر بيننا القرآن ، وقرأناه ونحن نعرف سبب نزول آياته والظروف التى أملتها . غير أن أقواما سيأتون بعدنا وسيقرؤونه ولا يعرفون أسرار آياته وستكون لهم بالتالى آراء مختلفة ، وسوف ينقسمون ويتقاتلون » . ويستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد كانت دينية بأقل مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبى ببساطة إصلاح المسيحية بإنقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير ، كما أراد إدانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والاغريقية ، ولو عدنا إلى ما كانت عليه المسيحية ، لحظة ظهور النبى لرأينا أن قواعدها الأساسية كانت موضع جدل ، كما كانت المجامع الدينية ترفض ألوهية يسوع تارة ، وتقرها تارة أخرى ، وكذلك كانت تناقش ألوهية الروح القدس ، وطبيعة يسوع ، وهل كانت إلهية خالصة ؟ أو بشرية ؟ أو خليطا منهما ؟ .

كانت المسيحية قد ألغت العقل البشرى ، فكان أهم ممثلى الكنيسة يقولون : « آمنوا ولا تجادلوا » وكانت قد أعلت من قدر احتقار الثراء إلى حد تحريك الاعجاب به . وكان الدين غير مفهوم من عامة الناس . وكان يحض على عدم الزواج ، وعلى تعذيب الجسد ويقف بهذا موقف العداء من الطبيعة البشرية . وكان أداة مؤامرات ومقر ظلمات ودسائس . وكان خليطا رهيبا من أفكار طيبة وشريرة ، ومزيجا من نظم غير متناسقة . ومركبًا من نظريات غير متماسكة ، فى صراع مع العقل والسلطة والطبيعة . كانت شيئًا رهيبًا بلا معنى . ومجموعة من التناقضات ، ونسيجا من المستحيلات . كل هذا كان قائمًا ، باعتراف أشد الرجال مسيحية

وضد هذا الوضع القائم قام رجل من الجزيرة العربية ليعلى صوت العقل وحسن الأدراك . من كان هذا الرجل ؟ على هذا السؤال يجيب دوق داركور : إنه دجال وفاسد ، وطالب متعة ! هل تعتقد يا سيدى الدوق حقا ما تقوله هذا ؟ .

انك تقول : انه كان يحب النساء ، وكانت له زوجات عديدات .

وأنا أجيبك بأن جميع هذه الزيجات قد أملتها احتياجات سياسية ، ضمنت له عون الاسر التى صاهرها ، هل كان يمكن لطالب متعة أن يتزوج من طفلة ذات تسعة أعوام ، أو سيدة فى الخمسين ، أو زنجية أو امرأة رهيبة الدمامة ؟ لقد تزوج محمد من هؤلاء النساء الاربعة . وهل كانت قناعته التى تجعله أحيانا يكتفى فى وجبته بحفنة تمر تتلاءم مع مزاج رجل شغوف بالمتعة ؟ .

هل يمكن أن نتصور ، بشكل جاد ، ان يجد هذا الرجل الذى حمل مهمة اصلاح الدين والعادات وقوانين العالم كله ، والذى حقق بالفعل هذا العمل العملاق ، أن يجد الوقت لكى يعيش حياة صعلوك باريسى ؟ . هل يمكن أن نشك فى أن أيا من باستير[١٨٧] أو ليتريه أو هوجو[١٨٨] أو اديسون[١٨٩] قد عرف حياة الفساد ؟ انه لا يمكن ان نتصور فى أية حالة من الحالات انهم حشدوا فى بيوتهم مائة امرأة . ثم ألا يفوق العمل الذى حققه محمد من وجهتى النظر الدينية والسياسية ، فى عظمته وفيما لاقاه من صعاب وما حققه من نتائج ، كل ما أفرزه العقل البشرى فى الماضى والحاضر؟ .

صحيح ان محمدا قال ـ كما نقل دوق داركور ـ « انه يحب النساء » ولكن من الخطأ أن يستخلص المرء من هذه العبارة أنه كان يحب النساء من أجل أجسادهن . لقد كان يحبهن كما يحب الصلاة . لأنه جمع بين الاثنين ومنحهما نفس الحب[١٩٠] .

---

(١٨٧) لويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥ م) كيماوى فرنسى . كانت لأبحاثه الكيمائية نتائج بارزة فى حل كثير من المشكلات الطبية .. واليه تنسب فكرة «البسترة» .. كما أن أبحاثه وتجاربه كانت الاساس العلمى الذى غير الاعتقاد بالتولد الذاتى .

(١٨٨) فكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ م) من اشهر ادباء فرنسا فى القرن التاسع عشر.. كتب الرواية والشعر والمسرحية .. وتعد رائعته (البؤساء) من الأعمال الادبية الفذة .. ولقد حول بعض الموسيقيين بعض أعماله إلى «اوبرات» .

(١٨٩) جوزيف اديسون (١٦٧٢ ـ ١٧١٩ م) شاعر وسياسى انجليزى . اشتهر ككاتب مقالات .. وهو معدود من رواد المقالة الاجتماعية فى الأدب الانجليزى .

(١٩٠) ذلك أن الحديث النبوى يقول : «حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» .

انه نوع من الود والتعاطف النقى ، نابع من الاحترام والتقدير والرعاية ، وأستطيع من وجهة النظر هذه أن أقول : ان محمدا أحب النساء كثيرا .

كانت المرأة عند العرب الوثنيين متاعا خسيسا ، يستخدمه الرجل ويسيء استخدامه على هواه ، وغالبا ماكانت الأنثى تدفن حية ساعة ميلادها . وقد حرر محمد المرأة وفرض احترام حياتها التى كانت تهددها الأخطار ، واعاد إليها الحقوق المسلوبة ، كانت إحدى وصاياه الأولى : «اتقوا الله فى معاملة الضعيفين : المرأة واليتيم» وعلى هذه الصورة يرى المسلمون حب نبيهم للمرأة .

ولم ير الأسقفى[١٩١] فى كتابه (فؤاد الأكبر) كما لم يفسر أبو إسحاق الشاطبى[١٩٢] فى كتابه عن روح القوانين المسمى (الموافقات) هذا الحديث بغير ذلك . وقد اتفقنا على إبعاد فكرة المتعة عن قصد الرسول فى حديثه ، ثم إن هناك نهجًا فى التفسير وتشابكات فى الاتجاهات المختلفة للكلمات لا يستطيع الأجنبى إدراكها .

ولا يتوقف دوق داركور عند هذا الحد ، بل انه فى سبيله لتبرير الفزع الذى توحى له به حياة محمد ، يسوق قصة السبعمائة قرشى الذين أسروا بناء على أمر النبى ، فى حين انه حدث تافه فى قصص الحروب ، ثم انه له اعذاره ومبرراته بين أكثر الدوافع شرعية ، وحين نرجع الى هذه الحقبة ، ونرى الدسائس والمؤامرات والجرائم التى حاكتها ودبرتها هذه القبيلة ضد شخص النبى من أجل خنق الدين الجديد ، وهو فى ايامه الاولى ، لا نملك إلا أن نحكم بأنه لولا هذا العمل الحاسم من جانب محمد لقضى على الدين فى مهده .

هل كان على محمد أن يضحى من اجل اليهود البؤساء بحياته وفكره ، أى بكل ماكان

---

(١٩١) ليس فى الاعلام الذين بحثنا فى موسوعاتهم اسم «الاسقفى» كما لم نجد فى مصنفات الكتب واسمائها - مثل (كشف الظنون) و (هدية العارفين) و (معجم المطبوعات العربية والمعربة) الخ .. الخ كتابا عنوانه (فؤاد الأكبر) .. وهناك احتمال أن يكون مراد المؤلف : «الاسكافى» وليس «الاسقفى» .. وهناك ثلاث من الاعلام يحملون لقب «الاسكافى» أولهم : الاسكافى ، المعتزلى : محمد بن عبدالله (المتوفى سنة ٢٤٠ هـ) و : الاسكافى ، الشيعى : (ابن الجنيد) محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٣٨١ هـ) و : الاسكافى : عالم اللغة . والادب ، والسياسة ، والتفسير : «الخطيب» محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٤٢٠ هـ) . ولعل الاسكافى الاخير أن يكون هو المراد .

(١٩٢) أبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى ، الشهير بالشاطبى (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ سنة ١٣٨٨ م) . اندلسى . مالكى ، من الحفاظ وعلماء الأصول . وكتابه الذى يشير إليه المؤلف هو (الموافقات فى أصول الفقه) .

يعده لوطنه وللبشرية من عظمة ورخاء ومستقبل مشرق؟ أو لم يكن فكره ينطوى على فضائل وطنية وانسانية؟ وهل يمكن قيام ثورة كبرى دون أن تسيل بعض الدماء؟ أو لم يحدث للصليب فى جيوش قسطنطين أن أضحى بيرق معارك دامية، كما أصبح المسيح العطوف الها للحرب؟ وهل غطى النسيان مسيحية القرون الوسطى العسكرية؟.

نعم، لقد حارب المسلمون الكفار. غير أن هذا لم يحدث أبدا لارغامهم على الإيمان وإنما كان ذلك من أجل تحقيق فتوحات وانتصارات، وهو ما فعلته جميع الشعوب. أولا يحدث حتى اليوم أن تحارب أوروبا المتحضرة شعوبا عزلاء، بدعوى تطويرها إلى المستوى الحضارى؟ إن التاريخ المنصف شاهد بأن المسلمين لم يقوموا قط بأعمال عنف مقصودة ولم يُنَصِّبُوا سفَّاحـا ولم يعذبوا مسيحيا أو يهوديا، بل على العكس من ذلك. لقد تركوا الأجناس التى غزوا بلادهم محتفظين بعقيدتهم وعاداتهم، وعبروا عن كرمهم بإشراكهم فى حكم بلادهم، وما تزال هذه التقاليد باقية حتى اليوم فى تركيا.

إننا نهيب بكم أن تحكموا دون تحيز مسبق. افصلوا العمل الدينى عن العمل السياسى

وسوف تجدون ان أولها قد قام دون سوء ودون اكراه ودون عنف، وسط جو من حرية الضمير المطلقة، وانه اذا كان ثانيهما قد سال معه بعض الدم فإن السبب الذى اقتضى ذلك لم يكن اقل عدالة ولا نفعا من السبب الذى حارب من أجله الاسكندر ونابليون، والذى يجعل أوروبا اليوم فى حالة تسلح دائم.

ولأقل ـ قبل الفراغ من هذا الجزء النظرى عن الدين ـ بضع كلمات عن القدرية الاسلامية: (١٩٣).

لقد تصور البعض خطأ أن المسلمين يعدون انفسهم كائنات مسلوبة كل حرية وينتظرون ان ينزل عليهم من السماء شواء من الطيور!.

وذلك خطأ واضح. والجملة التى يكررها المسلمون كثيرا «ان شاء الله» لا تثبت شيئا من ذلك وليست إلا ترجمة حرفية للعبارة الشائعة عند المسيحيين «اذا أعجب ذلك الرب».

---

(١٩٣) مراد المؤلف «بالقدرية»: «الجبرية».. وهذا التنبيه ضرورى، لان مصطلح «القدرية» يطلق تارة على القائلين «بالجبر» وتارة على القائلين «بالاختيار والحرية».. ولتفصيل ذلك انظر كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية» طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

إن حرية الإنسان ثابتة فى القرآن بطريقة حاسمة . تؤكد ذلك الآيات التى سبق أن ذكرتها وكثير غيرها .

فحين يقول الله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[١٩٤] . وحين يقول : « وجعلنا لكل شيء سببا »[١٩٥] . وحين يقول ايضا : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١٩٦] ، فإنه يقيم فى وضوح ارتباط الاسباب بالمسببات ، وتعليق الآثار على الأسباب . أليس هذا هو المنهج الذى بدأه أوجست كونت[١٩٧] وطوره ليتريه ؟ .

غير ان من المؤكد ان الانسان ليس مطلق الحرية . فهناك أسباب عديدة تحد من حريته ، كالمناخ والتربية والوسط ، وبخاصة الوراثة الغامضة القوية الاثر . وهذه الاسباب الأكيدة تحدث بطريقة حتمية آثارا أكيدة .

فالقدر هو الذى يريد ان يولد ابن المجنون وفيه جرثومة الجنون ، ولا تستطيع حرية الإنسان كلها أن تفعل شيئًا فى ذلك . هناك أيضا المصادفات ، والأشياء غير المتوقعة ومجموعة من الظروف الملائمة أو المعاكسة ، ولكنها تترك أثرها على تصرفات الانسان . ان كل هذا هو ما يشكل القدر عند المسلم . فالقدر هو المجهول ، هو الصدفة ، هو الحظ ، هو السر المحجوب ، هو كل ما لا يمكن للمرء أن يحسبه أو يتوقعه أو يريده أو يمنعه ، هو الذى يجعل ميكروبا يقتلنى بدلا من جارى ، ويجعل حجرا يسقط فوق رأس برىء يعبر الطريق . ومن المسلم به اذن ، ان القدر لا يمكن ابدا ان يحول بين الناس وبين أن يعملوا ويتوقعوا . وعلى المرء أن يبذل كل ما فى وسعه ، ثم يترك ما وراء ذلك للقدر .

ولعل من المفيد أن نذكر هنا قصة عربى ترك ناقته دون أن يشد وثاقها أمام المسجد ثم دخل المسجد وقال للنبى « تركت ناقتى فى حراسة الله » ، فقال له النبى : « اذهب فاعقلها أولاً ثم توكل على الله » ، كما أذكر أيضا حديث محمد القائل : « تداووا عباد الله ، فإن الله

---

(١٩٤) الزلزلة : ٧ .

(١٩٥) سبقت اشارتنا إلى أنه ليست بالقرآن آية بهذا اللفظ ، وهناك آية (وآتيناه من كل شيء سببا) : الكهف : ٨٤ .

(١٩٦) الرعد : ١١ .

(١٩٧) اوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧ م) فيلسوف فرنسى ، يرجع اليه تأسيس الفلسفة الوضعية التى تريد تأسيس الفلسفة والفكر على المشاهدة ونتائج العلوم الطبيعية بدلا من الخوارق والمبادئ المجردة .

تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم » .

على أنى أعتقد فى النهاية أن القدرية توجد بنسب متفاوتة فى جميع الأديان ، بما فيها المسيحية ، ألم يقل لوثر[198] نفسه ، وهو مصلح المسيحية : «إن الأعداد الأفضل والتهيؤ الأوحد لتلقى فضل الرب هما الاختيار الأزلى والقدر الذى قضى به الرب الخالد إلى الأبد ان العبادة لا تكفى للظفر بالخلاص . وهى لذلك لا نفع فيها . وإرادة الإنسان أسيرة ، والله وحده هو الذى يملك انقاذنا » .

واعتقد ان جميع الناس قدريون ، على هذه الصورة ، كما أزعم أن هذه القدرية بدلا من ان تكون مصدر تكاسل ، انما تمثل فى رأيى حافزا على العمل ، وعلى هذا النحو أفهم قدرية رجال عرفوا بالدأب والنشاط ، وبخاصة نابليون .

يحسن ، فى بداية ظهور الدين ، دراسة المبادئ التى ألهمته ولم يطوها الزمن بعد ليعرف المرء قيمتها الحقيقية . وقد رأينا العرب الاوائل يندفعون ـ تحت تأثير الاسلام ـ الى العلوم والآداب اندفاع الجوعى . ويطوفون انحاء العالم كلها عاملين بالصناعة والتجارة ويصبحون بعد أقل من قرن سادة جزء كبير من العالم .

وإننى أسأل دوق داركور عمن أحدث هذه الحركة الفريدة من النشاطين المادى والفكرى ، إذا لم يكن الدين الجديد ؟ لقد ظهرت فى تاريخ العرب فترة طويلة من التألق . وهذا شىء لا يمكن نكرانه . كما ظهر عدد من العلماء الذين جاءتنا أسماؤهم ومؤلفاتهم التى عالجت جميع فروع المعرفة الإنسانية والتى تكشف عن قدرات فذة . وهذا أيضا لا يمكن نكرانه . مهما قال دوق داركور .

تقبل الإسلام جميع الاصلاحات والتجديدات بعد أن طبعها بطابعه . وقد بين علماؤنا وسائل هذا التقبل وأعلنوا أن كل شىء يجب أن يتغير تبعًا للأزمنة والأمكنة ، وليس هذا مكان بسط هذه الوسائل . لكنها موجودة بالفعل ، ولست أعرف حقًا لماذا لا يستخدمها

---

(١٩٨) مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) زعيم الاصلاح الدينى البروتستانتى .. وهو ألمانى ، أطلق لفظ «اللوثرية» على نهجه فى الاصلاح الدينى .. وتعد تعاليمه ثورة فى الفكر الكنسى الكاثوليكى فتحت الطريق أمام سيادة مفهوم البورجوازية الأوروبية عن دور الكنيسة ، على حين كانت الكاثوليكية ـ على عهده ـ مؤسسة تكرس نفسها فى خدمة الاقطاع . وفى «اللوثرية» آثار أفكار أسلامية اكتسبتها أوروبا من الشرق كثمرة لاحتكاكها به فى الحروب الصليبية ومن جامعات الاندلس بالمغرب .

مسلمو اليوم فى الترقى والتطور ؟ . إن للمسلم أفكارًا عن كل شىء تختلف عن أفكار الأوروبى عن هذه الأشياء ، حتى أن ما يلائم أحدهما لا يلائم الثانى إلا نادرًا . ثم إن الشىء النافع والطيب يمكن أن يتشكل فى صور عدة . وإذا كانت توجد اليوم حضارة إسلامية خالصة إلى جانب الحضارة الأوروبية ، فإن الأصالة هى الظافرة .

ولكن كيف حدث أن الإسلام الذى بدأ شديد الخصوبة أضحى دفعة واحدة عقيما هكذا ؟ هل حدث له تغير؟ إن دوق داركور لا يذهب إلى حد إدعاء كهذا ! وإننى أؤكد أن الدين الإسلامى لا يمكن أن يتغير أبدا . لقد بقيت قاعدته الأساسية هى نفسها دائما اليوم كالأمس ، فالمسلم هو من آمن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسوله .

وقرآن الأمس هو نفسه قرآن اليوم . لم يضف إليه حرف ولم يحذف منه حرف . غير أنه إذا كان الدين لم يتغير البتة ، فإن الناس قد تغيروا تغيرًا رهيبًا . والواقع إنى أتساءل : هل مازال مسلمو اليوم مسلمين حقًا ؟ إنه يصعب على تصديق ذلك . وهل هناك شىء مشترك بين الإسلام وبين اللامبالاة والانقسامات والحسد والتهاون والكسل والجهل والخرافات التى نراها منتشرة بين المصريين الذين مازالوا محرومين من التعليم والذين يعيشون فى الواقع بعيدين عن مبادئ ديننا الرائع ؟ وهل كان ديننا هو الذى فتح الملاهى وأدخل الربا حتى أعماق الريف ؟ . وهل الإسلام هو الذى أوحى إلى علمائنا أن ينظروا إلى الرياضيات والجغرافيا والكيمياء والفيزياء والفلك على أنها علوم خطرة وملحدة ؟ هل كان الإسلام هو الذى طلب إلى شعب مصر أن يسلموا أنفسهم وأموالهم إلى رؤساء متسلطين واستبداديين؟ وهل يقبل الإسلام تبجيل أحمق ؟ وهل يبيح الإسلام للرجل أن يهجر زوجه وأطفاله من أجل إشباع شهية وقحة ؟ وهل يرضى الإسلام عن القذى والقذارة يدنسان كل شىء حتى مساجدنا ؟ نعم لقد تغير الناس بوقوعهم تحت تأثير رؤساء فاسدين ، وعلى أثر سلسلة من السيادة الأجنبية كل منها أكثر وحشية ودكتاتورية من الأخرى ، فأخذ الناس يفسدون شيئًا فشيئًا فاقدين كل يوم بعضا من فضائلهم ، وآخذين مكانها النقائص والعيوب .

لقد أهملت العلوم والفنون شيئا فشيئا حتى صار الجهل المطلق سيد العقول جميعا وحينئذ انبثقت من كل جانب أبشع الخرافات ، وأصبح الدين نفسه مجرد عبارات وإشارات وتمتمة كلمات ، بدلاً من أن يكون هادى النفوس ومنارة الطريق ومنطلق جميع التصرفات .

ولعل هذا هو الذى يفسر بدقة سبب التدهور الذى حاق بالمسلمين . وانى أقرر أن المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسى اسلامى ، وبخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم

متطابقتين مع الاخلاقيات والوصايا الاسلامية ، التى بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها .

ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم الاسلامى لوضعت اهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك .

ومهما يكن من شىء فيجب ان نلاحظ ان الدين الاسلامى لم يبتعد قط عن دستوره الاول الذى تشكل فيه منذ يومه الاول . كما حدث مع المسيحية ، التى تحول فكرها عن أصوله فى القرون الوسطى كما فى ايامنا هذه . فعصمة الباباوات ورهبانية القسيس والاعتراف وبيع الغفران عن الخطايا السابقة ، والتراتيل الغنائية والاضواء والتصاوير والزخارف والازياء المهرجانية كلها إضافات أقحمها رجال الكنيسة على الدين المسيحى . وقد كان الإصلاح الذى قام به لوثر وكالفان[199] هو الذى أنقذ الفكر المسيحى والمسيحية التى كان يهددها باباوات لم يكونوا يتحرجون من السخرية بخرافة المسيح والذين كانوا يمرغون الدين فى الوحل بسلوكهم المشين .

على أن المسلمين يؤمنون بوحدة دينهم مع الدين المسيحى وأن بعثة محمد كانت تستهدف اصلاح الفساد الذى شوه الدين ، وذلك هو السر فى أن المسلمين لن يهتزوا بعناصر الجمال فى المسيحية طالما انها لم تتخلص تماما مما لحق بها من تشويهات .

لقد لاحظ جميع المراقبين أن المسلمين لا يتجاوبون مع المسيحية ، وهو ما يحنق دوق داركور ، فيهرع للتخفف من توتره العصبى الى التهجم من جديد على المسلمين مدعيا انهم اعداء الحقيقة . وانهم فاسدون الى حد يستحيل معه أن يؤثر فيهم أى شىء .

لنضع جانبًا هذه التفسيرات المغامرة ، وهذه الأفكار الخرافية ، ولتأذنوا لى فى أن أقول لكم : ان التجربة اكتملت اليوم ، وهناك وقائع لا يمكن دحضها تثبت أن الإسلام يحرز كل يوم تقدما . وسط الشعوب البدائية بنفس القدر الذى يحرزه بين أكثر الشعوب تطورًا . ويحدث هذا دون استخدام أسلحة ودون توزيع نقود ، ودون إرسال مبشرين ، فى حين أن الدين المسيحى الذى زيفه قسسكم ، وطعن فى وطنه باسم العلم والسياسة ، يحاول الآن عبثًا أن يأخذ ثأرًا متواضعًا ، فى أكثر مناطق العالم بربرية وعزلة .

---

(١٩٩) جون كلفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤ م) لاهوتى فرنسى ، تحول عن الكاثوليكية إلى البروتستانتية وأصبح من كبار دعاتها . ولقد أودع أفكاره الرئيسية كتابه (أنظمة الدين المسيحى) .. ولقد مارس كلفن نشاطه فى سويسرا ، وتبلور له تيار فى الكنيسة يعرف بالمذهب الكلفنى ، تميز عن «اللوثرية» كما اختلف عن المذهب الكثوليكى .

كم أود أن همس لدوق داركور بسر هذا اللغز وأقول له : ان الامر يكمن فى أن الذكاء البسيط يستطيع دائما أن يدرك أحد هذين الدينين ، فى حين أن أعظم عقل لا يقوى على فهم الدين الآخر .

* * *

الأخـــلاق

يختلف الحس الخلقى عند الأفراد باختلاف تربيتهم ودينهم وتقاليدهم . ولست أومن ـ كما تلقنت ـ بوجود قيم خلقية واحدة فى جميع بلاد العالم . وتكشف المراقبة ، مهما كانت سطحية لأخلاق الناس وضمائرهم فى البلاد المختلفة عن وجود تنوع هائل فى هذا المجال . وهكذا نجد أن كلا من آكلى لحم البشر والنباتى والهوتنتى (بجنوب أفريقيا) والإنجليزى واليهودى والبوذى يفهم الأخلاق ويمارسها بطريقة مختلفة عن الآخرين . بل إننا نلتقى فى نفس المجتمع الواحد بمفاهيم مختلفة عن الأخلاق عند أفراد هذا المجتمع ، حتى لنرى الملكية التى يعدها الرأسمالى حقًا مقدسًا هى مجرد سرقة عند رافاكول[٢٠٠] (Ravachol) .

وينادى المسلمون بآراء فى الاخلاقيات تختلف أحيانا عن آراء المسيحيين ، كما ينظرون الى الحياة نظرة تخالف نظرتهم :

فالمسلم أولا لا ينتظر سعادته فى هذه الحياة ، ان له ، أيا كان فكره ، عالما خياليا تذهب اليه أحلامه طواعية ، ويفضله على الواقع مهما كان ساحرا ، فهو عامة لا يبالى كثيرا بكل ما يجتذب الاوروبى ويستحوذ على مشاعره . واذا كانت الاطعمة الفاخرة والعروض السحرية الجذابة واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانا كبيرا فى حياة الغربيين ، فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم .

وكما ان المسلم عامة لا يقدر السعادة التى يبحث غيره عنها فى هذا العالم . فإنه لا يؤمن بإمكان تحققها على الارض . ومن هنا يعتكف فى عالم أحلامه التى تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره ، عزوفا عن الثروة وألقاب التكريم ، ومنابع اللذة التى يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم . وهذا ما يجعله يبدو دائما جادا صموتا سوداوى المزاج .

---

(٢٠٠) لم نعثر فى أعلام الاشتراكية على اسم «رافاكول» أو «رافاشول» ..

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ، ومساءلته عن وسائل الاداء . ويهرب من العالم لانه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر ولا يهوى كثرة الكسب حرصا على ضمان شرف الوسائل ، بل هو فى الواقع يحمل احتقارا عميقا لهذا المعدن الخسيس . ولعله لهذا ينفقه دون ندم ، وقد ضاعت ثروات كثرة من المسلمين فى اندفاعهم لنجدة أقرانهم ، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود .. وإذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا ، فلست أعرف مسلما واحدًا يقرض ويأخذ ربا على ذلك ، ولعل الشيء الذى لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى فى اللذة الجنسية إلا إشباعًا سفيها لاحدى الحاجات الجسدية ، حتى أن فنون الهوى التى أبدعها العشاق العباقرة والتى يهيم بها الغربيون لا تحدث أثرًا فى نفوس المسلمين الأنقياء . ومادمت قد بلغت هذه النقطة الخطرة فلأكمل الصورة بأن أقول إن أشد المسلمين مجونًا لا يمكن أن يستسلم للفحش كل الاستسلام ، بل إن قدرًا من الحياء يحفظه دائمًا من أن يهوى فى القاع .

إذا كان أحد الشعراء يقول : «فى قلب كل رجل خنزير يغفو» فإن هذا يصدق بخاصة فى مصر . حيث توجد أنواع من الفساد يبغضها المسلم ، ودسائس وحيل لا يرضى المسلم عنها .

وهكذا نرى أن المسلم ـ بعامة ـ طاهر الذيل ، فإن حدث وجنح إلى الملاذ ، لم يتعد القوانين الطبيعية .

كيف حدث إذن ان ذهب دوق داركور إلى حد الادعاء بأن الإسلام يشجع على الملاذ والاستمتاع بكل ما يحتدم فى نفوسنا من عواطف وأشواق ، مستثنيا من ذلك البطنة والنهم . فأفاض فى الحديث عن الشبق والفحش والانحلال دون أن يذكر لنا أين رأى ذلك ، ونحن نعلم أن الشرقى الذى يزور أوروبا مرة ، يعود منها دون شك مسحور اللب بأنواع الجمال التى تبثها الحضارة الجبارة فى كل أنحاء البلاد ، غير أن هذا الاعجاب يختلط دائمًا بإحساس بالنفور تثيره فى نفسه أوضاع التحلل الخلقى والانحلال والضلال المنتشرة فى كل مكان . كما أن الأوروبى الذى يزور بلدًا مسلمًا كثيرًا ما يشكو من نقص وسائل المتعة فيه ! .

وتكشف الاحصاءات الفرنسية عن أن نسبة واحد وأربعين فى المائة من نساء الهوى المعروفات رسميًا قاصرات ، وأن أكثر من ربع المواليد المعروفين أبناء غير شرعيين ، وأن المجتمع يفقد كل عام مائة وخمسين ألف طفل يقتلون ساعة ولادتهم أو خلال الحمل ، ومن الطبيعى ألا تتعرض الاحصاءات إلا لحالات الاجهاض وقتل الأطفال التى اكتشف أمرها وحققت

فيها السلطات ولهذا فالواجب أن يصل العدد الحقيق إلى خمسمائة ألف طفل ، « لأن الابن غير الشرعى لا يفلت من الموت إلا بمعجزة » حسب تعبير الكاتب الكبير : جيل سيمون . أفلا تؤكد هذه الأرقام وجود حالة حادة من التفسخ ؟ ثم إنكم تتهموننا بأننا أبقينا على الرق حتى وقت قريب ، فى حين إنه ما تزال لديكم تجارة رقيق أبيض بكل بشاعتها . وقد كشف عن هذه التجارة عديد من الصحف والكتاب من جميع بلاد العالم مما لا جدوى لتكراره هنا .

موجز القول ان عشاق المتع فى أوروبا أبعد ما يكونون عن الاندثار ، بل على العكس من ذلك ، فهناك عدد كبير من الرجال الذين لا هم لهم إلا الاستمتاع بكل شىء وبكل الوسائل . بل ان منهم من يزهو بكثرة ما شاهد ومارس ، حتى لم يعد هناك ما يثير حواسه ، والى جانب هؤلاء المللولين يوجد مجانين الملاذ الذين لا يشبعون ، والفسقة الفاجرون ، كما توجد نساء لم يعدن يرغبن فى الاستمرار فى أداء مهمة انجاب الاطفال واصبحن يفضلن التألق فى المجتمعات .

ولنتأمل الصورة : لقد اخترعتم آلات حربية تقضى على آلاف الرجال فى ثوان قليلة واجهزة تختصر المسافات ، وتكتلات مالية تعطى الفرد ، وتسلبه بخاصة ، آلاف الفرنكات فى اقل من اربع وعشرين ساعة ، وقد وجدتم مبادئ رائعة لحكم البشر ، وتدرسون فى معاهدكم نظريات جميلة عن الاخلاق ، فهل نجحتم فى جعل مواطنيكم رجالا أفضل ؟ انى أشك فى ذلك . ألا نجد فى واقعكم ان الاخلاق ليست بالنسبة للاكثرية مسألة التزام بالطيبة ، بل بالخوف من الشرطة ومن مواد قانون العقوبات ؟ .

نعم ان فى أوربا شرا كبيرا ، وليس فى هذا ما يعد غريبا . لقد تركزت الحضارة حتى اليوم فى اشاعة النور وازاحة الفضيلة ، وأهملت تربية النفوس ، وهدمت العقائد القديمة ، والخرافات التى كانت تشيع العزاء والاحلام التى لم تكن تزيد الحياة بهاء فحسب ، بل كانت كذلك تسكن جموح العواطف وتمسك بزمام التطلعات ، لقد علمت الناس ان السماء خاوية وأن الأرض هى الفردوس الممكن الوحيد ، وأن الإنسان سليل القرود وأن الحكمة تكمن فى إشباع الرغبة . وإلى جانب ذلك الكثير من كلمات الاخوة والاحسان والواجب ، والتضحية ، مما يهدف الى التأثير فى السذج وخداع براءتهم خلال الخطب الجماهيرية .

والحق ان المسلم يقف حائرا اذا طلب اليه ان يتحدث طوال ساعة كاملة عن الاخلاق ، لأن التفانى فى خدمة الآخرين لا يمثل بالنسبة له موضوعا علميا . بل هو شىء يجرى فى دمه ، حتى ان جميع السائحين يدهشون من رقة القلوب التى تميز المجتمعات الاسلامية ، والامانة والكرم والطيبة السائدة فى الشعب التركى وعند العرب هى مضرب الامثال . والنساء لا يجرحن صديقاتهن

الجميلات ، والرجال لا يبعثون بخطابات « بلا توقيع » لهدم بيوت الآخرين . فنى هذه المجتمعات يتحاب الناس حقا ، ومن الضرورى أن يشهد المرء بنفسه تلك الطيبة الرائعة التى يتعاملون بها . فكل ذلك نابع من القلب ، وهو ما يحسه كذلك القلب . والارتباط بين اثنين لا يقوم على اساس ان احدهما يمكن أن يكون مصدر نفع للآخر فى حاضره أو فى مستقبله . ولا لأن أحدهما مسل ومضحك ، بل لأن كل واحد منهما يحب الآخر من أعماق قلبه حبًا متبادلاً .

إننى أعرف للأسف أن هذه العواطف الجميلة فى طريق الاختفاء ، فحيث تنفذ أوروبا تعمل على مطاردة هذه العواطف بكل قسوة . ولست أنا الذى أجرؤ على أن أكون أول قائل بذلك . فقد قرأت كتابين هامين عن تركيا أحدهما هو (مرض الشرق) والثانى هو (تركيا الرسمية) وفى هذين الكتابين اللذين لا يمكن اتهامهما بالتحيز للأتراك نجد القول صريحًا بأن المسيحيين هم الذين أفسدوا المسلمين . وذلك أيضا إحساس كثرة من الأوروبيين من أصدقائى فالذين أدخلوا الرذيلة إلى بلاد المسلمين هم اللصوص والمزيفون وقطاع الطرق والمتعاملون بالربا وأساطين الغناء وأصحاب علب الليل والأفاقون من بين الشرقيين والأوروبيين . وقد تعلموا الكذب والتزوير والسرقة ليدافعوا عن أموالهم وحياتهم ضد هجمات المسيحيين .

يسجل دوق داركور محادثة اجراها مع احد رجال القضاء تكشف عن ان الفلاح لا يعرف غير نقيصة الكذب واستخدام شهود الزور فى الدفاع عن نفسه حين يساق الى المحاكم ، ومع صدق هذا فإننا نتساءل عمن يقع عليه وزر ذلك ، أليس على عاتق المرابين والمزورين الاجانب الذين استخدموا جميع المؤامرات والحيل وأساليب الغش والخداع والتدليس لتجريد الفلاحين من أراضيهم ؟ .

والذى يزيدنى تمسكا برؤيتى انى وجدت شخصية بارزة تشاركنى فيها ، وهى شخصية رجل شغل منصب قاض بالمحكمة المختلطة لعدة سنوات وهو مؤلف كتاب شهير صدر فى مجلدين بعنوان (مصر وأوروبا) . وسوف أضع هنا رأيه عن صدق المصريين فى مقابلة رأى هذا القانونى الذى تحدث معه دوق داركور .

يقول مؤلف (مصر وأوروبا) فى صفحة ٥٥ من الجزء الأول : « من المستحيل معرفة المصريين المسلمين المتحضرين دون أخذ انطباع طيب عن صدقهم ، ولا نستطيع القول بأنهم سريعو التآلف والتصارح ، وبخاصة فى علاقتهم مع الأوروبيين ، ذلك أنهم نشئوا على أن يكونوا متحفظين . وهم محقون تمامًا فى تفضيلهم الصمت على الكلمة المغامرة . غير أنهم ليسوا

كاذبين ولا مخادعين . سواء كان ذلك فى صالحهم أو فى غير صالحهم . إن طبيعتهم وتدينهم يؤججان فى نفوسهم الخوف من الكذب » .

« ويتجلى الاحساس بالصدق عند الطبقات العليا أكثر تطورا بعامة منه فى الشعب غير المتحضر ، ولا يختلف الامر فى مصر عن هذه القاعدة العامة . غير انه لا يمكن القول بأن الفلاحين أو المصريين الفقراء فى المدن أكثر كذبا أو أقل صدقا من فلاحى أوروبا وفقراء مدنها غير المتحضرين . حقا ان من الواجب استثناء الذين فسدوا فى خدمة الاوروبيين أو الاجانب الشرقيين ، يعنى فى خدمة أناس غير مسلمين يعيشون فى بذخ كريه دون حرص على احترامهم ويعاملون خدمهم المسلمين فى قسوة أو فى ازدراء بهم ، وهؤلاء الخدم لا يعترفون بالحقيقة ابدا عما يدفعونه من نفقات ، ويكذبون دون احساس بالندم لكى يفلتوا من العقاب عند المساءلة . وكذلك يفعل الفلاحون الذين عانوا كثيرا من المرابين وغيرهم من الأجانب الذين يستغلونهم تحت حماية قناصلهم ، فإنهم يكفون عن قول الصدق خلال علاقاتهم مع الاوروبيين واليونانيين والشرقيين ، وحين يظهرون أمام المحاكم المختلطة التى لا توحى اليهم بأية ثقة . ومع ذلك يجب أن نعترف ـ بعد هذا التحفظ ـ أن الفلاحين بعامة صادقون فى أحاديثهم وفى اعترافاتهم امام القضاء . وفى هذا المجال فإن خبرة المحاكم المختلطة تشهد فى صالحهم بدلا من اثبات عكس ذلك » .

أو لم يسمع دوق داركور عن أن عددا كبيرا من الثروات قد جمعها مسيحيون بأكثر الوسائل خسة ؟ واذا كان قد سمع بذلك ، فلماذا لم يعلنه ؟ واذا لم يكن قد سمع فسوف يصيبنى هذا بدهشة بالغة من رجل قد زار مصر ثلاث مرات .

هل تفهمون الآن لماذا لا يتردد المصرى فى سرقة محصول أوروبى أو تدميره اذا وجد الفرصة لذلك ؟ انه يأخذ ثأره ببساطة . وهو يعتقد ، بجهله ، ان جميع المسيحيين متماثلون ، ولا يفرق بينهم .

كما اننا نجد جميع الصفات الجميلة التى تحدثت عنها عند المسلمين فى القرى التركية أو المصرية التى لم يدخلها المسيحيون (الاوروبيون) .

ويزعم دوق داركور ان المسلم حين يؤدى بعض الطقوس ويتلو بعض الصيغ الموصى بها يظن انه قد أرضى الله وأرضى ضميره وتحرر من كل شىء . واننى أكرر نفس سؤالى الابدى : من أين عرف دوق داركور هذا ؟ .

كيف يقال انه ليس عندنا اخلاق ؟ وانه يكفينا ان نؤدى الصلاة والصيام والزكاة والحج لكى نستبيح كل شيء دون أن نحاسب على شيء ؟ ويستشهد دوق داركور لإثبات زعمه بقول الغزالى «كل من أقر بوحدانية الله يعتق من النار بعد أن يذوق فيها عذاب ما أرتكب فى حياته من معاص . وتدركه رحمة الله فلا يبقى فى جهنم أحد ممن شهدوا أن لا إله إلا الله ، وهكذا ينتهى عذاب جميع المؤمنين ماداموا يحملون فى قلوبهم قدراً من الإيمان حتى لو كان مثقال ذرة »(٢٠١) .

من ذا الذى يشك فى أن دوق داركور لا يفهم ! أو لا يريد أن يفهم ، عبارات المؤلفين التى ينقلها ؟ فأين يرى دوق داركور فى هذا النص أن المسلم حين يؤدى بعض الطقوس ويتلو بعض الصيغ الموصى بها يظن أنه قد أرضى ربه وضميره ، وتحرر من كل شيء ؟ إن جميع من يقرأون كلمات الغزالى هذه لن يفهموا إلا شيئًا واحدًا ، هو أن المسلمين سيعاقبون على خطاياهم خلال فترة يقضونها فى نار جهنم ، ثم يخرجون فى النهاية منها . وهو ما يكشف أن العقاب الإلهى ليس أبديًا وأن مغفرة الله تتلو عقابه . هذا هو كل شيء .

على ان المسلمين يؤمنون كذلك ان الله لا يغفر إلا المعاصى التى لا تتعلق بالغير ، اما الاضرار بالآخرين فلا تعود المغفرة فيه الى الله ، بل الى الذين وقع عليهم الضرر . فإذا لم يعفوا بقى المذنبون فى النار . وهكذا فمن وجهة نظر حدود المسئولية ، يقسم المسلمون الواجبات الى نوعين : واجبات نحو الله ، وواجبات نحو الناس . ويلحون على أداء حقوق الناس أكثر من إلحاحهم على أداء حقوق الله . ألا تثبت الآية التى ذكرتها ، قبل ، فى فصل الدين والتى تقول :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب)(٢٠٢) ألا تثبت بوضوح أن الله نفسه يضع عبادته فى المقام الأخير ولا يعلق الأهمية إلا على أعمال الخير ، أى على الواجبات التى يفرضها على المرء ضميره ؟ .

---

(٢٠١) واضح أن مراد الغزالى هو معارضة الآراء الاسلامية التى يرى اصحابها أن المؤمن الذى يموت دون توبة من الذنوب الكبائر سيخلد فى النار .

(٢٠٢) البقرة : ١٧٧ .

ويجنح دوق داركور لإثبات عدم أخلاقية العادات الإسلامية إلى الزعم بأن عجوزًا قعيدًا يمكن أن يتزوج من طفلة فى العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، دون أن يتخفى أو يثور أحد على ذلك . وإذا كان يريد أن يقول بذلك أن مثل هذا الزواج يحدث أحيانًا فى مصر ، فلست أجد ما أقوله . لكنى أضيف أن مثل هذا يحدث فى كل مكان . أما أن يؤكد دوق داركور أن أحدًا لا يثور على ذلك ، فإنى أستميحه عذرًا فى أن أقول له : إنه لا يعلم شيئًا عن ذلك ، فإن قضاء الشتاء ثلاثة أعوام فى مصر ، لا تتيح له معرفة كاملة بكل الفروق الدقيقة فى التعامل الرقيق التى تخفى أحيانا على المواطن العادى . وإننى أؤكد أن هذه الزيجات تقابل دائما بالاستهجان، وإننى أعرف اثنين من الباكوات فى سن متقدم كان إصرارهما على الزواج من فتيات فى سن الشباب المتفتح سببا فى بقائهما فى عزوبة حزينة منذ أربع سنوات تقريبًا . ولست أشفق عليهما أبدا ، رغم أن العزوبة فى مصر هى أكثر الأشياء التى لا تغتفر بطريقة لا يمكن أن يتصورها الإنسان .

ليس على المرء ، لكى يحكم على أخلاق أمة ، إلا أن يتتبع سلوك أفرادها . وإننى أكرر أن الناس بعامة فى الشرق أقل ولوعا بالشر واندفاعا لمضايقة الآخرين . وأكثر أستعدادا لنجدتهم . وحتى مجرميهم لا تنطوى جرائمهم على الحيل الخادعة والتكالب والتنوع والدقة التى يتميز بها مجرمو الغرب . وبخاصة إذا تذكرنا بعض الجرائم التى ترتكب ضد أعز الناس علينا .

فالرأى العام عندنا لا يكشف أمام هؤلاء المجرمين عن هذا الفضول المرضى وهذا الاهتمام الشبيه بالاعجاب الذى يجعل الناس فى أوروبا يجتمعون حولهم كما لو كانوا سيشهدون افتتاح عرض مسرحى ، والذى ينتهى بإدارة رأس هؤلاء المساكين . ويجب أن نعترف أن الصحيفة والقصة والمسرح قد لعبت دورًا فى إفساد العادات الأوروبية . وإلى جانب كل كتاب جيد يظهر ينشر مائة كتاب سيئ ، وهذه الحرية المطلقة فى قراءة كل شىء ومعرفة كل شىء تشيع نقائص لا تغتفر ، إنها تشتت النفس ، وتهيج الخيال وتترك لكل فكر أن يلعب دورًا . ولن أتحدث عن العروض التى تخدش الحياء ، والصور والكتابات المليئة بالفحش والفجور ، التى تحمل القسط الأكبر فى انحلال الشباب ، والتى تعده ليدخل الحياة أسيرا فى تلك الآفاق التى تفتحها أمامه .

ان الدين الاسلامى ـ فى إيجاز ـ ينطوى على أنقى خلق عرفه الناس حتى اليوم . والقرآن كتاب يجمع أحسن الاخلاق . وعبثا يحاول القارئ ان يجد فيه تلك المشاهد التى يبسطها الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) بطريقة تثير ، دون شك ، حرج الآباء مع الابناء .

وتمتلئ حياة محمد بأروع الامثلة . وقد سبق ان قلت ما يجب ان نفهمه من حبه للنساء . ويحسن الاوروبيون لو أدركوا حمقهم حين يتحدثون عن السهرات الصاخبة لحريمنا الذى لا يعرفون عنه شيئا . ولعل أكثرهم جرأة هو الذى استطاع أن ينفذ الى داخل بيت امرأة مغمورة تحيا على الفسق الاوروبى لأنها تجد فى ذلك فرصة للمتعة وهى لا تقدر الحياة إلا بمقدار ما تمنحها من متعة ، واذا عن لنا ان نسمى المجون الحسى متعة . ومع ذلك يلطخون سمعة نسائنا كل يوم بالتلميح الى أنهن يحيين حياة المغامرات الماجنات ، والتى يوجد نموذجها أيضا فى أرقى أسر أوروبا .

ان الاخلاق الاسلامية تخلق رجالا طاهرى الذيل ، قادرين على تخطى أقسى التجارب دون تخاذل ، كما انه يمنحنا زوجات فضليات يضعن شرفهن كله فى دعم بيت الزوجية وحسن ادارته .

ومن جهة اخرى ، فإذا كانت المحبة المسيحية شيئا رائعا فإنها لا تسمو على التضامن الاسلامى الذى يقيم الاخوة بين الناس ويوجب عمل الخير وتحاشى الشر . بل ويذهب ، كما قلت ، الى حد اشراك الفقراء فى ثروات الاغنياء .

ولست أجد ما أختم به هذا الفصل أفضل من ايراد نصين من مصدرين مختلفين يقدمان فكرة دقيقة عن الاخلاق الاسلامية :

أولهما لأبى إبراهيم بن موسى [٢٠٣] الفقيه الكبير يقول فيه :

« على المسلم المكلف ان يؤدى كل ما هو مفروض عليه ، وان يتجنب كل ما هو محرم عليه . ولذلك فمن واجبه مساعدة غيره فى شئون حياتهم بيده ولسانه وقلبه ، أما باليد فواضح لأنه يشمل جميع مظاهر العون المادى . وأما باللسان فهذا يعنى بالنصيحة والوصايا وتعليم كل ما هو ضرورى لحسن القصد وفعل الخير . وكذلك استعمال الالفاظ اللطيفة ، والدعاء للمحسنين والعفو عن المسيئين . وأما بالقلب فمعناه حب الخير وحسن الظن بصفات الغير ماداموا مسلمين ، وتجنب الحقد . ثم احترام الاقارب وتقديرهم » .

« ولا يجدر بالمسلم أن يقصر حسن معاملته على الجنس البشرى ، فواجبه كذلك أن يترفق بالحيوانات ويعاملها بالحنان وأن يستهدى بحديث النبى القائل : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الارض » .

---

(٢٠٣) هو الشاطبى . صاحب (الموافقات فى أصول الفقه) .. ولقد سبقت ترجمتنا له .

« والشفقة واجب على المسلمين ، فإذا ذبحتم الحيوانات ، فلا تجعلوها تتألم » .

أما النص الثانى فمن العالم القانونى غير المتحيز الذى سبق لى ذكره . وهو مؤلف كتاب (مصر وأوروبا) والذى يقول فى صفحة [٦٨٢] عن الاخلاق :

« ان الاسلام دين خلق ، لا يقل عن المجوسية ولا عن المسيحية . وان روح أخلاق القرآن لا تختلف عن الروح الانجيلية . فالقرآن يحض على القناعة والورع . ويدين حسد الغير على نعمتهم ، وحب الدنيا . دون ان يوصى مع ذلك بالتقشف . ويدين البخل والتبذير . ويمتدح التواضع والصبر (المسيحى) والعفو عن الاساءة . وينصح بمقابلة الشر بالخير . ويحض بخاصة على حفظ الامانات المالية والصدق فى أداء الشهادة رغم مصالح الشهود وعواطفهم . ويدين بشدة الغيبة والنميمة والمغالاة فى القول . ويبارك الاحسان إلى الآباء والامهات واليتامى . ويكرر الدعوة الى الصدقة وهى مرادفة للاحسان وعمل الخير (المسيحيين) . ويعطى ارشادات رائعة عن ثواب الصدقة . وعن الذين يستحقون تقديمها إليهم . وعن مقدارها وكيفية تقديمها والدافع إليها » .

« ويلح القرآن على خشية الله . وعلى الاستسلام (أى الاسلام) الذى هو فضيلة المسلم الرئيسية ، وعلى الشفقة . وهو يعلق أهمية أقل من تلك التى يعلقها الانجيل على الانقطاع المطلق لله ، والذى يعد المعنى الحقيقى لحب الله . موضوع أول واهم وصية انجيلية » .

« لم يضع القرآن نظاما منهجيا للارشادات الخلقية . غير أنه يتضمن اخلاقيات رائعة فسيحة وعميقة . وقد كان من الخطأ اتهام هذه الاخلاقيات بالنفاق والحرص على السعادة والشكلية . فإن اخلاقيات القرآن لا تزيد ولا تختلف عن اخلاقيات الانجيل فى الرغبة فى السعادة » .

* * *

الإسلام والتعليم

أفرد دوق داركور فصلا من كتابه للحركة الثقافية فى مصر . فإذا به يقوم بحملة مذكاة ضد الاسلام ، ويزعم أن اختفاء الفنون والعلوم فى المجتمعات الاسلامية ليس إلا نتاجا للتأثير السيئ للإسلام . بل إنه يذهب إلى حد سلب الإسلام كل عمل حضارى حققه الإسلام فى العالم وينتزع منه تراثه المجيد ، وهيبته المتألقة ، وكل مآثره الجديرة بالتقدير والعرفان من الجنس البشرى . ومع هذا فإننى أطمئن اخوتى فى الدين الى أن كل ما كتب لا يحوى شيئا جادا عن ذلك .

ذلك أن دوق داركور لم يزك اتهاماته الخطيرة بالبحث بين سطور قرآننا ولا بين أقوال نبينا أو أفعاله عن حجة أو دليل أو وثيقة تؤيده . انه لم يحاول أن يتعلم قبل أن يحكم ، كما يفعل الناس عادة . بل انه يعترف هو نفسه بأنه : « لم يقرأ أى كتاب عربى ، وانه ينقصه تخصص المستشرق الاستاذ « سيد يللوت » [٢٠٤] ويعترف بعجزه عن مواجهته فى ميدان تخصصه » . ولم يمنعه هذا من مهاجمة آراء هذا العالم الكبير الذى يقدر الشرق كله استقامة خلقه وعدم تحيزه الفكرى . وهو يكتفى بتعليلاته لدحض شهادات الشهود . «فإذا قيل له إن العرب انتصروا فى هذه المعارك أو تلك ، وحددت له أسماء قوادها وتفاصيل القتال ووصف الاماكن التى جرى فيها ، بقى مصرا على عدم اقتناعه وشكوكه فى أن تكون الاشياء قد نقلت اليه فى صورة مزيفة » . وقد قصدت أن أنقل بالنص هذه الجمل لأنها تكشف عن حالة نفسية غريبة حقا عند دوق داركور ، وهى حالة الانسان الذى لا يريد تصديق شىء لا يعجبه ، وهى ترجمة دقيقة للتحيز والاعتزاز بالنفس والتعالى أمام المعلومات التاريخية المدعمة بأحسن الوثائق .

من أجل هذا لا أستشعر حاجة لمناقشة هذه النقطة من التاريخ مع دوق داركور . فإن كان كل ما كتبه فى هذه المادة أشهر مؤرخى الشرق والغرب لم يقنعه فى شىء ، فمن المؤكد أنه لست أنا الذى أنجح فى اقناعه ، ويكفينى أن أقول هنا : انه اذا كان كثيرون قد رفضوا الاعتراف بالطابع العربى للحضارة التى تألقت فى العالم الاسلامى خلال القرون الوسطى بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمة عميقة ، وانه اذا كان بعض المؤلفين من امثال « رينان » [٢٠٥] قد أكدوا أن العرب لم يكن لهم دور فى تشكيل أو تطوير تلك الحضارة اللامعة . فإننى اعتقد أن أحدا لن يعارضنى فى أن هذه الحضارة هى من صنع المسلمين ، واذا ظهر ان الدين الاسلامى بكل قوته ايامها لم يمثل أى عقبة امام ازدهار هذه الحضارة الطموحة ، لكان هذا شيئا هاما جديرا بأن نعيه ولا ننساه .

---

(٢٠٤) ليس هناك مستشرق باسم «سيد يللوت» .. ولعل المراد هو المستشرق الفرنسى «سديو» (جان جاك) (١٧٧٧ ـ ١٨٣٢ م) .. الذى كتب كتابه الشهير (خلاصة تاريخ العرب) الذى جمع تفاصيل فضل العرب على الحضارة الأوروبية .. انظر موسوعة : (المستشرقون) لنجيب العقيقى . طبعة دار المعارف . الثالثة . سنة ١٩٦٤ . ص ١٧٧ . وانظر كذلك فهرس اسماء المستشرقين بهذه الموسوعة .

(٢٠٥) ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م) مؤرخ وناقد فرنسى . اشتهر بأبحاثه القومية . وجهوده فى الاستشراق .. وتعد كتاباته عن المسيح وعن تاريخ بنى اسرائيل من أولى الدراسات لدراسة الدين دراسة تاريخية .. وفى الدراسات التى كتبها رينان عن الحضارة الشرقية حاول تجريد العرب من فضل الاسهام فيها . وجعلها اسلامية غير عربية . وكان منطلقة الفكرى تقسيم عرقى ـ فى ميدان الحضارة ـ يشبه ذلك الذى تستند إليه النزعات العنصرية فى المجالات الاجتماعية والسياسية .

ان الشك لا يمكن أن يتطرق الى أن الاسلام لم يعق التطور الفكرى الانسانى فى أى ظرف من الظروف ، ولم يمنع ازدهار العلوم والفنون والاكتشافات الرائعة التى ازدانت بها القرون الماضية ، والجدل العظيم الذى ألهب العقول فى هذه العصور ، والذى كان يدور حول القدر المحتوم وحرية الاختيار وتدخل الارادة الالهية فى أفعال البشر ، بل وحول القرآن وهل هو قديم أم حادث ، وكان ذلك الجدل يجرى علنا ، بل وفى المساجد وفى حضور الملوك العرب المسلمين وهو أمر بالغ الدلالة ، وكان العلماء الاجانب والمسيحيون المنتمون الى جميع المدارس ينضمون الى المناقشات ويعرضون آراءهم بحرية كاملة ، وعلى أثر هذه المناقشات الحرة الفسيحة ارتفع أعظم نصب اقامه العقل البشرى وهو الفقه الاسلامى الذى يعرف بعض ملامحه العلماء الأوروبيون الذين يذهب معظمهم إلى أنه نقل عن القانون الرومانى فى حين أنه يستمد كل أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

كما أن عدد العظماء الرجال الذين تألقوا فى حقل الابداع العلمى فى هذا العصر يشهد بأن العلم كان هو أيضا فى مجال التكريم . وأذكر فى مادة الفقه الأئمة الأربعة : أبا حنيفة[٢٠٦] ، ومالكا[٢٠٧] ، والشافعى[٢٠٨] ، وابن حنبل[٢٠٩] . ثم أبا إسحاق المَروزى[٢١٠] وأبا إسحاق الشيرازى[٢١١] وأبا إسحاق العراقى[٢١٢] وأبا اسحاق ظهر الدين[٢١٣] وابن الجوزى[٢١٤] والسهروردى[٢١٥] وأبا العباس بن سريج[٢١٦] وأبا حميد المروروزى[٢١٧] وابن قيران والقاضى حسين وجعفر الصادق[٢١٨] ، ومحمدا الباقر[٢١٩] ... الخ .

---

(٢٠٦) أبو حنيفة . النعمان بن ثابت (٦٩٩ ــ ٧٦٧ م) .. صاحب المذهب الفقهى الشهير.

(٢٠٧) مالك بن أنس (المتوفى سنة ٧٩٥) .. صاحب المذهب الفقهى الشهير..

(٢٠٨) الشافعى . محمد بن ادريس (٧٦٧ــ ٨١٩ م) . صاحب المذهب الفقهى الشهير.

(٢٠٩) أحمد بن حنبل (٧٨٠ــ ٨٥٥ م) .. امام أهل الحديث . وصاحب المذهب الفقهى الشهير.

(٢١٠) ابراهيم بن أحمد (المتوفى سنة ١٩٥١ م) .. رئيس فقهاء الشافعية بالعراق فى عصره .

(٢١١) ابراهيم بن على الفيروز أبادى (١٠٠٣ ــ ١٠٨٣ م) نبغ فى علوم الشريعة . وأصبح مفتى الأمة فى عصره .

(٢١٢) ابراهيم بن منصور (١١١٦ــ ١٢٠٠ م) .. شيخ الشافعية بمصر على عهده .

(٢١٣) محمد بن أحمد (المتوفى سنة ١٢٢٢ م) .. فقيه حنفى . صاحب كتاب (الفتاوى الظهيرية) ..

(٢١٤) أبو الفرج عبد الرحمن بن على (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .. مؤرخ ، وفقيه حنبلى .

(٢١٥) أبو النجيب عبد القاهر (١٠٩٧ ــ ١١٦٩ م) صوفى وفقيه حنفى .

(٢١٦) أحمد بن عمر (٨٦٣ــ ٩١٨ م) . بغدادى . كان فقيه الشافعية فى عصره .

(٢١٧) أحمد بن عامر (المتوفى سنة ٩٧٣ م) من كبار فقهاء الشافعية فى عصره .

(٢١٨) أبو عبد الله ، جعفر الصادق (٦٩٩ ــ ٧٦٥ م) امام الشيعة الامامية فى عصره .

(٢١٩) أبو جعفر محمد بن على (٦٧٦ ــ ٧٤٥ م) امام الشيعة الاثنى عشرية فى عصره .

وفى مادة الرياضة والهندسة : عمر الخيام[٢٢٠] والمأمون[٢٢١] ومحمد بن موسى[٢٢٢] وأحمد بن موسى[٢٢٣] وكمال الدين[٢٢٤] ، وأبا الوفا البوزجانى[٢٢٥] وابن سينا[٢٢٦] وناصر الدين التوزى .. الخ ..

وفى مادة الفلسفة : الفارابى[٢٢٧] وأبا البركات البغدادى[٢٢٨] وابن رشد[٢٢٩] وفخر الدين الرازى[٢٣٠] والغزالى[٢٣١] وابن زهر[٢٣٢] .. الخ .

وفى مادة الطب : خالد بن يزيد الاموى[٢٣٣] وأبا بكر بن جوهر الاندلسى وابن سينا وابن التلميذ الطبيب[٢٣٤] وابن رضوان .. الخ .[٢٣٥] .

وفى مادة التاريخ : ابن الاثير[٢٣٦] وابن خلدون[٢٣٧] ، وابا الفداء[٢٣٨] ،

---

(٢٢٠) أبو الفتح عمر الخيام (المتوفى سنة ١١٣٢ م) الشاعر والفيلسوف والعالم الفارسى المشهور .

(٢٢١) أبو العباس عبد الله (٧٨٦ ـ ٨٣٣ م) من أعظم خلفاء الدولة العباسية .

(٢٢٢) الخوارزمى (المتوفى بعد سنة ٢٣٢ هـ) أول من ألف فى الحساب والجبر والازياج .

(٢٢٣) أحمد بن موسى بن شاكر.. من الذين برعوا فى صناعة الحيل (الميكانيكا) .

(٢٢٤) محمد بن عبد الواحد ـ ابن الهمام ـ (١٣٨٨ ـ ١٤٥٧ م) حنفى ، من علماء الاصول .

(٢٢٥) محمد بن محمد (٩٤٠ ـ ٩٩٨ م) مهندس فلكى رياضى .

(٢٢٦) أبو على الحسين (٩٨٠ ـ ١٠٧٦ م) العالم والفيلسوف الاشهر.. والملقب بالشيخ الرئيس .

(٢٢٧) أبو نصر محمد (٨٧٠ ـ ٩٥٠ م) الفيلسوف الشهير ، والملقب بالمعلم الأول .

(٢٢٨) موفق الدين (١١٦٢ ـ ١٢٣١ م) . نبغ فى الطب والفلسفة .

(٢٢٩) أبو الوليد (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) فيلسوف وطبيب وفقيه . يلقب بالشارح الأكبر على ارسطو .

(٢٣٠) أبو عبد الله محمد (١١٤٩ ـ ١٢٠٩ م) فيلسوف . ومتكلم . ومفسر للقرآن .

(٢٣١) أبو حامد (١٠٥٩ ـ ١١١١ م) الفيلسوف . والمتكلم . والصوفى والمصلح الشهير .

(٢٣٢) أبو العلاء زهر (المتوفى سنة ١١٣٠ م) أشهر أطباء أسرة زهرة بالاندلس .

(٢٣٢) (المتوفى سنة ٧٠٤ م) اشتغل مبكرا بالكيمياء والطب والنجوم . وفى عهده بدأت ترجمة علوم الصنعة .

(٢٣٤) هبة الله بن صاعد (١٠٧٣ ـ ١١٦٥ م) فيلسوف وعالم بالطب والادب .

(٢٣٥) على بن رضوان (المتوفى سنة ١٠٦١ م) مصرى . طبيب . ورياضى . وعالم .

(٢٣٦) أبو الحسن على (١١٦٠ ـ ١٢٣٤ م) صاحب (الكامل فى التاريخ) و(أسد الغابة فى معرفة الصحابة) .. وغيرهما .

(٢٣٧) عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) الذى اشتهر بفلسفته الاجتماعية التى اودعها «مقدمة» كتابه (العبر) .

(٢٣٨) إسماعيل بن على (١٢٧٣ ـ ١٣٣١ م) الأمير والمؤرخ والجغرافى ، صاحب (المختصر فى تاريخ البشر) و(تقويم البلدان) .

والمقريزى[٢٣٩] والواقدى[٢٤٠] ، وابن زولاق[٢٤١] ، وحماد الراوية[٢٤٢] ، وخليفة بن قايات[٢٤٣] ، وأبا بشر ، والدولابى ، وابن القوطية[٢٤٤] ، وأبا بكر الزبيدى[٢٤٥] .

وبين الشعراء : ابن دريد[٢٤٦] ، وابن خفاجة[٢٤٧] ، وابن زيدون[٢٤٨] ، وابن مطروح[٢٤٩] ، وأبا تمام[٢٥٠] ، وأبا نواس[٢٥١] ، والبحترى[٢٥٢] ، والخوارزمى والفريدى ، والفرزدق[٢٥٣] ، والمتنبى[٢٥٤] ، وجرير[٢٥٥] ، وأبا العلاء المعرى[٢٥٦] .. الخ .

---

(٢٣٩) أحمد بن على (١٣٦٤ – ١٤٤٢ م) ابرز مؤرخى مصر فى عصر المماليك . له آثار كثيرة من أهمها (السلوك) .

(٢٤٠) محمد بن عمر (٧٤٧ – ٨٢٢ م) وله فى التاريخ آثار من أهمها (التاريخ الكبير) و(التاريخ والمغازى والبعث) .

(٢٤١) الحسن بن ابراهيم (٩١٩ – ٩٩٧) من أبرز مؤرخى مصر الاخشيدية والفاطمية . ولقد أكمل كتاب الكندى عن امراء مصر .

(٢٤٢) ابن أبى ليلى (المتوفى حوالى سنة ٧٧٤ م) راوية للشعر والادب والتاريخ . اشتهر برواياته لأيام العرب وحروبهم .

(٢٤٣) لعله : خليفة العصفرى (المتوفى ٨٥٤ م) صاحب كتاب (التاريخ) وكتاب (الطبقات) .

(٢٤٤) محمد بن عمر (المتوفى سنة ٩٧٧ م) اندلسى . اشتهر باللغة والتاريخ . وله فيه كتاب (تاريخ افتتاح الاندلس) .

(٢٤٥) لعله : أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجى (١٤١٠ – ١٤٨٨ م) محدث البلاد اليمنية . وصاحب (طبقات الخواص) ..

(٢٤٦) محمد بن الحسن (٨٣٧ – ٩٣٣ م) لغوى وأديب . له فضل الريادة فى ابداع فن المقامات . ولقد غلبت عليه شهرته اللغوية .

(٢٤٧) ابراهيم بن أبى الفتح (١٠٥٨ – ١١٣٨ م) اندلسى . غلب فى شعره التعبير عن عواطفه . ووصف الطبيعة .

(٢٤٨) أحمد بن عبد الله (١٠٠٣ – ١٠٧١ م) اندلسى . اشتهر بالادب . واشتغل بالسياسة . وله رسائل شهيرة .

(٢٤٩) يحيى بن عيسى (١١٩٦ – ١٢٥١ م) مصرى . شارك فى الحياة السياسية زمن الملك الصالح . وله ديوان مطبوع .

(٢٥٠) حبيب بن أوس (٧٨٨ – ٨٤٦ م) أحد أكابر شعراء العربية . برز فى وصف المعارك والبطولات . وأسهم فى تجديد الشعر العربى صورا وأخيلة .

(٢٥١) الحسن بن هانئ (٧٦٢ – ٨١٤ م) اشهر شعراء الغزل والمجون فى العصر العباسى . لعب دورا بارزا فى تجديد مضامين الشعر العربى على عهده .

(٢٥٢) الوليد بن عبيد الطائى (٨٢١ – ٨٩٨ م) شاعر محافظ . له إلى جانب شعره مختاراته (الحماسة) وكتاب (معانى الشعر) .

(٢٥٣) همام بن غالب (٦٤١ – ٧٢٨ م) شاعر أموى . كان أحد ثلاثة تزعموا الحركة الشعرية فى عصره . واشتهر بمناقضاته مع جرير .

(٢٥٤) أبو الطيب أحمد بن الحسين (٩١٥ – ٩٦٥ م) يعده البعض أعظم شعراء العربية فى العصر الذهبى للحضارة

وهذه الاسماء الى جانب آلاف الاسماء الاخرى من الشخصيات العظيمة لم يحل الاسلام بينها وبين التضحية بحياتها فى الدراسة والبحث عن الحقيقة ، ونحن نكن لاصحاب هذه الاسماء تقديرا عميقا لان أعمالهم أضفت بريقا من المجد على العالم الاسلامى الذى سيحمل لهم العرفان الدائم .

وإننى اتساءل اذا كان الدين الاسلامى لم يقف حجرة عثرة فى طريق تقدم العلوم والفنون خلال قرون عديدة ، فما الذى يجعله اليوم يصبح كذلك ؟

هل ينطوى جوهر الإسلام على عنصر يتنافر مع التعليم ، وهل يوجد فى كل ما يشكله هذا الدين وصية أو شعيرة تعادى الثقافة ، ولنفتح المصحف الذى يمثل للمسلمين أساس دينهم فهل نجد فيه كلمة واحدة ، لا أقول تحرم التعليم ، بل فقط تصوره فى صورة غير لائقة ؟ إن من يقرأ القرآن لأول مرة يدهش لهذا الاعتبار الذى يخص به المنطق الإنسانى فهو دائمًا يقول : انظروا هذا الشىء ، وادرسوا هذه الظاهرة ، عللوا هذا المبدأ . أما الآيات التى تعلى قدر العلم فهى عديدة أذكر منها قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٢٥٧] . وقوله : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[٢٥٨] .

كما نجد فيه آيات تتحدث عن بعض العلوم ، فلا شك أنه تحدث عن علم الفلك حين قال : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر)[٢٥٩] أو (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[٢٦٠] .

كما أن الأحداث التاريخية العديدة التى ذكرها القرآن لتكون درسًا يفيد منه المؤمنون والنصائح التى توجههم فى كل صفحة من صفحاته الى ملاحظة ظواهر خلق الارض والسموات

الاسلامية . وفى شعره تنعكس اهتماماته الفلسفية التى تميز بها عن كثير من الشعراء الذين عاصروا أو سبقوه .

(٢٥٥) جرير بن عطية اليربوعى (٦٤٠ – ٧٢٨ م) شاعر أموى ، كان هو والفرزدق والاخطل ابرز فرسان الشعر فى العصر الاموى .

(٢٥٦) أبو العلاء أحمد (٩٧٣ – ١٠٥٧ م) ، شاعر المعرة ، وفيلسوف الشعراء ، صاحب اللزوميات وسقط الزند . وصاحب الشرح الفريد لشعر المتنبى المعروف (بمعجز أحمد) ومبدع (رسالة الغفران) التى تأثر بها دانتى اليجييرى صاحب (الكوميديا الالهية) .

(٢٥٧) فاطر : ٢٨ .

(٢٥٨) المجادلة : ١١ .

(٢٥٩) الأنعام : ٩٧ .

(٢٦٠) يونس : ٥ .

والاشياء والحيوانات والانسان ، وإلى دراسة اسرار الحمل والميلاد وأجهزة جسم الانسان ووظائفها والموت ، كل ذلك يمثل بالتأكيد أحسن الموضوعات التى يمكن ان يتحدث عنها الطب والتاريخ والفلك وجميع العلوم الاخرى لتثبت نفعها الكبير .

ولا تقل أحاديث الرسول عن آيات القرآن وضوحا وحسما فى احترام العلم ، وان كان السائد بين المسلمين انها ليست جميعها مسلما بها ومتفقا على صحتها . وماذا يمكن أن يقال عن قول اجاب به الرسول على عربى سأله عن تحديد لمعنى الدين ، فقال له ـ (ما معناه) ـ « الدين هو العقل » . وقد قال يوما ـ (ما معناه) ـ : « طلب العلم فرض على المسلم ، أطلبه حتى من فم الوثنى » ـ كما قال هذه الحكمة (التى معناها) ـ : « إثنان ليس مثلهما أحدا : الغنى الذى ينفق ماله فى عمل الخير ، والعالم الذى ينفق حياته فى نشر العلم » كما امتدح العلماء قائلاً : « العلماء ورثة الأنبياء » .

ولنتأمل الاحاديث التالية ـ (والتى معناها) :

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » (وقد كانت أيامها شديدة البعد) .
« موت قبيلة أقل فجيعة من موت واحد من العلماء » .
« حبر العلماء كدم الشهداء »[٢٦١] .
« فضل العالم على المتعبد سبعون مرة » .
« تعلم كلمة من العلم أفضل من مائة صلاة » .
« كلمة حكمة تتعلمها وتعلمها أخاك المسلم خير من صلاة عام » .
« ان الله والملائكة وأهل الارض والسموات يباركون من يعلم الناس الخير » .

ولن انتهى إذا أنا استطردت . وكما نرى فإن القرآن والأحاديث تحث على التعلم ولا شك أن هذه الأحاديث ظلت تتردد خلال عهود طويلة ، لأنه لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الإسلامى أن ثارت حرب ضد العلم ، وقد عانى من أشد النظريات مادية ، فلم يسىء أبدًا معاملة واحد من العلماء ، وقد اذن لكل المعتقدات أن تحيا جنبًا إلى جنب ، ولو إنى وضعت هذا التسامح إلى جانب عهد محاكم التفتيش فى أوروبا ، والجرائم التى ارتكبت ضد العلماء والأدباء والفلاسفة باسم المسيحية ، لكانت المقارنة لصالح الإسلام .

---

(٢٦١) ويروى هذا المعنى بلفظ آخر ـ أشد توكيدا ـ فيقول الحديث : « لمداد أقلام العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء » .

لقد صرح علماؤنا الحقيقيون فى كتبهم بأن حب العلم واجب على المسلم ، ويحكى فخر الدين الرازى أن أحد العلماء لقى يوما يهوديا يعلم مسلما أصول علم الكونيات ، فيسأل اليهودى عما يتناوله فقال : إنى أفسر آية فى القرآن تقول : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها)[262] واضاف : وانني أشرح طريقة البناء والتزيين ، فكان فى كلامه ما أرضى العالم عما سمعه .

وقد قال الله تعالى : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء)[263] .

وقد علق علماؤنا على ذلك قائلين : ان هذه الدعوة الى النظر تشمل جميع مجالات العلوم دون استثناء واحد ، حتى العلوم المسماة بعلوم السحر والتنجيم ، والتى يجب معرفتها دون الايمان بها .

لقد قلت : ان أقوال النبى لا تشكل كلها جزءا من الدين ، ومن الطبيعى أن ننحى من هذه الاقوال تلك المحادثات الاليفة والنصائح الخلقية ، والحكم الفلسفية التى تتضمن دون شك نصائح قيمة ، لكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية ، مثل هذه النصائح التى ذكرتها ، كما يجب أن ننحى أيضا كل ما له علاقة بالفقه والتشريع ، وتبقى بعد ذلك الاحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل التوجيهات التى يتضمنها القرآن الكريم ، والتى لم تعد جزءا من الدين إلا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه .

ولما كانت أقوال النبى لم تسجل بعد موته ، كما حدث مع القرآن ، فقد أخذ كل واحد يروى الحديث على طريقته وحسب ذوقه واحتياجاته ، فتكاثرت كتب الحديث ، وضم أغلبها خليطا من الاكاذيب والحماقات ، غير أن أغلب هذه الاحاديث كما قلت لا ترتبط بالمسائل الدينية ، كما أنها مطعونة فى صحة نسبتها الى النبى ، وقد كانت هذه الكتب هى المهد الذى ولدت فيه كل الطقوس الحمقاء ، وكل المعتقدات الباطلة ، التى ألقت بظلالها الشوهاء على الدين الإسلامى وقد عاتب صديق لى مرة احد العلماء الادعياء على كسله وسأله سر تقاعسه عن إلقاء دروس على العامة ، فلم يجد شيئا يجيب به أفضل من قوله : « انني أهتدى بحديث عن نبينا يوصى فيه الجهلة بالمسارعة إلى لقاء الجهلة ! » ذلك هو الحال الذى تردى فيه بعض شيوخنا الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفا تفصيليا عن السماء . والجنة والنار توحى لنا دقته بالايمان بمعرفتهم لها معرفة

---

(٢٦٢) ق : ٦ .

(٢٦٣) الأعراف : ١٨٥ .

حقيقية ، بينما هم يجهلون كل شيء عن الأرض وليس فى هذا ما يثير الدهشة . ذلك انهم بدلا من أن ينظروا إلى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم . نجدهم لا يجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية . ولا يوسعون أبدا نطاق دراساتهم . ولذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليل . وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها . وينصبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية . ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقائه وحسن تطبيقه .

صدقنى يا سيدى دوق داركور ان هؤلاء ليسوا إلا أدعياء شديدى الوقاحة ، يخنقون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للافلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية .

ومن بين هؤلاء من وضع تفسيرًا ضحل المعنى للقرآن حتى أنا لانخطئ ولانظلم حين نقول إن كتاباتهم هذه لا تمثل جزءًا من الدين . ولنفترض أن أحد الجهلة قد عن له يومًا أن يفسر قانون نابليون . وأنه كتب بعد بضع سنين من الجهد والبحث عشرة أجزاء تحدث فيها عن كل شيء عدا القانون ـ كما أتوقع ـ فهل يمكن من أجل هذا أن يتهم قانون نابليون بالسوء ؟ كلا بالتأكيد .

وإنما السيئ هو التفسير. وذلك هو نفس الشيء من بعض تفاسير القرآن التى ضللت بعض ضعاف النفوس ، لكنها لم تنل من ديننا ، الذى لا يملك أحد التحدث باسمه ، أو بالاحرى الذى يملك الجميع حق التحدث عنه ، ثم ألا يوجد نفس هذا العيب فى أوروبا ؟ ألا يوجد أدعياء ينتحلون اسم الدين ليزيدوا ثروتهم مما فى جيوب السذج الذين يمشون فى ركابهم ـ ؟ وهل أنا فى حاجة للتذكير بأن الشعب الفرنسى فى هذه الفترة قد أضحى هو الآخر لعبة فى أيدى بعض القساوسة الذين يقومون ببعض « المعجزات » فى « لندن » حيث يظهرون له السيدة العذراء مرة الى اليمين ومرة الى اليسار ، ويقومون بتجارة كبيرة مستغلين براءة البسطاء بآلاف الطرق والوسائل ؟ .

ونحن محظوظون أن مشايخنا لا يملكون قدرات زملائهم فى أوروبا . وهم لا يشكلون مجلسا كنسيا وتنظيما هرميا متدرج المناصب ، ولا يعقدون مجمعا دينيا ولا يملكون اخراج مسلم من الجماعة الاسلامية ، بل ان دعاء الله لا يحتاج الى وساطتهم ، ولا يتدخلون فى أية لحظة فى أى ظرف من ظروف حياتنا . حتى ان مراسم الزواج والدفن تقام فى غيبتهم .

وهذا يعنى انه لا توجد مشكلة دينية تعرقل مسيرتنا ، كما لا يوجد « أكليروس » نخشاه . أما الخرافات المسماة بالدينية ، فى حين انه يجب تسميتها باللادينية ، فإنها تنبع من الجهل وحده وتتبدد مع تزايد التعليم الذى يتقدم الآن بطريقة تثير الدهشة ، لكنها تملؤنا ثقة بالمستقبل .

وإننى أعلن ، مع ذلك ، ضرورة ادخال اصلاح محدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية حتى يستطيعوا بوساطة التعليم أن ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين ، وان يرشدوهم الى طريق العودة الى بساطة قواعد الاسلام الخمسة . فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الاسلام فى جميع ارجاء العالم ، وما تزال وحدها قادرة على انقاذه من كارثة مدمرة .

اننى أبعد ما أكون عن التعصب ، غير انى اعتقد ان الاسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة واحدة . ذلك أن الإسلام ببساطته ، وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبإيجابيته الخلقية ، وامكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات وبتسامحه الكبير الذى يتميز به : يجمع ، فى رأيى ، مؤهلات تكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله وذلك هو ما أعتقد أنه الحلم الذى كان يطمح إليه القرآن ، والذى أوشك أن يتحقق فى إحدى اللحظات .

ذلك انه دين الفطرة فى شكله البسيط ، المؤهل لارضاء الجزء الاعظم من البشرية التى لا تستطيع ، رغم كل شىء ، أن تقبل على الحياة دون أن يعشش فى وجدانها أمل خيالى رائع .

على أى شىء اذن يستند دوق داركور حين يدافع فى كل أجزاء كتابه عن نظرية عدم تلاؤم ديننا مع التعليم ؟ . وقد رأينا أن آيات القرآن وأقوال النبى تحث الناس على الدراسة والبحث وان هذا الدين قد أخرج أعظم علماء عصره الاول والذين كانوا على وجه التقريب جميعا مسلمين . واحتلوا مكانا بارزا فى العالم مع انهم كانوا فى الاصل من أبرع الفقهاء (وتلك فى رأيى احدى الخصائص التى ينفرد بها الاسلام) فما هى اذن ـ كما تساءلت ـ البراهين التى يقدمها لنا دوق داركور ؟ أهى خرافة حريق مكتبة الاسكندرية بناء على أوامر عمر ؟ لقد هدم هذه الخرافة أفضل مؤرخى أوروبا منذ أمد بعيد .

من يجهل اليوم أن هذه المكتبة قد أحرقت على يد يوليوس قيصر ؟ ، حتى اذا أعيد بناؤها وتأسيسها من جديد أسرع بهدمها متعصبو هذا العصر الذين لم يكتفوا بإبادة الكتب وحدها ، بل خربوا الآلاف من آثار مصر القديمة .

إن هذا الاتهام الذى ألصق بأمير مسلم ليس بالتأكيد إلا من تدبير رجل مسيحى أو يهودى عدو للإسلام ، أراد تشويه عمر بإشاعة فضيحة تنكرها فى قوة أحداث حياة عمر العريضة .

لكم أتمنى أن أكون قد كشفت عن أن الإسلام لا يد له فى هذا التخلف الذى يشيع الآن فى مصر وفى العالم الإسلامى بعامة ، كما أن لهذه الحالة أسبابها المعقولة والتى امتد تأثيرها على الشرق كله دون تمييز دينى . وإننى أعتقد أن الحضارات القديمة كانت ذات (طابع مرحلى) ذلك أنها لم تقم على أى أساس علمى . وأنها جميعا ولدت فى أعقاب انتصار حربى . وانطفأت فى أعقاب هزيمة . بل إن الحرب نفسها لم تكن أكثر من تصارع قوى جسدية . كان ينتصر فيها الأكثر حيوية ونشاطا ، وكما كان الهمج أكثر موهبة جسدية . فقد كانوا يظفرون غير أن أحدًا لا يتصور أن المستقبل سيكون لهم . وهكذا كانت الحضارة تبدأ فى الازدهار أثر الظفر فى الحرب ، ثم يفاجأ الناس بالتدهور يطبق عليهم فى أحد الأيام . وكان لابد أن يقبل شعب هجمى جديد فيأخذ مكانهم الذى يجدون أنفسهم مهيئين للتنازل عنه . فكانت الأمم على هذا النحو تولد وتنمو وتموت مثل الكائنات الحية التى تتشكل منها . وتلك قصة الحضارات الشرقية القديمة .

فلم يكن هناك شىء يحميها من القوى الوحشية . حقا لقد كانت تعمل على تطوير العلوم والفنون ، لكنها لم تكن إلا فى مرحلتها الجنينية ، وقد كانت النظريات الفلسفية غير المنطقية وبحوث ما وراء الطبيعة غير المفهومة تستولى على النفوس بخاصة . وكانت تجارب تحويل المعادن والتنجيم بدايات لعلمى الكيمياء والفلك ، وكانت الصناعة فى طفولتها ، ولم تكن التجارة قد وجدت منافذها ، وكانت السياسة أبعد ما تكون عن العلم الذى ندرسه الآن ، وكان من المستحيل فى هذه الظروف أن تبقى حضارة ، اذ كان ينقصها الاساس .

وقد كان الشرق لسوء الحظ هو الذى بدأ يتحضر ، ثم جاءت أوروبا فى آخر سلسلة الحضارة لتقطف ثمار هذه التجربة الطويلة المريرة ، فبعد أن أمضت قرونا تتحسس الطرقات انتهى بها الأمر إلى أن تكتشف الطريق الصحيح . وعرفت كيف تتخذ من العلم أساسا لتنظماتها كلها . وذلك ما أعطى الحضارة الأوروبية ميزة الاستمرار ، وقد كنت على وشك أن أقول والاستقرار ، والواقع أننى أومن أن الحضارة الجديدة ستبقى دائمًا فى أوروبا . وإن اختفت أمم فإن حضاراتها تبقى ، كما إنى أومن أن الأمم التى تشكلت بهذه الطريقة تحيا فى مأمن من الأحداث أكثر مما كانت تحيا الأمم القديمة . وقد يبدو هذا غريبًا مع وجود أوروبا المسلحة حتى

أسنانها ، لكن الحقيقة هي أن العلم هو صاحب الفضل فى حماية السلام .

اننا نود ان نهنئ أوروبا بحظها الذى ظفرت به بالصدفة فى غمار الاحداث . لكنا نود ايضا ألا ينظر الينا بعين الزراية المتعالية التى ترفض أن تتذكر ولو للحظات أن الشرق كان أول صانع للحضارة ، وانه هو الذى شكلها وطورها وبثها هذا التراث الثمين الذى تستمتع به اليوم ، وان جميع الافكار الفلسفية والعلمية والدينية لم تخرج فى مجموعها إلا من الشرق .

العلوم والآداب

يقرر دوق داركور ، فى الفصل الذى يحمل نفس عنوان هذا الفصل فى كتابه ، اختفاء الفن الادبى اختفاء كاملا فى مصر . واستطيع مشاركته رأيه اذا استثنيت هذه العشرين مجلة وصحيفة أدبية التى تنتشر فى مصر ، وإن اختلفت مستوياتها الفنية ، ذلك أن الابداع الادبى يمكن أن يتألق أكثر فى غيبتها . فالشكلان المهمان من أشكال الادب وهما القصة والمسرح لا يكادان يوجدان تقريبًا . وأقول : تقريبًا . لأنا نشهد بين الفينة والفينة ظهور ترجمة لقصة فرنسية أو نشر إحدى المسرحيات الخارجة على جميع قواعد الكتابة الفنية . وتقدم هذه المسرحيات الرديئة فرقتان عربيتان تضمان عددًا من الممثلين الأكفاء . ويستقبل جمهور كبير عرضها رغم كل شيء بالترحيب . غير أن كل هذا لا يمكن بالطبع تسميته بالادب ، فإن الأمر فى حاجة إلى عبقرى يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التى كانت له قديما فى المجتمعات الإسلامية فيجعله يعكس هذه التغيرات التى ينبض بها وضعنا الحالى . ويطوعه لعادات جديدة . وحتى يحدث ذلك يقوم المصريون بتغذية وجدانهم بالأدب القديم الذى ماتزال بيننا بعض آثاره الرائعة ، وبالأدب الأجنبى . وأستطيع أن أقول بالأدب الفرنسى بالتحديد . لأن اللغة الفرنسية هى أكثر اللغات الأجنبية انتشارا فى مصر . وهو ما يجعل الإقبال كبيرا على أعمال المؤلفين الفرنسيين . حتى إننى أعرف عددا كبيرا من المصريين الذين يتابعون الحركة الأدبية الفرنسية بأكثر مما يفعله كثيرون من الفرنسيين أنفسهم ! .

أما عن العلوم ، فإن دوق داركور يعترف بنفسه بأنها تشغل أكثر من مكان فى حياتنا ، وانها أخذت تنال تقديرا كبيرا منذ نصف قرن . وقد قرر كذلك « أن تلاميذ مدرسة الفنون والصنائع يصلون فى أعمالهم اليدوية الى مستوى من المهارة يعادل مستوى العمال الاوروبيين . وقد رأى أعمالا من منتجات هذه المدارس يمكن أن يفتخر بها أى « حرفى » ـ (صانع) ـ فرنسى » وقد لاحظ

أن « التعليم فى مدرسة المنلسة يتبع نفس المناهج الفرنسية ، وانه رفيع المستوى ، وأن المدرسين الذين تعرف بهم يتحدثون الفرنسية بطلاقة » وقد تركوا فى نفسه انطباعا بأنهم « مثقفون أذكياء » كما اعترف بنفسه « بأن مدرسة التوفيقية يديرها شاب فرنسى » - بيلتييه بك - « يمتلئ نشاطا وتفانيا فى عمله ، ويحقق نجاحا ملحوظا . على الأقل فيما أمكن له رؤيته بنفسه » .

وإننى أضيف إلى هذا أنه كان يمكنه أن يقرر نفس الشىء لو أنه ذهب فى زيارة إلى مدرسة الخديوية ومدرسة الطب ومدرسة حقوق القاهرة التى تتألق بفضل جهود السيد « تيستو » الرائعة وتعاون أساتذتها معه . وإننى سعيد بصداقة عدد منهم ، كما أنى استمع كل يوم للمديح الذى يكيلونه لتلاميذهم عن ذكائهم وصفاتهم الخلقية .

كما أضيف كذلك أنه كان يمكن لدوق داركور أن يغير نظرته إلى الذين الإسلامى لو أنه زار مدرسة دار العلوم التى أسسها على باشا مبارك منذ عشرين عاما تقريبا ، والتى خصصت لتعليم الشيوخ الذين بدأوا دراستهم الدينية والأدبية فى جامعة الأزهر العريقة . والذين يجدون فى هذه المدرسة العلوم العقلية التى تدرس فى أحسن جامعات أوروبا ، أى جميع العلوم الوضعية من رياضة وهندسة وطبيعة وكيمياء وكونيات وما إليها . ويقوم بتدريسها لهم أساتذة جديرون أكفاء ، إلى جانب التاريخ والجغرافيا واللغات الأجنبية التى لم تهمل فى وضع المنهاج .

وما أروع رؤية هؤلاء الشيوخ بعمامتهم وجبتهم ، وهم يفضون أدق أسرار الكيمياء وهم يحلون أعقد مسائل الجبر ، بل إن عددا منهم لا يكتفى بهذه الدراسات فيذهب إلى أوروبا لاستكمال دراسته العلمية . ألا يمثل نجاح هذه المدرسة صرخة احتجاج فى وجه خصوم الإسلام ، الذين يدعون أن المسلم لا يقيم وزنا للعلوم الدنيوية ؟ .

ولو أن الحكومة ، أمام مثل هذه النتائج تضاعف عدد طلبة هذه المدرسة . أو تقبل جميع المتقدمين لها ، وتستفيد من هذه الخبرة المثمرة ، بأن تقرر فى جامعة الأزهر منهاجا شبيها ، يختار بدقة ، لحققت نتائج أكبر من ذلك بمئات المرات[٢٦٤] .

---

(٢٦٤) أرجو ألا يثور أحد فى وجهى قائلا: إن علماءنا يرفضون دراسة العلوم الدنيوية. فكثير من علمائنا المسلمين. الذين وصلتنا كتاباتهم ، والذين اثروا جميع فروع العلم الانسانى المعروفة فى عهدهم . قد تلقوا دراساتهم الأولى فى الازهر نفسه . واليوم تنشط فيه دروس الرياضة والتاريخ التى أضيفت حديثا إلى مناهجه . (المؤلف) .

ماذا يمكن استخلاصه من كل ذلك ؟ هو أن مصر قد أخذت منذ خمسين عاما تتعلم وتتثقف ، وقد انتهى بها الأمر إلى وجود عدد كبير من الرجال الذين تلقوا دراسات بالمدارس وثقفوا أنفسهم بأنفسهم ، والذين لا تنقصهم المعرفة ولا المقدرة اللتان بلغها زملاؤهم الأوروبيون .

وإذا كان هناك بين الأوروبيين أفراد أكثر تميزا ، فهذا لا يعنى شيئا ، لأننى أزعم أنه يوجد بين المتخصصين المصريين من يفوقون زملاءهم الأوروبيين فى بعض المجالات ولست أريد ذكر أسماء ، لكنى أعلنها أكيدة واضحة : ان بين أطبائنا ومهندسينا ورجال القانون عندنا كثيرين يحظون ، لعمق معارفهم ، بتقدير زملائهم الأوروبيين ، دون أدنى تردد من جانبهم ، وقد سمعت مئات الاعترافات عن قدراتهم الحقيقية .

كيف حدث أن أكد دوق داركور فى كتابه أن جمع الأوروبيين الذين يعيشون فى مصر متفقون على القول بأن جميع المصريين غير أكفاء ؟ من هم هؤلاء الأوروبيون ؟ وهل يعرفون مصر حقا ؟ فقد يمكث المرء عشرين عاما فى بلد ويظل يجهلها كما جاء إليها أول يوم وإننى أعرف فرنسيين عاشوا فى مصر عامين دون أن يعرفوا كلمة عربية واحدة ، أو يقيموا علاقة وثيقة مع أحد المصريين .

كما أعرف كثيرين من المصريين الذين عاشوا فى فرنسا خمسة أعوام دون أن يعرفوا فرنسا الحقيقية . وهل من البساطة تقييم الوضع الحقيقى لأحد الشعوب؟ أو لا يكون دوق داركور قد قابل بعض الأفراد الذين كانوا يعرفون مقدمه ، والذين لم يقوموا بدراسة جادة لبلادنا ويتعجلون فى الحكم على الأشياء ؟ ألا يكون تعرض للوقوع فى خطأ ؟ .

والواقع أنه يندر أن تقوم علاقات بين الأوروبيين وأبناء الوطن ، وإننى أقوم بالإجابة على الأسئلة التى يوجهها إلى من وقت لآخر كثير من الأوروبيين الذين يعيشون بيننا ولا يعرفون شيئا عن عاداتنا ، بل لا يعرفون شيئا عن الإنسان المصرى ، إنهم لا يجتذبون إلى الأشياء التى تؤثر فينا ، بل إنهم حين يفدون إلى بلادنا يجيئون حاملين معهم تلك الأفكار التى لقنها لهم عنا كتاب خياليون . ثم إنهم يحتفظون بهذه الأفكار دون اهتمام بالتحقق من صدقها بل ينقلونها إلى السائحين الذين يسألونهم بعض المعلومات .

أما خارج هذه الفئة التى تشكل الجزء الأكبر من الجاليات الأجنبية فى بلادنا ، فإننى مقتنع بأن الأوروبيين الذين يتحدثون لغتنا والذين يرتبطون بعلاقات مع المواطنين ، وتتاح

لهم فرصة رؤيتهم أثناء عملهم يحملون أفكارا أخرى عنهم ، كما أن كثيرين من بينهم كتبوا عن مصر وعن المسلمين صفحات نابضة بالحقائق مدعمة بالوثائق . وأعرف كثيرين منهم أدانوا كتاب السيد دوق داركور فى صرامة بالغة .

وأعترف أن الأجنبى الذى لا يعرف لغة بلد ، ويريد الكتابة عنها ، مضطر إلى الاستسلام لشهادة المقيمين فيها ، غير أن هذا منهج سيئ دائما ، فالمفروض ألا يكتب المرء إلا ما يعرفه معرفة شخصية ، فإذا لم يكن هناك ما يعرفه بنفسه فيجب ألا يكتب شيئا وأعتقد هذا واجبا يفرضه الضمير الحى . إننا نرى كل يوم أحداثا تزيف أمام أعيننا على أيدى أناس شريرين ، وكثيرا ما يحدث هذا دون قصد معين ، اذ نرى أناسا يجدون متعة فى أن يكذبوا ، وآخرين لا يستطيعون أن يتحدثوا دون أن يبالغوا ، وبعضا آخر واسعى الخيال . وكل هؤلاء الرجال ينقلون أتفه أحداث الحياة بعد أن يضيفوا إليها فى خيالهم ومبالغاتهم ما يضخمها إلى حد يبعد بها عن الصورة التى وقعت بها . ثم تريدون بعد ذلك من سائح أمضى عدة أشهر فى بلد أجنبى أن يستطيع الإلمام بكل ما يجرى فيه ، وان يقيم الأشياء والبشر ، وأن يتنبأ لأمة بأنها لا مستقبل لها ؟ ما أبعد هذا عن التاريخ . ومع ذلك فقد كان هذا هو النهج الذى سلكه دوق داركور . فوجهة نظره فى كفاءة المصريين قائمة على شهادة بعض الأفراد الذين وضعتهم الصدفة فى طريقه أثناء عشاء أو نزهة . هل يمكن أن يكون هؤلاء الأطباء المتميزون الذين نجلهم . وهؤلاء المهندسون البارعون الذين قاموا ويقومون بتنفيذ مشروعات إنشائية كبرى . وهؤلاء القضاة الاستقلاليون الذين يصدرون أحكاما عادلة ثم ذلك الشباب الممتلئ حماسة وعاطفة وأملا . الذى نلقاه فى كل مكان ، وفى جميع طبقات المجتمع هؤلاء جميعا غير أكفاء . لأنه حلا لبعض معارف دوق داركور أن يصفوهم بهذه الصفة ؟ على أن هؤلاء الذين زودوه بهذه المعلومات لا يتفقون فيما بينهم على تفسير أسباب قصور المصريين . فمنهم من يرى للمصريين ذاكرة قوية لكنهم محرومون من الذكاء ، ومنهم من يرى أنهم عاجزون عن تعميم ما يتعلمونه . ويرى ثالث أن الطبيعة الوحشية تعاودهم دائما ، ويرى رابع أن قصورهم غريزى وأن له أسبابا خفية ، وهكذا كم هو غريب حقا ميل بعض الأوروبيين إلى التقليل من شأننا بكل الوسائل ، وإننى شديد العجب من أن أحدا لم يزعم أننا نعيش بغير روح ! .

والعيب الرئيسى فى جميع هذه الملاحظات أنها ترتكز على حدث فردى ، ولو ان المصرى لا يملك ، كما يقال ، المقدرة على التعميم ، فيجب أن نعترف بأن الأوروبى قد تملك هذه المقدرة متأخرا بعض الشيء ، ذلك أنه يميل بطبعه إلى الرغبة فى خلق قوانين

وفرض قواعد تقوم فى أغلب الأحيان على رمال متحركة ، فلنفترض أن أوروبيا قد عمل بالصدفة مع مهندس مصرى ، لم يحسن الاستفادة من التعليم ، وهى حالة توجد فى كل مكان ، فى مصر كما فى أوروبا ، فسوف يستنتج من هذا الحادث الفردى أن جميع المهندسين المصريين غير أكفاء ، دون أن يفكر لحظة واحدة فى أنه إلى جانب هذا المهندس غير الكفء ، يمكن أن يوجد مهندسون آخرون ذوو كفاءة كبيرة ، وسوف يقول بلهجة حاسمة : «كلا إن جميع المهندسين المصريين غير أكفاء ، وقد رأيتهم بنفسى أثناء العمل» .

كما لو كان جميع الذين يتعلمون أحد العلوم أو الفنون يبلغون درجة واحدة من الكفاءة الحقيقية فى كل مكان دائما . وكما لو لم يكن فى أوروبا محامون بلا قضايا ، وأطباء بلا عملاء . ومهندسون خاملون . أو لا تشكل الطليعة فى كل بقاع العالم أقلية محدودة العدد ؟ .

قد يسألنى أحد : ولكن اذا كان عندكم علماء حقيقيون فلماذا لم يخترعوا شيئا حتى الآن ؟ والاجابة على هذا السؤال سهلة . ذلك أن من المستحيل على بلد بدأ يتعلم منذ خمسين عاما فقط أن يخرج من بينه مخترعون . وسيكون هذا شبيها بأن نطلب إلى طفل فى الثالثة من عمره أن يتسلق أهرامنا . إن الاختراع يعبر عن مستوى متقدم من التعليم وبخاصة من التجريب . إنه يولد من تراكم الملاحظات . خلال عدة أجيال . إنه تتويج لعمل العديد من العلماء .

ذلك شبيه بالثروات الكبرى . فهى فى حاجة إلى عدد من الثروات الصغرى تتجمع من مصادر مختلفة .

بل ذلك ما يفرضه قانون التطور الذى لا يعمل أبدا عن طريق القفزات . وكذلك فإن ابداع الفكر لا يفيض فى أمة إلا اذا كان وراءها ماض طويل من التعليم . فى حين أن الجيل الذى يبدأ التعلم لا يجد من الوقت ما يسمح له بأكثر من أن يحسن معرفة ما تعلمه ، وأن يتدرب عليه وينميه على الأكثر ، تاركا للأجيال القادمة وراءه مهمة الخلق والابتكار . ومع ذلك فقد أبدع الجيل الحالى أشياء كثيرة نسبيا . فمن بين أطبائنا وعلماء الجغرافيا والفيزياء والمهندسين ورجال القانون والفلك والتاريخ والكيميائيين والشعراء والفلاسفة قام عدد كبير بنشر مؤلفات باللغة العربية ، وهى حركة آخذة فى النمو والاطراد .

وإننى مصر — رغم الاغراء — على عدم ذكر أسماء ، فإن قائمة بأسماء مؤلفينا لن تجد

مكانا كافيا لها فى هذا الكتاب ، إلى جانب أنها لن تكون كاملة . ومع ذلك فلست أملك مقاومة رغبتى فى ذكر حالات تكشف عن كفاءة المصريين الحقيقية : ففقيد الأمس على باشا مبارك الذى ما تزال مصر كلها تبكيه هو مبدع جميع الإنشاءات ذات النفع العام التى قامت فى البلاد ، بفضل حسن بصيرته وروعة حماسته ومبادراته وخططه التى رسمها بنفسه ، ولم يحل بينه كل هذا وبين تأليف اثنى عشر كتابا علميا تماثل فى روعتها .

وبفضل الجهود المتصلة التى يبذلها الشباب المصرى من خريجى الكليات الفرنسية ينتظم الآن سير المحاكم الأهلية التى لا تقل دقة عن المحاكم الأوروبية . فهم وحدهم الذين دفعوا دولاب الحركة المعقد لهذا الجهاز القضائى الجديد .

وقد حدثنى أصدقاء موثوق بهم عن جلسات الاستشفاء السحرية التى يمارسها الأطباء المصريون من أمثال سالم باشا . ودرى بك . والليوى بك ، وغيرهم ممن دعوا لاستشارتهم مع زملائهم الأوروبيين . فقرروا تحمل مسئولية علاج مرضى عدهم زملاؤهم الأوروبيون ميئوسا منهم . بل ونجحوا فى انقاذهم تماما .

وقد حدث فى الأيام الأخيرة أن قام مراقب عام السكك الحديدية المصرية المهندس البارع أحمد بك صبرى ، خريج مدرسة الطرق والكبارى بباريس ، بتسجيل اختراع تحدثت جميع الصحف المصرية والأوروبية عن الخدمات الجليلة التى سيقدمها لمصر . وهو عبارة عن ماكينة تعمل بالبترول ، وتتبع نهجا جديدا فى الحركة ، وتتفوق على جميع الماكينات المعروفة حتى اليوم بميزات لا يمكن نكرانها ، وتحقق نتائج أكبر ، بنفقات أقل . وقد توصل هذا المهندس الموهوب إلى هذه النتيجة بتخليص غرفة الوقود من ماء التبريد . مما يحفظ لها درجة الحرارة التى ترفع عدد السعرات الحرارية . وبالتالى عدد الدورات فى الدقيقة الواحدة ، وقد صنعت هذه الماكينة فى ورش مصلحة السكك الحديدية وعرضت فى شهر يونية الماضى بالاسكندرية . وجرت تجربتها أمام عظمة الخديوى والوزراء وعدد كبير من الأعيان . وقد قلت أن هذا الاختراع يحقق لمصر خدمات كبرى ، لأن بلادنا مضطرة إلى استيراد الفحم من الخارج ، واستبدال هذا الوقود المرتفع الثمن بالبترول يوفر الكثير على ملاك الأراضى الزراعية .

وأذكر كذلك ، وبطريقة خاصة ، وفى زهو مشروع ، ذلك النجاح الذى حققه المهندس الشاب الرقيق محمود بك فهمى ، الذى يعمل بوزارة الاشغال العامة . فحين

أرادت الحكومة المصرية تزويد مدينة القاهرة بشبكة من المجارى المتطورة لم تر أفضل من عمل مسابقة عامة ، دعى إلى التقدم إليها جميع الذين يودون عمل التصميمات لهذا المشروع فى موعد أقصاه ٣١ يناير ١٨٩٢ م ، وقد شكلت ، من أجل ضمان عدم حدوث تحايل أو تزييف ، لجنة دولية تضم أحد الألمان وهو السيد هوبريشت ، وأحد الانجليز وهو السيد لوويه ، وأحد الفرنسيين وهو السيد جيرار . وكانت مهمتها فحص جميع المشروعات المقدمة ، واختيار أفضلها من الناحيتين العلمية والاقتصادية . وقد رصدت جائزة بمبلغ مائتى جنيه لصاحب المشروع الذى تختاره اللجنة ، وكان عدد المشروعات ثلاثين مشروعا قدمت من المتخصصين من جميع الجنسيات ، وكان من بينها خمسة من المصريين . وقد ظفرت ثلاثة من هذه المشروعات الثلاثين بالجائزة بإجماع الأصوات ، وكان أحدها المشروع المقدم من المهندس محمود بك فهمى ، ثم تشكلت لجنة من وزارة الاشغال العامة للإعداد لتنفيذ هذه المشروعات فاختير هو ليقوم برسم الخطط ووضع الميزانية .

كما كان هذا المهندس الموهوب هو الذى أحرز النجاح الكبير حين أعلنت بلدية الاسكندرية عن مسابقة عامة فى نوفمبر ١٨٩٢ م لمشروع إنشاء شبكة المجارى بالمدينة . وقد وقع اختيار اللجنة المكونة من السادة هوبريشت وتشيز بك وباروا على مشروعين هما مشروع الأخوة ديجيارد ومشروع محمود بك فهمى الذى منح جائزة مقدارها مائتا جنيه .

ما هى وجهة نظر دوق داركور فى كل هذا ؟ وهل يرى أن هؤلاء المهندسين الذين شيدوا جسورنا وحفروا قنواتنا ومدوا سككنا الحديدية ، وأسلاك برقنا لم يستفيدوا من دراساتهم الهندسية ، وأن معارفهم كانت عقيمة ؟ .

هذه كلها وقائع تثبت أن العلم لم يهمل فى مصر ، وحين يفكر المرء أن كل هذا قد خرج من العدم ، الذى كان يغرق الكائنات والأشياء فى ظلمة عميقة قبل نصف قرن فقط لشاركنى رأيى فى دلالة مثل هذه النتيجة . وبخاصة اذا تذكرنا أن مسيرتنا لم تكن دائما بلا عقبات ، فقد عرفت مصر دائما تقريبا تعقيدات وصعوبات بالغة التنوع ، وشهدت حكومات جاهلة وقاسية ، وأميرا أفلسها وثورة ألقت بها فى الفوضى طوال عامين .

كان كل هذا ، كما قلت ، يحمل عثرات فى طريق مسيرتنا ، ولو أنى أضفت إلى كل هذا تلك الصعوبات التى تواجه عادة كل بداية ، مثل قلة الاصرار على المتابعة والمناهج السليمة . والأساتذة الأكفاء لاستطعنا أن نتصور ضخامة الجهود التى كان من الضرورى بذلها لتحقيق هذه النتيجة .

وأستطيع أن أقول فى ايجاز : إن المصريين بعامة يستفيدون من التعليم الذى يعطى لهم فإذا صادف المرء عند بعضهم قصورا فيجب أن يرجعه إلى غياب المناهج السليمة ، دون شىء آخر ، وإننى أعرف كثيرين من بين هؤلاء كانوا قد درسوا تعليما عاليا قبل إعدادهم له . ولست أعتقد فى وجود أسباب طبيعية للقصور الثقافى ، حتى المناخ نفسه ، فما يمكن أن يكون الجو الحار نسبيا فى مصر سببا لقصور فى القدرات الذهنية ومع أنى لا أنكر أثر المناخ على البشر والأشياء ، فإنى أصرح بأنه لم يثبت أن الحرارة تحدث تأثيرا ضارا بالذكاء الإنسانى . ومع ذلك فإن الفارق بين مناخ كل من مصر وجنوب فرنسا وأيطاليا ليس كبيرا . ولهذا فمن الخلط الادعاء بأن المصرى المتعلم لا يستفيد من المعارف التى تلقاها ، فذلك اتهام جائر لا يقوم على أى أساس . وهو حكم مسبق ناشئ عن تبجح بعض الأفراد الذين يتصورون أنفسهم أرقى من الجنس البشرى كله . وأن أى كاتب لا يستند إلا إلى مثل هذه الأقاويل لا يمكن أن تكون له قيمة حقيقية .

إن واجب الكاتب أن يزن ما سوف يقوله . وألا يقول إلا الحقيقة ولا شىء سواها . بل واجب المواطن الشريف كذلك . ولننظر ماذا يقوله عنا الانجليز ، إن كل ما كتبوه عن مصر ، بما فى ذلك التقارير السنوية التى كان يبعث بها اللورد كرومر ، المحترم ، إلى حكومته ، تتضمن دون شك تقييما قاسيا لكنها فى نفس الوقت تعترف بكل وضوح بحدوث تقدم وتتنبأ بمستقبل أفضل . وذلك رغم أن لديهم من الأسباب ما يجعلهم أقل حيدة وانصافا .

اننا لا نملك إلا أن نتوجه بالعرفان لجميع هؤلاء الذين يقدمون إلينا تحذيرات نافعة ، فنحن نحب أن نتعرف على عيوبنا ، من الآخرين . وان الاجنبى الذى ينقدنا بقسوة مستهدفا الخير لنا فهو صديقنا . أما أن يأتى من يشوهنا ويجردنا من ذكائنا . ويخلق فروقا بيننا وبين الاوروبيين ، ويضعنا تقريبا فى نفس المستوى الذى توجد فيه المملكة الحيوانية ، فذلك ما لا نقبله .

إننى أعترض بكل طاقتى على هذا النهج فى الرؤية ، وان الاسلام الذى ظل طويلا يمثل القوة والنور فى العالم كله ، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية ، وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وأن يعيد ايقاد الشعلات المنطفئة .

إن مصر اليوم تجرى تجربة حاسمة نافعة للشرق كله . لقد أيقظها بعنف من نعاسها الثقيل

رجل عظيم منذ نصف قرن ، وأذاقها رحيق العلوم فأخذت تتمثله فى نشوة ، ومن يومها وهى مقبلة على التعليم ، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهى تتجه نحوه فى خطى وئيدة ولكنها ثابتة ودؤوبة .

* * *

أوروبـــا

أظهر المصريون دائما رغبة طيبة فى التعلم ، وقد كان داربك الذى خدم مصر خدمات جليلة حين عمل مفتشا بوزارة المعارف العمومية يقول : «يكفى أن تفتح فى مصر مدرسة حتى تراها قد ازدحمت على الفور بالتلاميذ» . وقد قبل المصريون بلا مقاومة ، بل وبترحيب جميع الاصلاحات التى أرشدوا إليها . كما أنهم قدروا ما كان منها طيبا حق قدره ، بينما حاولوا تقويم ما كان منهم سيئا . لقد أثبتوا دائما كفاءتهم ، وأعطوا الدليل على حسن فهمهم للأمور ولم يدخروا شيئا فى سبيل الارتقاء ببلادهم ، ودفعها فى طريق التقدم ، ومع ذلك فما تزال النتائج المتحققة قليلة الأهمية . وثمار الحصاد تافهة ، وأكبر مجهود بذل فى سبيلها يبقى عقيما .

ما سر هذا ؟ سوف اكشف عن ذلك فى صراحة ، مقتديا بالمثل الذى ضربه لى دوق داركور : ان امام مصر عقبة رهيبة هى أوروبا .

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد فى مصر منذ عصر سعيد حتى أصبح له فى عصر اسماعيل سيطرة حقيقية علينا . اذ باتت كل أفعالنا ولفتاتنا خاضعة للاوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين . وأضحى وزراؤنا يميلون مرة الى اليمين ، ومرة الى اليسار ، خاضعين دائما لاوروبا . ولم يفكر أحد فى توجيه اللوم اليهم ، وانما يرثى الجميع لهم ، مادام القانون هو آخر منطق يتعامل به فى الصراعات الدولية .

غير أن الذى أريد أن أقوله هنا هو أن أوروبا استخدمت دائما هذه السيطرة ضد مصر . وما أبعد ذهنى عن التفكير فى توجيه عتاب الى أوروبا لدأبها على تأمين مصالح الاوروبيين فى مصر ، بالسهر على أمن مواطنيها ورخائهم ، فقد كانت تستعمل حقا مشروعا ، ولكن أوليس من

حتى أن أعاتبها على عدم توقفها عند هذا الحد ، وعلى خرقها قواعد العدالة والقانون فى علاقاتها بنا ؟ ! .

ان القنصليات الاجنبية تشكل داخل بلادنا ممالك مستقلة كل الاستقلال تمتد سلطتها ليس فقط على مواطنى بلادها ، بل كذلك على عدد كبير من الرعايا المصريين أو الاتراك الذين تقوم بحمايتهم . وهذه الفئة من المواطنين الذين لا تمتد إليهم يد حكومتنا تابعة للسلطة المباشرة لهذه القنصليات التى يرتبطون بها بقوة مالها من تسلط ونفوذ .

ان مصر تقوم بحماية أرواحهم وممتلكاتهم ، وتحسن معاملتهم ، وتصغى لشكاواهم ، وتحقق لهم مطالبهم التى لا تنتهى . وقد يتدخل القنصل لفرض مطالبه . لكن مصر لا تملك الحق فى أن تطلب إلى هؤلاء القناصل أنفسهم أن يحترموا قوانينها . بل انه ممنوع عليها أن تحقق مع أى لص أو قاتل من هذه الفئة .

على انه من المؤكد أن تتكتل أوروبا ضدنا لو أنا أقدمنا على تقديم أحد الاوروبيين من مرتكبى الجرائم الى المحاكم المصرية أو المختلطة أو الاهلية . أو لو أنا مارسنا ضغطا على الاوروبيين لدفع أية ضريبة ، أو عدلنا التعريفة الجمركية من أجل حماية انتاج أو صناعة وطنية . أو فكرنا فى تنظيم الدعارة أو ممارسة مهنة الصيادلة ، أو قمنا بطرد متشرد خطر ، أو أغلقنا ملجأ فى وجه المخربين .

وقد تصور القناصل – كما لو كانت الامتيازات الاجنبية القديمة البالية لم تعد كافية لإذلالنا – انهم يستطيعون فرض عادات سيئة ، ضعفنا عن التصدى لها فترة من الزمان حتى اصبحت تشكل فى عيونهم ما يسمونه فى تطاول بالتقاليد .

هل يمكن أن نتصور حقا أن تستطيع بلد أن تسير وقد شدت أقدامها فى اغلال ثقيلة ؟ وكيف نستطيع ضمان الامن والنظام والرخاء فى بلادنا حين تعترض أوروبا طريق مبادراتنا وقراراتنا وأفكارنا ؟ وكيف يستطيع المصريون أن يتهيئوا لكى تكون مصر للمصريين فى حين أن أوروبا القوية تريد أن تكون مصر للأوروبيين ؟ .

ثم هل يليق كل هذا بأناس متحضرين ؟ اننا نشكل أمة مسلمة ، فهل يكون هذا سببا فى تبرير سلوك كهذا ، أعدت خطته ووضعت حساباته مقدما ؟ وهل هناك حق أو حدث يجيز هذه العدوانية المتصلة ؟ .

هل يستحق شعب رقيق متسامح كريم لم يظهر عداء تجاه أجنبى ، ولا اتصف بتعصب

ولا تحيز ، ويحب أوروبا وحضارتها فى صدق واخلاص ، أن تساء مكافأته ؟ .

أليس من السهل التوفيق بين مصالح الاوروبيين والمصريين ؟

ألا يجدر بأوروبا أن تعاملنا بحدب الاخت الكبرى ؟

لماذا - يا الهى - هذه الكراهية الحمقاء المتبادلة بين الجانبين . وإن تكن بالغة الضآلة من الجانب المصرى الذى يتسامح معها أكثر مما تتسامح معه أوروبا ؟ .

وما نفع الحضارة أن لم تقد البشر الى الخير؟

لقد آن الاوان لكى تدرك أوروبا أن المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وأن العدالة تفرض عليها واجب اصلاح ما أفسدته ، ويكفى أن يتعرف علينا المرء لكى يقتنع بأننا لسنا ممن يستحقون الاحتقار والاقصاء . واننى أعرف أوروبا بالقدر الذى يجعلنى آمل أن يأتى وقت قريب تعترف فيه أوروبا بخطأ سياستها الماضية .

وفى انتظار مجىء هذه اللحظة لا أملك أن أمتنع عن أن أسجل أن أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التى كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا فى العالم .

ومع ذلك فما أجدر أوروبا القرن التاسع عشر ، عصر العلم أن تتبنى سياسة وحيدة هى سياسة التقدم والنور فى كل شىء ومع جميع الناس .

* * *

خاتمة

تمر مصر اليوم بمرحلة تحول كامل فى جميع الميادين . فقد حدثت إصلاحات كبرى فى المجالين الاجتماعى والسياسى ، وأصبحت لها حكومة «لبرالية» تقدمية ، ونظام قضائى عادل . وباتت الحرية والمساواة أمام القانون كاملتين حقا وواقعا ، وازدهر الوضع الاقتصادى ، وانتظمت الإدارات الحكومية على النسق الأوروبى ، وساد النظام والأمانة ، وازدهرت الزراعة واستعادت آلاف الفدادين القاحلة خصوبتها بفضل تطوير نظام الرى ، وأصبح وضع الفلاح بعامة مقبولا رغم أنه مايزال يعانى من ثقل الضرائب وهو ينتظر تحسن وضعه ، ويعرف ما يجب عليه دفعه ، وقد وزعت الضريبة على أربعة أقساط ليسهل عليه اداؤها . فإذا لم يستطع السداد لم يعاقب بغير الحجز على محصوله وبيعه .

وقد قلت ان الضرائب ثقيلة ، غير أن الحقيقة انها موزعة توزيعا سيئا ــ حتى ان الملاك الذين منحتهم الصدفة بعض المزايا يوفرون الكثير ، ويضاعفون ثرواتهم .

وقد هبت على البلاد أنسام العلم ، فأخذ الناس جميعا يتسابقون رغبة فى التزود بالمعارف والثقافة . وهم يدركون أن هذا هو السبيل الممكن الوحيد من أجل النهضة .

ومنذ ثورة عرابى والشعب المصرى يعى لقدره وبكرامته ، وقد تفتح فكره وأخذ يهتم بالمسائل العامة للدولة ، يقيّمها ويصدر عليها حكمه ، وكانت الصحافة وحرية الدفاع ونشر جلسات المحاكم هى أحسن مدرسة تعلم فيها الشعب وعرف عن طريقها حقوقه .

ونستطيع أن نوجز قائلين : لقد تيقظت مصر .

أيكون هذا وهما يتراءى لى ؟ أو لعل حب بلادى قد أعمانى . كما يحدث لرجل لا يريد أن يصدق موت عزيز له فيظل متعلقا بالامل رغم حكم الطبيب القاسى ؟ لست اعتقد ذلك ، لقد أطلت التأمل فى ابناء وطنى ، بل لقد بذلت جهدا أكبر مما يبذله الاجنبى فى دراستهم والتعرف عليهم ، واعتقد اننى نجحت فى أن أكتشف أعماق وجدانهم .

وحين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام ، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائى قبل أن يرد على خاطرى فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، واحزننى انه حاول انتزاع جميع آمالى ، غير أننى أخذت أسترد هدوئى شيئا فشيئا . وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ماكتبه عنا . وتأملت جميع المشاكل التى وضعها وحلها ، وخلعت عنى صفتى المزدوجة كمصرى مسلم ، لأحلل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم أسترشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة ، حتى استطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله أجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف ويقيمها بطريقة محايدة .

لقد انطلقت مصر ، فى اللحظة التى اكتب فيها هذه السطور ، فى طريق الحضارة ، وهذا يساوى انها خرجت من جمودها ، وهى تحس بهذه الحركة التى تدفعها الى الامام ، والى جانب انها لا تحاول مقاومة هذه الحركة فإنها تبذل كل ما تستطيع لتسرع فى مسيرتها ، وها هو موقف الشعب المصرى الدقيق فى إيجاز : أليس السير والرغبة الواعية فى السير بإخلاص ، مع معرفة أسباب السير ووجهته ، هو معيار التقدم ؟ .

ذلك هو بالتحديد موقف مصر .

لا أحد يستطيع ــ فى تصورى ــ أن يدعى أن المصرى اليوم يختلف كل الاختلاف عن المصرى فى عهد محمد على ، كى لا نبعد كثيرا عن ذلك . وقد نجد فى عاداتهما وطريقة لباسهما ومسكنهما كثيرا من أوجه الشبه ، غير أن هناك هوة تفصلهما ، لكن الأجنبى لا يراها . فالمصرى فى عهد محمد على كان يجد كل ما يفعله ملكه المستبد شيئا مشروعا ، بينما يدرك المصرى اليوم جميع حقوقه .

وليس إدراك المرء لحقوقه إلا المرحلة الأولى ، وهى أصعب المراحل التى تخطتها الأمم التى تحضرت .

وحين يعرف المرء حقوقه يصبح على وشك المطالبة بها ، ثم ما يلبث بعد ذلك أن يطالب بحقوق أخرى جديدة ، كما تفعله ، فى أيامنا هذه ، الشعوب الأوروبية .

هل يعنى هذا أن الشعب المصرى يعيش فى نفس الموقف الخلقى والسياسى الذى يعيش فيه الشعب الفرنسى ؟ كلا . فإن احدهما يبدأ فى حين أن الآخر قد وصل بالفعل ، بل لعل من الافضل أن نقول قد انتهى . ومهما آمنا بأن تطور البشرية نحو الكمال متصل ودائم ، فإن هناك حدودا يجب الوقوف عندها ، أو الارتداد الى الوراء . ومن الصعب ان نسلم بأن لهذه البشرية البائسة مصيرا آخر غير أن تتقدم وتتراجع . اذ يحتمل أن تبقى جميع المشاكل التى ترتبط بمستقبلها فوق قدراتها العلمية .

ومهما يكن من شىء ، فإن مصر قد بدأت بالفعل تنتظم فى طريق الحضارة . وقد ظهرت حاجتها إلى أن تتحضر ، وأن تجرى إصلاحات واسعة لا فى أخلاقها ولا فى عقيدتها الدينية وهما فى نظر من لم يدرسها من أقوى عوامل التقدم ، وإنما فى أن تضع العلم والحقيقة مكان الأخطاء وخرافات الجهل . أما مالم يكن ضروريا لبداية التحضر ، فإنه لن يكتسب أهمية أكبر من أجل اتصاله ونموه .

ترى هل تواصل مصر مسيرتها ؟ إن انجلترا هى بالفعل سيدة مصر اليوم . ولم تقو مصر ولم تبلغ من الوعى بعد ما يتيح لها الوقوف فى وجه الاعتداءات المختلفة التى يمكن أن تعرقل مسيرتها التقدمية .

ومن هنا يجب أن نحمل انجلترا مسئولية مستقبل مصر ، مادامت تمسك مصيرها بين يديها .

ولو أننى تركت لنفسى عنان التنبؤ ، مغامرا بالضرب فى أرض السياسة المضطربة وألح على الخيال أن أحدد ما تخبئه الأحداث المستقبلة لمصر ، لقلت إن ضمير الأوروبيين بعامة واخلاص انجلترا بخاصة ، لن يسمحا أبدا لهذا البلد الذى تحرر من الفساد الدكتاتورى واسترد أحاسيسه الأصلية وحبه للأمانة والمجد والكدح ، أن يسقط ثانية فى مهاوى التدهور والانحطاط .

لقد اتجه اللورد دوفرون[٢٦٥] فى تقريره الممتاز الذى بعث به عام ١٨٨٣ م إلى اللورد جرانفيل[٢٦٦] بعد اقامة عدة أشهر فى القاهرة ، إلى التوصية بإقامة نظام حكومى إنسانى جدير بتطبيقه فى مجتمع بشرى ، وقد ذهب بعد تسجيله لبقاء مصر غارقة فى الجهل ، إلى القول : « بأن علينا ألا نيأس من بلوغ هدفنا ، لأن العلوم والاختراعات والاتصالات مع أوروبا ، والتى تميز عصرنا الحالى ، قد أحدثت بعض الآثار الواضحة فى حياة الفلاح فقد دفعته إلى الاحساس بجدارته . وجعلته يؤمن بإمكان حدوث أشياء كان يراها من قبل مستحيلة . وبات مثل الإله ممنون الذى لم تصدر شفاهه أصواتا بعد ، غير أنها قد تحركت إذ كشف . أكثر من مرة عن قدرته على أداء وظائف كان يعدها فى الماضى مخصصة لمواطنى مجتمعات أكثر تحضرا . وليس ذلك فقط ، بل أظهر أنه يملك القدرة على تقييم مشاكله السياسية وامتيازاته الخلقية ، وكان ذلك مفاجأة له وغير متوقعة منه » .

وقد أشار اللورد الكريم ، انطلاقا من هذه الفكرة ، إلى عدد من الاصلاحات التى اقر أغلبها ، وأصبحت الآن مزدهرة ، ومن بينها تأسيس مجلس تشريعى ، وانشاء محاكم جديدة .

وقد برر مطلبه بتأسيس المجلس التشريعى قائلا : « ان المجتمعات الشرقية رغم قيامها حتى اليوم على قوة الاستبداد البشع ، فيجب ألا ننسى أن الدين الإسلامى قائم على مبادئ ديمقراطية ، وأنه يوجد فى مصر مجالس بجانب السلطة العليا ، منذ عهد بعيد ، حتى أن مبدأ الانتخابات موجود حتى بين سكان الريف » .

---

(٢٦٥) دوفرون ، فردرك ، تمبل ماركيز (١٨٢٦ - ١٩٠٢ م) من غلاة الاستعماريين الانجليز .. ظهرت مواهبه الاستعمارية اثناء خدمته فى الهند (١٨٨٤ - ١٨٨٨ م) ومن قبل ذلك عندما شغل منصب وكيل وزارة الهند فى الحكومة البريطانية (١٨٦٤ - ١٨٦٦ م) .. ولقد مكث بمصر عدة أشهر من نهاية سنة ١٨٨٢ م حتى أوائل سنة ١٨٨٣ م حيث أعد تقريره الذى خطط فيه لتهيئة الواقع المصرى للاحتلال البريطانى .

(٢٦٦) جرانفيل ، جورج ايرل (١٨١٥ - ١٨٩١ م) كان وزيرا لخارجية بريطانيا عند احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ . كما تولى منصب وزير المستعمرات من سنة ١٨٦٨ م حتى سنة ١٨٧٠ م .

ثم تحدث عن المحاكم قائلا : « لقد بقيت أمامنا عقبة اخيرة ، هى أن نعثر على قضاة من المواطنين المثقفين الذين يوحون بالثقة ، وعلى اية حال فإن المواطنين كالاوروبيين الذين سيعينون فى هذه المحاكم سوف يكونون جددا على هذا المجال . وليس فى مصر مشرعون حتى الآن ، ولا شك أن التجربة ستكشف عن وجود ثغرات وقصور فى القانون ، وفى تنفيذه ، ولست أعتقد ان هؤلاء الذين أقنا لهم هذا الجهاز القضائى يستطيعون الالمام بكل تفاصيل حركته من الوهلة الاولى ، رغم اعداده على أساس أن يكون متلائما مع عاداتهم ، ومعارفهم ، بقدر ما سمحت بذلك الظروف . غير أنى أثق فى امكان تذليل هذه الصعوبات مع مرور الايام . كما أثق فى أن المواطنين الغيورين الذين زودوا وطنهم بهذه المحاكم سوف يشهدون النتائج الرائعة التى تبعث الرضا كله فى نفوسهم » .

والآن . هاهى عشر سنوات مرت منذ كتب اللورد دفرين تقريره ، وليس من المبالغة أن نؤكد أن كلماته التى أملتها عليه عواطفه النبيلة قد تحققت واحدة فى أثر الأخرى .

لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها ، حتى ان قادتنا يستلهمونه افكارهم . كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى أن هذه السنوات العشرة تمثل تدريبا كافيا ، وأن مصر بعد ألفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشاريا فقط ، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح ، غير اننا نود بالطبع نظاما تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى .

أما المحاكم الوطنية ، فمن المؤكد أن نتائجها قد فاقت كل ما كان يتوقعه اللورد دفرين المحترم . وقد تم فى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور فصل ثلثى الكتبة القضائيين الجهلة الذين كانت الحاجة قد فرضت استخدامهم فى البداية . كما تم استبدالهم بآخرين من أهل المهنة المدربين . ويستطيع المحامون ورجال القضاء الاوروبيون الذين تعاملوا مع هذه المؤسسة الجديدة بحكم مهنتهم أن يشهدوا بقيمتها الحقيقية . واننى استمع اليهم كل يوم وهم يكررون أن التقدم الذى تحقق مثير للدهشة . وقد قال لى يوما أحد أصدقائى الاوروبيين وهو يشغل وظيفة هامة فى (مصلحة العدل) : « أعترف لك اننى لا أرى ضرورة لبقائنا بعد ذلك » .

وأضيف الى ذلك أن جميع الأوروبيين تقريبا الموجودين فى الريف يحولون ديونهم الى مواطنين ، ثم يجعلونهم يرفعون الامر الى القضاء الوطنى ، حتى يظفروا بحقوقهم بسرعة أكبر . ولا شك أن هذا يمثل من وجهة نظرى نتيجة رائعة تلك التى حققتها مؤسسة انشئت فى البلاد منذ عشرة أعوام فقط .

ثم ان الذى قلته عن المحاكم يمكن أن ينطبق على كل شيء آخر .

يصدق داركور حينما يقول فى كتابه : « إن مصر الرسمية قد تغيرت فى نهجها الحكومى ، كما تغير رجال الدولة فيها » . فلا شك فى أن هذه حقيقة ، ولكن ليس بالشكل الذى جرى اليه خياله لمجرد حلول بعض الموظفين الانجليز محل مواطنين مصريين . فقد كان الانجليز أنفسهم أكثر انصافا لنا حين تحدثوا عنا فى جميع المناسبات التى أتيحت لهم . وقد أعلنوا اعترافهم الصريح بالتعاون المثمر من جانب الموظفين المصريين الذين ما يزالون يحملون أعباء العديد من الوظائف الهامة بكفاءة واخلاص متساويين .

وانني أخلص من جميع ما سبق الى أن التربية السياسية فى مصر قد اكتملت اليوم ، وانني أدين لهذا اليقين بذلك الهدوء النفسى الذى يحمينى من أى احساس بالمرارة أو اليأس فى هذه الأيام .

* * *

انشاء الجامعة [٢٦٧]

إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ، ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل ..

نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم ، نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى من البلاد الاخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم وعالما يرجع إليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه .

أمثال هؤلاء قادة الرأى العام عند الامم الاخرى ، والمرشدون الى طريق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها ، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون .

إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى إزالته ، وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا ، وأهملت تربية قلوبنا ، فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب .

إن الارتقاء فى الإنسان تابع على الخصوص لإحساسه ، وان أكثر الناس استعدادا للكمال هم أصحاب الأحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث ، وتبلغ

---

(٢٦٧) ألقى قاسم أمين هذه الكلمة فى اجتماع عقد بمنزل حسن باشا زايد . بالمنوفية ، للدعوة لإنشاء الجامعة المصرية .. وفى هذا الاجتماع وقف حسن باشا زايد خمسين فدانا لحساب المشروع . وكان ذلك فى ١٥ ابريل سنة ١٩٠٨ م .

الانفعالات النفسية مبلغا عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الاشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى إليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو عالما حكيما أو وليا طاهرا أو نبيا كريما . ولى أمل عظيم أن إنشاء الجامعة المصرية يكون سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال .

* * *

الإمام محمد عبده
أخلاقه وفضائله وإمامته

سادتى [٢٦٨] :

إذا أصيبت أمة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه فى اصلاح شأن من شؤونها قال قومه : ليس فى الوجود انسان لا يعوض ، ووجدوا فى الحال بين أهل طائفته أو صناعته من يسد الفراغ الذى تركه ويأخذ مكانه .

أما الحال عندنا فليس كذلك ، مهما قلبنا النظر ودققنا فى البحث والتفتيش فلا نجد فى أمتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده . لا أقول ذلك محاباة لصديق كانت محبته من أسباب الشرف والسعادة لشخصى ، ولا موافقة للعادة المتبعة فى رثاء المتوفين ، حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم أحد بشىء منها مدة وجودهم بين الأحياء .

وإنما هذا هو الحق الذى يجب اعلانه بالفضل لمصرى وصل إلى أسمى مقام يمكن أن يناله إنسان فى هذه الحياة . مقام لم يستمد وجوده من منصب عال فى الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شىء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التى اخترعت لتحل محل شرف النفس ، مقام اهتدى إليه بشعوره واكتسبه بجده وعمله ، وحافظ عليه بقوة ارادته وحسن سياسته ، وخدم فيه بعلمه وعمله ، مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ويحركها نحو الخطة التى رسمها ويسوقها إلى طريق المستقبل الذى هيأه لها ، مقام الإمامة بأوسع معناها ، تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد فى مصر واحد يجرأ على أن يدعى فيه استحقاقا بعده .

---

(٢٦٨) ألقى قاسم أمين هذه الكلمة فى تأبين المرحوم الإمام محمد عبده ، فى ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته . (٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م) .

لهذا رأينا مدة مرض الإمام ويوم وفاته حركة فى شعور الأمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ حياتها .

تتذكرون يوم السفر إلى الاسكندرية حيث كان المئات من أصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعونه فى المحطة وجميعهم فى سكون وقلق وخوف على حياته ، وتتذكرون اقامته فى الرمل والزائرون من جميع طبقات الأمة ومن جميع جهات القطر يتوافدون عليه أفواجا فى كل ساعة من النهار ، وهم يترددون بين الأمل واليأس ، يسألون عن صحته ويرسلون أخباره إلى محبيه الكثيرين الذين كانت تمنعهم أشغالهم عن زيارته ، وتعلمون الاحتفال الجليل الذى قام به سكان الثغر والعاصمة بعد موته .

رأينا كثيرا من العلماء والذوات والأمراء مرضوا وماتوا ، فكانوا موضوعا للمظاهرات الرسمية ، ولم نشاهد أن عددا يذكر من الأمة غير أقاربهم وأصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث وأظهر شيئا من شعوره .

ذلك لأن أولئك العلماء والذوات والأمراء عاشوا لأنفسهم ، لكن أمتنا قد شعرت فى هذه الدفعة بحسن غيرتها أنها فقدت رجلا كان عائشا لها أكثر من كونه كان عائشا لنفسه ولعائلته .

هذا هو سر الشعور الجديد الذى رأينا لأول مرة فى الأمة المصرية ـ شعور الاتحاد فى الكدر والحزن لحرمانهم من إمامهم المحبوب .

فكان هذا الحادث العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الأمة المصرية جمعهم أحساس واحد ، وهذه خطوة فى سبيل التقدم الأدبى الذى هو فى نهاية الأمر عبارة عن ترقى الاحساس إلى درجة يميل معها إلى الجميل وينفر من القبيح فى جميع أشكالها ومظاهرها .

سادتى : إن كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح ، والكمال المطلق لا يوجد فى هذا العالم ، ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها .

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز ، نفس خلقت على أحسن شكل ، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا فى الجمال يجب أن نضعه دائما أمامنا لنعلم منه

مقدار ما يصل الجهد فى العمل عند رجل اقترب من سن الستين وكان يطالع ويتعلم ويعلم ويفتى ويجلس فى جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى ويترأس على (الجمعية الخيرية الإسلامية) ويضع المشروعات للأزهر وللمحاكم الشرعية ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليه ويراسل علماء المسلمين فى جميع الاقطار التى يسكنونها ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده ، وكان مع كل ذلك يجد وقتا ليزور أصحابه ويشاركهم فى جميع أفراحهم وأحزانهم .

ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق فى إنسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها إلى أقصى ما تصل إليه نفس بشرية من الجمال والكمال .

بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير ، عام أو خاص . كان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة ، وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجا إلى المساعدة ، لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل إليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لأعز إنسان لديه ـ يسعى مرة ومرتين وثلاثا إلى أن يقضى حاجتهم ، وهم جميعهم فى نظره مستحقون ، سواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا ، بل كان يسعى إلى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته .

لا يصل الإنسان الى هذا الخلق العظيم إلا اذا ربى نفسه على أن تتغلب على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكما عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقا ، وأن التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله ، كان متفقا مع فلاسفة العصر على أن الخير لا يتولد إلا من الخير والشر لا ينتج إلا من الشر .

نعم كان للإمام الكبير الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه فيقتصرون على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل ـ وعلى جوانب هذا الجيش يحرض على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون اذا ارتفع واحد

من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم إلا إذا انزلوه من مكانه ووضعوه فى مستوى واحد معهم – وفى مقدمة هذا الجيش ، كقواد له ، أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتى الرياح . فكان الأستاذ يقاوم ويحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار العقل فيهما ، ولكنه كان يدافع بقدر الضرورة ، ولا يتعداها ويحارب حرب الشجاع الكريم الذى لا يطعن من الخلف ولا يخدع ولا يغش ، وكان فضلا عن ذلك لا يكره خصومه ولا يبغض أعداءه ، وإنما يناقش أفكارهم ويطعن على أوهامهم ويهدم معتقداتهم الباطلة ويرجو لهم الهداية ويرشدهم إلى الصواب .

كان الكثير من أصحابه ينصحونه أن يجتنب أسباب العناء ، ويترك إدارة الأزهر والدروس التى كان يلقيها فيه ، ومجلس الأوقاف ، ومجلس الشورى ، والافتاء ، ويعود إلى مركزه فى الاستئناف براتب أعظم مما كان يكسبه وعمل أخف مما يكابده ، فيعيش كغيره خاليا مستريحا مطمئنا ، ولكنه لم يسمع قول نصوح . وأقول إنه كما عرفته كان من المستحيل عليه أن يعيش عيشة أخرى ! .

وكان الكثير من الناس يعترضون عليه قائلين : ما هذا الشيخ الذى يتكلم الفرنساوية ويسيح فى بلاد الأفرنج ، ويترجم مؤلفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويباحث علماءهم ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين . ويشترك فى الجمعيات الخيرية ، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ؟ ! – ان كان من أهل الدين فليقض حياته بين الجامع والبيت . وإن كان من رجال الدنيا فإنا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس ! . كان الأستاذ يسمع ذلك ولا يلتفت إلى أقوال المنتقدين ، حسنت نيتهم أو ساءت .

من يرى أن الحياة لهو وزينة له أن يعيش ليأكل ويشرب ويسافر وينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين . أولئك لا يعلمون أن امام مصر كان محركا بقوة فوق الاعتيادية ، وأن عقله كان ملآن بالفكر إلى حد أنه ما كان يسعه كله ، فكان يفيض منه بالرغم عنه . وأن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلا يستريح إلا وهو مشغول به وبسعادته ومستقبله ، وأنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالى بالألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هوى من يحبه .

كم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على ألا يتداخل فى شىء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان .

ذلك لأنه كان ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، عنده أمل لا يزعزعه شيء فى اصلاح أمته . كان عنده اعتقاد متين فى ان البذرة الطيبة متى ألقيت فى ارض بلادنا الخصبة نبتت وازهرت واثمرت كما نبتت وازهرت وأثمرت بذور الفساد فيها .

لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ـ كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة ، وكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده .

وهل كان مخطئا فى آماله ؟ كلا ، وإنما يخطئ من يقنط وييأس من مستقبل أمته .

إن لم تسمح القدرة لإمام مصر بإتمام مقاصده جميعها فلا ينكر أحد أن تعاليمه قد أثرت فى عموم الأمة ، وفى أهل الأزهر على الخصوص تأثيرا حسنا .

ولكن ينبغى ألا يغيب عن فكرنا أن الأمم التى تستفيد من الإصلاح هى التى تستحقه أى تدركه وتفهمه وتحبه وتطالب به وتكرم رجاله وتحترمهم وتعزهم ، وإلا فكل اصلاح فيها مصيره الزوال السريع .

انه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الاصلاح الذى وضع الامام أساسه ، ونحافظ عليه ونضيف اليه ان أمكننا ، حتى نتركه الى ذريتنا كميراث نفيس تنتفع منه ، وتزيد عليه ، ثم تتركه الى من يأتى بعدها ، وهكذا ينمو الاصلاح فينا كلما مرت الايام والاجيال كما هو الحال عند الامم الحية .

صادق : نحن اليوم فى عصر توفرت فيه ظروف عديدة تساعد على ارتقاء بلادنا اذا نحن عرفنا أن نستخدمها ، نحن فى عصر النظام والحرية التى لا تقف إلا عند حد القانون ، وأرى المفسدين منا تجارتهم رابحة ، يتكلمون بصوت عال ، وينشرون ما يوافق مصالحهم ، ويختلسون ثقة الجمهور ورضاء ولاة الامور . أراهم بالاجمال ينتفعون من الحرية التى مُنِحَها المصريون ، وأرى بعكس ذلك أن الطيبين منا الصادقين الذين يريدون الخير لبلادهم لا يستعملون حريتهم ولا ينتفعون منها بشيء ، يتكلمون بصوت منخفض ، أو لا يتكلمون ولا ينشرون أميالهم وآراءهم ، ويبتعدون عن ولاة أمورهم ، ويترفعون عن المناقشة والجدال ، ولا يميلون الى الجهاد فى سبيل الحق والعدل والمنفعة العامة ، فكان ضعف هؤلاء وجرأة أولئك من أهم العوائق التى صادفها الامام فى طريق الاصلاح .

واذا دام هذا الحال كان نصيب ما شيده من البناء الخراب والسقوط .

أما اذا عدل محبو الاصلاح منا عن خطتهم ، وجاهروا بأفكارهم ودافعوا عن آرائهم وتركوا ما اعتادوا عليه من الافراط فى الحرص على راحتهم والمسالمة الزائدة عن حد المعقول ، وساروا فى الطريق الذى رسمه لهم امامهم ، ملهمين بروحه ، مهتدين بنوره ، مقتدين بسيرته ، معجبين بما أظهره فى حياته من علو النفس وشهامة الخلق وشجاعة الرأى وثبات العزيمة . فلا ريب أن البناء يكمل ، والاصلاح يتم ، ويحقق ما كان أستاذنا وإمامنا العزيز يريده ، وما يتمناه كل مصرى من الشرف والمجد والسعادة لأمته .



تحرير المرأة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسألة من المسائل التى أجملتها فى هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل بيعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن إلى موضوع قل عدد المفكرين فيه ، لا أن أضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الإنسانى . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها فى أذهان أولادنا ، وظهرت ثمراتها ، وعملوا على اقتطافها ، والانتفاع بها .

ويرى المطلع على ما أكتبه أنى لست ممن يطمع فى تحقيق آماله فى وقت قريب ، لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث فى أمة من الأمم وتبدو ثمرته فى أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط ، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة .

وما نحن فيه اليوم ليس فى الطاقة البشرية تغييره فى الحال . وليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة ، لأن كل عصر لا يسأل إلا عن عمله . وإنما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا ، وندعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد فى كل زمان ومكان . وأن نعاند الحق وهو واحد ، لا يحتاج فى تقريره إلى تصديق منّا به ، وكل ما نقوله أو نفعله لإنكاره لا يؤثر فيه بشىء وإنما يوثر فينا أثر الباطل فى أهله ، ويقوم حجابا بيننا وبين إصلاح أنفسنا ، إذ لا يمكن لأمة أن تقوم بإصلاح ما إلا اذا شعرت شعورا حقيقيا بالحاجة إليه ، ثم بالوسائل الموصلة له .

لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك فى أن أمته فى احتياج شديد إلى

إصلاح شأنها. فهؤلاء المتعلمون الذين أخاطبهم اليوم أقول: إن عليهم تبعة مانألم له فى عصرنا هذا . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى أمتهم العجز واليأس والقنوط ، فإن ذلك صورة من صور الكسل أو مظهر من مظاهر الجبن أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بإلهه ، وأراهم بهذا يستسلمون إلى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف فى الجماد والنبات ، وتقذف بهم إلى حيث يحبون أو لا يحبون .

وقد طرقت بابا من أبواب الإصلاح فى أمتنا ، والتمست وجها من وجوهه فى قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم فى مجموعها ، وأتيت فى ذلك بما أظنه صوابا ، فإن أخطأت فلى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئ . وإن أصبت ، كما أظن ، وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا على نشر ما أودعته فى هذه الوريقات ، وتأييده بالقبول والعمل .

تمهيد

(حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية
تابعة لحالة الآداب فى الأمة)

إنى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التى وصلت إليها ، وهى : ضرورة الإصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغلنى بورودها ، وتنبهنى إلى مزاياها ، وتذكرنى بالحاجة إليها ، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر.

ومن أحكم الأشياء التى يدور عليها تقدم النوع الإنسانى ويؤكد حسن مستقبله.هذه القوة الغريبة التى تدفع الإنسان إلى نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت إلى غاية نموها الطبيعى فى عقله ، واعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ، ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها من وجد فى نفسه شيئا منها . يشعر أنه إن لم يسابقها إلى ما تندفع إليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته إن غالبها وقاومته إن قاومها وقهرته إن عمل فى قهرها ، وظهرت فى غير ما يحب من مظاهرها ، كأنها الغاز المحبوس لا يكتم بالضغط ، ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتى على هلاك ما حواه .

والبراهين على ذلك كثيرة فى الماضى ، فإن تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التى قامت فى سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب ، وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل ، وكانت الأمم الإسلامية على هذه الحال فى القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد فى البلاد الغربية التى يصح أن يقال فيها إن حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلى بين أفراد الأمة فى جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجى بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصًا فى هذا القرن الذى ألغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والأبعاد وهدمت الحدود الفاصلة والأسوار المانعة حتى

أن الأشخاص الذين ساحوا فى جميع أنحاء الأرض يعدون بالألوف . وإذا ألف رجل من مشاهيرهم كتابًا ترجم فى أثناء طبعه وظهر فى خمس أو ست لغات فى آن واحد ! .

ولم يركن إلى حب السكينة إلا أقوام على شاكلتنا . فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التى لا يصلح فيها نبات ، وحتى مال بنا الكسل إلى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثًا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح فى هذه الأزمنة .

وكثيراً مايكتفى الكسول وضعيف القوة فى الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول : تلك بدعة فى الإسلام . وما يرمى بهذه الكلمة إلا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث أو الأجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم ، وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الإنسانى وسائر المخلوقات الحية .

سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة . فأقول : نعم أتيت ببدعة ، ولكنها ليست فى الإسلام . بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها .

لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله ، مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبدل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه ، إذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان؟ من ذا الذى يمكنه أن يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم أنها ثمرة من ثمرات عقل الإنسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان ؟ المسلمون منتشرون فى أطراف الأرض . فهل هم أنفسهم متحدون فى العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذى يمكنه أن يدعى أن ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركى أو الصينى أو الهندى . أو أن عادة من عادات البدوى توافق أهل الحضر أو يزعم أن عوائد أمة من الأمم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير .

والحقيقة أن لكل أمة فى كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها ، موافقة لحالتها العقلية . وأن تلك العوائد والآداب تتغير دائمًا تغيرًا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة

والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد والنظامات السياسية وغير ذلك . وأن كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتمًا أثر يناسبها فى العادات والآداب وعلى ذلك يلزم أن يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلافات بقدر ما يوجد بين مرتبتيهما فى العقل. وهو الأمر المشهور الذى لا ريبة فيه. وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والأوروباوى.

ولا يمكن أن يتصور أحد أن العادات ، التى هى عبارة عن طريق سلوك الإنسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه ، تكون فى أمة جاهلة أو متوحشة مثل ما تكون فى أمة متمدنة ، لأن سلوك كل فرد منهما إنما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته .

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى أن سلطان العادة أنفذ حكمًا فيها من كل سلطان . وهى أشد شئونها لصوقا بها ، وأبعدها عن التغيير ولا حول للأمة عن طاعتها إلا إذا تحولت نفوس الامة وارتفعت أو انحطت عن درجتها فى العقل . ولهذا نرى أنها تتغلب دائما على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم فى بلادنا من أن القوانين واللوائح التى توضع لإصلاح حال الأمة تنقلب فى الحال إلى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه .

وهذا هو الأصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخى من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها . وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها . فقد علمنا أنه فى ابتداء تكون الجمعيات الإنسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق فى شىء ، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلاً تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها . وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة . فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ، ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها . وكان من المباح عند العرب قبل الإسلام أن يقتل الآباء بناتهم ، وأن يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعى ولا عدد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل أفريقيا وأمريكا المتوحشة . وبعض الأمم الآسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة ، وإنها لا ينبغى أن تعيش بعد زوجها ، ومنهم من يقدمها إلى ضيفه اكراما له كما يقدم له أحسن متاع يمتلكه .

كل هذا يشاهد فى الجمعيات الناشئة التى لم تقم على نظامات عمومية ، بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة ، والقوة هى القانون الوحيد الذى تعرفه . وهكذا الحال الآن فى

البلاد التى تدار بحكومة استبدادية لأنها تحكم كذلك بقانون القوة .

أما فى البلاد التى ارتفعت إلى درجة عظيمة من التمدن ، فإنا نرى النساء أخذن يرتفعن شيئًا فشيئًا من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التى كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشى وتلك تعدو ، كل ذلك بحسب حال الجمعية التى تنتسب إليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الأمريكية فى أول صف ، ثم تتلوها الانجليزية ، وتأتى بعدها الألمانية ، وتليها الفرنساوية ، ثم النمساوية ، ثم التليانية ، ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال ، فهى تبحث عن الوسائل لنيله . وأنها جديرة بالحرية ، فهى تسعى للوصول إليها وأنها من نوع الإنسان ، فهى تطالب بكل حق للإنسان .

والغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء حسن إلى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحى ساعدها على نيل حريتها ، ولكن هذا الاعتقاد باطل . فإن الدين المسيحى لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة . ولم يرسم للناس فى هذا الموضوع مبادئ يهتدون بها . وقد أقام هذا الدين فى كل أمة دخل فيها بدون أن يترك أثرًا محسوسًا فى الأخلاق ، من هذه الجهة ، بل تشكل نفسه بالشكل الذى أفادته إياه أخلاق الأمم وعاداتها . ولو كان لدين سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض .

سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، وخولها كل حقوق الإنسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية ، من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها . وهذه المزايا ، التى لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات ، كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل إن شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافًا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق .

والميل إلى أن تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الإسلامية حتى فى مسألة التحلل من عقدة الزواج ، فقد جعلت لها فى ذلك طرقًا جديرة بالاعتبار سيأتى الكلام عنها خلافًا لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين .

ولم أر إلا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهى تعدد الزوجات . والسبب

فى ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب التى لا يقوم للزواج حياة بدونها ، وسيأتى الكلام عليها أيضًا فيما يلى . وبالجملة فليس فى أحكام الديانة الإسلامية ولا فيما ترمى إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الأمر بالعكس فإنها أكسبتها مقامًا رفيعًا فى الهيئة الاجتماعية .

لكن ، واأسفاه ! قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الإسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد وأوهام ، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الأمم حدًا يصل بالمرأة إلى المقام الذى أحلتها الشريعة فيه ، وكان أكبر عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا .

تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائمًا ، فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة ، فحكموا كيف شاءوا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون لها صوت فيها .

نعم إن كان الحاكم صغيرًا أو كبيرًا ملزمًا باتباع العدل واجتناب الظلم ، لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال إذا لم تجد حدًا تقف أمامه ورأيًا يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الأمم الإسلامية وهى تحت حكم الاستبداد المطلق ، وأساء حكامها فى التصرف ، وبالغوا فى اتباع أهوائهم ، واللعب بشئون الرعية . بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة . ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبهم .

إذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف أثره فى الأنفس عندما هو فى نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم إلى من دونهم وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى أو لم يرض .

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق .

قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة أن الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل إلى الشفقة ، لما يقاسيه من المصائب التى تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على أن الأمة المظلومة

لا يصلح جوها ولا تنفع أرضها لنمو الفضيلة ولا يربو فيها إلا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين ـ وما العهد منهم ببعيد ـ يعلمون أن شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مائة من الأهالى . والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج عند عودته إلى بلدته ينتقم من مائة فلاح .

فمن طبيعة هذه الحالة أن الإنسان لا يحترم إلا القوة ولا يردع إلا بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس برجليه على شخصيتها . عاشت المرأة فى انحطاط شديد أيا كان عنوانها فى العائلة ، زوجة أو أمًا أو بنتًا ، ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة . فنَى شخصها فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات واستعملها الرجل متاعًا للذة ، يلهو بها متى أراد . ويقذف بها فى الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق . وله العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه :

من احتقار الرجل المرأة أن يملأ بيته بجوار بيض أو سود أو بزوجات متعددة ، يهوى إلى أيهن شاء ، مقادًا إلى الشهوة مسوقًا بباعث الترف وحب استيفاء اللذة ، غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ، ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتى .

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب .

من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء ، من أم وأخت وزوجة ، ويأكلن ما فضل منه .

من احتقار المرأة أن يعين لها محافظًا على عرضها مثل أغا أو مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه .

من احتقار المرأة أن يسجنها فى منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة على النعش إلى القبر .

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلاً للثقة والأمانة .

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شىء يتعلق بها : فليس لها رأى فى الأعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى

الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور مليّ .

ولست مبالغًا ان قلت : ان ذلك كان حال المرأة فى مصر إلى هذه السنين الأخيرة التى خفت فيها نوعًا سلطة الرجل على المرأة تبعًا لتقدم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ورأينا النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ويترددن على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهواء وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات التى عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق ، رجلاً كان أو امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن إلى السياحة فى بعض البلاد الأخرى . وكثير من الرجال قد أعطوا لنسائهم مقامًا فى الحياة العائلية .

وهذا إنما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس أولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم إلى أمانتهن : وهو احترام جديد للمرأة .

نعم لا ننكر أن هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد فى الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الأحوال التى احتفت به ، وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى أنفس الجمهور الأعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الأدب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الإسلامية سقطت كل تلك الانتقادات ، وأمكن للأمة أن تنتفع بجميع أفرادها ، نساء ورجالاً .

تربيــة المــرأة

المرأة ، وما أدراك ما المرأة ! . إنسان مثل الرجل . لا تختلف عنه فى الأعضاء ووظائفها ولا فى الاحساس ولا فى الفكر ، ولا فى كل ما تقضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان اللهم إلا بقدر ما يستدعيه اختلافهما فى الصنف .

فإذا فاق الرجل المرأة فى القوتين البدنية والعقلية فذلك إنما لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ، ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف فى الشدة والضعف على حسب الأوقات والأماكن .

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل إنهم يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعًا ، أو هو محرم بمقتضى الشريعة ؟ ! .

وأتذكر أنى أشرت يوما على أب ، وقد رأيت معه بنتًا بلغت من العمر تسع سنوات أعجبنى جمالها وذكاؤها ، بأن يعلمها فأجابنى : « وهل تريد أن تعطيها وظيفة فى الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا : « وهل فى مذهبك لا يتعلم إلا الموظفون ؟ » فأجابنى : « أنى أعلمها جميع ما يلزم لإدارة منزلها ، ولا أفعل غير ذلك » . قال هذا على وجه يشعر أنه لا يحب المناقشة فى رأيه . وعنى هذا الأب العنيد بإدارة المنزل أن بنته تعرف شيئًا من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما أشبه ذلك من المعارف التى لا أنكر أنها مفيدة ، بل لازمة لكل امرأة . ولكنى أقول ، ولا أخشى نكيرًا : إنه مخطئ فى توهمه أن المرأة التى لا يكون لها من البضاعة إلا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها إلى إدارة منزلها .

فى رأيى أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها إلا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية . فيجب أن تتعلم كل ماينبغى أن يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها إلمام بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار مايوافق ذوقها منها وإتقانه بالاشتغال به متى شاءت .

فإذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر فى تاريخ الأمم ووقفت على شىء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله فى نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء.

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التى تكمل بها النفس الإنسانية فى ذاتها. والفضائل التى لها أثر فى معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة. والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها: ولا يتم له ذلك إلا بالإرشاد القولى والقدوة الصالحة.

هذه هى التربية التى أتمنى أن تحمل عليها المرأة المصرية، ذكرتها بالإجمال، وهى مفصلة فى المؤلفات المخصصة لها فى كل اللغات. ولا أظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها أن تقوم بوظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى العائلة:

- ١ -

أما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء فى كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الأقل، فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة، وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى.

ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة إلا جهلها واهمال تربيتها ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم فى الأعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعالة، تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هى اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها، ولكان ذلك خيرًا لوطنها، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه.

وإنما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه فى الصندوق ويكتفى بأن يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب، ولو عرف لا ستعمله وانتفع منه وضاعفه فى سنين قليلة.

من عوامل الضعف فى كل مجتمع إنسانى أن يكون العدد العظيم من أفراده كَلاًّ عليه

لا عمل له فيما يحتاج إليه ، وان عمل كان كالآلة الصماء أو الدابة العجماء لا يدرى ما يصدر منه .

المرأة محتاجة إلى التعليم لتكون إنسانًا يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا أننا إذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها أن يكون لها ولى يقوم بحاجاتها ويدير شئونها ، كأن وجود هذا الولى أمر مضمون فى جميع الأحوال مع أن الوقائع أظهرت لنا أن كثيرًا من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن : فالبنت التى فقدت أقرباءها ولم تتزوج ، والمرأة المطلقة والأرملة التى توفى زوجها والوالدة التى ليس لها أولاد ذكور أو لها أولاد قصر ـ كل هذه المذكورات يحتجن إلى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات أولادهن ان كان لهن أولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجئهن إلى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو إلى التطفل على بعض العائلات الكريمة . ويمكن أن يقال : إننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة .

ثم إنه لا تكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتى وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا أن نعد هذا من الأسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد .

لهذا السبب وغيره نرى الاختلاف الجسيم فى مالية العائلات ، فإن الرجل المصرى الذى يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطرًا من المال الذى يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الإنسانية بأن يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلاً يموتوا جوعًا . وهم يرون أنه إنما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ما حرموا من التربية .

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولى ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل إن كان فقيرًا أو تخفيف شيء من أثقال إدارة المال داخل البيت إن كان غنيًا ، فإن كانت المرأة غنية بنفسها ـ وهو نادر ـ بأن كان لها إيراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها التعليم فى تدبير ثروتها وإدارة شئونها ؟ .

نرى النساء كل يوم فى اضطرار إلى تسليم أموالهن إلى قريب أو أجنبى . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشئون أنفسهم أكثر مما يشتغلون بشئون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل إلا وقد اغتنى الوكيل وأفتقر الأصيل .

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته لعدم إدراكهن كل ما يحتوى عليه ، أو عدم كفاءتهن لفهم ما أودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟ .

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات الحياة الإنسانية . وهو الآن يسعى إليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية . ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شأن الإنسان من منازل الضعة والانحطاط إلى مراقى الكرامة والشرف . ولكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الغريزية إلى أقصى حد ترمى إليه باستعدادها .

وقد جاءت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجال . فأى نفس شريفة لا تشتاق إلى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلبًا للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأى فرق بين الرجل والمرأة فى هذا الشوق ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والاناث يستوون فى الاستفهام عن كل شىء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك فى الأنثى أشد منه فى الذكر .

أى نفس حساسة ترضى بالمعيشة فى قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذى لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحى إليها الآمال والرغائب فى فتح أسرارها ؟ .

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض أن الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثًا . وأنه آتاها من الحواس وآلات الادراك ما آتاها لأجل أن تهملها ولاتستعملها ؟ .

يقول المسلمون : إن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل .

وأن وظيفتهن تنتهى عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش فى عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره إلى ما وراءه .

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها . فإن الرجل لما كان مسئولا عن كل شىء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ فى نظره إلا كما كان يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه على أن يتسلى به .

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ أن يتخذها إلا امرًا صالحًا لخدمته مسيرًا بإرادته . وأغلق فى وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها إلى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه إلا أن تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة .

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها ، وإنما بضاعتها أن تسلى الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء ، وجهت جميع قواها إلى التفنن فى طرق استمالته إليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه .

مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شىء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف فى إرادتها . فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر . وهو الرائد لها فى الاختيار بين النفع والضرر . فهى تنفر أو تميل . فإن أحبت أخلصت لا عن عقل . وصدرت منها الأعمال الجميلة فى ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأى : وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر . فلو كانت العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لتمت بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرفت فى أعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الأدب .

أضلت المرأة عقلها فى ظلمات الأجيال الماضية ، ففقدت رشدها وأدركها العجز عن تناول ما تشتهى من الطرق المسنونة ، فاضطرت إلى استعمال الحيلة وأخذت تعامل الرجل ــ وهو سيدها وولى أمرها ــ كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر إلى غاية ليس وراءها منزع ، فأصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر فى المظاهر المتضادة والألوان المختلفة فى كل حال بحسبها . ذلك لا عن عقل وحكمة وإنما هى حيل الثعالبة .

ولكن لا لوم عليها وعذرها أنها ليست حرة . وإنما فقدت الحرية لأنها فقدت السلامة فى قوة التمييز . بل اللوم كل اللوم على الرجال : أريد بهم من سبقنا ممن أهملوا تربية نسائنا .

* * *

- ٢ -

وأما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفى لكل إنسان متفكر أن يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد أن استمرار الحال على ما هى عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله.

إنى أكتب هذه السطور وذهنى مفعم بالحوادث التى وردت على بالتجربة، وأخذت بمجامع خواطرى، ولا أريد أن أذكر شيئًا منها لعلمى أنها ما تركت ذهنًا حتى طافت به ولا خاطرًا حتى وردت عليه. فإن مثار هذه الحوادث جميعها هو شىء واحد، وهو المرض الملمّ بجميع العائلات، لا فرق بين فقيرها وغنيها، ولا بين وضيعها ورفيعها، وهو جهل المرأة. **فقد تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة، ولا يظهر اختلافهن إلا فى الملبس والحلى. بل يمكن أن يقال، إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها. وإن آخر طبقة من نساء الأمة وهى التى تسكن الأرياف هى أكملهن عقلاً بنسبة حالها.**

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح، مداركهما فى مستوى واحد، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريبًا، مع أننا نرى أن المرأة فى الطبقة العلية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة. ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة، بل وقفن فى الطريق. وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا.

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله، وله ذوق مهذب يميل إلى الأشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدًا ينتهى إلى إهمال الأمور المادية. يفهم كلمة، ويود لو يفهم بالإشارة. يسكت فى أوقات ويتكلم فى أخرى ويضحك فى غيرها. له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه. له لذائذ وآلام معنوية، فيبكى مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس. وفى كل فكرة يتولد فى ذهنه احساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه إنسانًا آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه. وهذا ميل طبيعى يجده كل شخص من نفسه. فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها، ولم يلبث أن يرى نفسه فى عالم وحده وامراته فى عالم آخر. إذ هى تعتبر أن الرجل ما خلق فى هذه الدنيا إلا ليشترى لها الأقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف أوقاته فى ملاعبتها كأنه صورة أكبر من التى كان يشتريها لها والدها فى صغرها لتلهو بها.

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر إلى نفسه احتقارها ، واعتبرها من الأعدام التى لا أثر لها فى شئونه ، وهى متى رأته أهمل وأغضى ضاق صدرها وظنت أنه يظلمها وبكت سوء حظها الذى ساقها إلى رجل لا يقدرها قدرها ، ونبتت البغضاء فى قلبها . ومن ثم تبتدئ عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها . عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذى يحول بينه وبين السعادة .

ولا يظن أن هذا يختص بذوى الأخلاق الفاسدة من الرجال والنساء ، فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ، ولا ذنب على أحدهما بل الذنب على اختلافهما فى التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة – إن استمر الاقتران بينهما – أن يميت أحدهما حقه فى سبيل راحة الآخر ، أو يجر كلاهما قيده الثقيل إلى آخر العمر . ولكن مهما كان حال الزوجين – وهما ماذكرنا من الوصف – فلا سبيل إلى ارتباطهما برابطة المحبة إذا أخذت بمعناها الخاص. ولا خسران فى الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة.

جاء فى القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية إن الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما أظن ، رمز لطيف إلى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعًا واحدًا لا يتم إلا باتحادهما ، ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل ، وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على أن المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد ، مفتقر بعضه إلى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع .

وهذا الانجذاب الغريزى الذى أوجده الله فى كل المخلوقات الحية – حتى النباتات التى يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والأنثى إذا آن وقت التلقيح على طريقة حار فى تفسيرها علماء الطبيعة – هو أهم عنصر يدخل فى تركيب الحب . وهو يكفى لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف فى الإنسان عن الحيوان . أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضًا كأصول كل الأشياء تقريبًا .

وإنما يرجح قسم من العلماء أنه سيال يتولد فى المراكز العصبية ، فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما . فإذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التى تهيج قلبيهما قبل أن ينطلق اللسان ، كأن روحيهما صديقتان افترقتا فى عالم قبل هذا العالم وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى إذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التى كانت تنشدها ، وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأمانى أكبر من مجرد

التلاق ، فتختلطان ، وتحدث بينهما شبه العهد على ألا يفترقا . ترى كل واحدة منهما أن لا سعادة لها إلا باتصالها بالأخرى .

لكن هذا الانجذاب المادى لا يلبث مدة حتى يأخذ فى التلاشى ويتناقص شيئًا فشيئًا . فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاق فهى صائرة إلى الزوال فى زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الأمزجة . وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأمانى ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الإنسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلى من بهاء الأرواح وسناء العقول . فهو يضم إلى المنظر البديع الجسدانى منظرًا آخر قد يكون أبدع فى اعتباره وهو المنظر الروحانى العقلى . وكثيرًا ما يستبدل لذة الحس التى لا بقاء لها بلذة العقل الروحانى التى لا تنتهى أطوارها ولا تفنى مظاهرها . يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها إذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ، ورقة الذوق ، وبهاء الفطنة ، ونفاذ العقل ، وسعة العرفان ، وحسن التدبير ، والحذق فى العمل ، مع المحافظة على النظام فيه ، ونظافة الباطن والظاهر ، وحنو القلب ، وصدق اللسان ، وطهارة الذمة ، وعظم الأمانة ، والاخلاص فى الولاء ، ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التى ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان اللذة بهذا المعنى عنصر آخر يدخل فى تركيب الحب أيضًا ــ ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام .

وإليك بيانًا يزيد فى فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت فى الأفراد فهى دائمًا واحدة . فإن أفراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه إلى حد تكاد لا تتميز إلا باختلاف الزمان أو المكان مثلاً ، فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيًا وثالثًا ورابعًا ، وهكذا .

ومن البديهى أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظرة أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضى فى الغالب إلى فقد الرغبة فيها ، فيأتى زمن لا تتنبه الأعصاب لها ، لكثرة تعودها عليها ، والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية .

هذه اللذة فى طبيعتها أنه يمكن تجددها فى كل آن . تأمل فى مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه فى روح الآخر فيسرى عقلاهما من موضوع إلى موضوع وينتقلان من الجزئيات إلى الكليات ويمران على الآلام والآمال والقبيح والحسن

والناقص والكامل . كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقليهما غذاء جديداً ويفيد نفسيهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ماتجلت به نفسه من علم وأدب وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد فى رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة .

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقى على الإنسان ، وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات فى هذه الدنيا . فإن كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها .

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة إذا لم يوجد بينهما تناسب فى التربية والتعليم ولا يجب أن يفهم أن الرجل المتعلم إذا لم يحب زوجته فهى يمكنها أن تحبه . فإن توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم . لأن الحب الحقيقى الذى عرفت عنصريه المادى والمعنوى لا يبقى إلا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها .

سل جمهور المتزوجين : هل هم محبوبون من نسائهم ؟ يجيبونك : نعم . لكن الحقيقة غير مايظنون . إنى بحثت كثيراً فى عائلات مما يقال أنها فى اتفاق تام فما وجدت إلى الآن لازوجا يحب امرأته ولاامرأة تحب زوجها . أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين ، إما لأن الزوج تعب وترك ، وإما لأن المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، وإما لأنهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين . ولا أرى ما يقرب من السعادة إلا فى هذا النوع الأخير وإن كان سعادة سلبية لا قيمة لها .

أما فى النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال ، وهو فناء أحد الزوجين فى سبيل إبقاء الآخر . وغاية ما يمكن أن أسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شىء يقرب من المودة يظهر فى بعض الأحيان ثم يختفى . وهو استثناء يؤيد القاعدة ، وهى عدم الحب . عدم الحب من طرف الزوج لأن امرأته متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخراً فاحشاً ، بحيث لا تكاد توجد مسأله يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . لا يكاد يوجد أمر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحد . ولأنها بعيدة عن العواطف والمعانى والأشغال التى يميل إليها ومغمورة فى شئون ليس لها من ميله نصيب . حتى فى الأمور التى هى من عملها ، وترى أنها خلقت لأجلها ، لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فأكثر النساء لم يتعودن على تسريح

شعورهن كل يوم . ولا على الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع ، ولا يعرفن استعمال السواك ، ولا يعتنين بما يلى البدن من الملابس ، مع أن جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير فى استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ، وكيف يحافظ عليها ، وكيف يمكن تنميتها ، وكيف تكون موافاتها . ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فإذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك .

وأما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب . ولو أردنا أن نحلل أحساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : **ميل** إليه من حيث هو رجل أبيح لها أن تقضى معه شهواتها ، **وشعور** بأن هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها . أما ذلك الامتزاج بين روحين ، اختارت كل منهما الأخرى من بين آلاف من سواهما ، امتزاجًا تامًا يؤلف منهما موجودًا واحدًا ، كأن كلا منهما صوت والآخر صداه ، ذلك الإخلاص التام الذى ينسى الإنسان نفسه ولا يدع له فكرًا إلا فى صاحبه . ذلك الاخلاص الذى لا نجد له مثالاً أظهر من حب الوالدة لولدها ــ فهى بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض ، لأن الحب بهذه الدرجة إن لم يكن طبيعيًا كحب الأم لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب إلا عند النفوس العالية التى تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار .

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير ، أبيض أو أسود . أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ودقّة إحساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده فى الوجود ، وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به إلى أن يكون محترمًا محبوبًا ممدوحًا فى أمته ، فهذا لا يصل إلى عقلها شىء منه . وإن وصل فلا يؤثر على منزلته فى نفسها . وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه ؟ ! .

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم ، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفًا لنا . ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى ، وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الأشغال فى مكتبه ، كلما رأته جالسًا منحنى الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهى إلا بنزاع جديد ، ولا يدرى الزوج المسكين ما يصنع إذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين

زوجتين ! . فقد رأينا أحيانا كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجين لرجل واحد . وما سمع قط أن امرأة مصرية ممن نعنى رضيت بمعاشرة العلم .

ومن البديهى أن الرجل الذى يكون هذا حاله ينتهى بفقد كل استعداد للعمل . لأن العلم لايثمر إلا إذا كان العقل متمتعا بالهدوء والسكون ، خاليا عن الاضطراب والتشويش . ولأن الرجل يطلب راحته وهى فى يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه .

رأينا مما تقدم أن المرأة المصرية لاتجد ذوق الحب خصوصا إذا كان زوجها متعلما يصرف وقته فى الأعمال النافعة .

قد يقال : إن الحب الذى تكلمت عنه هو كمال السعادة . وليس من الأمور الضرورية التى لايستغنى عنها فى الزواج . وإنه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة . ويكفى أن المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له فى المنافع والمضار ، ولذلك فهى تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة .. هذا يمكن أن يكون . ولكن كيف الوصول إليه أيضا مع جهل المرأة .

قلت إن المرأة الفلاحة مع جهلها هى زميلة الرجل فى كل أعماله ، وهى قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها. ذلك سهل لأن العيشة فى الأرياف ساذجة بدوية تقريبا . وحاجات العائلة قليلة . أما فى المدن التى ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها إدارة المنزل إلى درجة إدارة مصلحة من كبار المصالح ، فالمرأة التى يسلم إليها زمامها لايمكنها أن تديرها إلا بالتعليم والتربية .

والحقيقة ان إدارة المنزل صارت فنا واسعا يحتاج إلى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لايوجد خلل فى مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لايفلتون لحظة من مراقبتها ، وبغير هذا يستحيل أن يؤدوا خدمتهم كما ينبغى . وعليها أن تجعل بيتها محبوبا إلى زوجها ، فيجد فيه راحته ومسرته إذا آوى إليه ، فتحلو له الاقامة فيه ، ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضى أوقاته عند الجيران أو فى المحلات العمومية وعليها ــ وهو أول الواجبات وأهمها ــ تربية الأولاد جسما وعقلا وأدبا .

وظاهر أن تطبيق هذه الواجبات ، التى ذكرتها بالاجمال ، على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعى عقلا واسعا ومعلومات متنوعة وذوقا سليما : لايتأتى وجود ذلك فى المرأة الجاهلة وخصوصا مايتعلق منها بتربية الأطفال .

بالغنا فى نسيان أن الأولاد هم صناعة الوالدين ، وان الأمهات لهن النصيب الأوفر فى هذه الصناعة . بالغنا فى اعتقاد أن الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد وأنه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح إذا أخذ عن جهة أن الله قادر على كل شئ ، ومن متناول قدرته أن يفعل مثل ذلك . فإن كان المقصود أن الله يمكنه أن يفعل مثل هذا فلا شك فى قدرته سبحانه وتعالى . وليس من ينازع فى أنه لو شاء فعل ذلك . كما أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولأنبت الحيوان من الأرض . لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما وللمخلوقات نواميس تجرى عليها أحكامها :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها . لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم)[٢٦٩]. وتاريخ الإنسانية من عهد وجودها على الأرض إلى الآن أيد ثبات هذه السنن واستمرارها .

من أكبر مظاهر حكمته ، جل شأنه ، هذه الحقيقة التى كشفها لنا العلم ، وهى أن كل فرد من الأنواع الحية ــ وفيها النوع الإنسانى ــ ليس إلا نسخة مطابقة للاصل المتولد منه ، ففيه صورة نوعه الكلى ، وفيه صورة والديه خصوصا ، بمعنى أن هذا الفرد يحتوى أولا على الخواص المميزة لنوعه ، وعلى الصفات الخاصة بأبويه .

ودلت الاكتشافات الحديثة أيضا على أن كل الملكات العقلية والادبية فى الإنسان إنما هى مظاهر من وظائف المخ ، كما أن الصفراء من عمل وظيفة الكبد ، ومايسمى عقلا أو عاطفة فلا عمل له إلا عمل تلك الوظائف ، وعملها تابع لحالة الأعصاب والمخ ، وإنما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الأصل الذى تولدت منه ، فلا ريب أن يكون لها تبعية عظمى لذلك الأصل . ثم من الظاهر أن الجسم لايستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الأولى ، بل لابد فى النمو والبقاء من التربية والغذاء ، فكذلك حال العقل والملكات لايستغنى بما أودعته المدارك والقوى من الاستعداد الأول ، بل لابد فى ظهور أثرها وسيرها فيما أعدت له من الغذاء الذى يوافقها والتربية التى تلائمها ، فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع إليهما شخصية الطفل ذكرا كان أو أنثى وليس هناك شىء من وراء ذلك .

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان ، صالحا كان أو فاسدا ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو فى بطن أمه ، فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه أسلافه من جهة الأم ومن جهة الأب . وبالتربية يمتلئ ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس

---

(٢٦٩) الروم : ٣٠

وبأثرها فى نفسه ألما كان أو لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول إلى إدارة مربيه فهو الذى يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم ، وهو الذى يعرض على وجدانه من العواطف مايراه لائقا به ، فإن لم يرد عليه من صور المحسوسات إلا ماهو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة ، أو لم يشعر من العواطف إلا بما يظهر أثره فى أقرب الأشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع أول خاطر يبدو له ، كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون ، وان كانت معلوماته كثيرة تحتوى على صور الاشياء وصور مايحدث عنها لأول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك وكان وجدانه رقيقا لطيفا كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ وبيده ميزان يزن به أعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل إلى النافع والنفرة من الضار.

لانقول إن الطفل يكون فى ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها أوائل وجراثيم من الكمال العقلى والأدبى تصل بالتنمية والتربية إلى تلك الغايات الشريفة التى يسعى إليها كل من عرف معنى الإنسانية وذاق لذة الفضيلة ، فسلامة العقل لاتتم إلا بحسن الوراثة وحسن التربية ، وهذا ماجعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد فى الأخلاق إلى مرض فى المخ أو فى الاعصاب موروث أو مكتسب . وان شوهد ان الولد لايشابه أبويه فى بعض الأحوال فذلك إنما لأن قانون الوراثة قد يرجعه إلى أسلافه القريبين.

متى حسنت التربية على الوجه الذى ذكرناه ضعف الاستعداد الذى كسبه الطفل من والديه إن كان رديئا ، وتأصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ، ويقوى فيه ذلك الاستعداد إن كان حسنا فيبلغ غاية مايرجى لإنسان فاضل من أبوين فاضلين ، ويظهر أثر ذلك أيضا فى أولاده وأعقابه إن استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذى صار به هذا الوالد رجلا صالحا . أما إن كانت التربية فاسدة ، وكل مايرد على الطفل إنما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجنى على أولاده تلك الجناية التى جناها عليه والده.

قال الغزالى[270] فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت أن أوردها هنا وهى : « الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل

---

(٢٧٠) أبو حامد محمد (١٠٥٩ - ١١١١ م) متكلم وفقيه وصوفى . من اشهر علماء الإسلام ، كان أشعريا هاجم الفلاسفة من منطلق شرعى وصوفى ، وترك آثارا فكرية عديدة جعلت وجهة نظره تطبع الفكر الإسلامى بطابعها إلى حد كبير.

لكل ماينقش ، ومائل إلى كل مايمال إليه به . فان عود الخير علمه وعمله ونشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه الوالى له . وقد قال الله عز وجل : (يأيهـا الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) »[٢٧١] .

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة إلى ذلك واحدة هى أن يشاهد الطفل آثار هذه الأخلاق حوله . لأن التقليد فى غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته ، فإن كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل مايزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة ، ويرى من الأعمال مالاينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالأخلاق الفاسدة ويعتاد العوائد الفاسدة .

ويرى الاسوة السيئة فى بيته وفى الخارج ، وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الأخلاق وكبرت معه بكبره ، فإذا وصل إلى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلا سيئ التربيـة ولاسبيل له بعد ذلك إلى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله ، ويندر جدا أن يوجد شخص يبتدئ بعد بلوغه سن الرجولية فى اصلاح مافسد من ملكاته ثم ينجح فى ذلك ، اللهم إلا إلى حد محدود .

ومن المعلوم أن الطفل لايعيش من طفوليته إلى سن التميز إلا بين النساء ، فهو دائما محاط بأمه وأخواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى اباه فى أوقات قليلة ، فإذا كان هذا الوسط الذى ينشأ فيه طيبا كانت تربيته طيبة وإن كان سيئا ساءت تربيته ، والأم الجاهلة ليس فى استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لأنها لاتعرفها ، وغاية ماتستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ، إن لم تبذر بيدها حبوبها فى نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة .

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا فى الطريق والأزقة يتمرغ فى الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته ، الذى هو رأس ماله ، مضجعا أو نائما أو لاهيـا مع أن سن الطفولية لايعرف الكسل ، وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لانتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح ،

---

(٢٧١) التحريم : ٦ .

فإذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان ، وإذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرءوس وظاهر من القول بدون أن تشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع إلى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت ، وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به إلا الجاهلون بأصول الدين وفضائل الأعمال وله من الأثر السيئ فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال مايجر إلى كل شر ويبعد عن كل خير ؟ .

قد صار من المقرر عندنا أن الأمهات لايفلحن فى تربية الأولاد حتى صار من المثل فى الحطة ورداءة السير أن يقال : فلان تربية امرأة ــ على اننا نرى أن تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجال ، وأن أحسن الناس تربية هم من ساعدهم الدهر فى أن تتولى تربيتهم امـرأة وليس هذا بغريب فإن المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها أقوى استعدادا للنجاح فى التربية ، ذلك أنها أصبر من الرجل فيما تحب ، وأنها ألطف منه فى المعاملة ، وأرق منه فى العواطف والاحساسات ، ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى أحوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى أحد كتب رونان[٢٧٢] الفيلسوف الشهير ماحصله: «إن أجمل ماوضعه من مؤلفاته كان إلهاما من اخته» وقال الفونس دوديه[٢٧٣] الكاتب المجيد فى بعض ماكتبه: «ان كنت استحق فخرا فلامرأتى نصفه» . وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الأوروباويين ، وكلها تدل على أن تربية المرأة أمر لايستغنى عنه ، وان القسم الأعظم منها منوط بالمرأة .

وقد نجد فى هدى نبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ مايشير إلى ذلك ، بل كان يجب أن يعد أصلا من الأصول التى نركن إليها فى بناء أمورنا الملية ، حيث قال فى شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولابمعجزة وإنما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت .

---

(٢٧٢) هو الفيلسوف المستشرق ارنست رينان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢ م) من أبرز مفكرى الحضارة الاوروبية ، فى فرنسا ، على عصره . وله اهتمامات خاصة بالفكر الدينى ، من الناحية التاريخية ، كما تعد دراسته عن [ابن رشد والرشدية] اول دراسة حديثة عن فيلسوف قرطبة ابى الوليد ابن رشد .

(٢٧٣) الفونس دوديه (١٨٤٠ ــ ١٨٩٧ م) اديب فرنسى ، امتاز بسخريته اللاذعة ، وله آثار فى الشعر والقصص والترجمة الذاتية .

أود أن كل مصرى يرى أن مسألة التربية عندنا هى أم سائر المسائل ، وان كل مسألة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها .

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة فى الدين ، ولا هى موافقة لما يستحسنه العقلاء ، حتى من المصريين أنفسهم ، وقل مايشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد آن الوقت ، على ما أظن ، لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية تربية تنشئ رجالا أولى علم وأصالة رأى ، يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل ، تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى فى كل يوم وبكل لسان كلها ترجع ، مهما اختلفت فى الاسم إلى سبب واحد وهو النقص فى تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع أهل النظر فى مصر على أن التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء ، وانتشر هذا الرأى الصائب فى الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح أن يقال : إنه أصبح رأيا عاما ، وتولد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها .

ولكن أرى همم الناس موجهة إلى التعليم ولا أرى أحدا يلتفت إلى تربية النفوس ، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور .

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى ، وإنما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وان يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين .

أما مايتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئا من الخياطة والتطريز والموسيقى ، ولايتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت إليها ، وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن . فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها ، ولاتتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية . فتقضى حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قل ماتفيد إلا فى إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة إلى دخان السيجارة التى تقبض عليها .

أكثر ما تعرفه المرأة التى يقال الآن إنها متعلمة هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من

وسائط التعليم وليست غاية ينتهى إليها ، ومابقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لايبقى شىء. اين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم؟! لاشىء ينفع الإنسان مثل اكتسابه مايسمى عقلا عمليا ، أريد بذلك مايقابل التخيل الذى يعيش به صاحبه فى أوهام وهواجس لاترجع إلى حق ثابت . فإن كل مصائب الإنسان تأتى له من باب واحد وهو الخيال : كلما تجرد الإنسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر مايبعد عن الحقيقة .

الحقيقة هى ضالة الإنسان فى العالم . ويجب عليه ، ان يسعى وراءها بلا قصور ولاتعب . الحقيقة هى الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الإنسان . لايجدها إلا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هى مشرق السعادة . لأنها الوسيلة وحدها لوصول الإنسان إلى كمال العقل والنفس . والنساء مثل الرجال فى الحاجة إلى معرفة الحقيقة وإلى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن فى الحياة إلى الأعمال الطيبة النافعة .

انظر إلى الطفل تجده يشتهى وينفر ، ويحب ويكره ، ويفرح ويحزن ، ويضحك ويبكى ، ويسكن ويغضب ، وهو فى كل ذلك إنما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد إلى خيال ، وإذا أراد شيئا فمنع عنه لم يستعمل للوصول إلى غرضه إلا شيئا من الغش والمكر والكذب ، لم ذلك ؟ لأن عقله ضعيف ومعارفه قليلة ، ولم تصل قواه العقلية إلى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الأعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحيانا وطلب المرغوب من أبوابه ووسائلة الصحيحة أحيانا أخرى . والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل ، فيما ذكرنا .

سلب الرجال ثقتهم من النساء ، واعتقدوا انهن اعوان ابليس ، فلا تسمع إلا ذما لخصائلهن ، وتنقيصا لعقلهن ، وتحذيرا من مكرهن ، وأنا لا أبرئ النساء الآن من هذه الصفات ، ولكن أرى أن التبعة ليست عليهن بل على الرجال .

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب اخلاقها وتثقيف عقلها ؟ ايجوز ان نترك نساءنا فى حالة لاتمتاز عن حالة الانعام ؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لايعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن . كما فى الكتاب (صم بكم عمى فهم لايعقلون)[٢٧٤] ؟! أليس بينهن امهاتنا وبناتنا

---

(٢٧٤) البقرة : ١٧١ .

وأخواتنا وزوجاتنا ، وهن زينة حياتنا الدنيا ، والجزء الذى لايمكن فصله منا ، دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟! أليس الرجال من النساء ، والنساء من الرجال ، وهن نحن ونحن هن ؟! أيتم كمال الرجل إذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال إلا بالنساء ؟!.

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة فى الدنيا ، وهى التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء.

كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له ، وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ، ولهذا فإنا نشفق عليهن ونحن إليهن ونعذرهن ، ولكن لاتكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق ، وهو معدوم .

والإنسان محتاج إلى أن يكون محبا وان يكون محبوبا ، ومن فضل الله عليه أن وضع بجانبه أمهات وزوجات ، وغرس فى قلوبهن محبته وفى قلبه محبتهن ، وهذه أكبر نعمة مَنّ الله علينا بها ، لأن هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة إذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا فى سجن الحياة ، وهونت علينا الآلام والمصائب التى لولا هذه التسلية لأفضت فى بعض الأوقات بأقوى رجل منا إلى اليأس ، فعدم تقديرها قدرها ، وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير فى شكره .

بقى علينا أن ندفع اعتراضا لايمكننا السكوت عنه ، لأنه فى الحقيقة هو المانع الوحيد الذى اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من أن التعليم يفسد اخلاقها .

رسخ فى اذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لايجتمعان ، وقال الاقدمون فى ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة ، فلو تعلمت لـم يزدها التعليم إلا براعة فى الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة فحذونا مثالهم ، واعتقدنا أن التعليم يزيد تفننها فى المكر ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد .

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل ، شديدة الحيلة ، فهذا مما لايختلف فيه اثنان ، وقد بينا ان هذه الحالة هى أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة ، وأنه متى زال

السبب فلاشك أن المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها ، فهذا ننكره ونشدد النكير عليه ، فإن التعليم ــ خصوصا إذا كان مصحوبا بتهذيب الأخلاق ــ يرفع المرأة ، ويرد إليها مرتبتها واعتبارها ، ويكمل عقلها ، ويسمح لها أن تفتكر وتتأمل وتتبصر فى أعمالها . وان وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم ، وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع أن ألوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم أو خادمة أو دلالة أو جارة عجوز .

والحقيقة ان طهارة القلب فى الغرائز والطباع ، فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحا وتقوى ، وإن كانت فاجرة لم يزدها العلم فجورا ، وهكذا الحال فى الرجال ، وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لايمنع من تعاطيه . فقد قال الله فى شأن كتابه : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين)[٢٧٥] .

فأثر التعليم لايمكن أن يكون ضررا محضا ، ولايمكن أن يكون منشئا حقيقيا لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ، ولاتقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها ، بخلاف الجاهلة فإن من أخلاقها الطيش والخفة . وأذكر ملاحظة واحدة تؤيد ماقدمته وهى أن نساء الأفرنج ، على العموم ، مهما كان حالهن فى الباطن يحافظن على الظواهر ، فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضا أياما وأشهرا ولايكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما ، وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار ، يغضضن أبصارهن عن الرجال ، وان نظرن إليهم فمن طرف خفى . أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيرا من ظاهرهن ، ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت إليه وتأملته : والتفتت نحوه ولوت عنقها إليه ، ولاشعور لها بأن مثل هذه الحركات التى تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء فى بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن فى الطرق والمجتمعات العامة من الأمور المخلة بالآداب التى يستحى القلم عن أن يجرى برسمها : هذا الفريق من الأجانب يصعب تمييزه عن الحرائر إلا ببعض أمور يعرفها أهل الخلاعة .

ثم إن البطالة التى ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كلها من لوازم حياتهن هى أم الرذائل . إن كان نساؤنا لايعملن شيئا فى المنازل ولايحترفن بصنعة ولا يعرفن فنا ولايشتغلن بعلم

---

(٢٧٥) البقرة : ٢٦ .

ولا يقرأن كتابا ولا يعبدن الله فماذا يشتغلن حينئذ ؟ أقول لك ، وأنت تعلم مثلى ، أن ما يشغل امرأة الغنى والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع إلى مالانهاية له ويتشكل فى كل آن بشكل جديد ، وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الأحوال ، ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها ، فتارة تتخيل أنه يكرهها ، وتارة تظن أنه يحبها ، واحيانا تقارنه بأزواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسبا أو خاسرا ، واحيانا تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق ، واحيانا تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزع منه محبتهم ، ان كان ودودا لهم ، ولاتغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات ، وتراقب لحظاته عند دخول الزائـرات وتجعله دائما موضوع الشك ، ومن وسائل الاحتياط ألا تقبل الخادمة إلا إذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها إليهـا ولاتستريح من هذا الشاغل إلا إذا أفرغته فى اذن أخرى من أمثالها ، فإذا فرغت من تصويره فى العبارات رجعت إلى تمثيله فى الخيالات وهكذا ، ولهذا ترى إذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص مابينها وبين زوجها واقارب زوجها واصحاب زوجها ، وحزنها وفرحها ، وهمها وسرورها ، وتفرغ كل مافى صدرها حتى لايبقى سر من أسرارها ـ ولو كان متعلقا بالفراش ـ إلا وقد اخبرت به .

هذا إذا كانت المرأة محبة لزوجها ، أما إذا كانت لاتميل لزوجها ، أو كانت غير متزوجـة فأكرر سؤالى : بماذا تشتغل حينئذ ؟ أما الأولى فإنها تفتكر فى طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه ، أما الثانية فأعظم همها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أيا كـان ولاتضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذى يصح أن يكون لها زوجا ، فإنها إنما تطلب رجـلا ومن البديهى أن المرأة التى يكون هذا حالها إن كانت فاسدة الأخلاق ووجدت فرصة لاتتأخر عن انتهازها ولاتكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شىء لديها ، وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلمات . إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لايحل لهن لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت ، وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لايكون أهلا لها ، ولا تسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة ، وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفى مافى نفسها عن أخص الناس بها .

والمعول فى كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الأخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها

الابتدائية ، فإن اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح أو يهيج حسها إلى أمر غير لائق ، وتعودت على أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية ، كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم .

وبالجملة ، فإنا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ، ولا يصونها الجهل ، بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته كمثل أعمى يقود أعمى ، مصيرهما أن يقعا فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق !.

حجاب النساء

سبق لى البحث فى الحجاب ، بوجه إجمالى ، فى كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من أربع سنين مضت ، ردا على «الدوق داركور» ، وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها ، ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ، ولا فى الحد الذى يجب أن يكون عليه . وهنا اقصد أن أتكلم فى ذلك .

ربما يتوهم ناظر اننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة . لكن الحقيقة غير ذلك ، فإننى لا أزال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ماجاء فى الشريعة الإسلامية . وهو على مافى تلك الشريعة يخالف ماتعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه عملا بالاحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة .

والذى أراه فى هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة . ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية . وبين هذين الطرفين وسط سنبينه ــ هو الحجاب الشرعى ــ وهو الذى ادعو إليه .

إنى أشعر أن القارئ الذى سار معى إلى هذه النقطة ، وتبعنى فيما دعوته إليه من وجوب تربية النساء . ربما يستجمع قواه لمقاومتى فيما أطلب من الرجوع بالحجاب إلى الحد الشرعى ويستنجد جميع الأوهام التى خزنها فى ذهنه أجيالا طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل إلى أن تبقى زمنا طويلا .

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل امره إلى الخراب والتهدم ، وقد انقض أساسه وانحلت مواده ، ووصل حاله من الاضمحلال إلى أنك ترى فى كل سنة تمر جزءا منه ينهار من نفسه ؟ أليس هذا كله صحيحا ؟ أليس حقا أن الحجاب فى هذه السنين الأخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد أن النساء فى كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بأنفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشئونهن ويطلبن ترويح النفس حيث يصفوا الجو ويطيب الهواء ، ويصحبن ازواجهن فى اسفارهم ، ونرى أن هذا التغير حدث فى عائلات كانت أشد الطبقات تحرجا من ظهور النساء ؟ إذا قارنا بين مانشاهد اليوم وبين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها ، وأن يرى طولها أجنبى ، وكان إذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلا حتى لايراها أحد من الناس ، وحيث كانت أم الرجل أو أخته أو بنته تستحى أن تجلس معه على مائدة واحدة . إذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلاشك أن هذه العادة آخذة فى الزوال من نفسها .

وكل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم . قال «لاروس»[٢٧٦] تحت كلمة خمار: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال : « ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن ، وحافظ عليه عندما دخل فى البلاد ، فكن يغطين رءوسهن إذا خرجن فى الطريق فى وقت الصلاة . وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار كما هو الآن نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى اسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها » .

ومن هذا يرى القارئ أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا ، ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه ، ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقى . وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية .

* * *

---

(٢٧٦) المراد بيير لاروس (١٨١٧ ـ ١٨٧٥ م) عالم النحو الفرنسى واللغوى صاحب القاموس الذى اشتهر باسمه .

(١)

الجهة الدينية

لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر ، لأن الأوامر الإلهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولامناقشة ، لكننا لانجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها واخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لانرى مانعا من البحث فيها ، بل من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها ..

جاء فى الكتاب العزيز :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت إيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن)[٩] .

أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض اعضاء من جسمها أمام الاجنبى عنها . غير أنها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ، ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين . جاء فى ابن عابدين [٢٧٨] : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل ، فى الأصح ، خلا الوجه والكفين والقدمين

---

(٢٧٧) النور : ٣٠ ومابعدها .

(٢٧٨) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن حامد (١١٩٨ ـ ١٢٥٣ م) صاحب كتاب [رد المحتار على الدر المختار] فى فقه المذهب الحنفى . وهو الذى يقتبس منه المؤلف هنا .

على المعتمد . وصوتها ، على الراجح ، وذراعيها ، على المرجوح ، وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا **لأنه عورة** بل لخوف الفتنة . كمسه وان أمن الشهوة . لأنه أغلظ . ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة . كما يأتى فى الحظر . ولايجوز النظر إليه بشهوة كوجه أمرد . فإنه يحرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك فى الشهوة . أما بدونها فيباح ولو جميلا »[٢٧٩] .

وذكر فى [كتاب الروض][٢٨٠] فى المذهب الشافعى : « نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز . ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة وتكلف كشفه عند الاداء »[٢٨١] .

وجاء فى [تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق] لعثمان بن على الزيلعى[٢٨٢] : « وبدن الحرة عورة إلا وجهها وكفيها وقدميها لقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) والمراد محل زينتهن وماظهر منها الوجه والكفان . قاله ابن عباس وابن عمر ، واستثنى فى المختصر الاعضاء الثلاثة للابتلاء بإبدائها لأنه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب . ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترهـا بالمخيط . وفى القدم روايتـان والاصح أنهما ليستا بعورة للابتلاء بإبدائهما »[٢٨٣] .

وحكم الوجه والكفين ، وانها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولانطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين .

ومما يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعليها ثياب رقاق ، فقال لها : يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » . وورد أيضا فى [كتاب حسن الاسوة] للسيد محمد صديق حسن خان بهادر[٢٨٤] : « وإنما رخص للمرأة فى

---

(٢٧٩) صحيفة ٣٣٦ جـ ١ .

(٢٨٠) هو كتاب [روض الطالب] للقاضى شرف الدين أبو محمد اسماعيل بن أبى بكر بن عبد الله ، المعروف بابن المقرى ـ اليمنى . وهو مختصر لكتاب [الروضة] للنووى .

(٢٨١) صحيفة ١٠٩ ـ ١٠٤ جزء ٢ .

(٢٨٢) هو أبو محمد فخر الدين عثمان بن على الزيلعى (المتوفى سنة ٧١٣ هـ) فقيه حنفى مات بمصر ، وكتابه هذا هو شرح لكنز الدقائق للنسفى .

(٢٨٣) صحيفة ٩٦ جزء ٣ .

(٢٨٤) هو أبو الطيب محمد بن على بن حسن بن على بن لطف الله الحسينى صديق حسن خان بهادر (١٢٤٨ــ١٣٠٧ هـ) . والاسم الكامل لكتابه هذا [حسن الاسوة بما ثبت من الله ورسوله فى النسوة] .

هذا القدر لأن المرأة لاتجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وبخاصة الفقيرات منهن »[٢٨٥] .

خولت الشريعة للمرأة ما للرجال من الحقوق ، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق فى إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق شخصيتها ؟.

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها أو تقف من وراء ستار أو باب ويقال للرجل ها هى فلانة التى تريد ان تبيعك دارها أو تقيمك وكيلا فى زواجها مثلا ، فتقول المرأة : بعت ، أو وكلت ، ويكتفى بشهادة شاهدين من الاقارب أو الأجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت ، والحال أنه ليس فى هذه الأعمال ضمانة يطمئن لها أحد وكثيرا ماأظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه الأحوال ، فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها ، واجرت املاكها بدون شعورها ، بل تجردت من كل ماتملكه على جهل منها ، وذلك كله ناشئ من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها .

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال ؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة ان تفلح أرضها وتحصد زرعها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها إذا اجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه ؟ .

وبالجملة ، فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الإنسانى ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول إليه ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق ، وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع ، ولم يقسم الكون بينهما قسمة أفراد ، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء . بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز ، فكيف يمكن ، مع هذا ، لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال إذا حظر

---

(٢٨٥) صحيفة ٩٢ .

عليها ان تقع تحت أعين الرجال إلا من كان من محارمها ؟ لاريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل ، لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما تشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن .

إذا وقفت المرأة فى بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا كيف انه يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما بهم فى هذه المسألة ، متساهلون فى رعاية الواجب فيها ، فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه وهى مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة ، وذلك منهم استسلام للعوائد ، وليس يخاف مافى هذا التسامح من الضرر الذى يصعب استمراره فيما اظن ، ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التى تخاصمه ، وله فى ذلك فوائد كثيرة ، من أهمها صحة التمسك بقولها ، ولا أظن أنه يسوغ للقاضى أن يحكم على شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له ، ولا اظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك ، بل أقول ان أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم ، خصوصا فى الجنايات ، وإلا فأى معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده ؟ وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها إذا لم يكن معروفا بشخصه ؟.

والحكمة فى ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة ، كما مر ظاهرة ، وهى تمكن القاضى من التفرس فى الحركات التى تبدو على الوجه والعلامات التى تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لاريب ان ماذكرنا من مضار التحجب يندرج فى حكمة اباحة الشرع الإسلامى لكشف المرأة وجهها وكفيها . ونحن لانريد أكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب أيضا على أنه يجوز للخاطب ان ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، بل قالوا بندبه ، عملا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لأحد الانصار :ــ وكان قد خطب امرأة ــ « أنظرت إليها ؟ » قال : لا ــ قال : « انظر إليها فإنه أحرى ان يؤدم بينكما » .

هذه هى نصوص وروايات الأحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى ان الله تعالى قد اباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التى لايصعب ادراكها على كل من عقل .

هذا حكم الشريعة الإسلامية ، كله يسر لاعسر فيه ، لا على النساء ولا على الرجال ولايضرب بين الفريقين بحجاب لايخفى مافيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى اداء كل منهما ماكلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش .

اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا أخالها صحيحة ، لأنه لا أصل يمكن ان ترجع إليه هذه الدعوى . وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الاشكال والملابس ؟ .

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال ، وليس على النساء تقديره ، ولاهن مطالبات بمعرفته وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره ، كما أنه على من يخافها من النساء ان تغض بصرها ، والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة إلى كل من الفريقين بغض البصر على السواء ، وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

عجبا ! لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل اعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة اقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال ان يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوفا ان ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟! إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافا منه بأن المرأة أكمل استعدادا من الرجل ـ فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم المعروف ؟.

على أن البرقع والنقاب مما يزيدان فى خوف الفتنة . لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من خلفه العيوب ، والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف

والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والاصداغ وصفحات العنق ـ هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر ! ولو ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خلقها مايرد فى الغالب البصر عنها .

ليست أسباب الفتنة مايبدو من اعضاء المرأة الظاهرة ، بل من أهم أسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها ومايبدو من الافاعيل التى ترشد عما فى نفسها ، والنقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ماتعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ماتشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب ، أما لو كان وجهها مكشوفا فإن نسبتها إلى عائلتها أو شرفها فى نفسها يشعرانها الحياء والخجل ويمنعانها من ابداء حركة أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات النظر إليها .

والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية ، لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده . ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة فى كثير من البلاد الإسلامية ، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التى لم تتدين بدين الإسلام .

إنما من مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شىء من التبرقع والانتقاب .

هذا مايتعلق بكشف الوجه واليدين . أما مايتعلق بالحجاب ، بمعنى قصر المرأة فى بيتها ، والحظر عليها أن تخالط الرجال ، فالكلام فيه ينقسم إلى قسمين : مايختص بنساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر فى الشريعة لغير هذين القسمين .

أما القسم الأول فقد ورد فيه مايأتى من الآيات :

(يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم... وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما)[١٨] .

---

(١٨) الاحزاب : ٥٣ وما بعدها .

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[٢٨٧]

ولايوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ولا فى كتب التفاسير فى ان هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم ــ أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب ، وبين لنا سبب هذا الحكم ، وهو أنهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين[٢٨٨] .

وأما القسم الثانى فغاية ما ورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبى وهو : « لايخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم » قال ابن عابدين : « الخلوة بالاجنبية حرام إلا لملازمة مديونة هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بحائل . وقيل الخلوة بالاجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن أبى يوسف ليست بتحريم »[٢٨٩] .

وقال : « إن الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرم أو امرأة ثقة قادرة ــ وهى تنتفى أيضا بوجود رجل آخر لم تره »[٢٩٠] .

ربما يقال : ان مافرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء المسلمين كافة ــ فنجيب ان قوله تعالى : (لستن كأحد من النساء) يشير إلى عدم الرغبة فى المساواة فى هذا الحكم وينبهنا إلى ان فى عدم الحجاب حكما ينبغى لنا اعتبارها واحترامها ، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة . وكما لايحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق أو تعطيل لشيء من مصالح الحياة ، وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر)[٢٩١] . وقال (وماجعل عليكم فى الدين من حرج)[٢٩٢] وقال أيضا : (يأيها

---

(١٩) الاحزاب : ٣٢ .

(٢٨٨) صحيفة ١٢٦ من [كتاب حسن الاسوة] .

(٢٨٩) صحيفة ٣٢٣ جزء خامس .

(٢٩٠) صحيفة ٣٢٤ جزء خامس .

(٢٩١) البقرة : ١٨٥ .

(٢٤) الحج : ٧٨ .

الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)[٢٩٣] ، ولو كان اتباع الاسوة مطلوبا فى مثل هذه الحالة لما رأينا أحد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجرى فى عائلته على مايخالف الحجاب . واستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بواقعة حربية فلما وصل ذلك الرجل إلى بيت عمر قال : .. فاستأذنت ، وسلمت ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من أدم محشوتين ليفا ، فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها ، وإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال : « يا أم كلثوم غداءنا ، فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق . فقال : « يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا ؟ قالت : « انى استمع عندك حس رجل » . قال : « نعم ولا أراه من أهل البلد » . قالت فذلك حين عرفت أنه لم يعرفنى ولكن لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » ــ قال : « أوما يكفيك ان يقال : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟! ــ فقال : كل ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا » ! [٢٩٤].

وفضلا عن كون الشرع لايوجب ذلك الحجاب فإنه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتى على بيانها فى المبحث الآتى :

* * *

ــ ٢ ــ

الجهة الاجتماعية

إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد . أو التعلق بالجديد لأنه جديد ، فإننا نتمسك بعوائدنا الإسلامية ونحترمها ، ونرى أنها مزاج الأمة تتماسك به أعضاؤها ، ولسنا ممن ينظر إليها نظره إلى الملابس يخلع ثوبا كل يوم ليلبس غيره ، وإنما

---

(٢٩٣) المائدة : ١٠١ .

(٢٩٤) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبرى جزء خامس .

نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتها المعاشية . لسنا فى مقام استحسان امر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته ، وإنما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة ، أو مابه قوام حياتنا .

كلامنا الآن فى هل يلزمنا أن نعيش ونحيا أو نقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا والناس من حولنا يتسابقون إلى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهدة القوة ويمرون علينا سراعا ونحن شاخصون إليهم ، إما غير شاعرين بموقفنا وإما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون ، أو من الواجب علينا أن ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا ؟ كيف تقووا وضعفنا ؟ كيف سعدوا وشقينا ؟ ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية فى ديننا وماكان عليه أسلافنا الصالحون ، ثم نقتدى بهم فى استماع القول واتباع أحسنه ، وانتقاء الفعل والأخذ بأفضله ، ونسير فى طريق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ؟ ذلك هو الأمر الخطير الذى وجهنا إليه نظرنا .

هاهى مسألة الحجاب . مسألة من أهم المسائل . ولها مكان عظيم فى شئون الأمة إذا ترك القارئ نفسه لعواطفه واستسلم إلى عوائده ظهر له الحجاب فى مظهر حسن ، لأنه ألفه فى صغره . ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم إنه ورثه عن آبائه واجداده ، فلا يستغربه ، بل يميل إليه ميلا غريزيا ليس للعقل فيه مدخل ، وإنما هو حركة ميكانيكية ليس إلا . وأما إذا نزع من نفسه العوامل التى أحدثت تلك العواطف ، وخلع ما ألبسه اياه أسلافه من اردية الوراثة ، وبحث فى المسألة من جميع جهاتها بحيث من لم يتأثر إلا بالتجربة التى تجرى فى الوقائع الصحيحة . وحصل لنفسه رأيا من ملاحظاته الشخصية ، وكان ممن تنجذب نفسه للحق وتنبعث إلى السعى للوقوف عليه وتأييده ، لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع ، وكان لايغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين ، وإنما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس — فعند ذلك يرى ان المرأة لاتكون ولا يمكن ان تكون وجودا تاما إلا إذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معا ونمت ملكاتها إلى أقصى درجة يمكنها ان تبلغها ، ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها .

بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التى تترتب عليها فى شئونها نفسها وشئون بيتها ، وفى الاجتماع الذى هى فيه . وذكرنا ان من أكبر أسباب

ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء وأن تربية الطفل لا تصلح إلا إذا كانت أمه مربّاة وقررنا أن الولد ، ذكرا كان أو أنثى ، لايملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة إلا من طريقين : الوراثة ، والتربية ، واستدللنا على أن الولد يرث من أمه قدر ما يرث من والده على الأقل ، وأن تأثير الأم فى تربية الطفل بعد ولادته أعظم من تأثير أبيه . ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لايمكن أن تتم إذا استمر حجاب النساء على ماهو عليه الآن ، حتى إذا انتهى القارئ من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض ، وكيف ان اصغرها يتوقف عليه أعظمها :

إذا أخذنا بنتا وعلمناها كل مايتعلمه الصبى فى المدارس الابتدائية ، وربيناها على أخلاق حميدة ، ثم قصرناها فى البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك أنها تنسى بالتدريج ما تعلمته ، وتتغير أخلاقها على غير شعور منها . وفى زمن قليل لانجد فرقا بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا . ذلك لأن المعارف التى يكسبها الإنسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها . ولذلك لايكون علمه فيها علما تاما كاملا . وإنما يتم له شىء من ذلك إذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبى يحفظ أسماء الاشياء أكثر مما يفهم معانيها . وأكبر فائدة يستفيدها فى هذا الطور من التعليم إنما هى التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فإن وقف سير التعليم فى هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئا فشيئا . وكان ما مضى من الوقت فى التعليم زمنا ضائعا .

ولما كان بين السن الذى تحجب فيه المرأة ــ وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ــ هو السن الذى يبتدئ فيه الانتقال من الصبا إلى الرجولية ، وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل إلى اختبار العالم والبحث فى الحياة وما تستدعيه ، وهو السن الذى تظهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات ، وهو السن الذى يتعلم فيه الإنسان نوعا آخر من العلم أنفس مما تعلمه فى المدارس ، وهو علم الحياة ، وطريق تحصيل ذلك العلم إنما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم ، وفى هذا السن يبتدئ الإنسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته ، وفى هذا السن يبتدئ استعداد كل شخص وميله وكفاءته فى الظهور ، فيندفع إلى الأعمال اندفاع الماء فى المنحدرات ، وهو سن الآمال والرغائب والنشاط ، فإن حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها ، بل رجعت القهقرى ، وفقدت كل ما كان يزين

نفسها ، ونسيت كل معارفها ، وخابت كل مساعيها ، وضاعت آمالها وآمال الناس فيها . ولا ذنب عليها فى ذلك ، فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال .

ربما يقال إن فى طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها ، وتتم دراستها فى بيتها، وهو وهم باطل . فإن الرغبة فى اكتساب العلم والتشوق لاستطلاع ما عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل مايستميل النفس إلى المطالعة والدرس لايتوفر للمرأة مع حجابها ، ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولاتعرف إلا مايقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل ، فلا يصل إليها منه شىء، وان وصل إليها بعضه فلا يصل إلا محرفا مقلوبا . أما إذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى فإنها تكتسب بالنظر فى حوادثه وتجربة مايقع فيه من معارف غزيرة تنبت فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهر الحياة . وقد يكفى فى إعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى ، وربما يمكنها أن تستغنى عن تعلم تلك المعارف الأولى إذا حسنت الفطرة وحادت القريحة .

وعلى فرض أن المرأة يمكنها فى احتجابها ان تستكمل مانقص منها علما وأدبا بقراءة الكتب ، فمن البديهى أن كل ماتحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا إخوتها الصبيان كما نعاملها وحجبناهم فى البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ، ولابد أن يأتى يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم . فإذا يكون من الخطأ أن نتصور أننا متى علمنا بناتنا جاز لنا أن نحجبهن متى بلغن سنا . خصوصا وأن مجرد ذلك التعليم الأول لايكفى فى التوقى من الضرر ، لأن الضرر فى الحجاب عظيم . وهو ضياع ماكسبنه بالتعليم ، وحرمانهن من الترقى فى مستقبل العمر ، والأمر فى ذلك واضح لايحتاج إلى دليل . ويكفينا أن نرجع إلى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه فى الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا أننا كنا أشبه بالأطفال لانكاد نعلم شيئا من العالم ولانعرف للحياة قيمة ولانميز كمال التمييز مالنا وما علينا ولاتمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة فى مجاهدة أنفسنا ، وان أكبر عامل له أثر فى تكميلنا هو استمرار تعلمنا

وتربية عقولنا ونفوسنا استمرارا لا انقطاع معه ، وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث .

وفى الحقيقة ان تربية الإنسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهى عنده ، فهى لاتنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الإنسان نفسه فى اكتسابه فى سنين معدودة ثم يقضى حياته بعد ذلك فى الراحة .

التربية ليست ذلك الشىء البسيط الذى يفهمه عامة الناس حيث يتصورون أنها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة فى « بروجرامات » المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها إلا البطالة والجمود ، وإنما التربية هى العمل المستمر الذى تتوسل به النفس إلى طلب الكمال من كل وجوهه . وهذا العمل لابد منه فى جميع أدوار الحياة حيث يبتدئ من يوم الولادة ولاينتهى إلا بالموت .

وإذا أراد القارئ ان يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب على وجه لايبقى للريب معه مجال فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم ، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب البيانو ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، وبحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية مع جهلها قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فإذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى .

ومن هذا نرى أغلب نساء نصارى الشرق ، وإن لم يتعلمن فى المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن ، فهن يعرفن لوازم الحياة ، لكثرة مارأين وسمعن باختلاطهن بالرجال فقد وردت على عقولهن معان وأفكار وصور وخواطر غير مااستفدنه من الكتب ، فارتفعن بفضل هذا الاختلاط إلى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع أنهن من جنس واحد واقليم واحد .

نرى فى المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعى مايؤهلها لأن تكون مساوية لغيرها من الأمم الأخرى ، لكنها اليوم فى حالة انحطاط شديد ، وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها .

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء إلى إفساد صحتهن فألزمناهن القعود فى المساكن

وحرمناهن الهواء والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية.

ليس فينا من لايعرف أن من النساء من لايفارقن بيوتهن لا ليلا ولا نهارا بل يلازمنها ولايرين لهن شريكا فى الوجود إلا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها ، ولا يرين أزواجهن إلا عند النوم ، لأنهم يقضون نهارهم فى اشغالهم ويقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم أو فى الأماكن العمومية.

ليس فينا من لا يعرف ان نساء كثيرات فقدن صحتهن فى هذه المعيشة المنحطة وفى هذا السجن المؤبد ، وأنهن عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئا من لذة هذه الحياة الدنيا.

لذلك كان أغلب نسائنا مصابا بالتشحم وفقر الدم ، ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزا وهى فى ريعان شبابها. كل ذلك منشؤه خوف الرجال من الاخلال بالعفة!.

على أن القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لايمكن الاستدلال عليه ، لأنه لم يقم أحد إلى الآن بإحصاء عام يمكن أن يعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة فى البلاد التى تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفى البلاد الأخرى التى تتمتع فيها بحريتهن ، ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفى فى المسألة ، لأن ازدياد الفساد فى البلاد ونقصه مما يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها.

ومن المعروف أن لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلا عظيما فى فساد اخلاقها وصلاحها ، ولهذا نرى الفساد يختلف فى بلاد أوروبا بين بلد وآخر اختلافا ظاهرا ، ونرى أيضا مثل هذا الاختلاف بين البلاد التى لاتزال فيها عادة الحجاب باقية. بل نرى اختلافا كبيرا بين زمن وزمن فى بلد واحد.

والتجارب ترشد إلى أمر يمكن اخذه دليلا على أن الاطلاق أدنى بالنساء إلى العفة من الحجاب ، فمن المشاهد الذى لاجدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية وهن أكثرهن اختلاطا بالرجال حتى أن البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ، ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا أن نساءها احفظ للاعراض وأقوم اخلاقا من غيرهن ، وينسبون صلاحهن إلى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء فى جميع ادوار الحياة.

ومن المشاهد الذى لانزاع فيه أيضا ان نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع

اختلاطهن بالرجال على مايشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد ، وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة ، والسبب فى ذلك أن الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فإذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة ، بل لو عرض عليها شىء من هذا فإنما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة يحدث فيها ماقد يشعر كل واحد منهما بانجذاب إلى الآخر : وهذا هو مامنعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق . أما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الصنف ، من غير شعور ولاتعمد ولا نية سيئة . وإنما هو أثر منظر الرجل الأجنبى . لأنه قد وقر فى نفسها ألا تراه ولايراها ، فمجرد النظر إليه كاف فى إثارة هذا الخاطر .

وقد شاهدت مرارا ، كما شهد غيرى ، هذا الأثر عينه فى الرجال ، فرأيت أن الرجل الذى لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوى لايملك نفسه إذا جلس بينهن ، فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل فى محاسنهن . وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة ، وربما طلب الوسائل لملامستهن بيده أو مماستهن بكتفه ويندفع إلى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين كأنه يظن ـ بل هو يظن بالفعل ـ أنه لامعنى لاجتماع الرجل مع المرأة فى مكان واحد إلا أن يتمتع كل منهما بشهوة مع الآخر ، بخلاف الرجل الذى اعتاد على مخالطة النساء فإنه لايكاد يجد فى نفسه أثرا من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ، ولايشعر بأدنى اضطراب فى حواسه ولا فى مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن فى الرجال وفى النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت . وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة إذا رأت رجلا فى الطريق أو دعتها الضرورة لمخاطبته تتصنع فى حركاتها وصوتها ما تظن أنه يروق فى عين الرجل ، والرجل كذلك .

قد شاهدت ، وشاهد كل إنسان ، مايخالف ذلك فى بلاد أوروبا وفى الآستانة وفى القرى المصرية وبين الأعراب فى البادية حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولايلتفت أحدهم إلى الآخر .

ولا ريب ان استلفات الذهن دائما إلى اختلاف الصنف من أشد العوامل فى اثارة الشهوة .

وبديهى ان المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والاجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة ، فإن عفة هذه قهرية اما عفة الأخرى فهى اختيارية ، والفرق كبير بينهما . ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد انهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران ؟ .

أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى الحبس ؟ فإن كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال إنهن عفيفات ؟ إن العفة هى خلق النفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الإلهى إنما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لابما يستكره عليه من الأعمال . فالعفة التى تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ومما يقع تحت اختيارهن لا أن يكن مستكرهات عليها ، وإلا فلا ثواب لهن فى مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » .

والحقيقة اننا نعمل عمل من يعتقد ان النساء عندنا لسن أهلا للعفة . أليس من الغريب ألا يوجد رجل فينا يثق بامرأة ابدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن امهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لايعرفن صيانة انفسهن؟ أيليق ألا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهن إلى هذا الحد ؟ .

إنى أسأل كل إنسان خالى الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها إنسان له من خاصة الإنسان مالنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وحواس ، وهل سوء الظن فى المرأة إلى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟.

والعاقل يرى ان الاحتياط الذى يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهما بلغ من الدقة لايفيد شيئا إن لم يصل الرجل إلى امتلاك قلب امرأته ، فإن ملكه ملك كل شيء منها ، وان لم يملكه لم يملك منها شيئا ، ذلك لأنه ليس فى استطاعة رجل أن يراقب حركات امرأته وسيرها فى كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج احدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل ان يملك جسم امرأته وحده إذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع ان يمنعها ان تتصرف فيه وتبذله لأى شخص تريد ؟ فإذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ومالت إليه بقلبها وودت ان تواصله لحظة أفلا

يعد هذا ، فى الحقيقة ، من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة فى هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لاتعاقب ولاتقيم الحد على زنا العين والقلب لأن العقوبات والحدود لاسلطان لها على الخواطر والقلوب ، ولكن فى نظر أهل الأدب والتقوى لاعبرة للبعد بين الاجساد إذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ، ما الذى فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى فى داخل البيوت مما ينافى العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد إلى ماوراء تلك الحجب ؟ كلا !.

ربما يقول قائل : إن ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقا ، وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشارا ، بل ربما كان الفساد فى الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلا ولامنشأ لذلك إلا رقة الحجاب ، فالحالة القديمة على مافيها كانت أصون للاعراض ، وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التى طرأت على النساء .

فنجيب عن ذلك بأننا لاننكر ان بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معا وجدت سبيلا من تخفيف الحجاب إلى تعارف بعضها ببعض واتيان ماتميل إليه من المنكر ، بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التى سار بها إلى الآن ـ والنفوس على ماهى عليه ـ لعمت البلوى وازداد الفساد انتشارا .

غير ان السبب فى ذلك ليس هو تخفيف الحجاب ، بل هو راجع إلى أمور كثيرة يجمعها : الجهل وسوء التربية .

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش ، وهو الذى يسهل على امرأة ذات مكانة فى بيتها وقومها ان تطيل نظرها إلى شاب يمر فى طريقها ، وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به إليها ، وسوء التربية هو الذى يدفع بها إلى الاتفاق معه على التلاقى بل والتواصل قبل ان يدور كلام بينه وبينها ، وإنما اركان عقد ذلك الاتفاق هى نظرات واشارات لاتفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولاعن درجة من العرفان ولاتدل على حالة نفسية ولاعقلية ولاجسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين .

سوء التربية هو الذى يخرق كل حجاب ، ويفتح على المرأة من الفساد كل باب ، وهو

الذى يخشى معه ان تسرى العدوى من امرأة إلى امرأة ومن طبقة إلى طبقة ، فقد نرى ان المحجبات مهما بالغن فى التحجب لايستنكفن أن يختلطن بنساء أحط منهن فى الدرجة وأبعد عن التصون والعفة ، فسيدة المنزل لاترى بأسا فى مخالطة زوجة خادمها ، بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله إليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها ، ولاتأنف التفتح فى القول مع الدلالات وبائعات الأقمشة ، بل قد يطوحها الجهل إلى الاختلاط بنسوة لاتعرف شيئا من حالهن ولا من أى مكان أتين ولا بأى خلق من الاخلاق تخلقن واشنع من هذا كله واشد منه فعلا فى إفساد الاخلاق ان نساء من المومسات اللاتى يحملن تذكرة رسمية يدعون فى الأفراح ويرقصن تحت أعين الأمهات والبنات والكبار والصغار .

هذا مايأتى من سوء التربية ، وهو من أشد العوامل فى تمزيق ستار الأدب ، وليست رقة الحجاب بشىء فى جانب هذا كله .

طرقت ديارنا حوادث ، وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا إلى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم . خصوصا ان كان ذلك إرضاء لشهوة أو اطلاقا من قيد ، فكان من ذلك ان كثيرا من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن فى الخروج إلى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك . وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن . وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الأخلاق .

تلك حالة طرأت للاسباب التى تقدمت ، وتبعها من العواقب مابيناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولامن المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع إلى تغليظ الحجاب ، بل صار من متممات شئوننا ان نحافظ عليها ونتقى تلك المضار التى نشأت عنها ، وذلك هو مانستطيعه أيضا .

أما أنه ليس من مصلحتنا ان نمحو هذه الحالة فلما قدمناه فى مضار الحجاب على الوجه المعروف ، وأما أننا لانستطيع ذلك فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقا لاتزال موجودة . وهى تزداد بمرور الزمن رغما عنا ، ولأننا قد وجدنا من انفسنا ميلا إلى حسن المعاملة فى معاشرة النساء ، وزين فى انفس الكثير منا حب المجاملة فى مرضاتهن ، ونشأت لهن فى قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل ، وأحس النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن إليه من الحرية والاطلاق حقا من الحق وضروريا من ضروريات

المعيشة ، فلايسهل على الرجل ان يقضى على امرأته اليوم بما كان يقضى به من قبل أربعين سنة .

والذى يجب علينا هو معالجة المضار التى يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجاب ، ولا توجد طريقة انجع فى ذلك العلاج إلا التربية التى تكون هى الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم فى أية درجة وصلت إليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض : إن التربية والتعليم يصلحان اخلاق المرأة ، وأما الاطلاق فربما زاد فى فسادها . فنجيب : إن الاطلاق الذى نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع اجنبى ، وفى هذا الحظر ما يكفى لاتقاء المفاسد التى لاتتولد إلا من الخلوة ، أما الاطلاق فى نفسه فلا يمكن أن يكون ضارا أبدا متى كان مصحوبا بتربية صحيحة ، لأن التربية الصحيحة تكون أفرادا أقوياء بأنفسهم يعتمدون على أنفسهم ويسيرون بأنفسهم ، فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره ، ومن نقصت تربيته احتاج إلى الغير فى كل أموره ، فالاستقلال فى النساء كالاستقلال فى الرجال يرفع الأنفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس : لذلك يجب ان يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء .

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان وهما مطمح آمال كل أمة تسعى إلى سعادتها ، وهما من أشرف الوسائل لإبلاغها من الكمال ما اعدت له ، فكيف يمكن لعاقل أن يدعى ان لهذين العاملين أثرا آخر سيئا فى انفس النساء ؟ ومن زعم أن التربية واستقلال الإرادة مما يساعد على فساد الأخلاق فى المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التى لايخلو منها أمر من الأمور النافعة فى العالم ، فإن لكل نافع ضررا إذا أسيء استعماله .

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة ، وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره ، فهل ذلك يحمل احدا من الناس على أن يقول : ان من الصواب ان لايعلم الرجال شيئا خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم ، وان من الواجب ان يتركوا فى الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن ان عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله ، فإذا كان اجماعنا قد انعقد على ان لاخير للرجال فى الجهل والاستعباد ، وأن لاسبيل لهم إلى بلوغ درجات الفضل إلا بالعلم وحرية الفكر والعمل ، فما لنا نختلف فى هذه القضية نفسها إذا عرض ذكر المرأة ؟ وأى فرق بين الصنفين فى الفطرة والخلقة ؟.

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة فى النساء ، وفى الحرص عليها ، وفى ابتداع

الوسائل لحفظ ماظهر منها ، وتفخيم صورتها ، حتى جعلنا كل شيء فداءها ، وطلبنا ان يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها. نعم العفة أجمل شيء فى المرأة ، وابهى حلية تتحلى بها ، ولكن العفة لاتغنى شيئا عن بقية الصفات والملكات التى يجب ان تتحلى نفس المرأة بها ، من كمال العقل ، وحسن التدبير ، والخبرة بتربية الأولاد ، وحفظ نظام المعيشة فى البيت ، والقيام على كل مايعهد إليها من الشئون الخاصة بها . بل نقول : إن لهذه الصفات دخلا كبيرا فى كمال العفة ، وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لاينقص فى ضرره وفى الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على ان عقد الزواج وحده هو الذى يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة ، وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت ، ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة ، وكمال النفس الإنسانية ، فالعمل على مايخالفه قبيح مذموم بلا ريب ، غير ان تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالا أخرى وانزلتها من الشناعة منزلة لاتنحط عن منزلة الخنا ، ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليها لأنها اعتبرت ان لتلك الأعمال من الضرر بالنظام ماهو أشد من ضرر الزنا ، ولنضرب مثلا بجريمة القتل ، فإنها أعظم من جريمة الزنا فى نظر الدين والقانون ، فلم لم نتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟.

إنا معرضون فى كل ساعة تمر من حياتنا إلى مصائب لاتحصى وهذا لايمنعنا من ان نتحرك ونقتحم الاخطار فى الاسفار لنحصل من رزق الله مانحتاج إليه . إنا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا ، فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف ، وغيرها من الجرائم ، تزعج الساكن وتقلق المطمئن ، ومع ذلك فإنا نحتمل مصائبها ، ونسلم لحكم القدر فيها ، ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة ، من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة ، فلم لايكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التى لايخلو منها مجتمع انسانى ؟ ولم نتخيل أنها أشنع وافظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها مالم نتخذه لمنع غيرها ؟.

وعلى أى حال فليس من الجائز ان نأتى مافيه ضرر محقق لنتقى به ضررا وهميا . فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع ، قد يكون وربما لايكون ، أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهما ضرر محقق لاحق بها حتما ، وياليته اقتصر عليها ، ولكنه يتعداها إلى كل ما يقع تحت رعايتها .

يتوهم احدنا ان امرأته ربما تميل إلى غيره ان رفع الحجاب عنها ، فلذلك يزج بها وراء الأبواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك أنه قد استراح من الوساوس ، وهو لايدرى ما ربما يأتيه من ... حيث لايدرى فلم يفده حرصه شيئا فى الحقيقة ، ومع هذا فهو بعمله قد قتل نفسا حية وأفسد نفوسا كثيرة ممن تتولاهم زوجته فى بيته فى سبيل مايظنه راحة لنفسه .

توهم كثير ممن سبقنا مثل ماتوهمنا ، وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا ، بل فاقونا فى التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم . وانى أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان أوروبا فى القرون الوسطى ، وهى ما كان يسمى عندهم « بنطاق العفة » ، وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ، ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه فى جيب الرجل دائما ، ولكن هذا لم يمنع النساء من ان يمنحن عشاقهن مفتاحا مصطنعا . ثم مالبث هؤلاء الأمم ان ادركوا خطأهم ، وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها ، ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا فى قياس أعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم ، وادركوا ان سعادتهم لاتتم بما ينالون من ثمار ذلك إلا إذا شاركهم نساؤهم فى مساعيهم وعاونهم فى لم شعثهم وتكميل نقصهم فأعدوهن بالتربية والعلم إلى ما أملوا منهن . ففتككن من أسرهن وتمتعن بحريتهن وسرن مع رجالهن يعاونهم فى الحياة ويمددنهم بالرأى فى كل امر ، ولست مبالغا ان قلت ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الأصول الثابتة إنما شيد على حجر أساسى واحد هو المرأة .

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهن فى مخالطتهم قاصرا على المزايا التى أشرنا إليها ، بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة فى تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد .

تدخل بيت الغربى من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاما وأكمل ترتيبا وأجمل أثاثا من بيت الشرقى من أهل طبقته ، ومع ذلك تجد نفقة الغربى أقل من نفقة الشرقى بكثير .

انظر إلى الواحد منا تجد مسكنه لابد ان يكون قسمين قسم للرجال وآخر للنساء ، فإن أراد أن يبنى بيتا فعليه ان يهيئ مايكفى لبناء بيتين فى الحقيقة . وإذا استأجر بيتا فهو إنما يستأجر فى الواقع بيتين ، ويتبع ذلك مايلزم لكل منهما من الأثاث والفرش ، ولابد له من فريقين من الخدم ، فريق يخدم الرجال فى القسم المختص به . والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت ، ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال ، لأنه ليس من الجائز فى عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته فى عربة واحدة . وهو مضطر لأن يزيد فى النفقة للطعام لأنه إذا أتى ضيف واحد ،

رجلا كان أو امرأة ، وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفى ، وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولا سبب لها إلا تشديد الحجاب على النساء .

هل يظن المصريون ان رجال أوروبا ، مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على مانشاهده بأعيننا ، وان تلك النفوس التى تخاطر فى كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالى وتفضل الشرف على لذة الحياة ، هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التى نعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ؟! هل يظنون ان أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيرا فيه ؟ ـ كلا ! . وإنما الافراط فى الحجاب من الوسائل التى تبادر عقول السذج وتركن إليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل ان المرأة انسان من نوعه ، لها ماله وعليها ماعليه ، وان لاحق لأحدهما على الآخر بعد توفية مافرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه إلا مايعطيه كل من نفسه بمحض إرادته وحسن اختياره .

متى تهذيب العقل ورق الشعور فى الرجل عرف ان حجاب المرأة إعدام لشخصها ، فلا تسمح له ذمته بعد ذلك أن يرتكب هذه الجريمة توسلا إلى مايظنه راحة بال واطمئنان قلب .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه أن لا سبيل إلى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجال .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل ادرك ان ألذ شيء تشتاق إليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد الهوى ونزوات الشهوة فيسعى جهده فيما يقويه ويشد عراه ويبذل مافى وسعه للمحافظة عليه .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لا تقتنع نفساهما بالاختلاط الجسدانى وحده بل يصير أعظم همها طلب الائتلاف العقلى والوحدة الروحية .

ان طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد ، معادية للاستعباد ، مياله إلى سوق القوى الإنسانية فى طريق واحد وغاية واحدة . فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلا لابد ان ينال منه النساء نصيبهن ، فمن الواجب علينا أن نمد إليهن يد المساعدة ونعمل بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة واليتيم » . ولاشيء أدخل فى باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس

واعدادها بالتعليم والتربية إلى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ،وإلا من حسن المعاملة واللطف فى المعاشرة ، فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لاصلة إكراه وقسوة . هذا ماتفرضه علينا الإنسانية وتطالبنا به الشريعة . وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا اداؤها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها .

وقبل ان اختم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب على ان أنبه القارئ إلى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة ، والنساء على ماهن عليه اليوم ، فإن هذا الانقلاب ربما تنشأ عنه مفاسد جمة لايتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى ، وإنما الذى أميل إليه هو اعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير :

فيعودون بالتدريج على الاستقلال ، ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لاثوب يختفى دونه الجسم ، ثم يعودن على معاملة الرجال من أقارب وأجانب ، مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الآداب تحت ملاحظة أوليائهن . عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك ، اللهم إلا فى أحوال مستثناة لاتخلو منها محجبة ولا بادية .

المـرأة والأمـة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على ان يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها ، يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم ، بل فى أهم دور من تاريخها .

إنى لا أجد فى ماضيها عصرا انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام فى انحاء البلاد ، وتهيأت الأسباب للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها زمن حتى صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ماهى فى هذا الزمن ، فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء ، حتى فاض من منبعه إلى جميع انحاء المسكونة ، فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطئه بقدمه ، وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يدع وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة ، وان أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فإنه إنما يسعى إلى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها ، وبأى طريقة يرى النجاح فيها ، وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما ، فهو لايطلب الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر ، لأنه يجد ذلك متوفرا له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية ، وإنما الذى يحمل الانكليزى على ان يسكن الهند والفرنساوى الجزائر والروسى الصين والألمانى زنجبار هو حب المنفعة ، والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لايعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !.

فإذا صادفوا أمة متوحشة ، مهما كان بأسها ، أبادوا أهلها واهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا واستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى أفريقيا ، حيث لايرى أثر لأهالى البقاع التى احتلها الأوروباوى ، لأنهم خرجوا منها طوعا أو كرها . وان

صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف ، لكن لايمضي زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة ، لأنهم أكثر مالا وعقلا وعرفانا وقوة ، فيتقدمون كل يوم ، وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ماسماه « داروين »[٢٩٥] : قانون التزاحم فى الحياة ، فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع واودعها لها لتعدها إلى الرقى فى درجات الكمال ، فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود إلى خفاء العدم ، وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على أنه أفضل بنى نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ، ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره .

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لامندوحة عنها ، وهى ان تستعد الأمة لهذا القتال ، وتأخذ له أهبتها ، تستجمع من القوة مايساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت ، خصوصا تلك القوة المعنوية ، وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سواها .

فإذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها ، وسلكت فى التربية مسالكهم ، واخذت فى الأعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ماتدرعوا به ، امكنها أن تعيش بجانبهم ، بل تيسر لها ان تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم ، لأن البلاد بلادها ، وارضها أبر بها منها بالغريب عنها ، وابناءها أقدر على المعيشة فيها ، وهم السواد الأعظم ، فكيف إذا ظفروا من أنفسهم بتلك الحال الشريفة لايفلحون ؟.

وهذه الطريق ــ طريق النجاة ــ كما قدمت مفتوحة أمامنا ، ولايوجد عائق يعوقنا عن السير فيها إلا مايكون من انفسنا .

فإن كان للمصريين همة وصدق عزيمة فى طلب سعادتهم ، والمحافظة على بقائهم

---

(٢٩٥) تشارلس روبرت دارون (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢ م) العالم الطبيعى الانجليزى الذى اشتهر بأبحاثه فى نظرية النشوء والارتقاء . وأشهر آثاره الفكرية كتابه [أصل الأنواع] ، وله كذلك [أصل الإنسان والانتجاب بالنسبة للجنس] « وتنوع النباتات والحيوانات تحت الاستئناس) . ولقد لعبت نتائج أبحاثه فى نشوء الانواع وارتقائها دورا هاما ما فى الحياة الفكرية بالقرن التاسع عشر .

والسعى إلى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة ، فعليهم أن يسلكوا تلك الطريق ، ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة ، وينزعوا من أنفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم ، وليعتمدوا على أنفسهم فى اصلاح أنفسهم ، ولايضيعوا أوقاتهم فى أمانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم ، فإن حكومتهم لاتستطيع من العمل لهم إلا قليلا ، أما هم فإنهم يستطيعون أن يأتوا فى اصلاح شئونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم ان يقولوا كل يوم : إن الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من أن نفعل مايجب علينا لأنفسنا ؟ .

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن ان مصر رأت مايماثلها فى أى زمن من أزمانها ، وهما الأمران اللذان تحتاج إليهما الأمة أشد الاحتياج ، ولايتيسر بدونهما نجاح فى عمل من الأعمال العظيمة التى يقوم بها اصلاحها ، فما علينا إلا أن ننتهز فرصة ما وصلنا إليه ونحرث أرضنا ، ونسقى غراسها ، وننتظر ماتأتى به من الثمرات ، فإذا نضجت اقتطفناها . كما ان الزارع يجب عليه قبل ان يلقى البذور فى الأرض ان يهتم بمعرفة طبيعتها وماتحتاج إليه من الأعمال لتحضيرها وتهيئتها ، حتى لايضيع ماله وتعبه ، كذلك يجب علينا ان نبحث فى أسباب تأخرنا ، فإذا عرفناها عمدنا إلى ازالتها ، وصنا أنفسنا من التخبط على غير هـدى وأرحنا أنفسنا من التجارب العقيمة .

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمرا لاحظه كل من له إلمام بأحوال الشرق : وهو ان تأخر المسلمين عام فيه أين كانوا ، فالسبب يجب ان يكون عاما أيضا .

أما اختلاف الشعوب والأقاليم فليس له تأثير كبير فى انحطاط المسلمين ، إذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركى والمصرى والهندى والفارسى والبشناقى والصينى من حيث العمران والمدنية ، ولكنا لا نرى اختلافا بينهم من هذه الجهة ، وإنما الاختلاف محصور فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد ، ذلك هو كل مافعله اختلاف الشعوب والأقاليم ، فالتركى ، مثلا ، نظيف صادق شجاع ، والمصرى على ضد ذلك ، إلا انك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط ، إذا لابد ان يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة .

ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا إلا الدين ذهب جمهور الأوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين ، إلى ان الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ، حتى الذين يشاركونهم فى الاقليم ويساكنونهم فى البلد الواحد . ولم يقصد أحد منهم ، خصوصا أفاضل المسلمين المشتغلين بأحوال الأمم الإسلامية ، أن يتهم

الدين الإسلامى الحقيق بأنه السبب فى انحطاط المسلمين ، فإن كل من عرف هذا الدين من الاجانب ، فضلا عن ابنائه المنتسبين إليه ، يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية فى الأمم التى انتشر بينها برهنت على أنه وسيله من افضل الوسائل ، وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الإنسان فى طريق الترقى والتقدم إلى غايات السعادة ، ولكنهم يرون أن مايزعمه المسلمون اليوم دينا وتسميه عامتهم بل وأغلب علمائهم بدين الإسلام قد اشتمل على أمور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيق الطاهر ، وإنما هى بدع ومحدثات ألصقت به ، فهذا الخليط الذى سماه الناس دينا واعتبروه اسلاما هو المانع من الترقى .

وليس فى امكان أحد أن ينكر أن الدين الإسلامى قد تحول اليوم عن أصوله الأولى ، وأن العلماء والفقهاء ـ إلا قليلا ممن أنار الله قلوبهم ـ قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزوا وحقت عليهم كلة الكتاب : (اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا) [٢٩٦]

ولكنى اعتقد ان هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سببا لما عليه المسلمون الآن ، وإنما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشى فى المسلمين بعامة ، رجلا ونساء .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه وأصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد ، وصرحت السنة ، كما أجمعت عليه الأئمة ، بأن لاقوام للدين إلا بسلطة تحفظه ، فلم يمض إلا قرن واحد من عهد ظهور الإسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم ، ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الأخذ بهذا الدين وإنما كانوا يفتحون البلاد دفاعا عن الحوز وتوسيعا لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذى يعمل له الأوروباويون فى بلاد الشرق الآن .

ثم لم يمض على ظهور الإسلام جيلان إلا وقد أضاء الكون بنور العلوم التى نشرها المسلمون فى كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به ، فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون إلا تعلموه والفوا فيه ، وزادوا عليه . حتى العرب ـ تلك الامة الامية التى ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية أبدا ـ اندفعت بقوة ذلك التيار ، وعامل تلك النهضة ، الى منافسة مواطنيهم فى خدمة العلم ، وكانت هذه الحركة عامة فى كل ما يجول فيه الفكر ، ويمتد اليه النظر ، وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام ، وآخر بالعلوم الطبيعية ، وثالث

---

(٢٩٦) الأعراف ٥١ .

بالفلك والحساب ، ورابع بالتاريخ والجغرافيا ، وخامس بالفلسفة والاخلاق ، ولم يهملوا الصناعات والتجارة ، فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجرى فى البحار حول الارض ، واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى أن رزئ المسلمون بوقائع التتار فى الشرق وانقراض الخلافة منه ، وزالت دولة العرب من الاندلس ، وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا ، فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى .

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق بأجمعه ، واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شىء من علوم الكلام وبعض شىء من قواعد اللغة ، وانصرفوا عن كل شىء سواها .

ولما ساد الجهل على عقولهم ، وتراكمت ظلماته فى اذهانهم ، لم يعد فى استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين ، وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بأن يصعدوا اليه بعقولهم ، فأنزلوه من مكانه الرفيع ، ووضعوه مع جهلهم فى مستوى واحد ، ثم اخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق ! والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ، ويعجب بمعارفه ، ويؤذى نفسه والناس معه .

انظر إلى الجاهل ، تجده دائما يختار من فكرين أقلهما صوابا ، ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما ، ذلك لأن الحق ، سواء كان فضيلة أو مصلحة ، يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر ، فلا يراه إلا بعيد النظر ، نافذ البصيرة فى مصائر الأمور وعواقبها ، ثم هو يحتاج فى الوصول إليه إلى عناء يفر منه الجاهل الكسول ، وفيه حرمان من لذة حالية فى سبيل منفعة مستقبلة .

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعنيهم ، وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى إعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وجه على الأقل . وإن سألتهم عن شىء من الأشياء المتداولة فى أيديهم : كيف صنع ؟ أو عن حال الأمة التى هم منها ، أو أمة أخرى تجاورهم ، أو الأمة التى احتلت بلادهم : أين موقعها الجغرافى ؟ وما منزلتها من القوة والضعف ؟ بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه ، أو مكانه من بدنه ، هزوا أكتافهم ازدراء بالسائل والمسألة ، واحتقارا لها ، وإن تكلمت معهم فى نظام حكومتهم الداخلى وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية ، وجدتهم لا يدرون منها شيئا ، وسواء عاشوا فى العز أو فى الذل فهم على كل حال عائشون ، وبما ينحطون إليه راضون ، ويرون أن ليس للإنسان أن يعمل لمصلحة نفسه ، وأن يختار لها أمراً ، ويزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه

وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ، ونيل ما يتوهمونه شرفا ورفعة ، ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم ، فهم فى الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وإنما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعا للسذج بأنهم فى تقصيرهم فى أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء .

ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات ، وكيف تُعَذَّب الألفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما فى الدين والدنيا ، والبعد بينهم وبين الدين الحقيق عظيم ! .

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى بيان ما جاء به الإسلام كلاما نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لأنه أحسن ماكتب فى هذا الزمان لتنبيه أفكار المسلمين :

«طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل (نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت)[٢٩٧] (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقل ذرة شرا يره)[٢٩٨] . (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)[٢٩٩] وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ماكان ضارا لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره إلى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقا محترما تصطدم به .

انحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ماكان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم . وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم : نم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والرحلة كليلة والأزواد قليلة ! .

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون . وإلى طريق البحث هادون .

---

(٢٩٧) البقرة : ٢٨٦ .

(٢٩٨) الزلزلة : ٧ .

(٢٩٩) النجم : ٣٩ .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[٣٠٠]. فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غيره فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مُسْمِيا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان. بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)[٣٠١]. وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند مااختطته لهم سير أسلافهم وقولهم: (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا)[٣٠٢]. (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون)[٣٠٣] »[٣٠٤].

ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفرا من علماء عصرنا فى مصر وفى غيرها من بلاد الإسلام، شرقا وغربا، يرون ما نرى، ويقولون ما نقول، ويعترفون بأن العلوم التى تقرأ الآن فى الأزهر وفى غيره لاتفيد إن لم تؤسس على الحقائق العلمية التى تهيئ العقول لقبولها والانتفاع بها.

وفى الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف

---

(٣٠٠) الزمر: ١٨.

(٣٠١) الانعام: ١١.

(٣٠٢) لقمان: ٢١.

(٣٠٣) الزخرف: ٢٢.

(٣٠٤) رسالة التوحيد: صحيفة ١٠٠ و١٠١ و١٠٢.

العامة والمبادئ العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها ، وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس فى ارتباطها بخالقها وفى معاملتها مع بقية البشر ؟ وكلاهما يحتاج إلى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الأفكار ويرتقى به العقل ؟؟ أليس العلم فى الحقيقة واحدا يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد ، وتتغذى من جذر واحد ، وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هى معرفة حقيقة كل شىء فى الوجود ؟ .

وما علينا إلا أن نصغى لمقال هؤلاء العلماء الأفاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ، ولا يخفى عليهم شىء من حاجات الدنيا ، وأن نعضدهم فى مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقابات ويتغلب على المصائب التى أقامها أهله فى طريقه .

ولا حاجة بنا إلى التطويل فى شرح أمر صار معلوما عند الكل ، وهو انحطاط الدين اليوم فى جميع مظاهره ، حتى فى العبادات ، وإنما أردنا أن نبين أن انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول ، وأن العلة الأولى التى هى مصدر غيرها من العلل التى حالت بيننا وبين الترقى هى أهمال التربية فى الرجال وفى النساء معا .

فإن استمر ذلك السبب لم يصلح للأمة حال ، بل يستمر كل أمر على حاله ، والدين أيضا ، وإن زال ذلك السبب صلح حال الأمة فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية وصلح معها الدين أيضا .

أما أن تربية الرجال تصلح شأن الأمة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفا عند كل أحد ، مسلما عند الجميع ، وأما وجوب تربية المرأة أيضا فلايزال محتاجا إلى البيان :

المرأة لا تكون خلقا كاملا إلا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . أما تربيتها الجسمية فلأنها لازمة لها فى استكمال صحتها وحفظ جمالها ، فيجب أن تربى كما يجب أن يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لأن الجسم الضعيف لا يسكنه إلا عقل ضعيف ، ولأن ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية إنما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم .

فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم ، وهذا هو السر فى تقدم الجنس الانكليزى السكسونى على غيره .

ويرى القراء فى الكتاب الذى ترجمه صديق أحمد فتحى بك زغلول[٣٠٥] من اللغة الفرنساوية إلى العربية[٣٠٦] كيف أن نشاطهم وجراءتهم وإقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التى تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هى نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال فى الأعمال مما له دخل كبير فى تربية أطفالهم ذكورا وإناثا ، ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم فى تقليدهم ، لأنه أدركوا أن تربية العقل التى اعتنوا بها لاتثمر ثمرتها إلا إذا صحبتها تربية الجسم ، وأن موازنة العقل لاتتم إلا بموازنة وظائف الجسم. وإذا تذكر القارئ ما سبق بيانه من أن الولد يرث من أبويه ، خصوصا من أمه ، الحالة الجسمية والعقلية التى تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة.

وأما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها ، كما هى حالتها الآن عندنا. نعم انها تلد ، ويحفظ بها النوع الإنسانى ، لكنها فى ذلك إنما تؤدى وظيفة كل أنثى من سائر أنواع الحيوانات ، وهى لا تمتاز فى عملها هذا عن نحو هرة ولود !.

وفى الحق أننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة ، وخصصناها بالنتاج ، ولم نطلب منها شيئا غير ذلك. وسببه أننا توهمنا أن المرأة لا تصلح لعمل آخر ، وأن الرجال غير محتاجين للنساء فى القيام بشئون الحياة الخاصة والعامة ، وغاب عنا أن الرجل إنما يكون فى كبره كما هيأته والدته فى صغره.

فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذى أريد أن يفهمه الرجال ، وهو ثمرة كل ما وضعته فى هذا الكتاب.

أنى أكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين إن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح ، فتلك هى الوظيفة السامية التى عهد التمدن بها إلى المرأة فى عصرنا هذا ، وهى تقوم بأعبائها الثقيلة فى كل البلاد المتمدنة ، حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالا.

---

(٣٠٥) (١٨٦٣–١٩١٤ م) من أبرز القانونيين المصريين فى عصره ، عمل بالقضاء ، وتولى منصب وكيل نظارة الحقانية (وزارة العدل) ، ومن مترجماته [أصول الشرائع] لبنتام ، و[الاسلام] لهنرى دى كاسترى ، و(سر الاجتماع) و(سر تطور الامم) لجوستاف لوبون. والكتاب الذى يشير إليه المؤلف هو من تأليف الكاتب الفرنسى ديمولين.

(٣٠٦) سر تقدم الانجليز السكسونيين.

وبديهى أن العمل الأول ، وهو الولادة ، هو عمل بسيط مادى ، تشترك فيه المرأة مع الحيوانات ، فلا يحتاج إلا إلى بنية سليمة . أما العمل الثانى ، وهو التربية ، فهو عمل عقلى امتاز به النوع الإنسانى ، وهو محتاج فى تأديته إلى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة .

والأمر الذى يلزم أن تلتفت إليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام فى العائلات التى يتكون منها جسم الأمة ، لأن العائلة هى أساس الأمة . ولما كانت المرأة هى أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها فى المرتبة العقلية أول مؤثر فى تقدم الأمة وتأخرها .

المرأة ميزان العائلة . فإن كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها ، وعاشوا جميعا منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ، ولا يعرفون نظاما ولا ترتيبا فى معيشتهم ، فتفسد آدابهم وعوائدهم . أما إن كانت المرأة على جانب من العقل والأدب ، هذبت جميع العائلة ، واحترمها أفرادها ، واحترموا أنفسهم ، وعاش الجميع فى نظام تام تحت لواء محبتها ، متضامنين ، أقوياء باتحادهم . وهذه الصفات التى تشاهد فى العائلة هى الصفات التى تشاهد فى الأمة ، اذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته . ومن المحال أن يكون للإنسان من الصفات والأخلاق فى أمته ما ليس له نموذج فى منزله ، وأن يعامل مواطنيه بأخلاق غير التى يعامل بها أفراد عائلته . فإن كان حسن الأخلاق فى عائلته كان ذلك فى أمته . وان كان سيئ الأخلاق فى عائلته ساءت أخلاقه فى أمته أيضا . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة فى تقدم الأمم وتأخرها .

وبالجملة فإن ارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل مختلفة متنوعة ، من أهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا ، من أهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط فى مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف فى سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التى ينتظر بها مرور الأزمان ، ويجوز الابطاء فى إعداد الوسائل لها ، كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات ، وإنما هى من الحاجيات ، بل من الضروريات التى يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهى الواجب الخطير الذى إن قمنا به سهل علينا كل إصلاح سواه ، وإن أهملناه أفسد علينا كل إصلاح سواه .

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة

البسيطة التى وقفها أولئك الأسلاف الغافلون على التناسل ، فبمجرد ما حل العقل محل القوة ، وحلت الحرية محل الاستبداد ، رأى العالم أن فى المرأة أسرارا لم تعرفها الجاهلية الأولى ، وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال ، وأن انحطاطها كان عارضيا لا طبيعيا ، فلما استيقظت من نومها ، واستنار عقلها ، واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ، ومرنت قواها على العمل ، صعدت من العقل إلى درجة وذهبت فى رقة الشعور إلى غاية لم تكن تخطر فى خيال واحد من أهل تلك العصور الخالية ، وهى إلى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة مالا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا والمرأة عاملة فيه مع الرجال كتفا لكتف ، ولا يوجد عمل خيرى إلا وهى فى أول العاملين فيه ، ولا تقع حادثة سياسية إلا وللمرأة نصيب فيها وليس بين الصنفين فرق إلا أن المرأة لم تنل الحقوق السياسية ، فإذا منحتها كما هو المنتظر فى بلاد أوروبا تمت المساواة بينهما . على أنها قد نالت منها الآن شيئا كبيرا حيث خول لها حق الانتخاب فى أمريكا ، وفى انكلترا فى المجالس البلدية ، وفى فرنسا فى المحاكم التجارية وفى بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة فى المجالس الشورية ، ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم أوروبا وأمريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعى فى سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر تترك فى تاريخ أعمالهن أثرا شريفا وتنتهى بفوز جديد .

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التى أظهر فيها هذا النصف الضعيف قوة عجيبة أن المرأة لابد أن تصل فى زمن قريب إلى مستوى تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال فى جميع الحقوق ، ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك إلا الله . وهل يقف النساء عند هذا الحد أو يسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقى ؟ ! .

ومن البديهى أن هذه القوى التى تصرفها النساء فى التجارة والصناعة والفنون والعلوم ، وإن كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر أثرها للناظر فى أحوال الأمة ولكن لجميعها مجموعا واحدا يظهر أثره فى أحوالها تمام الظهور . وهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى العناية والانتفاع به .

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال النساء الخيرية ، لأن الميل إلى الخير من غرائز المرأة الفطرية ، ويقودها إليه رقة الاحساس وحنو القلب ، ولها من

الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله أعظم الرجال جلدا ، ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي . وهذه الصفات توجد عند النساء فى الغالب . غير أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدا يهديها إلى سبل الخير فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة فى أصغر الأمور وأحقرها .

هذا هو عمل المرأة فى الأمم المتمدنة . وقد وجد فى مبدأ الإسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة . فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية ، على اختلاف مواضيعها ، قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة ، وأن عددا غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر ، وأن عائشة تداخلت فى مسألة الخلافة العظمى ، وكانت رئيسة للحزب المعارض لأحد الخلفاء ، وأنى أورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام إلى الطائفة التى كانت قد انحازت إليها ، وهى الخطبة التى ألقتها عند دخولها البصرة :

«إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ورسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين (عثمان) بلا ترة ولا عذر . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا . وقرأت : (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)[٣٠٧] . ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله ـ عز وجل ـ وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصغير والكبير والذكر والأنثى ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره»[٣٠٨] .

ويروى عن أم عطيه أنها قالت : «وغزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبع

---

(٣٠٧) النساء : ١١٤ .

(٣٠٨) تاريخ الطبرى جزء سادس صحيفة ٣١١٦ .

غزوات ، وكنت أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

والذى يقرأ هذه الأسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتى وهبن حياتهن لخدمة الإنسانية .

والناظر فى الأحوال التى فضَّلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة فى بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وأن الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة ، وحصر الوظائف العمومية فى الرجال ، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه إلى الآن التمدن فى أوروبا ، ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ــ ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل ــ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

والقارئ الذى تتبع سلسلة القواعد الكلية التى سردتها بغاية الايجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص فى عبارة واحدة : **هى أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة** . فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذى كان يظنه جسما ، يرى المرأة التى يهيئها المستقبل تتلألأ فى أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطرى ولابسة حلة كمالها النسائى : الجسم والعقل .

العائلة

لايتم إصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها. بل يحتاج إلى تكميل نظام العائلة. نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ، ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والأحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة وانحطاطها ولهذا رأينا من الضرورى استلفات الذهن إلى أهم المسائل التى تمس بحياة العائلة ، وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق . وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب .

* * *

(١)
[الــزاوج]

رأيت فى كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه : «عقد يملك به الرجل بضع المرأة» . وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير إلى أن بين الزوج والزوجة شيئا آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية ، وكلها خالية عن الاشارة إلى الواجبات الأدبية التى هى أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر .

وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاما ينطبق على الزواج ، ويصح أن يكون تعريفا له ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التى وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه .

قال الله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[٣٠٩] . والذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله يرى بنفسه إلى أى درجة وصل انحطاط المرأة

(٣٠٩) الروم : ٢١ .

فى رأى فقهائنا ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط إليها الزواج حيث صار عقدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع .

فهذا النظام الجميل ، الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين ، آل أمره بفضل علمائنا الواسع ، إلى أن يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل ، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة ، وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعى المودة ألا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج إلا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر ، ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقى الشرعى استخففنا به وتهاونا بواجباته ، وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه .

بينا فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثا عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أمر به أحد الأنصار أن ينظر إلى مخطوبته وهو قوله : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» . فما بالنا أهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة ، مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية ؟ ذلك لأن الجاهل من عادته أن يميل إلى ما يضره وينفر مما ينفعه .

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمى العقل قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معا وأن يختلطا كمال الاختلاط؟ أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشترى خروفا أو جحشا قبل أن يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الإنسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر ! .

لعلك تقول إن المرأة ترى خاطبها من الشباك مرارا ، وأن الرجل يعرف بواسطة أمه أو اخته أوصاف مخطوبته ، مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك فيكون عنده علم بما هى عليه من جمال وشمائل . نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل إلى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال . وإنما الذى يهم الإنسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقا حيا يفتكر ويتكلم ويفعل ، خلقا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيرا ما يرى الواحد شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ، وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه فى الحال نفورا تاما ولا يعلم لذلك سببا ، وربما يستقبح الناظر شخصا على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل منه ما وجد عنه أولا بضده ، وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لأول كلمة تصدر منها ، وخصوصا أن هذا الاحساس المادى ، سواء كان ميلا أو نفورا ، لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ، ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة ، فإن الإنسان الواحد يكون منظره سببا للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر ! .

فهذه الجاذبية الحسية لابد منها عند الزوجين ، وهى إن لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا أرى فى أى شىء آخر تكون لازمة ! .

على ان الانجذاب المادى ليس كافيا فى الزواج ، بل يلزم أن يوجد أيضا توافق بين نفوس الزوجين ، أى أنه يوجد ـ لا أقول اتحاداً لأنه مستحيل ـ وإنما ائتلاف بين ملكاتهما وأخلاقهما وعقولهما . ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده إلا إذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا .

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون امرا محترما فى نفوس الزوجين ، وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ، ويكون أيضا موجبا للعفة والتصون . وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين مهما طال أجل الزواج ، ومهما كانت صفات الرجل والمرأة ، ولهذا قال الأعمش[٣١٠] : «كل تزويج يقع على غير نظر فأمره هم وغم» .

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد ، تنحل لأول عرض يطرأ عليها ، وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه ، والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه .

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته ، فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها ، أما حرمانها من النظر فى كل

---

(٣١٠) سليمان بن مهران الأسدى (٦١ ـ ١٤٨ هـ ٦٨١ ـ ٧٦٥ م) من مشهورى علماء التابعين . نشأ وتوفى بالكوفة وكانت شهرته فى علوم القرآن والحديث والفرائض .

ما يختص بزوجها ، وقصر الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب .

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها ، فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه ، ولا تسأل هل تحب الاقتران به ، ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها ، وهى لا تجد من نفسها جراءة على أن تبدى ما فى ضميرها . ويرى الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت فى أهم الأشياء لديها ، فيعطى القريب أو البعيد رأيه فى زواجها . ما عداها . ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب وهم مخطئون فيما يظنون .

منحت شريعتنا السمحاء إلى النساء حقوقا لا تنقص عن حقوق الرجل فى الزواج . فلها الحق مثله فى أن تتأكد من إمكان تحقيق آمالها. وماعلينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأعمال الصحابة لتتم لنا السعادة فى الزواج .

جاء فى الكتاب العزيز : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف)[٣١١] وكان ابن عباس يقول ، اتباعا لهذه الآية الكريمة : «إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى ! » وقال تعالى : (وعاشروهن بالمعروف)[٣١٢] . وقال فى تعظيم حقهن : (وأخذن منكم ميثاقا غليظا)[٣١٣] ، وجاء عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله» . وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب النساء كما ورد فى الحديث : «حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة» . وكان يحترم النساء احتراما برهن للعالم على حسن خلقه ، حتى أنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها اذا أرادت أن تركب ، وكان يتنازل إلى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة ــ رضى الله عنها ــ فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال : «هذه بتلك» ، وكان يرأف بالنساء ويوصى عليهن دائما ، فما روى عنه قوله : «خياركم خياركم لنسائكم» ، وقوله : «استوصوا بالنساء خيرا» . والأحاديث فى

---

(٣١١) البقرة : ٢٢٢ .

(٣١٢) النساء : ١٩ .

(٣١٣) النساء : ٢١ .

هذا الموضوع كثيرة ، كلها تدل على أن الدين الإسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالإحسان والمعروف .

ولكن مادامت المرأة على ما هى عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون ـ كما هو الآن ـ إلا شكلا من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة .

أما اذا تعلمت المرأة حقوقها ، وشعرت بقيمة نفسها ، عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معا ، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما ، بجسميهما وقلبيهما وعقليهما ، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها ، فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل إليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها فيكونون معها على اتفاق فى الرأى فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها ، عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقى .

انظر إلى زوجين متحابين تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة ، ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليا من المال ، أو أن يكون على المائدةعدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم ؟ هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم والطمأنينة فى النفس ويحيى فى القلب شعورا بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه فى مكان الرضى حتى قال عمر بن الخطاب : «ما أعطى العبد بعد الإيمان خيرا من امرأة صالحة» .

أين هذا من حال عائلاتنا اليوم التى نرى فيها الزوجين وأحدهما أبعد الناس عن الآخر ولو لم يكن إلا هذا البعد لخف احتماله ، ولكن لما كان فى طبيعة الإنسان أن يجرى وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها ، ومن هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء ، يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر ، وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات فى كل آن بسبب وبغير سبب ، فى الصباح وفى المساء ، حتى وفى الفراش .

تنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها إلى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون ، فيستولى الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر إليه كأنه غير مسكون بأهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده ، وتغفل شئون الزوج والأولاد فى مأكلهم وملابسهم وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر فى سوء ما وصلت إليه ، أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها الهموم .

وليس الرجل بأحسن منها حالا : فإنه يهجر منزله ويستريح إلى العيش فى القهاوى أو عند جيرانه ، فإذا رجع إلى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت .

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر ، كما هو حاصل الآن ، إنما هو طريقة يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على التعاقب ، ولا تجد فيه المرأة مزية ترضى نفسها .

وكل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه فى السراء والضراء يصعب عليه ، بل قد يتعذر ، أن يبلغ ما يريد من ذلك ، ولهذا السبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة .. لأن الشعور بوجوب تربية البنين تقدم ـ وسيتقدم كثيراً فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه ، وإلا فما علينا إلا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت ، وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس .

ولست مبالغا ان قلت : ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة ، فإنهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم ، لا خادمة تستعمل فى كل شيء ، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادئ الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة .

وكل من تجرد من التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لابد أن ينشرح صدره عندما يرى نمو هذا الميل فى نفوسهم ، ويرى من نفسه وجوب الاصغاء إلى مقالهم والنظر فى مطالبهم ، فلا يستهجنها لأول وهلة ، ولا يرميهم بالتفرنج فى آرائهم قبل البحث فيها ، بل يزنها بميزان العقل والشرع ، ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذى نطلبه ليس إلا رجوعا فى الحقيقة إلى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين ، وانه إصلاح يقضى به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

* * *

(٢)
[تعـــدد الزوجـات]

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التى كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ومنتشرة فى جميع الانحاء ، يوم كانت المرأة نوعا خاصا معتبرة فى مرتبة بين الإنسان والحيوان . وهو من ضمن العوائد التى دل الاختبار التاريخى على أنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعيـة فتكون فى الأمة غالبا عندما تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول بالمرة عندما تكون حالها مرتقية . اللهم إلا اذا كان التعدد لأسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم ، حتى فى الأمة التى ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده ، وعرف أن من حقوقها أن تكون فى المرتبة التى تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال إلى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات ، ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن أحدا ينازعنا فيه ، من أن هذه العادة خفت فى بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة .

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود فى سقوط هذه العادة ، حيث قطع ورود الجوارى التى كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم ، ولكن يظهر لى أن ترقى عقول الرجال وتهذيب نفوسهم لها أثر مهم أيضا فى تلاشيها ، ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها .

وبديهى أن فى تعدد الزوجات احتقارا شديدا للمرأة. لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى ، كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته ، وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعى للمرأة كما أنه طبيعى للرجل . ولو سلم أنه ليس بطبيعى ، كما ذهب إلى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذى يعيش بين العشرات من الدجاج ، فأقل ما فيه أنه ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية ، كالعادة والتوارث ، مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية إلى ما أعد له من الكمال الإنسانى . فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل فى الأنفس والرسوخ فيها لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية .

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى ، اذ لا يخلو حالها من أحد أمرين ، إما أن تكون مخلصة فى محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة فى قلبها

وتذوق عذابها ، وأما ألا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الأسباب ، فهى مع ذلك ترى لنفسها مقاما فى أهله ، فإذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه إحساسها بأن ذلك المقام الذى كان باقيا لها قد انهدم ، ولم يعد لها أمل فى بقاء شىء من كرامتها عنده فالأمل لاصق بها على كل حال .

وإن قيل إن التجارب دلت على إمكان الجمع بين امرأتين أو أكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين :

الأول : إن ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح إلا فى بعض أفراد نادرة لا حكم لها فى تقدير حال أمة ، وإن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى ، وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين أزواجهن ومصدر شقاء الأهل والأقارب ، فمن يدعى أن نساءنا يرضين بمشاركتهن فى أزواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء فى البيوت .

والثانى : إن ما يكون من ذلك الرضاء فى القليل النادر ناشئا عن أن المرأة إنما تعتبر نفسها متاعا للرجل ، فله أن يختص بها وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء ، وليس لها على هواه حق تطالبه به ، كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعا للحكام فى عهد ليس بعيدا عنا .

ويظهر أن رجلا مهذبا عارفا بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين ، فضلا عن أكثر .

قدمنا أن فى فطرة المرأة ميلا إلى التسلط على قلب الرجل ، فإذا رأت بجانبه امرأة أخرى فى فطرتها ذلك الميل ، ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهى ، تولاها الاضطراب والقلق ، وهجرتها الراحة ، وكانت حياتها عذابا أليما ، وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب . فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليم ؟ .

ويزيد النساء قلقا واضطرابا ما صرح به الفقهاء من أنه لا يجب على الرجل أن يعدل فى محبته بين نسائه ، وإنما طلبوا العدل فى النفقة وماشاكلها .

ولا ريب فى أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد فى نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائما بأنه هو السبب فى هذا الشقاء .

ثم ان الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواطف الشقاق والخصام فلا يجدون

ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم ، بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينمى فى نفوسهم البغضاء ، ولا يستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصم والدهم فيؤثر ذلك فى نفوسهم ، بل يسرى فى أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة ، مثلهم كمثل الممالك الأوروباوية تظهر بحال السلم وهى تأخذ أهبتها للحرب إذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فمزق بعضهم بعضا كما نشاهده فى أغلب العائلات .

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد فى حضن والديهم ، تجمعهم محبة صادقة ، لا يتنافسون إلا فى زيادة الحب . ولا يتسابقون إلا إلى الخير يصل من بعضهم لبعض ، يربطهم ميثاق غليظ كأعضاء جسم واحد ، ان فرح أحدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه ؟ هم سعداء الدنيا فى كل حال . أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل ، وهى المودة فى القربى .

فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع ، فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة ، وأقرب إلى الوصول إلى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة : اللهم إلا فى حالة الضرورة المطلقة كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى فى هذه الحالة وأمثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها ، والمروءة تقضى أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هى ما عساه كان يصاب به .

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية ، اما مع المحافظة على الأولى إذا رضيت أو تسريحها ان شاءت ، وهى ما اذا كانت عاقرا لا تلد ، لأن كثيرا من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل فى عائلتهم .

أما فى غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية وهو علاقة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ .

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تحتوى إباحة وحظرا فى آن واحد ، قال تعالى :

(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا)[٣١٤] .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما)[٣١٥] .

ومن هاتين الآيتين يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل . ثم صرح بأن العدل غير مستطاع . فمن ذا الذى يمكنه ألا يخاف عدم العدل ، مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمحال ؟ أظن أن كل بشر اذا أراد الشروع فى عمل غير مستطاع يخاف ، بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده .

ولو ان ناظرا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بما يقتضى الإباحة فى الجملة .

وكأن مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة ، وبأن الله تعالى وكل الناس فى ذلك إلى ما يجدونه من أنفسهم ، فمن بلغت ثقته من نفسه حدا لا يخاف معه أن يجور اذا أراد أن يتزوج أكثر من واحدة أبيح له ذلك بينه وبين الله ، ومن لم يصل إلى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة ، ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن إدراكها زيادة فى التحذير .

وغاية ما يستفاد من آية التحليل إنما هو حل تعدد الزوجات إذا أمن الجور ، وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى ، ومن المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد فى أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاما جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، ان يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .

وإنه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من أنفسهم ، ولا أظن أن احدا

---

(٣١٤) النساء : ٣ .

(٣١٥) النساء : ١٢٩ .

من أهل المستقبل يأسف على تركها ، فإن التمتع بالنساء ، وان قل فى هذه الحالة من الجهة الشهوانية ، فإنه يزيد من الناحية المعنوية التى يلزم ان تكون وجهة كل راغب فى الزواج فإن رجلا يسوقه إلى الزواج سائق العقل ويوجه رغبته إليه حادى الفكر يعلم أنه إنما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمده بالمعونة فى شئونه ، يؤنسه فى وحدته ، ويشفعه فى عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من أهله ، فهو يتخير لذلك خير العقائل وأكرم السلائل ويصطفيها على ما يجب من العقل والأدب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن ، ويكون له منها منظر بهى وملمس شهى ، وصورة تعجب ، ومعنى يطرب ، وفهم يسبق الاشارة ، وذكاء يستغنى عن العبارة ، ولذة بلطف الشمائل ، ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة ، تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة . تحسن القيام على أولاده بالتربية الصالحة ، وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها . فتأخذ أرواحهم من روحها ماأخذته أبدانهم من بدنها ، فينشئون على المحبة ويشبون على الألفة . فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء . وعيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فأين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود إلى ماانحط من دركات الشهوة ؟ .

* * *

(٣)
[الطـــلاق]

قال فولتير[٣١٦] الكاتب الفرنساوى الشهير ، على طريقته من الفكاهة المعروفة فى كثير من مؤلفاته : «ان الطلاق قد وجد فى العالم مع الزواج فى زمن واحد تقريبا ، غير أنى أظن الزواج أقدم ببضعة أسابيع ، بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ، ثم ضربها بعد ثلاثة ، ثم فارقها بعد ستة أسابيع ! » . وقد أراد بذلك أن يقول إن الطلاق قديم فى العالم وأنه يكاد أن يكون من الأعراض الملازمة للزواج . وهو حق لا يرتاب فيه ، فقد دل تاريخ الأمم على أن الطلاق كان مشروعا عند اليهود والفرس والرومان ، وانه لم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها .

(٣١٦) فرانسوا فولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨ م) من أبرز الكتاب الذين مهدت كتاباتهم وانتقاداتهم للثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ م .

ولايزال أثر ذلك المنع باقيا إلى الآن فى شرائع الأمم الغربية التى وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا يُحَلّ إلا بموت أحد الزوجين . وهذا افراط فى احترام هذا العقد ، ومغالاة فيه إلى حد يصعب أن يتفق مع راحة الإنسان .

نعم إن من أمانى الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل إلا بالموت ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر .

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على ممر الازمان بأن أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم ، وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس إلى التخلص من ربقة تلك الأحكام ، فنزع الغربيون إلى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات ، ولقد اشتد هذا الشعور فى الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبة وموافاة رغائب الكافة ، وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير أحكام فى أحوال سمتها «أحوال بطلان الزواج» ، ورتبت على ذلك البطلان أحكاما لا تختلف فى آثارها عن أحكام الطلاق ، فقبلت فسخ الزواج اذا أثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار ، وأنه اخطأ فى معرفة الآخر ، أو اذا ادعى أحد الزوجين أن الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . وأخذت تتوسع فى تأويل الحالة الثانية إلى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شىء . وفى الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجان على أن يدعى أحدهما أن الآخر لم يقم أو لم يعد فى امكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته إلا من قبل الزوجين ، فقولها هو الدليل الذى يصح التعويل عليه .

إلا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم فى هذا الباب ، فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى إلى المطالبة بتقرير أحكام كافلة للراحة ، خصوصا وقد رأت أن هذه الأسباب التى قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة ، وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والأذواق السليمة .

ومن أجل ذلك اضطرت الحكومات إلى تقرير الطلاق ، والتصريح بجوازه على شروط بينتها ، وأوسعت له محلا من قوانينها . وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة كما بطلت سيطرتها فى كل مالم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الأمم ، وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لا يراعى أهله فى أحكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الإنسان ويقفون به فى مكان واحد عندما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر فى أسراره وطرق تنفيذه .

دخل الطلاق فى جميع الشرائع الغربية تقريبا رغما من معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج ، لعدم اعتبارها ذلك الطلاق ، ولكنه لم يصل إلى الدرجة التى يستحقها من القبول والاعتبار ، ولم يستوف إلا عند الأمة الامريكانية ، التى فاقت غيرها ببذلها المجهود فى الاقدام على طلب الترقى ، ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده بأحوال مخصوصة كما قيده غيرها .

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها إلى التوسع فى الطلاق ، ولابد أن تنتهى يوما إلى الاعتراف بأن ما أباحته إلى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين أو الحكم عليه بعقوبة فى أحوال مخصوصة غير واف بالحاجة وعند ذلك تقرر إباحة الطلاق متى وجدت أسبابه فى نفوس الزوجين وتتركه إلى مشيئتهما .

نعم إن اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، ولكنه من المضرات التى لا يستغنى عنها ، ويكفى لتسويغه أن منافعه تزيد عن مضاره . فإن كل نظام لا يخلو من ضرر ، والكمال التام فى هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع .

ونحن لا نريد البحث فى هذا الموضوع الواسع لأننا اجتنبنا فى هذا المختصر كل بحث نظرى . وإنما نقول إن من أجال النظر فى نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه يشعر بالنعم التى أفاضها الله على المسلمين ، ويقتنع بأن كتاب الله قد أتى من الحكمة على منتهاها ، وأنه وفى كل شىء حقه .

وأول ما يجب الالتفات إليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلا عاما يجب أن ترد إليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهو **أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة** ، والشواهد على ذلك كثير فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما جاء فى كتب الأئـمة نورد منها ما يأتى :

قال تعالى : (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيراً) [٣١٧] .

وقال جل شأنه : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) [٣١٨] .

---

(٣١٧) النساء : ١٩ .

(٣١٨) النساء : ٣٥ .

وقال تعالى : «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)[٣١٩] .

وجاء فى الحديث : «أبغض الحلال عند الله الطلاق» . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات» . وقال على كرم الله وجهه : «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش» .

وجاء فى حاشية ابن عابدين : إن الأصل فى الطلاق الحظر ، بمعنى أنه محظور إلا لعارض يبيحه ، وهو معنى قولهم : الأصل فيه الحظر والإباحة للحاجة إلى الخلاص . فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الإيذاء بالمرأة وبأهلها وأولادها . ولهذا قال تعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)[٣٢٠] . «أى لاتطلبوا الفراق» انتهى[٣٢١]

والمطلع على كتب الفقه ، وان كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على العموم أن هذا الأصل الجليل الذى من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل إليه الإمكان . لكنه لابد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساوية ، ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات .

أولها ـ مسألة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية ، فقد خالف بعض الفقها خصوصا من المذهب الحنفى ، فى هذه المسألة التى هى من الأصول العامة التى بنى عليها معظم أحكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة ، كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل المخطئ ، وأخرج الطلاق من مشمول هذا الأصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطئ والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذى لا يميز السماء من الأرض .

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يعولوا على النية التى هى أساس الدين الإسلامى كما يستفاد من حديث : «إنما الأعمال بالنيات» ، كما أنهم لم يلتفتوا إلى قصد الشارع فى أن الطلاق

(٣١٩) النساء : ١٢٨ .

(٣٢٠) النساء : ٣٤ .

(٣٢١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢ .

محظور فى الأصل وأنه أبغض الحلال عند الله ، وقد عللوا نفاذ الطلاق فى الأحوال التى أشرنا إليها بأسباب أذكرها للقارئ وأترك له مسئولية الحكم عليها .

قرأت فى كتاب الزيلعى ما معناه : «إن طلاق الهازل والمخطئ يقع لأن لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج ، وأن طلاق المكره يقع لأنه عرف الشرين واختار أهونهما ، وأما السبب فى وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجرا له»[٣٢٢].

ولكنا نحمد الله على أن فى المذاهب الإسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ، ويمكن لمريد الإصلاح أن يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع فى تلك الأحوال .

ثانيها ـ أن الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعى دائما قال تعالى : (يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم)[٣٢٣] . وقال تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا)[٣٢٤] .

ولكن قسم الفقهاء الطلاق إلى صريح وبالكناية ، وقالوا : بالطلاق تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة بائنة ، أما بالكناية فيكون الطلاق بائنا لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة إلا بعقد جديد ، إلا فى بعض ألفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثا ان نوى الثلاث .

إلا أنه يوجد فى مذهب آخر ، كمذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أن الكنايات جميعها رجعية ، ووجه الحق فى هذا المذهب ظاهر ، فإنما الطلاق طلاق على كل حال ، وهو فصل عصمة المرأة من الرجل ، فاختلاف الألفاظ بالنسبة إلى هذا المعنى إنما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم ، ولو سلم اختلاف الأحكام باختلاف الألفاظ فى مثل هذا الباب لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم الصريح .

---

(٣٢٢) صحيفة ١٩٥ جزء ٢ .

(٣٢٣) الطلاق : ١ وما بعدها .

(٣٢٤) البقرة : ٢٢٨ .

ثالثها ـ اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثا متفرقة فى حيض واحد أو فى مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثا. على أن هذا النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بأنه بدعى ـ أى مخالف للكتاب والسنة ـ لا يمكن تصوره على الكيفية التى قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم. قال تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[٣٢٥]. وجاء فى تفسير هذه الآية فى [كتاب حسن الاسوة]: «وإنما قال سبحانه (مرتان)، ولم يقل «طلقتان»، إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد أخرى لا طلقتين دفعة واحدة. كذا قال جماعة من المفسرين». وجاء فيه أيضا: «قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة، هل تقع ثلاثا أو واحدة فقط، فذهب إلى الأول الجمهور وذهب إلى الثانى من عداهم وهو الحق. وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤلفاته تقريرا بالغا وأفرده برسالة مستقلة. وكذا الحافظ ابن القيم فى [اغاثة اللهفان] و[أعلام الموقعين]»[٣٢٦].

جاء فى ابن عابدين: «وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا فى حالة الحيض، لأنه بدعة محرمة. وعن ابن عباس: يقع به واحدة، وبه قال ابن إسحاق وطاوس وعكرمة لما فى مسلم أن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر: ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. وذهب جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلى أنه يقع ثلاثا. قال فى [الفتح][٣٢٧] بعد سوق الأحاديث الدالة عليه: وهذا يعارض ما تقدم، وأما امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بأنها كانت واحدة فلا يمكن إلا وقد اطلعوا فى الزمان المتأخر على وجود ناسخ أو لعلمهم بانتهاء الحكم بذلك لعلمهم بإناطتـه بمعان علموا انتفاءها فى الزمن المتأخر، وقول بعض الحنابلة توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مائة ألف عين رأته فهل صح لكم عنهم أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل. أما أولا فإجماعهم ظاهر لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى الثلاث ولا يستلزم فى نقل الحكم الاجماعى عن

---

(٣٢٥) البقرة: ٢٢٩.

(٣٢٦) صحيفة ١٦.

(٣٢٧) هو كتاب [فتح الله المعين على شرح الكنز للعلامة ملا مسكين] للشيخ محمد ابو السعود بن على بن على الحسينى (من علماء القرن الثانى عشر الهجرى).

مائة ألف تسمية كل فى مجلد كبير لحكم واحد على أنه اجماع سكوتى »[٣٢٨].

وقد روى فى هذه المسألة من الأحاديث مالم يدع شكا فى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد لا يقع إلا واحدا. جاء فى الزيلعى : «وقال ابن عباس : أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا ، فقام غضبان ثم قال : «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ !» . ذكره القرطبي ورواه النسائى[٣٢٩] وجاء فيه أيضا : «وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة إلى أن الطلاق الثلاث جملة لا يقع إلا واحدة ، لما روى عن ابن عباس أنه قال : «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر ـ رضى الله عنهما ـ واحدة ، فأمضاه عليهم عمر ـ رضى الله عنه ـ . رواه مسلم والبشارى . وروى ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثا فى مجلس واحد ، فحزن عليها حزنا شديدا فسأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثا فى مجلس واحد . قال . إنما تلك طلقة فارتجعها »[٣٣٠].

يرى القارئ من هذه العبارات التى بسطناها ليحصل لنفسه منها رأيا أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر ـ رضى الله عنه ـ ، بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبى ، ويمكن للأمة اذا أرادت الإصلاح أن تأخذ بقولهم ، لأن عمر ـ رضى الله عنه ـ قد بين لنا سبب قضائه بقوله : «ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم » ، فكأنه اجتهد فى جعله عقوبة لردعهم عنه ، وكلنا نعلم أنه لم ينشأ من اجتهاد عمر إلا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه فى محاوراتهم وأيمانهم .

بل لم لا يأخذ مريد الإصلاح بمذهب الإمامية الذى نقله ابن عابدين ، وهو مذهب الأئمة من آل البيت فى قولهم ، كما مر : «إن الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض ، لأنه بدعة محرمة » .

وإن سمح لى القارئ أن أبدى هنا كلاما أظنه صوابا أقول : لا يمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة ، لمجرد التلفظ بها ، مهما كانت صريحة . نعم ان الأمثال الشرعية لا تستغنى عن الألفاظ ، اذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركبا من ظهور إرادة أو مطابقةارادتين حصل

---

(٣٢٨) صحيفة ٥٧٦ جزء ثانى .

(٣٢٩) صحيفة ١٩٠ جزء ثانى .

(٣٣٠) صحيفة ١٩١ جزء ثانى .

الاستدلال عليها أو عليهما من ألفاظ صدرت شفاهيا أو بالكتابة . ، ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ ، وإنما مرادنا أن اللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلا على النية .

فينتج من ذلك أن يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة فى أنه إنما يريد الانفصال من زوجته ، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) .

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ والتفنن فى فهم معانيها فى ذاتها ، بقطع النظر عن الأشخاص ، وعندهم متى ذكر اللفظ تم الأثر الشرعى .. ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم : طلقتك ، وأنت طالق ، وأنت مطلقة ، وعلىّ الطلاق ، وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك ، وما أشبه ذلك ! وصارت المسألة مسألة بحث فى اللفظ والتركيب ، ربما كان مفيدا للغة والنحو ، ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقه بشىء .

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ ، والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق وإنشاء حقوق جديدة ، وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج ، فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له إلمام ولو سطحيا بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم .

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ وبحثوا فى مآخذ الأحكام التى يقررونهاوعرفوا تاريخها وأسبابها وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها ، وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا إلا إذا كان مصحوبا بنية الانفصال .

ويمكن لناظر أن يجد فى كتب الشريعة الإسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال ، فقد نقل عن [شرح التلقين] : «أن الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حالة الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه» . ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على بن أبى طالب : «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة . قاله الرسول عليه السلام» .

نعم ، ان ناقل هذا القول اجتهد فى رده ، وبالغ فى ابطاله ، ولكن مريد الإصلاح له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما .

نحن فى زمان ألف رجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق ، فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا ، فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له : ان لم تفعل كذا فزوجتى طالق ، فيخالفه ، فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته ، وهى لا تعلم بشىء ما ولا تبغض زوجها ولا تود فراقه ، بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها ، وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فإذا افترق منها بتلك الكلمة التى صدرت منه ، لا بقصد الانفصال من زوجته وإنما بقصد إلزام الشخص الآخر بالعمل الذى كان يريده ، كان الطلاق على غير نية منه . رب رجل يناقش زوجته فى بعض شئون البيت فيرد على لسانه فى وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد ، وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال أيضا وقع الطلاق ويعقبه أيضا ما سبق ذكره من البلاء الذى ينزل على الزوجين .

رب فلاح يرتكب جريمة السرقة ، مثلا ، فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه فينكر ، فيستحلفه بالطلاق ، فيحلف أنه ما سرق ، والحال أنه سرق ، فيقال كذلك وقع الطلاق ، وهو لم يقصد بيمينه إلا تبرئة نفسه ، ولم يخطر بباله عند الحلف أنه مباغض لزوجته كاره لعشرتها .

فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخد بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج ، كما ذكر الطبرسى[٣٣١] ، وكما تشير إليه الآية الواردة فى سورة الطلاق حيث جاء فى آخرها :(واستشهدوا ذوى عدل منكم)[٣٣٢] .

أليس هذا أمرا صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهودة لدى العموم ليسهل اثباته؟

---

(٣٣١) الفضل بن الحسن بن الفضل (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م) من علماء الشيعة الامامية ، برع فى اللغة والتفسير ، ومن آثاره فى التفسير (مجمع البيان فى تفسير القرآن والفرقان) و (جوامع الجامع) . وهو ينسب إلى طبرستان ، فاشتهر بالطبرسى.

(٣٣٢) الطلاق : ٢ .

لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية فى وقت غضب؟ نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس. وما يدرينا أن ــ الله سبحانه وتعالى ــ قد اطلع على ما تصل إليه الأمة فى زمان كزماننا هذا فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم.

بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتى:

(المادة الأولى)

كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه، ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته.

(المادة الثانية)

يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ماورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله، وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع.

(المادة الثالثة)

اذا أصر الزوج بعد مضى الأسبوع على نية الطلاق فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما.

(المادة الرابعة)

اذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق.

(المادة الخامسة)

لا يصح الطلاق إلا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون، وبحضور شاهدين، ولا يقبل اثباته إلا بوثيقة رسمية.

والذى يتأمل فى الآيات التى سبق ذكرها فى الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاما مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها فى شىء . وليس لمعترض أن يحتج بأن نظاما مثل هذا يسلب الزوج حقه فى الطلاق ، لأن حق الزوج فى الطلاق باق على ما هو عليه الآن ، فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لاتزال متروكة لتقديره ، وغاية ما فى الأمر أننا اشترطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضى ، وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج وإنما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ، حيث نرى كثيرا من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون إلى استعمال الحيل الدنيئة ، كالمحلل مثلا ، لمداواة طيشهم .

ألا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق ، فضلا عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلا إلى الآن ، حيث لم نسمع بإجرائه يوما ، خصوصا فى أمة كأمتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش إلى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر . وامرأته جالسة فى بيتها لا تعلم شيئا مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثمانى عشرة سنة الأخيرة [٣٣٣] على أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . وإليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق	سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨	١٣٦٠١	٦٩٠٢	١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢	١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨	١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠	١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠	١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠	١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨	١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠	١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠	١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

(٣٣٣) أى من سنة ١٨٨٠ حتى ١٨٩٧ م .

وأذكر هنا احصائيات أخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨ :

١٨٩٨ ٠٠٠ ١٢٠ ٣٣٠٠٠ (٣٣٤)

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث وهذه النتيجة وان كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشتمل على **سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر** إلا أن كليهما من أقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها .

ومن الغنى عن البيان أن المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع مالها من الحقوق فإنها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والاهانة التى تعامل بها وهى جاهلة ، وعند ذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم إلا عند الضرورة التى شرع الطلاق لأجلها ، فتربية النساء مما يساعد على إصلاح أخلاقنا وتأديب ألسنتنا ، فإن الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ، ولكنه يشعر رغما عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلوا فى الأخلاق ، فيعف لسانه عن ذكر مالا يليق بها ، ويؤدى لها حقوقها .

ولكن لا يجمل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن ، بل يجب على كل من يهتم بشأن أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق إلى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية . وقد بينا أن مجموع المذاهب الإسلامية قد حوى من الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة ، وتكون مراعاتها من الوسائل إلى تقدمنا فى طريق الصلاح ، وأقل ما يكون من أثرها أن لا تجد المفاسد سبيلا من الشرع إلى ظهورها ، فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ، ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن أن تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة إلا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شيء مما نراه لازما لتقدم المرأة ، والوصول إلى منح المرأة حق الطلاق يكون بإحدى طريقتين :

الطريقة الأولى : أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال

---

(٣٣٤) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندى اسماعيل ، الموظف بنظارة الحقانية ، والمنتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى .

من حق الطلاق ، حيث قال الفقهاء من أهله : «إن الطلاق منع عن النساء ، لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى» مع أن هذه الأسباب باطلة ، لأن ذلك ان كان حال المرأة فى الماضى فلا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل ، ولأن كثيراً من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . وأستدل على ذلك بملاحظة وردت على عند اطلاعى على احصائية الطلاق فى فرنسا ، فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٠ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق فى ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريبا حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال .

ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه، كأن كان شريرا أو من أرباب الجرائم أو فاسقا أو غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والأخلاق أن ترضى بعشرته .

وقد وفى مذهب الإمام مالك للمرأة بحقها فى ذلك وقرر أن لها أن ترفع أمرها إلى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر .

جاء فى [كتاب البهجة فى شرح التحفة] (٣٣٥) لأبى الحسن التسولى ما يأتى :

«إن الزوجة التى فى العصمة اذا أثبتت ضرر زوجها بها بشىء من الأمور المتقدمة ، والحال أنها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من أنه إن أضر بها فأمرها بيدها . فقيل : لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم من غير أن تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور . أى لا يتوقف تطليقها نفسها على اذنه لها فيه . وإن كان ثبوت الضرر لا يكون إلا عنده . كما أن الطلاق المشترط فى عقد النكاح ، أى المعلق على وجود ضررها لها أن توقعه بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقا . وقيل : حيث لم يكن لها شرط به لها أن توقع الطلاق أيضا ، لكن بعد رفعها اياه للحاكم وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك إن لم يرجع عن اضرارها ، ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر . ومنهم من قال أن الطلاق بيد الحاكم ، فهو الذى يتولى إيقاعه ان طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج ، وان شاء الحاكم أمرها أن توقعه . فعلى هذا القول لابد أن يوقعه الحاكم أو يأمرها به فتوقعه ، واذا أمرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعا حيث امتنع منه . وروى أبو زيد عن

---

(٣٣٥) هو شرح ابى الحسن على بن عبد السلام بن على التسولى ، الفارسى ، على الارجوزة المسماة [تحفة الحكام] للقاضى أبى بكر محمد بن محمد بن عاصم الأندلسى ، فى الفقه المالكى .

ابن القاسم أنها توقع الطلاق دون أمر الإمام . قال بعض الموثقين : والأول أصوب » .

الطريقة الثانية : أن يستمر العمل على مذهب أبي حنيفة ، ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها متى شاءت ، أو تحت شرط من الشروط ، وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب .

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه ، فإن من المضار الحقيقية التى تتفق كل النساء فى التحفظ منها وبذل المستطاع فى اتقائها ما لا يكون سببا يسمح للقاضى أن يحكم بالطلاق فى مذهب مالك ، وذلك كتزوج الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى فى عصمته . فإن الزوجة الأولى لو رفعت شكواها إلى القاضى وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضى أن يجيب طلبها ، فلو اشترطت أن تطلق نفسها متى شاءت أو عندما يتزوج زوجها عليها كان الأمر بيدها ، ولكن العمل على الطريقة الأولى أحكم وأحزم ، **فإن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج .**

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والإنسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحمل أرواحهم بالوجدانات الإنسانية السليمة ، كان لى الأمل الشديد فى أن يحرك صوتى الضعيف همة كل رجل محب للحق من أبناء وطنى ، خصوصا من أولياء الأمور ، إلى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات .

خـــاتمة

تبين للقارئ مما سبق أن ما نريد ادخاله من الإصلاح فى حالة النساء ينقسم إلى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية .

والقسم الثانى : يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الإسلامية والعارفين بأحكامها إلى مراعاة حاجات الأمة الإسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء ، وأن لا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول إمام واحد أينما كان اجتهاده موافقا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشئون ، فإن وجدوا فى قول إمام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول إمام آخر يكون فى مذهبه ما يسد الحاجة ، بدون خروج عن أصول الشريعة العامة .

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الإصلاح ، هو كغيره من سائر الأعمال النافعة ، إنما يتم بالعلم والعزيمة :

(١)
(أمـا العـلـم)

فهو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها ، وبه تتنبه أذهان أفرادها إلى ما هم فيه ، وما درجوا عليه من الأخلاق والعوائد ، والكمالات والنقائص ، بحيث يكونون على شعور دائم بأحوالهم ، وتكون تلك الأمور دائما موضوع بحثهم .

إن من الغفلة ، بل من أسباب الشقاء أن تكون شئوننا فى حياتنا قائـمة بعوائد لا نفهم أسبابها ولا ندرى آثارها فى أحوالنا ، بل إنما نتمسك بها لأنها جاءت إلينا ممن سلفنا ، وورثناها عمن تقدمنا ، وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا ، ومع أن هذا وحده لا يكفى لأن يكون سببا فى الأخذ بها ، ولا فى الثبات عليها ، بل يجب أن نفهم أن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ، ولنا

شئون ولهم شئون ، ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم ، وذلك من البديهى الذى لا يختلف فيه اثنان .

فعلينا أن نأخذ من العوائد وأن نكسب من الأخلاق ما يلتئم مع مصالحنا ، فنكون مالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع ، لا أن نكون عبيدا لعاداتنا التى وجدنا عليها آبائنا ، فيكون مثلنا مثل الرجل وجد لباسه ضيقا فرأى أن يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا أن يصلح لباسه بتوسيعه حتى يتفق مع جسمه ! .

إنا لا نجد عقبة فى طريقنا إلى السعادة أصعب اجتيازا من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا ، من غير أن نميز بين تلك العادات ، صالحها وطالحها ، نعم ، إن الماضى لا يصح أن يطرح جملة ، لكن يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع ومضار .

لا أرى أعجب من حالنا : هل نعيش للماضى أو للمستقبل ؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر ؟ نرى العالم فى تقلب مستمر وشئونه فى تغير دائم ونحن ننظر إلى مايقع فيه من تبدل الأحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندرى ماذا نصنع ، ثم ننهزم إلى الماضى نلتمس فيه مخلصا ونطلب منه عونا فنرتد دائما خائبين .

رأينا فى هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة فى التاريخ ، رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وأبطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها . فقطعت كل صلة بينها وبين ماضيها ، إلا ما كان متعلقا بجامعة شعبها . ثم همت فبنت بناء جديدا مكان البناء القديم ، فلم يمض عليها نصف قرن إلا وقد شيدت هيكلا جميلا على آخر طرز أفاده التمدن . فهبت من نومها . ونشطت من عقالها . وشعرت بأن الحياة تدب فى بدنها وتجرى فى عروقها دما حارا قويا فتيا . تلك هى الأمة اليابانية ، صارت تعد اليوم فى صف الأمم المتمدنة بعد أن قهرت فى بضعة أيام دولة الصين الجسيمة التى لم يقتلها إلا إعجابها بماضيها ، أليس فى ذلك عبرة لكل متبصر ؟ .

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس فى شريعتنا لكان فى ميلنا إلى المحافظة عليها ما يشفع لنا . أما وقد برهنا على أن كل ما عرضناه من أوجه الإصلاح يتفق تمام الاتفاق مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فلم يبق لنا عذر فى التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل ، وأننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شئوننا .

إذا توهم بعض القراء أن ما ورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعا للفتنة هو من الأحكام الدينية التى لا يجوز تغييرها فنقول : ان هذا

الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت فى الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ، ووكلت فهم الجزئيات إلى انظار المكلفين ، ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه .

ولما اتسعت خطة الإسلام ، وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت أحكاما ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من أصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ، ففصلوا ما أجمله القرآن والسنة من الأحكام ، وفرعوا منها ما يناسب الأحوال والأمصار والأعصار ، فهم لم يضعوا بذلك شرعًا ، ولم يضيفوا على الدين شيئًا ، وإنما كان اجتهادهم قاصرًا على النظر فى الجزئيات وردها إلى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة .

ألا ترى أن القرآن لم يبين أهم الفروض ، مثل أحكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ، ولا مقادير الزكاة وأوقاتها ، ولا مناسك الحج ، وأن السنة هى التى رسمت جميع الأحكام مجملة ، ثم جاء المجتهدون ففصلوا أحكامها وقرروا فروعها ؟.

على هذا النمط تألفت شريعتنا ، من فروع كلها راجعة إلى أصل واحد . **فالشريعة الإسلامية إنما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعا يمكن أن يجد فيه كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها .**

فهذه القواعد الكلية التى تحدد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء إليها على حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هى التى لا تقبل التغيير والتبديل ، أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ماتطلبه الشريعة فيها هى ألا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ، فكشف الرأس مثلاً قبيح فى البلاد الشرقية ، لأنه كان معتبرًا فى العادة مخلاً بالمروءة ، ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحًا فى العدالة ، ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية ، فلا يكون عندهم قادحًا ، فالحكم الشرعى يجب أن يختلف باختلاف ذلك ، وجواز إثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصًا فى أشخاص الشهود ، وإنما الغرض منه إثبات هذه التصرفات بالطريقة التى وقع الإصلاح عليها ، ولم يكن غيرها مألوفًا ، فإذا تغيرت الأحوال وتبدل الإصلاح واعتاد الناس على التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعى ، وتحولت طريقة الإثبات من الشهادة إلى الكتابة ، وإذا قيل باستحباب ستر المرأة

وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم اقتضاء الحال لكشفه فى زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ولا تقضى ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها فلا مانع من أن يتغير هذا الأستحسان إلى ضده فى زمان آخر ، ذلك لأن اختلاف الأحكام باختلاف العوائد ليس فى الحقيقة اختلافاً فى الشريعة وإنما هو رد لأحكام الجزئيات إلى أصولها الكلية ورجوع بها إلى مقاصدها الشرعية .

تبين من ذلك أن لنا فى مأكلنا ومشربنا وجميع شئون حياتنا العمومية والخصوصية الحق فى أن نتخير مايليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ألا نخرج عن تلك الحدود العامة التى أشرنا إليها .

اما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا ، وعدم الخروج عن الدائرة التى رسموها لأنفسهم ، فهو القضاء على الأمة الإسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدى عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به فى سبيل سعادتها ، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال .

* * *

(٢)

(وأما العزيمة)

فهى حث الارادة إلى كل خير أرشدنا إليه العلم والعرفان ، والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هى أشرف قوى الإنسان وأجلها وأعظمها أثرا فى أعماله ، فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والأميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لايفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد من العزيمة ، ولهذا كان ضعف الارادة أكبر عيب فى الإنسان . نرى الكثير من أهل بلادنا يستحسنون فكرة أو عملا ، ولكنهم لايجدون من أنفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة أو ذلك العمل ، ويكفى أنهم يعلمون أن بعض الناس لايتفق معهم فى رأيهم لتلاشى ارادتهم وسقوطها . أما إذا علموا أنه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فرارا .

إن كان لنا أمل فى نجاح ما نعده صالحا لنا فإنما يكون فى الرجل الذى يحب أن يعرف ويبحث ليعرف ، ويعرف بالفعل ماتحتاج إليه بلاده ، وله عزيمة تدفعه إلى العمل فى جلب ما ينفعها ودفع مايضرها بالوسائل التى تؤدى إلى المطلوب بطبيعتها ، طال الزمان أو قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بأن الخطوة الأولى فى كل شىء هى من أصعب الأمور ، لأن الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدىء فى أمر خطير ، ومن النادر أن يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فأحسن طريقة أراها لتنفيذ ما عرضناه فى هذا الكتاب هى أن تؤسس جمعية يدخلها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التى شرحناها ، وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين ــ (ولا أظن أن الطبقات العلياء من أهل بلادنا تخلو من واحد منهم) ــ وان يكون عمل هذه الجمعية فى أمرين :

الأول : التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة ...

والثانى : السعى لدى الحكومة فى اصدار القوانين التى تضمن للمرأة حقوقها ، بشرط أن لاتخرج فى شىء من ذلك عن الحدود الشرعية ، ولكن بدون أن تتقيد بمذهب من المذاهب ،

بل تأخذ عن كل منها ماهو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا ، كما حصل مثل هذا فى وضع « المجلة العثمانية » ، وكما حصل عندنا مرارا فى بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية ، فإذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من اعضائها ، فان قوة الانتقاد تأتى موزعة على جملة من الأفراد ، فيسهل احتمالها ومقاومتها ، فلا يكون فى شدة الانتقاد مايبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل ، لأن فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ماليس فى قوة الفرد الواحد ، والاجتماع هو القوة الحقيقية التى بدونها لاينجح شىء .

نرى حكومتنا تهتم بمسألة صغيرة كمسألة الشفعة ، فتعين لها لجنة شرعية لتبحث فى المذاهب وتجمع ماتراه مناسبا من الأحكام . ونرى كثيرا من المصريين يدخلون فى كثير من الجمعيات ، مثل جمعية الرفق بالحيوان ، ومعارض الأزهار ، وغيرها ، ولايضنون بوقتهم ولا بمالهم فى تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته ، ونرى الجرائد تنشر بين طبقات الأمة من المعارف مايساعد على تربيتها وتهذيبها ، وقد آن الوقت الذى يجب فيه على الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام أن يوجهوا التفاتهم إلى حال المرأة المصرية ، فإنى لا أرى مسألة تمس بحياة الأمة أكثر منها ولا أحق منها بأن تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لآرائهم وأفكارهم .

(تم الكتاب)

المرأة الجديدة



الإهداء

إلى صديقى سعد زغلول

فيك وجدت قلبًا يحب ، وعقلاً يفتكر ، وإرادة تعمل .

أنت مثلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها ، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته .

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالاً ونساء .

١٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

قاسم أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

المرأة الجديدة : هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث ، بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ، ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها . ذلك حيث أخذ العلم يبحث فى كل شىء ، وينتقد كل رأى ، ولا يسلم إلا إذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة وانتهى به السعى إلى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة ، وألغى امتيازات الأشـراف

ووضع دستورًا للملوك والحكام ، وأعتق الجنس الأسود من الرق ، ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ماكان الرجال يرونه من مزاياهم التى يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم فى كل شىء .

كان الأوروبيون يرون رأينا اليوم فى النساء ، وأن أمرهن مقصور على النقص فى الدين والعقل وانهن لسن إلا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان ، وكانوا يقولون : ان (ذات الشعر الطويل والفكر القصير) لم تخلق إلا لخدمة الرجل ، وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التى تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ماكانوا يسمونه خصائص الرجال .

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل ، ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا أنهم هم أنفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها ، وعرفوا أن طبيعتها العقلية والأدبية قابلة للترقى كطبيعة الرجل ، وشعروا أنها إنسان مثلهم ، لها الحق فى أن تتمتع بحريتها ، وتستخدم قواها وملكاتها ، وأن من الخطأ حرمانها من الوسائل التى تمكنها من الانتفاع منها .

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربية فى طور جديد ، وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئًا فشيئًا ، ونالت حقوقها واحدا بعد الآخر ، واشتركت مع الرجال فى شئون الحياة البشرية ، وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسة ، وسماع الوعظ فى الكنيسة ،

وجالستهم فى منتديات الأدب ، وحضرت فى الجمعيات العلمية ، وساحت فى البلاد . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك ـ الأنثى ـ تلك الذات البهيمية التى كانت مغمورة بالزينة ، متسربلة بالأزياء ، منغمسة فى اللهو ، وظهر مكانها امرأة جديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع ! .

هذا التحويل هو كل ما نقصد .

غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة ، وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت .

إذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه أدنى شك من أن هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر .

إذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى إلى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامة لم يلتفت إليه ، أو أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ، ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا ، وساخر يقضى عمره فى السفاسف ، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟؟ .

نحن لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين إذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلى معناه ، لا يفهمونه إلا إذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه ! ولا يحبون الوطن إلا إذا تمثل لأعينهم فى صورة قبيحة وأخلاق رثة وعادات سخيفة ! وإنما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل ، فهى التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث .

لم نر هذه الدفعة حاجة إلى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فإن ما أوردناه فى كتاب [تحرير المرأة] من النصوص القرآنية صريح فى إباحة كشف الوجه واليدين ، ومعاملة النساء للرجال ، وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . أما أن فريقًا آخر من الفقهاء استحسن التشديد فى الحجاب فهذا رأى لا يلزمنا الدين باتباعه .

وإذا كان فى هذه المسألة قولان فمن الصواب أن يرجح القول الموافق للحرية الإنسانية وللمصلحة العامة .

وقد كتب صاحب مجلة [المنار][٣٣٦] كلمة فى الحجاب نوردها هنا تأييدًا لرأينا . قال :

« وأما الأمر الثالث ، وهو حكم الشرع فى هذه المكالمة ، فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية . وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملأ دون الخلوة ، وكفاك أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهن اللاتى أمرن بالمبالغة فى الحجاب ـ كن يحدثن الرجال ، حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة ، وما أخال أن مكابرًا يقول إنها لم تكن تكلم أحدا منهم إلا ذا محرم » .

هذا هو رأى رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان أهل الأزهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلاً من اشتغالهم بالألفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا فى شىء مما قلناه .

ومن العيب أن الجرائد وأصحاب الأفكار يرمون كل يوم علماء الدين الإسلامى بأنهم السبب فى انحطاط وتأخر الأمم الإسلامية عن سواها فى المدنية ، ويصفونهم بالتساهل فى فهم الدين وعدم مراعاة أحكامه ، ثم إذا تحركت غيرة لعرض رأى يظن أن فيه خيرًا للأمة تحولت أنظارهم إلى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه ، وغاب عنهم أن الذين يحاربون الإصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم فى تهذيب عقل أو استكمال أدب أو تقويم عمل ، ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ إلا رغم أنفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بإبداء رأى فى شأن من شئون الأمة فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشرى .

والمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التى يحق لها أن تفتخر به على سواها ، لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرنًا مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا فى هذا القرن وبعض القرن الذى سبق ، حتى إنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهى الآن مشتغلة بالمطالبة بها .

فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية فى تدبير ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت

---

(٣٣٦) هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) كاتب اسلامى سلفى ، جعل من مجلته وقلمه وسائط بين فكر الامام محمد عبده وبين جمهور القراء ، ولذلك كانت اهم انجازاته هى الحفاظ على آثار الاستاذ الامام وكتابة تاريخه . ولقد تميز منهجه السلفى المحافظ عن منهج محمد عبده العقلانى ، خاصة بعد وفاة الاخير سنة ١٩٠٥ م .

فى المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أن أباحت لها أن تكون وصية على الرجل وأن تتولى وظيفة الإفتاء والقضاء أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر رضى الله عنه على أسواق المدنية نساء ، مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة إلا فى العام الماضى ، إذا كانت شريعتنا تحامى عن المرأة إلى هذا الحد ، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية ، فهل يجدر بنا فى هذا العصر أن نغفل مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التى تؤهل المرأة إلى استعمال هذه الحقوق النفيسة ، ونضيع وقتنا فى مناقشات نظرية لا تنتج إلا تعويقنا عن التقدم فى طريق إصلاح أحوالنا ؟ .

لا أظن أن ذلك يليق بنا وأرجو أن كثيرًا من القراء يرون مثل رأينا .

المرأة فى حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم إلا بعد معرفة حالها فى الماضى. تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية ، فإننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا فى أى شأن من شئوننا إلا بعد استقراء الحوادث الماضية والإلمام بالأدوار التى تقلبت فيها ، وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم إلى أى نقطة نصل.

ذكر شيخ المؤرخين « هيرودوت »[٣٣٧] أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة إلى الصدفة . ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام ، وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولدا أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ وينسبوه إلى أشبه الناس به. وهذه العادة كانت معروفة أيضًا عند القبائل الجرمانية وعند العرب فى الجاهلية ، وقد جاءت روايات السياح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ ، فإن جميع السياح الذين طافوا بلاد « تايتى » وجزائر « مركيز » وغيرهما من أقاليم أستراليا وزيلنده الجديدة وبعض بلاد الهند وأفريقيا ذكروا أن الزواج غير معروف فى تلك البلاد.

ولا خلاف فى أن المرأة التى هذه حالها تعيش مستقلة، تعول نفسها بنفسها ، مساوية للرجل فى جميع الأعمال ، بل لها من المزية عليه أن نسب الأولاد يتعلق فى الغالب بها وحدها ، فالمرأة فى هذا الدور الأول هى ذات الشأن فى الهيئة الاجتماعية ، وربما كانت تشترك فى الدفاع عن قبيلتها مع الرجال ، ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات فى التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة إلى الآن فى بعض البلاد تقضى بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل أن ملك « سيام » له عدد من النساء عهد إليهن حراسته ، وكان للملك

---

(٣٣٧) هو الملقب بأبى التاريخ . عاش ما بين سنتى ٤٨٤ و ٤٢٥ ق . م . وسجل تاريخ الصراع بين الفرس والاغريق . وزار عددا من البلاد . من بينها مصر . وكتب عن مشاهداته وما سمعه من طرائف وأساطير.

« الداهومية بها نزن » الذى استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندى من الرجال وخمسمائة من النساء .

ولما ودع الإنسان بداوته . واتخذ وطنًا قارًا ، واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ، ومن أهم ما ساعد على تشكيل العائلة أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين أسلافها كما كان جاريًا عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين ، وكما هو جار إلى الآن عند الأمم المتوحشة ، وله بقية فى بلاد الصين ، وكانت العائلة تقدم القربان إلى آلهتها ، فكان هذا باعثًا للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية .

وترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها . لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكًا لزوجته . وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعلمه كل مطلع على القانون الرومانى ، وذكره المؤرخون ورواه السياح المعاصرون لنا . يشترى الرجل زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها . ويجوز له أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر ، فإذا مات انتقلت مع تركته إلى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم .

ومما يتبع هذه الحال أن المرأة لا تملك شيئًا لنفسها ولا ترث ، وان يتزوج الرجل بعدة نساء لأن الوحدة فى الزواج تفرض المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات .

ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعًا بتأثير الحكومة ، فردت إليها حق الملك كله أو بعضه ، وحق الإرث تامًا أو ناقصًا ، على حسب الشرائع ، ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ فى أى بلد من البلاد إلى حد أنها سوت بين الرجل والمرأة فى الحقوق ، فالمرأة فى الهند كانت مجردة عن شخصيتها الشرعية ، وعند اليونان كانت النساء مكلفات بأن يعشن فى الحجاب التام ، ولا يخرجن من بيوتهن إلا عند الضرورة ، وعند الرومان كانت المرأة فى حكم القاصر ، وفى مبدأ تاريخ أوروبا عندما كانت خاضعة إلى سلطة الكنيسة والقانون الرومانى ، كانت فى أسوأ حال ، حتى أن بعض رجال الدين أنكروا أن لها روحًا خالدة وعرضت هذه المسألة على المجمع الذى انعقد فى ماون فى سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة أن المرأة إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل ، وكان من الضرورى أن تعيش تحت قوامة رجل وهو أبوها قبل زوجها ، ثم زوجها بعد الزواج ، وأحد أبنائها إذا مات الزوج ، أو احد أقاربها من الذكور أو أقارب زوجها إن لم يكن لها أولاد ، ولا يجوز لها فى

أى حال أن تتصرف بنفسها ، وكانت غير أهل للشهادة فى العقود ولا للوصاية على أولادها القصر ولا لأن تكون حكمًا أو أهل خبرة ، وشوهد فى بعض ولايات سويسرة أن شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد ، ولا تزال آثار هذه الأحكام باقية إلى الآن فى كثير من ممالك أوروبا . ذلك لأن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة . والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو أول حكومة سياسية ظهرت فى العالم ، وقد اضمحل ثم زال بعد أن أقام أجيالا فى البلاد الغربية ، وحل محله النظام الدستورى المؤسس على أن الحاكم ليس له حق على الأشخاص ولا على الأموال إلا ما تفرضه القوانين.

ولكنه لا يزال سائدًا فى الشرق بعامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين إلى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين .

وليس هنا محل البحث عن الأسباب التى وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذى حرمها الترقى فى المدنية وحصر حركاتها فى مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها . وإنما يهمنا هنا أن نثبت أمرا يتعلق بموضوعنا وهو **وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية . وبالعكس فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباط كليا .**

وإن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وأن لكل منهما تأثيرًا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه . ثم انظر إلى البلاد الأوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ، وان كن لم يصلن إلى الآن إلى مستوى ما أعدلهن ، ثم انتقل إلى بلاد أمريكا تجد الرجال مستقلين فى معيشتهم الخاصة استقلالا تاما وان سلطة الحكومة وتداخلها فى شئون الأفراد يكادان أن يكونا معدومين . ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هى فى

أوروبا بكثير . حيث تساوى المرأة والرجل من البلاد الأميركية فى جميع الحقوق الشخصية . وفى بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما أيضا فى الحقوق السياسية .

ففى ولاية « بومنج » نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ ، وإنى أنقل هنا رأى رئيس حكومتها « المسيو شامبل » ، الذى جاهر به فى خطبة ألقاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن حقوقهن السياسية ، فينتخبن نواب الأمة وينبن بأنفسهن عنها ، ويجلسن فى مراكز القضاء ، ويؤدين ما دون ذلك من الوظائف العمومية ، ومن العدل أن النساء قد قمن بهذه الواجبات الجديدة على وجه من الرزانة وحصافة الرأى وسلامة الذوق لا ينقص عما يقوم به الرجال . وهذه التجربة بالنسبة لقصر مدتها لا تصلح أن تكون دليلاً مقنعا لإثبات استعداد المرأة فى القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل على حسن الظن بفطرة المرأة . ومادام الحال على هذا المنوال فلهن الحق فى الاستمرار » .

وبعد تجربة أخرى مدة أربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء فى استعمال حقوقهن السياسية ، وقد أعلنت رأيى فى جلسة سابقة ، وصرحت بالفوائد التى أظهرتها التجربة ، والآن أقول : إن ما شاهدته فى مدة هذه الست سنين أقنعنى اقناعا تاما بأننا أصبنا فى تخويل النساء حق الانتخاب ، وأن مساواة المرأة للرجل فى الحقوق السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحا لا يمارى فيه أحد » .

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال « طاير » ، وقد انتخب من بين أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة ، فخطب قائلا :

« لقد مضى ثمانى سنين والنساء يتمتعن فى أرضنا بالحقوق السياسية ، وكل يوم يمر يزيد الأهالى ثقة بالنساء ، وفى رأيى ان هذه نتيجة حسنة لأنها موافقة لمصالح أمتنا » .

ثم بعد ذلك بخمس سنين فى ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هو آت :

إن ولاية « بومنج » هى المكان الوحيد الذى تتمتع فيه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين ، وهذا الاقدام من أمتنا ، التى أرشدها حب الحق والعدل إلى اصلاح خطأ طال عليه الزمن ، قد وجه أنظار العالم إلينا . ولئن زعم اخصامنا

أننا لا نزال فى دور التجربة فكلنا نعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة إلينا . وإنى أصرح هنا بأن اشتراك النساء فى أعمال الحكومة مع الرجال ترتب عليه ان القوانين عندنا أصبحت أحسن مما كانت عليه ، وان عدد الموظفين الأكفاء وصل إلى درجة لم نعهدها من قبل وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيرًا ، وهى الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الأخرى ، وان جميع المصائب التى كنا نهدد بحلولها ، مثل فقد النساء رقة الطبع ، واضطراب النظام فى معيشتنا المنزلية . لم نر لها أثرًا إلا فى مخيلات خصومنا .

إن السواد الأعظم من نسائنا قدرن حقوقهن الجديدة حق قدرها ، واعتبرن القيام بها واجبًا وطنيًا ، وبالجملة فإنى أقول : ان تجربة اثنتى عشرة سنة مع النجاح الباهر قد مكنت فى عقولنا ونفوسنا ان مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه .

وكل هذه المقدمات تنساق بنا إلى طلب الكمال فى حالتنا الاجتماعية حتى تجعل ولاية « بومنج » نجما يهتدى به العالم فى الحركة العظيمة التى تصعد بالإنسان ذروة الحرية » .

وليس على أن أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام إلا أن قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولاً به إلى الآن فى « بومنج » ، وأن ثلاث ولايات أميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخولت النساء الحقوق السياسية ، وهى ولاية « آوته » و « كولورادو » و « ايداهو » .

أما فى باقى ولايات أمريكا فالمرأة لم تنل إلى الآن حقوقها السياسية ، ولكن كل مطلع على حركة الرأى العام فيها لا يشك أنها ستنال هذه الحقوق فى زمن قريب جدًا ، وإليك رأى رجلين من أكبر رجالها السياسيين .

قال « سميلون » العضو فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « انى أعتقد أن انتشار الفسق فى مدننا الكبيرة لا يمكن أن يضيق نطاقه إلا إذا منحت النساء حق الانتخاب » .

ومن رأى « جيلبير هافيه » ، وهو أيضًا من أعضاء مجلس الشيوخ : « ان فساد الأخلاق السياسية لا يصلحه إلا اشتراك النساء فى الانتخابات ، لأننا نعلم أن الخمارة هى مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك إلا لأن الخمارة هى المحل الوحيد الذى لا تدخل فيه المرأة » .

لعل القارئ يستغرب كيف أن الرجال فى أمريكا يرون أن لا سبيل إلى محاربة الفسق وفساد الأخلاق إلا بمعونة النساء ، هذا أمر يحتاج إلى البيان ، ولذلك أنقل هنا رأى القاضى الأمريكانى « جون لينجهان » ، وقد نشر فى سنة ١٨٨٢ فى أهم جرائد أوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء فى الوظائف العمومية إذا اجتمعوا فى مكان واحد

لا يخلو جيب واحد منهم من مسدس ، فإذا قام نزاع خفيف بين بعض الحاضرين لم يكن ينتهى عادة إلا بقتل أو جرح ، وكان المحلفون يحكمون فى الغالب ببراءة الجانين ، فلما اشتركت النساء فى الوظائف القضائية مع الرجال نتج عن ذلك معاقبة المذنبين ، وكذلك كان المحلفون لا يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور فتغير الحال الآن ـ وقد ترتب على حضور النساء فى الجلسات اننا نرى الآن قاعاتها متحلية من النظام والأدب والوقار بأكثر مما كان يعرف فيها من قبل .

ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية انهن اهملن ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل إلى علمى أن زوجًا اشتكى زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم أر شقاقًا بين زوجين بسبب اختلاف آرائهما السياسية ، ولم أسمع به ، على أنى أعرف عدة عائلات ينتمى فيها الزوج إلى حزب والزوجة إلى حزب آخر » .

على ان المرأة الأمريكانية منحت فى جميع الولايات المتحدة حظًا عظيمًا من الحقوق العمومية ، فلها ان تحترف بحرفة المحاة وتترافع أمام جميع المحاكم ، يوجد قضاة من النساء فى ولايات « كانساس » و « بومنج » و « كولومبيه » و « شيلى » و « زيلندة » وغيرها ، وعين بعض أفرادهن فى وظيفة نائب عمومى ، ويوجد عدد عظيم منهن فى نظارات الخارجية والداخلية والحربية .

أما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية ، والنساء القسيسات ، والمهندسات ومديرات الجرائد ، والمستخدمات فى الرصد خانات والبوستة والتلغرافات فلا يكاد يحصى .

وتشغل النساء أغلب الوظائف فى إدارة المعارف ، فقد بلغ عددهن خمسا وتسعين فى المائة فى المدارس الابتدائية . قال « بول بورجيه »[٣٣٨] الكاتب الفرنساوى الشهير فى كتاب حديث ألف عقب زيارته أمريكا فى وصف حال نسائها ما يأتى :

« إذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن مع الصبيان فى مكان واحد ، والأستاذ الذى يلقى الدرس رجلاً أو امرأة بلا فرق ، وإذا دخلت فى معمل علمى وجدت بنات محنيات الرءوس على آلة الميكروسكوب وبجانبهن شبان من طلبة العلم ، الكل مشتغل بفحص مسألة من علم التشريح ، ويزورك أحد مكاتبى الجرائد من غير أن يسمى نفسه فتجد إنه امرأة ، وتروم استدعاء أحد الأطباء المشهورين فتجد عدد الأطباء من النساء

---

(٣٣٨) روائى فرنسى (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥ م) كان من اتباع المدرسة الطبيعية فى الادب . ثم خرج عليها واعتنق المذهب الكاثوليكى ، فغلبت الروح الدينية على رواياته .

مساويا لعدد الأطباء من الرجال ، وإن لم يكن مساويا فى بعض الجهات فهو من الكثرة بحيث لا يعد التطبيب منهن من قبيل النادر » .

ويكفى لبيان ارتقاء شأن المرأة الأمريكانية أن نقول : إنه تبين من الاحصائية التى عملت فى سنة ١٨٨٠ أن النساء المحترفات بالعلوم والأدبيات فقط بلغ عددهن خمسا وسبعين فى المائة و٦٣ فى المائة فى التجارة و ٦٢ فى المائة فى الصناعة .

فإذا انتقلنا من أميركا إلى انكلترا ، وهى أقرب الأمم إليها ، وجدنا أن اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريبًا عما يشاهد فى أميركا ، فقد نتج من احصائيتها الأخيرة أن مليونًا منهن يشتغلن بالعلوم والأدبيات وثلاثة ملايين بالتجارة والصناعة .

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب فى المجالس البلدية وفى مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ، ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى فى المستعمرات الانكليزية « كالكاب » و « كندا » و « استراليا » .

أما مسألة منحهن الحقوق السياسية فهى لا تزال فى دور التحضير ، وأول طلب تقدم من النساء الانكليزيات إلى مجلس النواب كان فى سنة ١٧٦٦ ، وأمضى عليه ستمائة ألف امرأة وأول مشروع تقدم إلى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان فى سنة ٦٧ [٣٣٩] وكان من حسن حظه أن العلامة « استوارت ميل »[٣٤٠] هو الذى أخذ على نفسه المدافعة عنه أمام المجلس ، فاكتسب فى الحال ثمانين صوتًا من النواب ، كما أذكر من بينهم « ديزرائيلى »[٣٤١] و « غلادستون »[٣٤٢] . وفى سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانيًا ونال ١٥٩ صوتًا وفى سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتًا ومازال يتقدم من حين إلى حين ويكسب أصواتًا جديدة حتى توفرت له الأغلبية فى سنة ٩٧ فأقر عليه مجلس النواب ولم يبق لنفاذه إلا تصديق مجلس الأعيان .

---

(٣٣٩) أى سنة ١٨٦٧ م .

(٣٤٠) هو الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ م) صاحب الفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائى . أصدر فى سنة ١٨٤٨ م كتابه [مبادئ الاقتصاد السياسى] كما اشتهر بأفكاره عن حرية المرأة ومذاهب المنفعة ، والحرية ...

(٣٤١) بنيامين ابرل بيكنسفيلد (١٨٠٤ ـ ١٨٨١ م) سياسى انجليزى ، من اصل يهودى ، تزعم حزب المحافظين وتولى رئاسة الحكومة ، ولعب دورا هاما فى سياسة بريطانيا الاستعمارية . كما كان مؤلفا كذلك .

(٣٤٢) وليم ايوارت (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) من الساسة الانجليز فى القرن الماضى ، تزعم حزب الاحرار ، ووصل الى رئاسة الوزارة .

وفى فرنسا لم تصل حركة الأفكار فى شأن النساء إلى هذا الحد ، فعدد المشتغلات من النساء بممارسة العلوم قليل ، وعدد الموظفات فى المصالح الأميرية يكاد يكون محصورًا فى مصلحة البوستة والتلغراف والتليفون ، والحرفة التى اتجهت إليها على الخصوص نساء فرنسا هى التجارة ، وقد خاب ظن « فيكتور هيجو »[٣٤٣] أكبر شعراء العصر فى فرنسا الذى قال : (إن القرن الثامن عشر قرر حقوق الرجال ، وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء) حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شىء كبير من الأصلاحات التى يطالب بها كثير من رجال فرنسا ، غير أنه فى هذه السنين العشر الأخيرة حصل تقدم محسوس فى حركة الأفكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فى المجالس التجارية ، وفى العام الماضى صدر القانون الذى يخول النساء الاحتراف بصنعة المحاماة .

وحال النساء فى الممالك الأوروباوية الأخرى لا يختلف إلا قليلاً عن حال النساء فى فرنسا .

أما مملكة روسيا فمركزها الجغرافى قضى بأن تتأثر بالعادات الشرقية ، ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات ، كنساء الشرق ، مسجونات فى البيوت . محرومات من التربية والتعليم . وليس لهن من الحقوق إلا ماتسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن ، ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية إلا فى سنة ١٧٢٦ حيث صدر أمر عال من « بطرس الأكبر »[٣٤٤] بإلغاء الحجاب مرة واحدة ، ثم تولت بعده الامبراطورة « كاترين »[٣٤٥] فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ، ونشرت بينهن التربية العقلية والأدبية .

ولكن لما تولى الملك الكسندر الأول[٣٤٦] ، وكان يبغض الحرية ، وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثانى[٣٤٧] وكان ميالا إلى ترقية بلاده محبا لتقدمها فأبطل استعباد

---

(٣٤٣) فيكتورهوجو (١٨٠٢ – ١٨٨٥ م) أشهر أدباء فرنسا فى عصره ، وهو شاعر وروائى وكاتب مسرحى . وأعظم رواياته رواية البؤساء .

(٣٤٤) بطرس الاكبر (١٦٧٢ – ١٧٢٥ م) هو بطرس الاول قيصر روسيا ومؤسس دولتها الحديثة الذى ادخل فيها نمط التمدن الغربى ، وبدأ فيها عصر الصناعة .

(٣٤٥) كاترين الثانية ، أوكاترين العظمى (١٧٢٩ – ١٧٩٦ م) امبراطورة روسيا وقيصرتها . لعبت دورا بارزا فى سياسة روسيا التوسعية والاستعمارية فى القرن الثامن عشر .

(٣٤٦) الكسندر الاول (١٧٧٧ – ١٨٢٥ م) حكم القيصرية الروسية من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٢٥ م .

(٣٤٧) الكسندر الثانى (١٨١٨ – ١٨٨١ م) حكم روسيا من سنة ١٨٥٥ حتى سنة ١٨٨١ م .

الرجال (السرفاج) وأنشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليمين الابتدائى والثانوى كن يتعلمن فيها العلوم التى يتعلمها الذكور ، وأول مدرسة أنشئت على هذا النمط كانت فى سنة ١٨٥٧ ، ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية أن تقدم النساء فى المعارف له أثر كبير فى حالة الأمة السياسية ، وأن حزب المعارضين للحكومة أخذ ينمو فأقفلت فى سنة ١٨٦٢ أبواب المدارس العالية فى وجوه الرجال والنساء ، ولكن النساء لم يقبلن أن ينتكسن فى الجهل بعد أن ذقن طعم الحرية والعلم ، فرحل الكثير منهن عن وطنه طلبًا للمعارف ، وأخذن يهاجرن إلى فرنسا وسويسرا وألمانيا لتحصيلها وطفقن فى مهاجرهن يطعن فى الحكومة وينشرن أفكارهن فى الكتب والجرائد ويشتركن فى المؤتمرات مع الرجال فكانت عاقبة إقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل. فطنت الحكومة إلى هذا الأمر وعرفت أنها أخطأت ، فقررت فى ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس ، وقد زاد عددها من ذلك العهد إلى الآن زيادة ظاهرة.

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة فى العالم ، نلخصة فى كلمتين :

عاشت المرأة حرة فى العصور الأولى حيث كانت الإنسانية لم تزل فى مهدها.

ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيقى.

ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق. واعترف للمرأة بشىء من الحق ، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذى قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها.

ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة والرجل فى جميع الحقوق ، أو على الأقل فى معظمها.

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم.

فالمرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثالث من حياتها التاريخية ، بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات ، ولكنها فى نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية ، وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعنا ونخضع له.

ومع أن الاستبداد السياسى أصبح فى حالة النزع ، وأشرف على الفوات ، بحيث لا ترجى له عودة ، لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم.

وما سبب ذلك إلا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقى ، وسبقتنا إلى ما لم نصل إليه بعد ، فهى تقرر أن كل فرد منا له أن يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى ، ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخًا فى طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء .

وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذًا فى نفوسنا ، وله أثر ظاهر فى أعمالنا ، فقوانيننا وضعت لأمة حرة ، وأخلاقنا لا تزال اخلاق أمة مسترقة ! لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم ، وتنقلوا من مدرسة إلى مدرسة ، ومن درجة إلى درجة ، حتى حازوا على لقب علمى ، وفقهاء يعلمون الحقوق ، وشعراء من نوابغ العصر ، على ما يقول العارفون بفنهم وكتابًا نصبوا أنفسهم لإفادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الأدبية أو الفنية أو ما شئت من هذه الألقاب ، وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال ، رأينا جميع من ذكرنا وعندما سمعوا القول بأن للمرأة حقا مهضوما ، وأنها إنسان محروم ، أخذوا يتساءلون : هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها ؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلها ؟ وبعد طول التساؤل رجعوا إلى ما هو مركوز فى طباعهم فأنكروا عليها هذا الحق ، وحكموا عليها بأن تبقى فى ظلمات الجهل وفى السجن المؤبد ؟ .

فهل كان ذلك لأن المسألة عويصة تحتاج إلى العناء فى حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلا ، وإنما نحن نتصور الحرية ، ولا نشعر فى الحقيقة بحبها ، ونعرف حق الغير ولا نجد من أنفسنا احتراما له . نحن فى دور التمرين على العمل بالأخلاق الحرة ، ونحتاج إلى زمن لترسخ فى نفوسنا ، أما الأوروباويون فإنهم يقدرون الحرية حق قدرها ، ويحبونها ويحترمونها فى غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها فى أنفسهم .

وهذا شأن من له احساس حقيقى بمزية فضيلة من الفضائل . فإنما الفاضل من يجل الفضيلة اينما كان مظهرها ، قال «كوندوروسية»[٣٤٨] ، الأصولى الشهير فى هذا المعنى : اما أن لا يكون حق حقيقى لأحد من الناس واما أن يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر ، ومن جرد غيره من حقه مهما كان دينه أو لونه أو صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه .

لهذا يشتغل محبو الترقى فى أوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق

---

(٣٤٨) مارى جان انطوان كوندورسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤ م) فيلسوف ورياضى فرنسى ، اشترك فى الثورة الفرنسية . ثم اختلف مع بعض قادتها . وألف كتابا هاما عن التقدم الإنسانى ، تاريخيا ، حتى الثورة الفرنسية .

ماوصلت إليه الآن ، وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع الحقوق الإنسانية .

ولا أنكر أن عددا غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل فى صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين .

فهناك مذهبان يتزاحمان :

احدهما : يكتفى بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق .

والثانى : يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين .

هكذا انقسم العالم الإنسانى فى كل أمر إلى فريقين ، فريق المحافظين ، وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان فى طريق الخير وسبل السعادة .

ومن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الازمان يعلم علم اليقين ان المرأة فى كل زمان وفى كل مكان قائمة بوظيفتها الطبيعية ، ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى متنقلة من منزلة الى أرقى منها ومن مرتبة الى أرفع منها .

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بتغير حالها فى الماضى وتهيئتها الآن للانتقال من طورها الحالى إلى طور آخر . وبالجملة ، فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعة الإنسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق فى جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها أحد منهم فى حق التمتع بحريتها فى الأعمال البدنية والعقلية ، إلا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل فى كل ذلك ، وإنما اختلفوا فى مسألة مساواتها بالرجل فى الحياة العامة فيرى بعضهم أن اشتغالها بالأعمال يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امـرأة فقرروا المساواة بينها وبين الرجل أيضا فيما يتعلق بالحياة العامة .

أما نحن فإننا لا ننظر إلى المرأة نظرنا إلى الرجل ، ولم تستعد عقولنا إلى إدراك هذه الحقيقة الظاهرة وهى أن المرأة إنسان مثل الرجل ، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الإنسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة ، أما اشتغال المرأة بالأعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبنا فى هذا الكتاب ، ولهذا لا نرى فائدة فى الكلام فيه ، وأما

ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذى نقصد البحث فيه ، وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل :

الاولى حرية المرأة – **الثانية** الواجب على المرأة لنفسها **الثالثة** الواجب على المرأة لعائلتها .

وستتكلم عليها على هذا الترتيب ويلى ذلك مبحث فى التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوى على حالة الافكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء .

حـــرّية المـــرأة

لم يخطئ قدماء الفلاسفة[349] فى مسألة خطئهم فى معنى الحرية الإنسانية، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله خلق الناس على قسمين : قسم : ميزه بالحرية ، **والقسم الآخر** : قضى عليه بالرق .

وكانت معيشة الاحرار بعيدة عن الاستقلال الذاتى ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة .

والتاريخ يحدثنا بأن الحكومة فى تلك الأعصر الخالية كانت تتداخل فى كل ما يتعلق بالحياة الخاصة ، وكان لها الشأن الأول فى نظام العائلة والتربية والديانة والأخلاق والعواطف ، حتى إنها كانت تحدد فى المعاملات التجارية أثمان البضائع . وقد وصلت بها الأثرة بالتداخل فى شئون الحياة الخاصة إلى حد أن قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهن إلا فى أحوال مبينة ، فكانت المعيشة الاجتماعية هى أشبه شىء بالعيشة العسكرية ، يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين إلا أن يطيعوا أوامره .

ولما تقدم العالم فى المدنية تخلص الفرد شيئا فشيئا من سلطة الهيئة الاجتماعية ، ووسع فى دائرة حريته ، وانعكس الامر ، فما كان فى السابق اصلا عاما أصبح الآن من المستثنيات ، ومن ثم صارت غاية التمدن أن ينال الفرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية .

ذلك لأن الانسان ترقى فى فكره ، فهو يرى ان تسليم نفسه الى تصرف الحاكم أمر لا تسلم به منزلته من الانسانية ، ولا يتفق مع راحته وسعادته ، ولهذا فهو لا يقبل ان يتنازل لأحد عن

---

(٣٤٩) المراد هنا فلاسفة اليونان ، ولقد جاء فكرهم عن الحرية على هذا النحو لأن الرق كان ركنا من أركان المجتمع الذى عاشوا فيه ، ومن هنا ، كذلك ، كان تمييزهم ، الذى أبرزوه ، بين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

حريته ، ولا أن يأتمن احدا عليها ولو كان أقرب الناس اليه ، ولا يسمح بأن يترك منها الى الحكومة إلا بقدر ما يلزم تركه لتتمكن من تأديه وظيفتها وهى المحافظة على الامن العام فى الداخل والمدافعة عن سياج الأمة فى الخارج ، وأيضا القيام بالأعمال التى تعود منفعتها على الجميع .

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد إلى ما تقرره عليه من الأعمال والأموال ، اما إذا أرادت الحكومة أو أى فرد من الناس أن يدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شئونه الخاصة فإنه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد فى نفسه ألم الظلم .

ولذلك سببان :

الأول : ان رأى الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف أهواء الأغلب ، لأن الأمزجة مختلفة والغرائز متباينة والاذواق متفاوتة على حسب الاشخاص والاعمار والازمان والامكنة . فوضع قاعدة واحدة لجميع الاعمال الخاصة بكل فرد لا يسهل على الطبائع البشرية قبوله .

والثانى : ما دلت عليه التجارب من أن تداخل الحاكم فى الشئون الخاصة للافراد يضعف من قواهم . ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها . ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل ، والاتكال على الغير . وهو وان أشعر بعض النفوس لذة الكسل والخلود الى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة .

فالحرية هى قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة . ولذلك عدتها الامم التى أدركت سر النجاح من أنفس حقوق الانسان .

ومن المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الإنسان فى فكره وإرادته وعمله متى كان واقفًا عند حدود الشرائع محافظًا على الآداب ، وعدم خضوعه بعد ذلك فى شىء لإرادة غيره ، اللهم إلا فى أحوال مستثناة كالجنون والطفولية ، حتى بالنسبة للأطفال رأى علماء التربية الصحية ان الضغط على الأطفال مميت لعزيمتهم ، ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف فى نفسه بحريته ، وإنما على والديه إرشاده ونصحه .

فهذه الحرية على ما بها من سعة هى التى يجب ان تكون اساسا لتربية نسائنا .

يتعجب بعض الناس من طلبى تخويل الحرية للنساء ، ويتساءلون : هل هن فى قيد الرق ؟

ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا فى الرأى .

ليس مرادنا أن نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى فى الاسواق ، ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذى يباح الاتجار به فقط ، بل الوجدان السليم يقضى بأن كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق ! .

لا أظن ان القارئ يختلف معى فى الرأى ان قلت : ان المرأة فى نظر المسلمين ، على الجملة ، ليست انسانا تاما ، وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ، ويجرى فى معاملته معها على هذا الاعتقاد ، والشواهد على ذلك كثيرة .

فليس من الأدب فى كثير من العائلات ألا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الأدب أن تجلس النساء مع الرجال ، ولا من الأدب أن يأكلن معهم ، وقد رأيت مرارًا بعينى أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء ! .

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد فى الغالب فى بعض الطبقات ، خصوصًا فى بلاد الأرياف ، لكن استعباد المرأة فى الطبقات الأخرى وفى المدن موجود على أشكال أخرى .

فالرجل الذى يحجر على امرأته ألا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته فى أن لا تخرج لا يحترم حريتها ، فهى من هذه الجهة رقيقة ، بل سجينة ، والسجن أشد سلبا للحرية من الرق . ولا يقال إن عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلاً ، فإنه وان قل بالنسبة إلى الماضى لكن كلنا نعلم أن من النادر جدًا أن تكون المرأة متروكة لإرادتها واختيارها فى ذهابها وإيابها على أن كلامنا الآن إنما هو فى مقام المرأة فى نفس أغلب الرجال وما يجب عليها فى اعتقادهم أن تعمل به وان تكون عليه ، فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل فالمرأة المقصورة فى بيتها التى لا تفارقه تعتبر عندهم خير امرأة .

ولو أخذ المسلمون برأى الجهال من فقهائهم ، وهم أهل الرأى عندهم ، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج إلا لزيارة الأقارب فى العيدين ، ورأوا من الأفضل ألا تخرج من بيتها فى جميع الأحوال ، وقد عدوا من مفاخرهم ألا تخرج المرأة من خدرها إلا محمولة إلى قبرها ! .

ولا شك أن تقرير الحق للرجل فى سجن زوجته ينافى الحرية التى هى حق طبيعى للإنسان .

والمرأة التى يسوقها والدها كالبهيمة إلى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة امره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة فى نفسها ، بل تعد فى الحقيقة رقيقة ، ومن المعلوم أن عموم الآباء فى جميع طبقات الأمة يزوجون بناتهم على هذه الطريقة ، فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج ، أما هن فلا رأى لهن فى هذا الأمر الخطير الذى تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن فى المستقبل ، ولا يقال إن حال الرجل فى ذلك كحال المرأة إذ هو أيضًا لا يعلم من أحوال مخطوبته شيئًا ، لأن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها فى أى وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع ، أما المرأة التى تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها إلى الخلاص منه سبيل ، فتزويج المرأة برجل تجهله ، وحرمانها حق التخلص منه ، مع إطلاق الإرادة للرجل فى إمساكها وتسريحها كيف يشاء ، هو استعباد حقيق .

والمرأة التى يجب ألا تتعلم إلا فروض العبادة ، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم ، أو يجب ألا تتعلم إلا مقدارا محدودا من مبادئ بعض العلوم ، تحسب رقيقة ، لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذى أعدت له يعد استعبادًا معنويًا .

والمرأة التى تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا الركوب ، بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة ، تعد رقيقة ، لأن تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الإنسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ماعدا سيدها ومولاها .

وبالجملة ، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هى رقيقة ، لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها ، وإنما تعيش بالرجل وللرجل ، وهى فى حاجة إليه فى كل شأن من شئونها ، لا تخرج إلا مخفورة به ، ولا تسافر إلا تحت حمايته ولا تفكر إلا بعقله ، ولا تنظر إلا بعينه ، ولا تسمع إلا بإذنه ، ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته ، ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه ، فهى بذلك لا تعد إنسانا مستقلا ، بل هى شىء ملحق بالرجال .

انظر إلى صبى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة ، وقارن بينه وبين والدته ، تجد أنها

أحط منه فى العقل والمعلومات والتجارب ، وانه أكبر منها شأنا ، ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل بل فى نفس بيتها.

كيف لا وهو الذى يأمر وينهى فيه ، وهو الذى ينوب عنها فى اشغالها وإدارة بيتها وتدبير ثروتها ؟.

انظر إلى امرأة تمشى فى الطريق ، ومعها خادم ، تجد فى نفسك لأول وهلة ان الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأى والقوة ، وكأن لسان حاله يقول : إنى اؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها . لاحظ أن امرأة محجبة تمر على جماعة من أهل الخلاعة تجد انهم لا يتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالأدب ، وفى بعض الأحيان يترامون عليها بأجسامهم ويلمسونها بأيديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الأفعال القبيحة ، لم تصبر المرأة على هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث إلى دفاع ؟ ولم لا يجرؤ هؤلاء الرجال على إتيان ما يأتونه من الأقوال والأعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة أشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا وإنما وقر فى نفوس الرجال عندنا أن البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ، ورأوا فى عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ، ولا تحس باحترامها لنفسها ، وأنها سهلة القياد ، لينة المغمز ، تتبعه لأول إشارة بيدها أو كلمة يرميها ، وأنها تخشى الرجل ولا تجرؤ على تأديبه ، فاستخفوا بها ، وتجاسروا على امتهانها ، وتعودوا على ألا يحترموا امرأة مبرقعة إلا إذا وجد معها رجل ولو كان خصيًّا !.

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس إنسان ؟.

سيقول قوم : كيف لمدع أن يدعى أن المرأة مستعبدة عندنا ، مع إنا نراها فى مكانة من السلطان على قلب الرجل منا بحيث تسخره لإرادتها وأهوائها ، وتصرفه عن أعماله لقضاء رغائبها ، وان الرجل ليتجشم الأسفار ويتردد بين المدينة والأخرى لينتقى لزوجته لباسا أو يختار لها نوعا من أنواع الحلى يرضى با هواها ويقضى به رغبتها ليستجلب رضاها ، ثم هى سيدة بيته ، لا يرفع فيه إلا ما رفعت ولا يضع فيه إلا ما وضعت ، فهل مع هذا كله يقال إن المرأة مسترقة للرجل ؟ نعم ، لا ننكر شيئًا من هذا كله ، ولكننا ننكر أن يكون ذلك عامًا

عند جميع الناس ، كما ننكر أنه ناشئ عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وماكسبته من حق الصحبة الناشئ عن عقد الزواج ، وإنما يرفع المرأة أحيانا إلى تلك المنزلة افراط فى الشهوة من الرجل يحدثه براعة فى الجمال أو تفنن فى ضروب الاحتيال ، فهى سيدته ما تعلقت بها شهوته ، فإذا خمدت نيران الشهوة وعاد مابينهما إلى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها إلى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق .

سيقال أيضا : إن حرية المرأة تستلزم فى الواقع أن يعاملها الرجل باحترام ، وألا يضغط على إرادتها وفكرها ، وأن يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ، ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم ؟ فالجواب : إن الزام النساء بالاحتجاب هو أقسى وأفظع أشكال الاستعباد ، ذلك لأن الرجال فى أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء ، إما بالشراء كما بيناه وإما بالاختطاف .

وفى كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك أن الرجل جرد امرأته عن الصفات الإنسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهى أن تمتعه بجسمها . فأقرها فى مسكنه . وألزمها بأن تلازمه ولا تخرج منه حتى لايكون لأحد غيره حظ فى أن يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث . شأن المالك الحريص على ملكه الذى يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذى يملكه .

ولما كان من المحال ألا تعرض ضرورة تقضى على المرأة بالخروج من منزلها فى بعض الأحيان أراد أن يتبعها بالحجاب حيث سارت فألزمها بستر وجهها إذا خرجت .

هذا الحجاب الذى قرره الرجل فى الاصل على زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والامهات والاخوات والى عموم النساء ، لان كل امرأة هى زوجة أوكانت زوجة أو مستعدة لأن تكون زوجة .

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم ، وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى ، كما اهتدت إلى أن تفهم ان سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدًا للأبيض .

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذى أوجده ، أى بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل ، فقد جرت سنة الله فى خلقه بأن الانتقال من طور الى طور آخر لا يكون

دفعة واحدة ، وانما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعا لها ، فكثيرا ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها متنقلون الى غيرها متحولون الى أردأ أو أحسن منها ، وهم لا يشعرون ، حتى اذا انتهت الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذى كانوا من قبل ينكرون .

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء فى حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان ، لكنه ناقص غير تام . كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالامس مساوية له اليوم ، فحسن لديه أن يضعها فى مرتبة أقل منه فى الخلقة ، وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات ، وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصر فى بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها أو تخدعهم بحيلها ، وانها ليست أهلا للرقى العقلى والادبى فيلزم ان تعيش جاهلة .

وذلك هو السر فى ضرب الحجاب ، وعلة بقائه الى الآن . فأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو تمزيق الحجاب ومحو آثاره .

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هى الحجة التى اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا أن نبحث فى طبيعة المرأة لنعلم إن كانت ، كما يقال ، أحط من طبيعة الرجل أم لا ؟ .

إذا سألنا الرأى العام فالجواب سهل معلوم . ولكن الرأى العام لا يصح أن يكون له صوت فى مسألة علمية كهذه ، لأن مبنى الرأى العام القضايا المشهورة ، التى صاغتها العادة وقررتها الألفة بدون بحث ولا تنقيب ، فهى مرجع العامة فى احكامها يردون إليها كل حادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون أسبابه ، والرأى العام يعتبر أن تغير كل **عادة** ألفها مخالف **للطبيعة** لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن أن ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى إلى الأبد .

ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل فى الجملة ، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها ؟ تلك هى المسألة التى يلزمنا حلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها .

رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الإنسانى بآثارها التى صدرت منها إلى الآن . وإنما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها ما يملك

الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التى قضاها الرجال فى تربية ملكاتهم العقلية والأدبية ، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل فى الخلقة وأنه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسيولوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ، ولكن ليس فى هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه .

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة « جاك لورييب » فى كتابه المسمى [المرأة امام المعلم] .

وقال الاستاذ فرشلو : « انى ألقيت دروسا كثيرة فى العلوم الحسابية وعلوم الاخلاق والفلسفة لطلبة العلم . وكان بينهم كثير من النساء ، والذى شاهدته بنفسى هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين . وكانت نسبة الدرجات بينهما واحدة » .

وقال العلامة « مانتجازا » ، المدرس لعلم الإنسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتاب جديد سماه [فسلوجيا المرأة] : « جميع المناقشات التى تدور على خفة مخ المرأة فى الوزن وصغر جمجمتها وضعف اللفايف المخية ، تلك المناقشات عبث إذا أريد أن يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما أكفر الرجل ! ألجأه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح ، فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول فى العالم ، بل أراد أن يبرهن أن المرأة أقل منه فى الإنسانية وأنها فى مرتبة بين القرد والإنسان ، ولهذا فيكون له الحق فى أن يجردها عن الحقوق التى منحها نفسه كأنه نسى أن الذات التى يريد أن يحط بقدرها هى أمه ، والحقيقة أن المرأة امام علم التشريح ليست أقل من الرجل ولا أرقى منه ، وإنما تختلف عنه ، لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل » .

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التى توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف ، فقال ما ملخصه : «إن السبب فى أهم ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الأدبية هو الاستعباد الذى استولى على المرأة زمانًا طويلاً حيث تغلب الرجل على المرأة فى الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفى الطبقات الأخرى بعلو معارفه وتربيته ، وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بأن تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها ، ويظهر أن الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات فى أعماله ، ولكنها تمتاز عليه فى قوة الاحساس وتحمل الآلام ، وهى تصبر على الأمراض والعمليات الجراحية صبرًا يعجز عنه الرجل ، وربما كان السبب فى ذلك أنها أقل أثرة من الرجل أو انها اعتادت على الاستسلام والخضوع .

وتمتاز المرأة على الرجل أيضا بأنها اضعف شهوة منه ، فالحب عند الرجل ميل شهوانى إلى استيفاء اللذة الجسدية ، والحب عند المرأة وداد قلبى غايته امتزاج الروحين ، واستدل على ذلك بأن الرجال يستعملون جميع أنواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهن ، والكثير منهن مع ذلك يدافعن عن عرضهن ويتغلبن على شهواتهن وقال : إنه إذا عكس الأمر وفرضنا انه أبيح للنساء أن يستعملن مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل أن يحافظ على عفته ! .

وقال : «إن حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة ، أما الرجل فيسود عنده حب النفس ، لذلك تراه يفتكر أولا فى نفسه ثم فى أولاده ، بخلاف المرأة ، فهى تفكر أولا فى غيرها ثم فى نفسها ، فهمّ الرجل أن يكون سعيدا ، وهمّ المرأة أن تجعل الغير سعيدًا . وهذا الاحساس يشاهد فى جميع أعمال الحياة ، صغيرها وكبيرها ، وأعظم مثال لإيثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها ، فهى تحبه أكثر مما يحبه أبوه ، وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن أن يقال انه كلما كان ولدها سيئ البخت زاد حبها له ، والأب على عكس ذلك»

فالمرأة فى رأى أعظم العلماء وأدقهم بحثًا مساوية للرجل فى القوى العقلية ، وتفوقه فى الاحساسات والعواطف ، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما فى العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية ، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعى لا طبيعى .

لا نريد بهذا التساوى أن كل قوة فى المرأة تساوى كل قوة فى الرجل وكل ملكة فيها تساوى كل ملكة فيه ، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافئ مجموع قواه وملكاته وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما ، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر .

فعلى أى دليل علمى يستند الرجال لاستعباد النساء ، وبأى حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن ؟ لنفرض جدلاً أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل ، فهل نقصان العقل فى شخص يبيح أن يجرد من حريته ؟ اما يوجد بين افراد الرجال اختلاف فى العقول أكبر من الأختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصرى يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية ، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين فى تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلاً وأكمل اخلاقًا من أزواجهن أو آبائهن أو ابنائهن ؟ .

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الإنسان عن حريته بل الذى يجر إليه الاختلاف إنما هو ان يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها .

وما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق المرأة ـ وقد أشرنا إليه فى ما تقدم ـ يقودنا إلى ان هذه السلطة الأدبية هى التى ترمى إليها الآية الشريفة التى ذكرت ان الرجال قوامون على النساء ، وقد نحت الشرائع الأوروبية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ، ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمعات بحريتهن .

لنفرض جدلاً أيضًا ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفى ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟ .

إذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة إلى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا إلى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟ .

نرى أن مسئولية المرأة فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة ، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل ، ونرى ان القوانين لا تعافيها من العقوبات إذا ارتكبت جريمة . ولا تقضى بتخفيف عقوبتها ، بل نرى ان الرأى العام جسم مسئوليتها حتى جعلها أشد من مسئولية الرجل ، فإذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتًا عمرها خمس عشرة سنة ، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأى العام ان هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها ، ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكرًا ! أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن أعمالها ؟ فإن كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان أيضا بأنها حرة مختارة ؟ .

لا أظن ان عقلا يقبل ان تعتبر المرأة إنسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل ، بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية ! .

اعتقاد الرجل ان امرأته إذا منحت حريتها تسىء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها ، لأنه لا يباح لإنسان ان يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على إرادته بحجة أنه يريد منعه

من ارتكاب خطيئة ، ولو جاز لدفع ضرر محتمل الوقوع تجريد الإنسان عن حريته لوجب وضع تسعين فى المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعا لهم من الفساد ! .

بل لو قبلت المرأة ان يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاما صحيحا بحيث يمتنع عليها بعد ذلك ان تحل عقدته ، لأنه التزام باطل ، لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية .

على أن ما قيل من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له ، تبطله التجارب وينبذه العقل ، إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد فى ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن .

ولا نذهب فى تأييد هذا الرأى مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم فى الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ، ونسب فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة ! والهولندية أربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة أسداس ! والفرنساوية مرة واحدة ! وهكذا إلى أن وصل إلى التركية . والمراد بها الشرقية ، إنها لا تخون زوجها إلا عشر المرة الواحدة ! .

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاء إلى الاعتقاد بأن ما نشر فى تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام) ، ولم يمر بفكره أن الحصول على احصاء فى مثل هذا الموضوع هو من الأمور المستحيلة ، لأن وقائع الزنا لا يمكن احصاؤها إلا إذا وصلت إلى المحاكم ، ومعلوم انه لا يصل إلى المحاكم منها إلا النادر .

ولا نسند رأينا إلى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل ، كما يفعل أولئك الذين يدعون أن المرأة متى جلست مع الرجال فى مكان واحد مدة خمس دقائق وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات ! . فإن كل قضية لا ترجع إلى أحد أنواع البديهات المعروفة عند أهل النظر لا تصح أن تكون مقدمة لدليل ، أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وجد فى خزانة مخه إلا أن الرجل والمرأة هما دائمًا فى طوع شهواتهما ، هكذا شأنهم ، يستعملون من أنفسهم الأخلاق التى جبلوا عليها ، ويعتقدون أنها أخلاق الإنسانية كلها ، فهم فى نظر أنفسهم يمثلون الرجل من حيث هو ، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم

تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى ، وما دروا أن الرجال يختلفون فى أخلاقهم ومزاياهم إلى ما لا نهاية له ، على حسب الزمان والمكان وطرق التربية ، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال .

هذا الاختلاف الذى يعرض فى حياة النساء الأدبية ينشأ غالبا من اختلاف العادات .

اول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو ان تكون عفيفة . ولهم الحق فى ان يطلبوا منها ان تكون متحلية بهذه الفضيلة ، ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذه الفضيلة . وجعلها من المستحيلات . وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل الى الشهوات ، فإن سجن المرأة والتضييق عليها فى وسائل الرياضة يعرضانها دائما لضعف الاعصاب . ومتى ضعفت الاعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل انسان . فإن من الحقائق الثابتة ان الجسم إذا كان قويا وكان القلب يرسل الدم إلى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الإنسان بقوتها . فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهى لا تضعف عن مقاومة الاهواء والنزعات الرديئة . ومن المشاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور فى الجسم وانحلال فى القوى يؤثران فى الإرادة وفى العزيمة . فكما إذا حاول الجسم نهوضا لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل إلى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط اهوائها ومقاومة كل ميل تقتضى مدافعته جهدا ومشقة .

لا شك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه ، وان ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء .

فإن كانت حاجة إلى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فإنى أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلورى .

قال فى كتابه المسمى [جسم وروح الولد] : « ان آلة العقل هى المخ ، فكل انحراف يعرض فى الصحة البدنية يؤثر فيه ، فإذا استوفينا شروط صحة الجسم أمكننا أن نحصل سلامة الإرادة وقوة الحكم ونحسن فى اخلاق المرء وآدابه » .

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شىء نساء مريضات ، ولهذا فهن أشد تعرضا لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتى يتمتعن بحريتهن ! .

فإذا اقترن الحجاب بالبطالة ، ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها ، تبعها قتل كل فضيلة فى نفس المرأة .

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده ، وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل أوقاتهن ، وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سببا فى تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها إلى أمور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا إلا تقرير الحقيقة كما هى ، نحن نقول إن وجود الواجبات شىء والقيام بها شىء آخر وان نساءنا اللاتى لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لازواجهن وأولادهن ، وانهن تركن شئون الحياة البيتية إلى غيرهن ، بخلاف النساء الغربيات اللاتى اتسعت دائرة أعمالهن حتى كادت تساوى دائرة اشغال الرجال ، فإنهن يجدن مع ذلك الوقت الكافى لتأدية جميع واجباتهن المنزلية وما سبب ذلك إلا أن العمل يدعو إلى العمل والراحة تدعو إلى الراحة .

ثم إن الطريقة التى يربى بها الأطفال فى البيوت لها مدخل عظيم فى انحطاط الآداب أيضا .

يمكننى ان اجاهر هنا ، بلا تردد ، ان صبيا من أولادنا ، ذكرا كان أو أنثى ، لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد إلى ذهنه من الألفاظ والصور المحركة للشهوة ، وينمو فى قلبه من الميل مع ما تدعو إليه غريزة التناسل ، ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب أو شابة فى سن الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة من أبناء البلاد الأوربية .

وليس لاختلاف الاقليم دخل فى ذلك ، وإن كان له أثر فهو أثر ضعيف ، وإنما الأثر الحقيق هو لطريقة تربية الأطفال .

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال أمامهم كل يوم ، لو كانوا يفتكرون فى ما يعرض على أعينهم وآذانهم فى الطرق والمجتمعات فى كل آن لاتفقنا جميعا فى هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخرى التى لا سبب لاختلاف الرأى فيها إلا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر .

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبية التى تتكون منها احساسات الطفل وأمياله لرأى القارئ بنفسه أن البنت التى تربى فى عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلال الفضائل ، ويكفينا أن نذكر هنا أمثالاً من هذه المؤثرات التى تقع فى العائلات المتوسطة التى هى أحسن الطبقات أدبًا .

فنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون غالبا عن تسمية كل شيء باسمه الحقيقي ويذكرون الوقائع التي تجرى بين الزوج وزوجته أمامهم بدون أن يخطر على بالهم أن يأمروهم بالخروج فى هذا الوقت إلى مكان آخر ، وأيضا أول شيء يأتى على لسان الزائر إذا صادف بنتا صغيرة فى بيت هو أن يسألها إذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنه الصغير ، وإذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن اعجبها من بينهم ! .

ومنها حضور الأطفال فى حفلات الأفراح ، ومشاهدتهم رقص الباغيات ، وسماعهم الأغانى التى تدور كلها على الحب الشهوانى .

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة إلى ما كان يجب أن تغفل عنه وينبت فيها الميل الشهوانى .

ثم إذا عرض أن بنتا عانقت صبيا فى أثناء اللعب يوجه اللوم عليها من أهلها ، ويقال لها انها أتت أمرا فاضحا ، فإذا سألت البنت : أى عيب فى ما فعلت ؟ أجابها المسئول بما يعن له وما تسمح له به تربيته ، وكلما تقدمت الصبية فى السن زاد الحجر عليها وإبعادها عن مخالطة الرجال ، وفى هذا من استلفات ذهنها إلى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها إلى البحث فى هذا الأمر الذى يشغلها ويشغل أهلها إلى هذا الحد ، فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها ، فتتعلم منهن بعضه ، وتشتغل مخيلتها بفهم الباقى .

فهذه المعيشة التى تمر على البنت ، وأهم ما فيها عندها الرجل وأحواله ونسبها إليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه ، هى بلا ريب أعظم مؤثر فى مزاجها ، لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول فى حياتها .

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا ، وشعورهم بأن النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن إلا شأنهن مع الرجال ، لا ترى رجلا بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل أجنبى عنها ، وفى بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته أن تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضرًا معها ، وكذلك فى كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته .

وليس من رأيى أن أعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض إلى هذا الحد لأن عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بألا يثق بعضهم ببعض ، وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ، ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم

الخلق ولا من حسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش.

ولكن ليسمح لى القارئ أن آتى على بقية فكرى فأقول :

بقى الحجاب إلى الآن مستمرا للأسباب التى بيناها ، أى لأنه كان تابعًا لهيئتنا الاجتماعية الماضية ، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية ، كنا محكومين بالاستبداد فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسس إلا على الاستبداد ، فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن ، وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج ، واستعملنا فى تربية أولادنا الأمر والنهى والاخافة والضرب . وكنا جهالا فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها إلا أن تكون موضعا لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته ، وفاتنا أنها هى أيضا إنسان مثلنا ، وأن لها الحق فى أن تسعى إلى طلب سعادتها بالوسائل التى وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم ، فلما أسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه ، فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت أخلاقنا وفسدت تربية أولادنا ، واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا أن حياة الأمم الإسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبق لها فى التزاحم العام نصيب من النجاح ، وأخذوا يتباهون بالمدنية الإسلامية القديمة كلما تحدث الأوروبيون بعلومهم وفنونهم ، ويفتخرون بالتمدن العربى فى الأعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربى الحديث ، كما تسلى نفسها عجوز وصلت إلى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها .

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييرا كليا ، فأصبحنا أحرارا ونحب الحرية ، وبدأ التعليم الصحيح فى أن ينتشر بين أفراد أمتنا ، وتهيأت عقولنا إلى إدراك منزلة الإنسان فى الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم ، فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة ، أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التى انتقلنا إليها ويكون من شأنها أن ترتقى بنا إلى ما هو خير منها ؟ .

وبعبارة أخرى : يوجد مذهبان **أحدهما** : ينصح الناس بالتمسك بالحجاب ، **والثانى** : يشير عليهم بإبطاله ، فأى هذين المذهبين يجب أن نختاره ؟ وما هو رائدنا فى الاختيار حتى لا نقع فى عاقبة الخطأ ؟ .

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ، ويمنعها من استكمال تربيتها ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة ، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية

ولا يأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن ، وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل فى أحد شقيه.

ومزاياه تنحصر فى أمر واحد هو أنه يقلل الزنا ، حيث يحول بين الصنفين ، ويمنع الاختلاط بينهما فى الظاهر ، وإن لم ينزع الميل إليه من النفوس . فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل :

* إن من العصمة ألا تجد * فالأجساد فى صيانة ، وأغلب القلوب فى خيانة ! .

وأما الحرية فمزاياها هى إزالة جميع المضار التى تنشأ عن الحجاب ، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها فى مبدئها تؤدى إلى سوء الاستعمال ، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية ، التى هى ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح ، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً فى مكافأة ولا لوجود حائل ليس فى الإمكان إزالته بل لأنه قبيح فى نفسه.

وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية مادامت فى الحجاب ، ولكن من السهل جدا أن تصل إليها بالحرية.

تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات ، فإنا نرى أنه كلما زيد فى حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها.

قال العلامة «ما نتجازا» : «أعظم شىء يؤثر فى أخلاق البنات الحرية التى تعطى إليهن من عهد طفولتهن».

وقال : «إن الفضائل الجليلة التى تشاهد عند النساء اللاتى يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب إلى الاقليم ، لأنى وجدت هذه الفضائل فى « بيونس ـ آيرس » التى تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها أديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية ، ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الأثر فى الأخلاق لفسدت أخلاق النساء فى تلك البلاد . كانت البنات عندنا فى القرن الماضى وفى مبدأ هذا القرن لا تخرج من الاديرة إلا عند الزواج ، وكن جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج فى أغلب الأحيان ، ذلك لأن من القواعد العامة أن البنت التى لا تختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التى توصلها إلى الخطيئة ، فلا شىء يقى البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال ».

وقال فى وصف نساء وطنه : « إن المرأة الطليانية أقل من غيرها عفة لأنها تتزوج غالبًا من غير أن تحب زوجها ، وكذلك الحال تقريبًا فى نساء فرنسا » .

أما النساء الانكليزيات والأميريكانيات والألمانيات فأثنى على كمال عفتهن ، ونسبها إلى طرق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال فى أعمال الحياة .

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة ، ولكن ما أعظم الفرق بينهما فى النتائج التى تترتب عليهما ! حيث أن الوسيلة الأولى تضع المرأة فى صف الأدوات والأمتعة ، وتجنى على الإنسانية ، والثانية تخدم الإنسانية ، وتسوق المرأة فى طريق التقدم العقلى والكمال الأدبى .

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه فى تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنيا على أمر نظرى لا يستند إلى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة .

وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة إلى حد أن الأب يحجر على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته ، وكذلك الزوج رأى الأجدر به ألا يفتح الخطاب الذى يرد إلى امرأته . وهذه المسألة الأخيرة كانت موضوع بحث مهم بين أعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريبا ، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تبيح له أن يطلع على أسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسسا مهينا لحرية المرأة وشرفها .

نعم ، إن أغلب الزوجات يطلعن أزواجهن على ما يرد إليهن من الخطابات ، كما أن أغلب الأزواج يعرضون المراسلات التى ترد إليهم على زوجاتهم ، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجبًا بمقتضى حق يدعى .

بلغ من أمر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة أن بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان فى الأرض ، وحدهن أو مع خادمة ، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات فى السياحة ، متنقلات من بلد إلى أخرى ، ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما .

كان من حرية المراة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى إليه الزوج ، والرجل فى كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق فى أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها .

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائما على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الأمم

فى نمو مستمر ! ولم يحل بهم شىء من المصائب التى يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين أطالوا الكلام فى شرح المضار التى تنتج عن اطلاق الحرية للنساء ! فكثيرا ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء يؤدى إلى اختلاط الانساب ، وأنه متى اختلطت الانساب وقعت الأمة فى الهلاك .

فهذه ممالك أوروبا جميعها نساؤها ورجالها مختلطون ، فى كل أطوار الحياة وفى كل آن . وها هم اخواننا وأبناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههن ، ومعاملة الرجال ، فأين هم من الاختلال والهلاك ؟ ! .

لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الوقائع .

دلت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان ، وأصل ترقيه ، وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال إرادة الإنسان أهم عامل أدبى فى نهوض الرجال ، فلا يمكن أن يكون لها إلاّ مثل ذلك الأثر فى نفوس النساء .

غاية الأمر أن كل تغيير يعرض على الانظار فى صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو فى الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه . ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ممن يمتد نظرهم إلى ما يكنه المستقبل من الحوادث .

أنظر إلى حالة مصر : عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى ، فكانت النتيجة انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها . انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق ، وانحطاط فى الأعمال ، ومازالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ما تصنع بحريتها الجديدة .

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ، ولا يقدر لها قيمة ، وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية ، بل ويتألمون منها ، وينسبون إليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا بأذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة ! . ثم اعتاد القوم شيئا فشيئا على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن أن يكون ناتجا عنها ، بل له أسباب أخرى ، وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها ، ولنا الأمل فى أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة ، يجنون جميع ثمراتها النفيسة

التى من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، عند ذلك يعرفون جيداً أن الحرية هى أساس كل عمران .

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء .

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية ، ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقى ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يداوى بالتربية حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه .

ذلك لأن النمو الأدبى ، لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فكما أن الطفل يحبو قبل أن يمشى ، ويتعلم المشى بالتدريج ، فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته ، ثم متى تعلم المشى وحده لا يحسنه إلا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع فى خلالها مرات كثيرة ، كذلك الانسانية فى سيرها الأدبى لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم فى سيرها .

تلك سنة الفطرة . فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء أو نوقف تقدمنا إلى الإمام .

فإن اردنا أن نصل إلى الغاية التى وجهنا إليها آمالنا فما علينا إلا أن نستسلم إلى حكم السنة الإلهية ، ونقبل المتاعب والمشاق التى بدونها لا يمكن الوصول إليها ، وإلا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فمنعه المشى حتى كبر فعاش مقعدا مشلول الرجلين .

الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقى الذى يحل فى مدينة من مدن أوروبا هو المركز المهم الذى تشغله المرأة فيها ، ويظهر له من أول وهلة أن التقسيم المصطلح عليه فى بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية ، هذا التقسيم الذى يحول بين اشتراك الصنفين فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها ، ليس من القواعد المعترف بصحتها فى تلك البلاد .

فإذا ترك أوروبا وجال فى أرض أمريكا شخص بصره مندهشًا من المنظر العجيب الذى يراه ، واستولى الاستغراب على عقله إلى درجة الاضطراب . فيجد أن تقسيمه الغريب قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما ، ويرى النساء يشتغلن بأشغال الرجال ، والرجال يعملن أعمال النساء بلا فرق ، ويسمع أهل أمريكا يتهمون سكان أوروبا بأنهم ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهم كما يرمى الأوروبيون رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نسائهم ! .

هذا المنظر يراه الشرقى ويستغربه فى أول الأمر ثم ينساه .

ولا يفتكر فيه بعد ذلك ، فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئا من أحوالهم ، وان أتى ذكرها عفوا فى بعض الجرائد أو الكتب فلا يحرك ذلك فى نفسه أدنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها .

ذلك لأنه وقر فى نفسه أن عاداته هى أحسن العادات ، وأن كل ما خالفها ليس جديرا بالتفاته واهتمامه .

لكن طالب الحقيقة الذى تعود على طريقة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل .

فإن رأى يوما فى إحدى الجرائد أن « الست غوردون » ترافعت أمام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل . ثم رأى يومًا آخر فى مجلة أن الست « كارى رينار » ، إحدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت فى الكنيسة فى مدينة لوروا على ملأ

عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى أن الست « ستون » تدرس الاقتصاد السياسى فى كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكوراً وإناثاً . ثم علم أن لتلك المحامية زميلات يشتغلن أمام جميع المحاكم، ولتلك القسيسة زميلات فى كثير من الكنائس، ولتلك الاستاذة زميلات فى أغلب المدارس ، وأن تلك النسوة قائمات بأعمالهن على طريقة لا تزيد ولا تنقص فى الاتقان عما يقوم به الرجال فى أعمالهم فماذا يعتقد حينئذ؟ يعتقد أن قول الشاعر :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

هو قول لا ينطبق على الحقيقة فى شىء ، فلا يصح الاستناد عليه فى الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذى لم يفعل سوى حكاية حال النساء التى وجدهن عليها فى عصره . ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا فى اعتقادنا أن النساء لا يصلحن إلا لجر الذيول ، مع أن نظرة واحدة فى الأعمال النفيسة التى يأتى بها النساء فى الغرب تكفى فى العلم بأن حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشىء أفضل من اللهو واللعب وجر الذيول ؟ ! .

هذه الصورة التى شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لأنها ليست صورة إنسان ، بل ولا حيوان ! ، اذ ليس فى الوجود حى إلا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ، ولا يوجد بين أنواع الحيوانات ، من أفضلها إلى أدناها ، فرد إلا وهو خاضع لقانون التراحم فى الحياة .

إذا أردنا أن نرتب أعمال الإنسان بحسب أهميتها نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أولها : الأعمال التى يحفظ المرء بها حياته .
وثانيها : الأعمال التى تفيد عائلته .
وثالثها : الأعمال التى تفيد الوجود الاجتماعى .

ومن البديهى أن كل تربية صحيحة يجب أن تمكن الإنسان من القيام بهذه الأعمال وأن تراعى هذا الترتيب الطبيعى . فالمعارف التى تضمن سلامة الحياة والقيام بالضروريات والحاجات اللازمة لها هى أهم من غيرها ، فيلزم أن تفضل على المعارف التى تختص بالواجبات العائلية ، لأنه لا يمكن القيام بأى واجب عائلى إلا بعد قضاء الواجبات الأولى . كذلك المعارف التى ترشد الإنسان إلى معرفة واجباته العائلية هى مقدمة على المعارف التى تختص بالواجبات الاجتماعية ، لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت .

اذا تقرر ذلك نقول : إن التربية التى تشمل هذه الأنواع الثلاثة ، على الترتيب الذى

وضعناه ، هى لازمة للرجال والنساء على حد سواء .

ولكن ، دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية ، فإنى ما طلبت المساواة بين المرأة والرجل فى شىء منها . لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ــ حجرا عاما مؤبدا ــ هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا . ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية .

لهذا نترك الكلام على الأعمال والمعارف التى تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر فى الكلام هنا على الأعمال والمعارف التى تختص بالنوعين الأولين .

مهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة لا يجوز أن يدعى أحد أنها يمكنها أن تستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية .

كذلك مهما اختلفنا فى تحديد وظيفة المرأة فى العالم لابد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها العائلية . اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعا . وكل تربية تؤهل المرأة إلى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضا نافع .

يظن الكثير منا أن المرأة فى غنى عن أن تتعلم وتعمل . ويزعمون أن رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل .

ولكن هذا الكلام هو فى الحقيقة تدليس على النساء ، وإن كان ظاهره الرأفة عليهن .

والناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يجعله على بينة من ذلك . يرى أن الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان إلا فى لحظات قليلة ، وأنهما يتحاربان آناء الليل وأطراف النهار ، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تملكه ويستأثر وحده بالمنافع ، وتجتهد المرأة على قدر إمكانها فى الدفاع عن نفسها ، ولا تجد إلى ذلك سبيلا .

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين فى كتاب لكانت أحسن ما يمكن أن يكتب للدفاع عن حقوق المرأة .

لا أظن أنى مبالغ إن قلت أنه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة ، لأى سبب من الأسباب ، سواء كان لزواج وقع بينهما أو لا شتراك فى ملك آل إليهما أو لتعهد ارتبطا به ، فأول ما يسبق إليه فكر الرجل هو أن يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها ، والمسكينة غافلة عن الأخطار التى تحلق بها ، وإن اكتشفتها فلا يكون فى الغالب إلا بعد خرابها وعلى أى حال متى وقعت فى الشرك لم يبق لها من حيلة إلا البكاء والعويل لأنها ترى نفسها فى حيرة وارتباك لا تدرى معها ماذا تصنع للخلاص .

وكل المصريين يعلمون أن النساء فى الوجه القبلى بعامة كن محرومات من حقوقهن فى التركات التى يرثن فيها بمقتضى أحكام الشريعة . وأن هذه الحال بقيت مستمرة إلى أن دخل نظام المحاكم الأهلية فى الصعيد . حتى أن بعض المديرين الذين أخذ رأيهم فى تشكيل المحاكم الجديدة فى الوجه القبلى كانوا يعدون من موانع تشكيلها أنها لو شكلت يكون من أحكامها أن يعطى النساء حقوقهن فى التركات ، وأن فى هذا تغييرا كبيرا للعادات المتبعة فى تلك البلاد !.

وليس فى هضم حقوق النساء شىء من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لأحد .

نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبه على ورقة أن ليس على النساء إلا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك لأن الورق يتحمل كل شىء !.

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . إذ يكفى فى ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشرعا حكيما، ويحكم على القوانين والعادات والأخلاق .

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد على أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع . فإنه إذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها يجب عليه أولا : أن يسوق نظره إلى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة ومعمولا بها فى قرية ثم فى مدينة ثم فى إقليم ، وتتمثل أمامه النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن ، فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل ، ويراهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى الأماكن الصناعية ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن وأقاربهن والأجانب ، ثم يعرف البلاد التى للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا فى بلادنا ، وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التى ترتبت على هذا الاستعمال ، ويقف على حالة المرأة فى الأزمان الحالية والتقلبات التى طرأت عليها .

ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله ، لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعًا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل .

والأمر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية ، فهو يعتقد أن قضيته تشبه قضية حسابية فهى لا تخطئ أبدا ، مع أنها مؤلفة مع معان عامة مبهمة لا يستقر الذهن فيها على شيء محدود ـ مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة إلى داخلية وخارجية وهكذا ـ هذه المعانى تملأ عقله ، ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهى فى الحقيقة ألفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان .

فهو لا ينظر إلى الأشخاص الحقيقيين ، ولا يرى نفسه محتاجًا إلى أن ينظر إليهم ولا أن يبحث فى أحوالهم ، ولا يخطر بباله أن للمادة الإنسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله ، لذلك لا يهتم بأن يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا أن يبحث إن كانت غنية أو فقيرة ، عائشة وحدها أو فى عائلة ، ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية .

هذه الصور العديدة المختلفة لا تنفذ إلى مداركه ، ولا تقر فيها ، لأن جميع نوافذها قد سدت بجسم النظرية التى احتلت عقله من أوله إلى آخره حتى لم يبق فيه مكان لشيء آخر .

فهو ان كتب أو تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان ، وإنما يكتب ويتكلم عن المرأة التى فى ذهنه .

وهى امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين ، جميلة المنظر رقيقة الطبع ، شهوية المزاج تكفى إشارة منها لكى تنال ما تشتهيه نفسها ، لأنها ذات ثروة عظيمة ، أو لأن لها بعلا وافر الثروة ولا يبخل عليها بشيء ، أما أخلاقها فانحطاط النفس والميل إلى الكذب والاحتيال والتطلع إلى أعمال السوء ، لا يحول بينها وبين ذلك إلا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال .

ولا نرى فى تمثيل المرأة فى أذهاننا بهذا المثال إلا توارثنا آراء العرب فيها .

ذلك أن حياة العرب كانت حياة حرب وقتال ، وأرزاقهم كانت من الغنائم ، وغنى

عن البيان أن أمة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير ، إذ المرأة فى هذه المعيشة لا تستطيع ان تجارى الرجل ، ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم ، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينة ، وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال .

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات .

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الأمة العربية ، لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل كذلك .

لم يكن لها عمل فى العائلة ، لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل حتى ينشأ رجلاً مقاتلاً ، لا عالمًا فاضلاً .

فلا عجب إذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم ، بل وفى مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم ، ما يدل على احتقارهم للمرأة .

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة فى عقول المسلمين ، وهى صورة حقيقية إذا نظر إلى الماضى ، ولكنها مزورة إذا نظر إلى الحال والمستقبل ، ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف السنين ، لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والاخلاق والحاجات والضرورات ، لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغييرا كليا عما كانت عليه فى الماضى ، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب .

فالمرأة العربية كانت تكتفى من طعامها بخبز من شعير ، ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها ببيت من شعر ، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج إلى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعاشية ، لأن عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين إليها فى قوام حياتهم العائلية والاجتماعية ، والمرأة العربية كانت مستعبدة لأنها كانت فى الحقيقة متاعًا يدخل فى حوزة الرجل بالسلب أو بعقد هو أقرب للبيع منه إلى الزواج .

أما الآن فنحن فى عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضا ، واستقر النظام فيهم ، فلم تبق الحرب شغلا شاغلا لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض ، وأصبح الناس غير محتاجين إلى الغزو فى كسب أرزاقهم ، فبعد أن كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائمهم فى القتال وحسن بلائهم فيه ، وبعد أن كان الفائق فى الشجاعة وقوة البأس هو

صاحب السلطان الأعلى ، والضعفاء كلهم تحت كنفه ، انقلب الحال ، ولم يبق للقتال حاجة إلا فى أحوال مخصوصة يتولاه فيها أناس معروفون ، وأقبل أفراد الأمة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون فى أمور أخرى ، فمنهم المتنافسون فى المجد بالعلم ، ومنهم المتسابقون إليه بالثروة ، وفيهم المجدون فى طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة ، واتسع الميدان لتجادل العقول ، والمرأة إنسان مثل الرجل زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها أن تسمو اليوم إلى ما يقرب من درجته ، إن لم تستطع ان تساويه فيها ، ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات ، وأصبح المقصر فى سعيه ، الساقط فى عزمه ، القاعد فى كسله وجهله مهددا بالموت ، محفوفا بخطر العدم ، وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد ، فأهل البلد الواحد يتزاحمون فى طرق الكسب ويتدافعون فى سبله بوسائل العمل وحيل العقل وجميعهم يزاحم الأجنبى الذى سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوافر أسباب الأمن وما هذا الجهاد بالهين السهل ، بل هو مما يحتاج إلى إعمال القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج إليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام .

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها إلى قانون الفطرة ، فعرض لها من الحاجات مالا يمكن معه أن تعيش مقصورة فى بيتها ، فهى مضطرة رغما عنها أن تدخل فى ما دخل الرجال فيه وأن تعمل لتكسب وتعيش وتغلو وتعلو فهى بحكم هذه الضرورة فى أشد الحاجات إلى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة فى هذه المزاحمة العظيمة .

وما نسمعه الآن من صياح النساء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهن أو اغتيال حقوقهن ومن أحاديث تطوح الكثير منهن فى مهاوى الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بينا .

وإنا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده : هل يمكنهم أن يقولوا أن لا حاجة للمرأة تدعوها إلى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة ؟ أو يقولوا : إنها فى حاجة إلى ذلك ، ولكن ــ واأسفاه ــ ليس فى فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لأخذ أهبتها فى هذا الجهاد ؟ .

هذه المسألة لا تحل ببعض كلمات مثل : كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل ، لأن الضعيف والقوى وصاحب العقل الكبير وذا العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون أمام ضرورات الحياة ، وإنما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسألة وحلها هو أن يعرف أولاً هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن ، أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لا يكفى

لقضاء ما يحتجن إليه ؟ ثم إذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهن ، وهل هو كثير أو قليل ؟ .

والذى يمكننا الرجوع إليه فى ذلك هو تعداد أهالى القطر المصرى الذى حصل فى سنة ١٨٩٧ ، وهو آخر إحصاء جرى . جاء فى هذا الاحصاء أن جملة النساء المصريات اللاتى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٦٣٫٧٣١ أى أنه يوجد الآن فى مجموع المصريات اثنتان فى كل مائة امرأة يشتغلن بصنعة ، ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الأرياف اللاتى يشتغلن بالزراعة ، ولاالنساء الأجنبيات اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة .

وغنى عن البيان أن هاته المحترفات هن نساء لا عائل لهن ، لما نعهده من أن الرجال لا يسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم أن يحترفن بصناعة مالم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب .

واذا رجعنا إلى مشاهداتنا نجد أن النساء اللاتى لا عائل لهن يزدن عن هذا المقدار أضعـافه لأن الأغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن ، ومنهن من يستعمل لكسب العيش وسائل لا يعترف بها ، وأضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتى لا يكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن ، فهن مع أزواجهن دائما فى نزاع وشقاق ثم تزدحم أقدامهن فى ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدر القاضى للزوجة قرشين فى اليوم صاح الزوج هذا كثير وعدد هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع من سبقهن .

اذا سلمنا أن عدد النساء المصريات اللاتى ليس لهن عائل لا يزيد عن اثنين فى المائة من مجموع النساء المصريات ، أفلا ينبغى لهؤلاء النسوة اللاتى قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الأقوياء لكسب عيشهن أن يتهيأن إلى النجاح قبل الدخول فى معترك الحياة بالوسائل التى يستعد بها الرجال أنفسهم ؟ وهل يكون من الحق والعدل أن يحرمن من التربية التى تؤهلهن للدفاع عن أنفسهن ؟ وهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية أن يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟ .

نحن لا نجادل فى أن الفطرة أعدت المرأة إلى الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد وأنها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الأعمال التى تقوى عليها الرجال ، بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هى أن تتزوج وتلد وتربى أولادها ، هذه قضية بديهية لا تحتاج فى تقريرها إلى بحث طويل ، وإنما الخطأ فى أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها

وما يلزم لمعيشة أولادها إن كان لها أولاد صغار عند الحاجة .

وذلك لأنه يوجد فى كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ، ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل ، ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد ، كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الأشغال الخارجية عن المنزل بحجة أن لهن رجالا قائمين بمعاشهن ، أو لأن عليهن واجبات عائلية ، أو لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل .

نحن لا نقول للمرأة : اهجرى الزواج ولا تبغى النسل أو اتركى زوجك وأولادك فى البيت واقضى أوقاتك فى الطرق وعيشى كما يعيش الرجال . فإنا نكرر القول بأننا نود أن كل امرأة تكون زوجة وأن كل زوجة تكون أما . ولكن هذا لا ينسينا أن الواقع هو غير ما نتمنى إذ الواقع أن عددا عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية .

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية ، فإننا لو أخذنا آخر احصائية فى فرنسا لوجدنا أنه يوجد ٣,٦٢٢,١٧٠ من النساء غير متزوجات و ٢,٠٦٠,٧٧٨ أرامل و ٩٢٤,٢٨٦ متزوجات وليس لهن أولاد . أى يوجد فى فرنسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات إليه بدون أن يكون فى أعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن .

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنية فى بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل أن يوجد اليوم اثنان فى المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة أو حرفة سيوجد عن قريب أضعاف هذا العدد ، ذلك لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل .

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لابد أن يزداد فى كل سنة عن الأخرى لأننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه أوروبا قبلنا .

ولا خلاف فى أن عدد الزواج فى أوروبا هو أقل منه فى الشرق ، وسبب ذلك أن الواحد منهم لا يتزوج بالسهولة التى يتزوج بها الواحد منا ، فإن الأوروبى يطلب من الزوجة قرينا يرافقه طول حياته وصاحبا يشاركه فى جميع أعماله وأفكاره وعواطفه ، فهو يطلب لها جميع الصفات التى يبحث عنها الواحد منا إذا أراد أن يتخذ له صديقا ، فالعثور عليه يكون صعبا . وأضيف على ذلك سببا آخر ، وهو أن الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدنة

لا تسمح للفرد أن يكون قادرا على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين إلا فى النادر ، لأنه يصادف فى طريقه مزاحمات عظيمة ، وعليه أن يخرق الصفوف التى أمامه ، هذا إن ساعده الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز فى التجارة أو الصناعة أو الحرف الأدبية ، والكثير منهم يقضى حياته فى البحث ولا يجد شيئا .

ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج الشخص قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفى لمعاشه ومعاش أولاده ، لأنهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم ولا يرضون أن يكونوا سببا فى شقاء أزواجهم وأولادهم ، فإنما الجاهل هو الذى يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الجامعة ، ولا يعرف لأهله حقا عليه .

فنحن مساقون فى هذا الطريق بقوة لا يستطيع أحد مقاومتها ، ويظهر لى أن الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص ، فانى أعرف كثيرا من الذكور والاناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة ، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مضطرين ، ولكن لا أدرى هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع ، وإنما يمكننى أن أحقق أن متوسط السن الذى يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه فى الماضى ، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين فى الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ ، وكثيرًا ما كان يحصل الزواج قبله .

وليس يفيد شيئا أن يصبح أرباب الاقلام عندنا ناقين على ما وصلت إليه حالنا اليوم وما ستصل إليه على ممر الأيام وأن يستشهدوا بما وقعت فيه أوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء بأشغال الرجال ، ذلك لا يفيد ، لأنه لا يمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر ما فى مجرى الحوادث فى العالم ، ولو كانت الشكوى تكفى لتغيير الحال لكان الأمر سهلا ! .

والحقيقة أن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية ، ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس فى إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء .

نعم يوجد فى كل أمة متمدنة عدد من النساء ألجأتهن الضرورة إلى السعى والكد والاشتغال بأعمال الرجال ـ أى مسترجلات إذا شئت ـ وهن النساء اللاتى زهد فيهن الرجال فلم يرغب أحد فى زواجهن ، والأرامل اللاتى توفى أزواجهن ، والمطلقات اللاتى تركهن أزواجهن ، هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنبا على الهيئة الاجتماعية ، فما من واحدة منهن إلا وكانت تتمنى أن تجد رفيقا صالحا يحبها وتحبه ويساعدها وتساعده ، ما من واحدة منهن إلا وتبكى فى وحدتها سوء حظها ، وتأسف على ضياع الأمانى التى قضت حياتها فى انتظارها .

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضى بأن كثيرا من النساء يعشن فى الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب .

يقول المعترضون : انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال ، والاختلاط بهم ، كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازما لكسب عيشها ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ، وقد اتفق جميعهم على هذا الرأى ، حتى حضرة العالم العلامة ـ (هكذا هو لقب نفسه على ظهر كتابه) ـ الذى انتدب عن فقهاء الأزهر للرد على [تحرير المرأة] . فكلهم يرون أن منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة أعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذى يؤهلها إلى هذه الأعمال هو خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتى تلجئهن الضرورة إلى السعى لتحصيل أرزاقهن .

ويتبين من هذا أنهم متفقون معنا فى حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا فى غيرها ، فهم يرون أن الإباحة يلزم أن تكون خاصة لهذه الحالة فقط . وبهؤلاء النسوة ، ونحن نرى أنها يلزم أن تكون عامة شاملة لجميع النساء والأحوال .

ولو شاءوا أن يفهموا ما يقولون وأن يقفوا على ما يفضى إليه رأيهم هذا لوافقونا فى رأينا وحكموا حكمنا ، لأنهم يقولون إن المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الأعمال ما يتناوله الرجال اذا مست الحاجة إلى ذلك ، ولا يخفى أن كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات ، والعمل الذى تدفع إليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفى فى القيام به على الوجه اللازم أن تتوجه المرأة إليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه أن تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل إلى المرغوب ، وهذا الاستعداد لا يكون إلا بالتربية والعلم والتمرن والممارسة واختبار الناس ، فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تستطع للخلاص منها سبيلا ، وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك .

ويا عجبا ! كيف نتوقع الخيبة للرجل منا اذا كان ناقص التربية ، قليل المعرفة ، عديم الاختبار ، ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه فى هذه النقائص ؟ ! .

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية ، وتقع فى كل آن ، ولما كان الاطلاع على الغيب أمرا غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع فيها .

لهذا نرى أن من أهم ما يجب على الآباء أن يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقى من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول إلى حظ من السعادة فى هذه الحياة .

نعم ، نرى أنه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن ، وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور ، فإذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيرًا وتفيد عائلتها وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها .

وسواء نظرنا إلى الفوائد المادية التى ينالها صاحب العلم من علمه أو نظرنا إلى اللذة المعنوية التى يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب .

بين يدى الآن كتاب ألفه أحد الكتاب الفرنساويين وهو « بول دروزيه » وسماه [الحياة الأميريكية] قال فيه عند الكلام على تربية البنات ما يأتى :

« رأيت فى أمريكا الصبيان والبنات يذهبون إلى مدرسة واحدة ، ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم بجانب بعض ويسمعون دروسا واحدة ويرتاضون معا ، فإذا أتموا دروسهم استمر هذا الاختلاط حيث ترى البنات فى المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن فى « اللوكندات » الكبيرة لمسك الدفاتر ويربين الأطفال فى المدارس الابتدائية ويطلبن العلم فى مدارس الطب ، وترى منهن قسيسات يخطبن فى الطرق وأعضاء فى الجمعيات الخيرية ورئيسات فى المجالس البلدية وما أشبه ذلك . إذا أردت أن تعرف ما هو سبب هذه العادات الغريبة ، وما هو المقصود من تربية النساء على هذه الطريقة ، وما هى الواجبات التى يتأهبن إلى أدائها بهذه التربية فعليك أن تتأمل فى هذه المسألة لكى تقف على سرها . إذا فكرت فيها تعلم أنه يوجد تياران متعاكسان يقابلها حالتان للمرأة مختلفتان ، وبيان ذلك أن البنت إن بقيت عزبة تضطر إلى أن تجاهد فى سبيل الحياة كالرجل الذى يناضلها ، فأحسن تربية توافقها حينئذ هى تربية كتربية الرجال ، أما إذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهى تشتغل بإدارة منزلها وتربية أولادها ، ولكن من ذا الذى يعلم مستقبل البنت وهى فى السنة العاشرة من عمرها ؟ وما الذى يعمله الآباء أمام هذا المستقبل المجهول ؟ رأى الأمريكانيون أن من الفطنة أن يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن ، وأن يربوهن كالذكور من جهة التعليم والاستقلال فى السير ، فالأب الأمريكى يربى بنته على أن تعتمد على نفسها لأنه يجهل مستقبلها فإن صادفت زوجا يريد أن يضع يده فى يدها ويقطع معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يؤهلها

للقيام بواجباتها العائلية ، وإن لم يوجد أحد يرغب الاقتران بها فقد خلص الأب من اللائمة ، حيث أنه تبصر فى المستقبل وعمل ما يمكن أن يعمل ليعدها للغلبة على ما تلاقيه أمامها من الصعاب ومرارة الحياة » .

ويوجد حرفتان أود أن تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا :

الأولى : صناعة تربية الأطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هى أحسن ما يمكن أن تتخذها امرأة تريد أن تكسب عيشها ، لأنها صنعة محترمة شريفة ، والمرأة أشد استعدادا لها من الرجل وأدرى منه بطرق استمالتهم ، واكتساب محبتهم . وبلادنا أشد البلاد حاجة إلى نساء يعرفن هذه الصناعة ، فإنه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها فى تربية الأولاد ، والعائلات المصرية فى احتياج إلى عدد وافر من مربيات الأطفال حتى تستغنى بهن عن المربيات الأجنبيات ، كذلك لا يوجد فى مصر مدارس للبنات تتولى ادارتها والتعليم فيها مصريات ، وهذا نقص كبير فى بلادنا حيث أننا جميعا مضطرون إلى تربية بناتنا فى المدارس الأجنبية .

والحرفة الثانية : هى صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التى يكابدها عندما عندما تكون إحدى النساء من أقاربه مريضة ويلح عليها أن تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصا إذا كان المرض من الأمراض الخاصة بالنساء . فإذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فلاشك أن صناعتهن تروج رواجا عظيما بما يجدنه من الحاجة إليهن فى البيوت المصرية . وهنا نقول أيضا إن فن الطب هو من الفنون التى تلائم استعداد النساء الطبيعى ، ومانشاهد الآن فى المستشفيات العمومية وفى العائلات من الخدمات الجليلة التى تقوم بها النساء هى أعظم برهان على أن المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل مايصلح له الرجال من معالجة الأمراض ، ان لم تكن أشد صلاحية لذلك منهم .

كذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها الترتيب والتنظيم ولاتحتاج إلى قوة العضلات والأعصاب كالتجارة ، فكم من بيوت تجارية ارتفعت بأيدى النساء بعد أن كانت سقطت من أيدى الرجال ، وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الأدبية .

إن المرأة المصرية إذا احتاجت اليوم إلى كسب معاشها بنفسها لاتجد عملا تتناول منه ماتقتات به إلا بعض الأعمال الشاقة السافلة كالخدمة فى بعض البيوت أو الجولان فى الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة ، فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كأنه فى الحقيقة

تخصيص لهن بمثل هذه الأعمال الدنيئة التى لاينال بها إلا القليل التافه وحرمان لهن من الأعمال الشريفة التى تعود على أربابها بالمكاسب الوافرة .

فهذه المنزلة المنحطة هى التى نريد استبدالها بأرفع منها .

يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها ـ أولا ـ لا لأن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها .

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل فى المجتمع الإنسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ماشاء .

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها .

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله ربوا أبناءكم ليكونوا أزواجا فقط ولاتعدوهم إلا للزواج ؟ لاريب أنا نقابله بالسخرية والاحتقار ، لأننا نعلم أن الرجل لابد له أولا أن يكون إنسانا مستعدا لأن يلاقى من المشاق والمصاعب مايلاقيه الإنسان ، وأن ينال من السعادة ما يليق بالإنسان أن يناله ، فمتى تعلم وصار قادرا على كسب عيشه وكان متجملا بحسن الأخلاق كان بالطبع زوجا صالحا ، فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا : أعدوا بناتكم لأن يكن فراشا فقط ، ولاتعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟!.

نتج من كل ماتقدم أن للمرأة حقا فى أن تشتغل بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها . وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها إلى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها . وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة إليه .

الواجب على المرأة لعائلتها

إلى هنا كان كلامنا فى التربية والأعمال التى لابد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها . ونريد الآن أن نتكلم على الأعمال والتربية التى تلزم للمرأة لتكون نافعة فى عائلتها .

جميع الناس متفقون على أن قوام العائلة ونظامها فى يد المرأة ، ولكن ليس كل الناس سواء فى فهم هذه القضية ، فالجمهور الأعظم من الناس يفهمون أن معنى ذلك هو أن تقوم المرأة بخدمة زوجها وأولادها ان كانت العائلة فقيرة ، أو تدير أعمال الخدمة الذين يؤدون هذه الأعمال بأوامر تصدرها إليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية .

إلى هذا الحد يقف فكرهم .

هكذا بخسنا المرأة حقها فى جميع الأحوال ، فبعد أن حرمناها حريتها وأفقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال إلى أن ضيقنا دائرة أعمالها ، حتى فى العائلة . وهذا أقوى دليل على أن كل مايختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض ، فالمرأة المهذبة الحرة هى التى يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم فى عائلتها ، والمرأة الجاهلة المستعبدة لايمكن أن يكون لها من النفوذ فى عائلتها أكثر مما يكون لرئيسة الخدم فى البيت .

ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يفضى إلى اهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشئون العائلية ، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجابا تاما حتى لايشغلها شىء عن معاشرة زوجها وإدارة منزلها وتربية أولادها ، ولكن انظر إلى النتيجة تجد أنها خلاف ماقصدوه ، حيث أن المرأة المصرية لاتعرف كيف تعاشر زوجها ولايمكنها أن تشتغل بإدارة بيتها ولاتصلح لأن تربى أولادها .

ذلك لأن جميع أعمال الإنسان مهما اختلفت وتنوعت هى صادرة عن أصل واحد وهو عمله واحساسه ، فإن كان هذا الأصل راقيا كان أثره فى كل شىء كبيرا نافعا حميدا

وان كان منحطا كان أثره فى كل شىء حقيرا ضارا غير محمود .

فالوظيفة الحقيرة التى تؤديها المرأة المصرية عندنا اليوم فى العائلة هى لمنزلتها من ذلك الأصل المتقدم ذكره ، ولكن عجز نسائنا الآن عن القيام بالأعمال التى ينبغى أن تناط بهن لايحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن إلى الحد الذى يرجى لهن .

فعلى المرأة واجبات غير مايظن الجمهور عندنا ، وأهم هذه الواجبات هى : تربية الأولاد .

إذا أردت أن تعرف مقدار جهل الأمهات عندنا بأبسط مبادئ التربية انظر إلى احصائيات وفيات الأطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات فى مدينة مثل « لوندرة » ، تجد أن عدد الموتى من أطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من أطفال مدينة « لوندرة » . وقد اطلعت على إحصائية مصلحة عموم الصحة التى نشرت فى هذا العام فوجدت أن عدد المتوفين بين الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو فى مدينة القاهرة ١٤٥ فى الألف ويقابل ذلك فى مدينة « لوندرة » ٦٨ فى الألف .

فإذا كانت صحة أولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلقا بالطريقة التى يتبعها النساء فى تربيتهم أفلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأى أن نكل أولئك الأولاد إلى مايقترحه الجهال ونتركهم إلى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء ؟! .

إن الأمهات الجاهلات يقتلن فى كل سنة من الأطفال ما يربو على عدد القتلى فى أعظم الحروب ! وكثير منهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم ، وليس لهذا البلاء سبب فى الأغلب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة ، لو كانت أم الطفل تعرف أن كل مايتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له أثر على جسمه لأمكنها أن تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية ، ولو علمت كل أم أن أغلب الأمراض التى تنهك جسم ولدها لاتصيبه من غير سبب ، وأنها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت فى وقايته من كل مامن شأنه أن يضر ببدنه . ولكن كيف تصل إلى معرفة ذلك مع جهلها الذى يخيل لها أن المسببات تقع بلا أسباب أو تحصل بأسباب خارقة للعادة ؟ ! .

لاينبغى هنا أن أشرح بالتفصيل كل مايليق أن يعرفه القراء فى هذا الموضوع . وإنما نقول

بالاجمال : إن التربية الجسمية للولد وحدها تستدعى معارف كثيرة ، أغلبها يتعلق بقوانين الصحة ، وأن معرفة هذه القوانين تحتاج إلى مقدار عظيم من معارف أخرى لابد منه ليتيسر فهمها .

فعلى الأم أن تعرف أفضل الطرق لتغذية الأطفال ، لأن الانتظام فى نمو الجسم يرتبط دائما بانتظام التغذية ، وجودة الانسجة ، وخصوصا النسيج المخى ، تتعلق بجودة التغذية حتى قال بعض علماء الطب : إن الأمم التى تفضل غيرها فى التغذية تفوق سواها فى القوة وتتغلب على غيرها من الأمم !.

وعلى الأم أن تعرف كيف تقى جسم ولدها من أعراض الحر والبرد ، وماهو الماء الذى ينبغى استعماله فى نظافة جسمه من حار أو فاتر أو بارد ، وعليها أن تعرف أن للهواء والشمس أثرا حميدا فى الصحة ، فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال فى الأشياء الأخرى كالنوم واللعب وما أشبه ذلك .

ثم يجب عليها من جهة أخرى أن تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والأدبية ، وإلا كانت أول عامل فى فساد أخلاق ولدها .

انظر إلى ماتعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لايصدر عن إنسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك أنها تمنعه من اللعب كى لايشوش عليها ، وهى لاتدرى أنها بمنعها له عن اللعب تقف فى سبيل نموه ، وإذا أرادت أن تؤدبه هددته بمالاتستطيع أو بما لاتريد أن تنفذه أو خوفته بموهومات تثير فى ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته ، وإذا أرادت أن تكافئه وعدته بوعود لاتفى بها ، فتكون له بذلك قدوة فى الكذب ، وتحدث فى نفسه ضعف الثقة بالقول ، وهى فى أغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد ، كأنها تريد أن تثبت له بأقوى الدلائل أنها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها ، وربما كان السبب الذى أثار غضبها لايستحق من ذلك كله شيئا فإذا رأت منه انفعالا مما صدر منها لم تلبث أن تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ماصدر منها ، والولد المسكين لايدرى كيف استحق غضبها أولا ثم رضاها ثانيا .

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالأمهات بل نجد كثيرا من الآباء عندنا ، لجهلهم بطبيعة الإنسانية ، يستعملون فى تربية أولادهم طرقا لاتقل فى الشناعة والسخافة عما تستعمله النساء . ومن أقبح مايصنعه كثير من الآباء مع أبنائهم أن يشتم ويسب الوالد ولده بألفاظ لايدرى الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها ، فإذا أحسن الاجابة ضحك أبوه مسرورا

واستبشر بنجابة ولده !. وكذلك ترى الواحد يأمر ولده أمرا لا داعى له فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه فى أى مكان يصادفه من جسمه ، ولم يكن ذلك إلا لأنه يرى فى عدم طاعة ولده اخلالا بسلطته وامتهانا لعظمته.

ولو كان هذا الأب يعقل مايفعل وعلم أن كل مايعود عليه الطفل فى نشأته يحدث فى نفسه أثرا يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على مالايحسن أن يراه منه فى كبره ، ولو علم أن المقصود من التربية ليس أن يتعود الطفل على أن يطيع كل أمر يصدر إليه ، وإنما الغرض منها أن يتعود على أن يحكم نفسه لاجتنب الأمر والتهديد والضرب ، فإن هذه الوسائل لا تهيئ الطفل إلى أن يحكم نفسه ، وإنما يتمرن الطفل على أن يحكم نفسه إذا اجتهد أبواه فى اقناعه وتنبيه عقله إلى عواقب أفعاله حتى يتولد فى نفسه اعتقاد ثابت بأن مايصيبه من خير أو شر فهو من كسبه.

أفضل طريق للتربية يؤدى إلى هذه الغاية ـ (أن يحكم الشخص نفسه) ـ هى أن يترك الطفل وميله ، يعمل العمل حسب مايسوقه إليه خاطره ، ولا يتداخل المربى إلا ببيان ما ينتج عن هذه الأعمال بصورة نصيحة وارشاد ، فإذا لج الصبى فى مخالفة النصيحة تركه حتى يقع فى عاقبة عمله ، لكن مع المراقبة الدقيقة كى لايكون ضرر العمل شديدا ، وإنما يسوغ الردع والمنع فى الأحوال النادرة التى يعرض الصبى نفسه فيها للخطر.

بهذه الطريقة يستعد الطفل إلى أن يكون رجلا يعتمد على نفسه فى الوقت الذى لايجد بجانبه أحدا يدفع عنه ويحافظ عليه.

يمكننى أن أقرر بوجه الاجمال حقيقة أود أن يطلع عليها كل أب وأم ، وهى أن جميع العيوب التى تشاهد عند الأطفال ، مثل الكذب والخوف والكسل والحمق ، هى ناشئة من جهل أبويه بقواعد التربية ، وأن من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الأدبية ، وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية.

إذا كانت وقاية الطفل من الأمراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج إلى معلومات كثيرة كما ذكرنا . فالوقوف على غرائز الطفل الطبية وغرس الصفات الحميدة فى نفسه يحتاج إلى معارف أدق ومعلومات أوفر.

يظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهينات ، ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لاشىء من الشئون الإنسانية . مهما عظم . يحتاج إلى علم أوسع ولا نظر أدق ولاعناء أشق مما تحتاج إليه التربية ، أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التى

توصل إلى معرفة قوانين نمو الإنسان الجسمانى والروحانى ، وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة فى العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج إليها عمل آخر. لايؤخذ من ذلك أنى أذهب إلى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ، ولكن أقول أن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها ، وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها .

يرى القراء أنى أهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية ، وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الأم ، فالولد ، ذكرا كان أو أنثى ، من وقت ولادته إلى سن المراهقة ، لايعرف قدوة له سوى والدته ، ولا يعاشر غيرها ، ولا يرد على حواسه إلا الصور التى تعرضه لها ، فنفسه صحيفة بيضاء وأمة تنقشها كما تشاء ، ويتم نقش الصحيفة وتكون كتابا مسطورا عندما يبلغ الطفل سن الرابعة عشرة ، كما قال « الفونس دوريه » ، وليس فى إمكان الناشئ بعد ذلك أن يضيف على ما رسا فى نفسه أو ينقص منه إلا شيئا قليلاً لا يترتب عليه تغيير الكتاب .

هذا هو السر فى احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم أمهاتهم ، فهم يعلمون أن كل ماهم عليه من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة ، هو من فضل أمهاتهم اللاتى أودعن فيهم بضعة من أرواحهن ، وهى خير بضعة كانت عندهن . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل إلى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره ، ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان ، ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه، ان كان فيهم من يجد فى نفسه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا إلى طلب الكمال فى كل شىء ، فليس ذلك لأنه قرأ فى الكتب أو تعلم فى المدرسة أن هذه الصفات ممدوحة ـ ولو كان الأدب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من أسهل الأمور ـ وإنما كان ذلك لأن والدته أرادت أن يكون على هذه الصفات ، وكابدت مالايوصف من المتاعب لطبعها فى نفسه وتثبيتها فى طبعه .

فهى التى كانت تحرص على ألا يقع تحت حواسه صورة قبيحة ، وهى التى كانت تقدم إليه صور الاشياء الجميلة على أشكالها المختلفة ، وهى التى كانت تعوده على العادات النافعة شيئا فشيئا حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات فى الأرض .

هذه الوظيفة التى تقوم بها الأمهات فى تلك البلاد هى أهم وأنفع مايعمله إنسان حى

على وجه الأرض إذ لايوجد شيء أهم ولاأنفع من تهذيب نفوس الأطفال واعدادهم لأن يكونوا رجالا صالحين .

من هذا يتبين أن عمل المرأة فى الهيئة الاجتماعية هو تكوين أخلاق الأمة ، تلك الأخلاق التى أثرها فى الاجتماع ، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها ، يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات .

لهذا لايوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة فى الوجود الاجتماعى وشأنها فى العائلة . ولا بأس من أن نورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم لتبين للقراء منزلة النساء فى رأيهم .

قال « سيملس » : « للمرأة فى تهذيب النوع الإنسانى أكثر مما لأى أستاذ فيه ، وعندى منزلة الرجل فى النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منه منزلة القلب » .

وقال « شيلر »[350] : « كلما وجد رجل وصل بعمله إلى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة » .

وقال « روسو »[351] : « يكون الرجال كما تريد النساء . فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة » .

وقال « فنلون » : « إن الواجبات التى تطالب بها النساء هى أساس الحياة الإنسانية فالمرأة تدير جميع شئون العائلة ، وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب فى اصلاح الأخلاق أو إفسادها . ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل ، وإنما هى مجموع جميع العائلات ، وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلة سوى المرأة » .

وقال « لامارتين » : « إذا قرأت المرأة كتابا فكأنما قرأ زوجها وأولادها » .

وأمثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد فى مؤلفاتهم لبيان ماللمرأة من الأثر فى اصلاح أخلاق الأمم بلغ من الكثرة حدا بحيث لاتمكن الاحاطة به .

ومن الغريب أن الكثير من شبابنا الذين لهم إلمام باللغة الأجنبية والذين لابد أن يكونوا

---

(٣٥٠) فريدريخ فون شلير (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥ م) شاعر وكاتب مسرحى ومؤرخ وفيلسوف المانى . لحن له بيتهوفن بعض اناشيده .

(٣٥١) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) فيلسوف فرنسى ، تعتبر آراؤه من الأفكار التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية ، وهو صاحب كتاب [العقد الاجتماعى] . كما اشتهر باعترافاته .

قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون انى بالغت فى اعلاء شأن المرأة وتعظيم وظيفتها بل كان من أمر بعضهم أن احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذى لايليق بأن ينظر فيه .
وكان العالم الأزهرى الذى رد على كتاب [تحرير المرأة] قد عبر عن أفكارهم عند قوله :

« ما سمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر من الأسفار ولا فى خبر من الأخبار أن أمة من الأمم أو دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع شأنها بإناثها ، وهذه الدول الأوروباوية قد ارتفعت فى هذه الأيام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف والصنائع واختراع الأمور العظيمة التى عم نفعها ، فأى شىء من هذه العلوم والمعارف وأى أمر من مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ » .

والذى يقرأ هذه السطور يحق له أن يظن أن هذا العالم الأزهرى وأمثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار !.

فالنساء اللاتى خلد التاريخ ذكرهن لشهرتهن بالعلوم والمعارف ، أو بالأعمال العظيمة لسن بذى العدد القليل ، وتوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن ، وليس فى امكاننا أن نأتى هنا على ذكر أعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ ، وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب نخصصه لذلك ، إنما يمكننا أن نؤكد هنا أنه لايوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة إلى أن تصل إلى أعلى مراتب الكمال الإنسانى .

وإنى استلفت العالم الأزهرى خصوصا إلى سلف أمته الصالح ليعلم أن تاريخ دينه لم يخل من ذكر النساء اللاتى كان لهن أجمل الأثر فيه .

على أن الأمر لايحتاج تحقيقه إلى التاريخ ، فقد وجد فى القرن الذى نحن فيه كثير من النساء اللاتى ارتفع شأنهن وذاع ذكرهن فى جميع الممالك المتمدنة .

هذه « مارية متشل »[٣٥٢] اكتشفت نجما ذا ذنب سمى باسمها ، وعينت مديرة « لرصد خانة » فى أمريكا ، ومعلمة لعلم الفلك ، ولها مؤلفات كثيرة فى هذا العلم .

و « كارولين هرشل »[٣٥٣] اكتشفت سبعة نجوم ، فمنحها مجمع علمى « لوندرة » المدالية الذهبية .

---

(٣٥٢) ماريا ميتشل (١٨١٨ ـ ١٨٨٩ م) .
(٣٥٣) كارولين لكرشيا هرشل (١٧٥٠ ـ ١٨٤٨ م) .

و « تريز دوبافير » لها مؤلفات عظيمة فى الجغرافيا وفى علم طبقات الأرض ، وكانت عضوا فى المجمع العلمى بمدينة « منخ » .

و « صوفى جرمين »[٣٥٤] لها اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية .

وكل أهل العلم يعلمونَ أن « المركيزة دوشاتليه » هى التى نشرت مذهب « نوتون »[٣٥٥] فى فرنسا ، و « كلمنس رويه » هى التى نشرت مذهب « داروين » ، و « مدام استيل » هى أول من عرف ألمانيا لأوروبا ، وكذلك « مدام تارنوسكى » هى التى نشرت مذهب « لمبروزو » فى البلاد الروسية .

أما عدد الفلاسفة والادباء من النساء اللاتى نشأن فى هذا القرن والقرن الذى سبق لا يمكن حصره فى مثل هذا الكتاب ، ولكنى لا أرى بدا من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقهن رجل فى فن الكتابة وهما « مدام لافايت »[٣٥٦] و « جورج سند » .

على أن الارتباط الذى ادعيناه بين تقدم الأمم وارتقاء حال النساء لم نقصد به أن المرأة تفيد الأمة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية ، وإنما نعنى به بخاصة مالها من العمل فى اصلاح العائلة ثم الأمة على الوجه الذى بيناه .

وبعبارة أخرى نقول : إن ظهور رجل عالم أو حكيم فاضل فى أمة يعد من الحوادث التى يشترك فى إحداثها سببان :

الأول : استعداده بالوراثة لما ظهر فيه .

والثانى : تربيته التى ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه . بحيث لو فقد أحد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم أو الفاضل .

من هذا يتبين أن شخصية الإنسان الأدبية تتكون من عاملين : عامل طبيعى ، وعامل صناعى ، وليس فى استطاعتنا أن نؤثر فى الأول ، ولنا على الثانى سلطة واسعة ، حيث أنه يمكننا بالتربية الأولى أن ننمى غريزة الطفل ، ان كانت غريزته صالحة ، ونكملها ونزيدها حسنا ، ويمكننا أن نضعف من أثرها ان كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حدا

---

(٣٥٤) (١٧٧٦ ــ ١٨٣١ م) وهى فرنسية .

(٣٥٥) اسحق نيوتن (١٦٤٣ ــ ١٧٢٧ م) انجليزى ، اشتهر باكتشاف قانون الجاذبية . وهو أعظم علماء عصره .

(٣٥٦) مارى لافايت (١٦٣٤ ــ ١٦٩٢ م) روائية فرنسية ، صاحبة رواية [اميرة كليف] .

تنتهى إليه ، ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعا عظيما إذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا إلى طرق التربية الصحيحة .

فهذه التربية الأولى ــ وزمامها فى يد المرأة ــ هى التى اكسبتها ذلك المقام الرفيع الذى لايعلوه مقام فى الهيئة الاجتماعية .

وليس تأثير المرأة فى العائلة قاصرا على تربية الأطفال ، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح فى أعماله ، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لاشغاله ، وكم من امرأة شاركت زوجها أو أخاها أو والدها فى متاعبه ، وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته فى حالة اليأس والقنوط ، وكم رجل طلب المجد ومعالى الأمور طمعا فى ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب .

وضع « استوارت ميل » فى صدر كتابه المسمى (الحرية) الذى طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية .

« إنى أهدى هذا الكتاب إلى الروح التى ألهمتنى أحسن ماوضعته فيه من الأفكار ، إلى صديقتى وزوجتى التى كان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لى ، والتى كان استحسانها من أكبر المكافآت التى أرجو نيلها على عملى . كان لها فى جميع ما كتبته إلى الآن ، ولها فى هذا الكتاب ، حصة من العمل لاتنقص عن حصتى فيه . وأكبر أسفى أن هذا الكتاب طبع بالحالة التى هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه ، ولو كان فى استطاعة قلمى أن يعبر عن نصف مادفن معها من الأفكار العالية والوجدان السامى لانتفع العالم به أكثر مما ينتفع بجميع ماأكتبه صادرا عن فكرى ووجدانى بدون مشورة عقلها الفريد ! » .

وكانت زوجة « باستور »[٣٥٧] الشهير مشاركة له فى جميع مباحثه العلمية وبنت « لمبروزو » تشتغل إلى الآن مع والدها ، ومن هذا القبيل أن « مارك » الشهير فقد بصره فلم يجد له معينا على معيشته إلا بنته ، فكانت تلقى دروسا بالاجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ، ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمى ، وتكتب مايمليه عليها ، حتى صار بمعونتها من أشهر علماء التاريخ الطبيعى .

---

(٣٥٧) لويس باستير (١٨٢٢ ــ ١٨٩٥ م) الكيماوى الفرنسى صاحب الابحاث التى نشأت عنها « البسترة » . والتى أدت لزوال عقيدة « التولد الذاتى » .

هذه الأمثلة ، وغيرها مما يطول شرحه ، تدلنا على أن المرأة المهذبة يمكنها ، فضلا عن تربية أولادها ، أن تعمل كثيرا من الأعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . وأى مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه فى الليل والنهار ، فى الاقامة والسفر ، فى الصحة والمرض ، فى السراء والضراء ، رفيقة ذات عقل وأدب ، عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شىء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل أولادها ، تدبر ثروته ، وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه ، وتروج أعماله ، وتذكره بواجباته ، وتنبهه إلى حقوقه ، وتعرف أنها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجدّ فى منفعة زوجها وأولادها ؟.

وهل يسعد رجل لايكون بجانبه امرأة يهبها حياته ، وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ، ويتمنى رضاها ، ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ، ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق ، صديقة تزين بيته ، وتبهج قلبه ، وتملأ أوقاته ، وتذيب همومه ؟.

هذه الحياة التى لايشعر الرجال عندنا بشىء منها هى من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة . وأقول ، ولا أتردد فى ما أقول : إذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا إلى حد يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا ، واستمر الرجال على اهمال النساء وتركهن فى هذه الحالة الساقطة التى يتألم الكل من آثارها وهم لايشعرون ، ولم يبادروا باعداد المرأة بالتربية إلى أن تكون رفيقة مساوية للرجل ، وعشيرة عارفة بإدارة بيتها ، وصديقة تفدى زوجها بأعز مالديها ، وأما محيطة بما يجب عليها لأولادها ، عارفة بطرق تربيتهم ، فكل مافعلناه إلى الآن وكل ما نفعله فى المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباء منثورا ! .

هذا هو الحق الذى انتهينا إليه عند بحثنا عن أسباب تأخر الأمم الشرقية عموما والإسلامية خصوصا .

هذا الرأى الذى عرضناه على القراء أولا نعرضه عليهم الآن مرة ثانية . وكل مانرجوه منهم هو أن (لايضربوا به عرض الحائط) ، كما أشار عليهم كثير من أصحاب الأفكار والكتاب الذين طعن أغلبهم فى كتاب [تحرير المرأة] قبل أن يقرأه .

لاخلاف فى أن الأمم الإسلامية فى حالة ضعف شديد تستدعى المبادرة إلى علاجها فيتعين علينا أن نشخص هذا الداء بمعرفة أسبابه أولا ، ثم نبحث عن دوائه ، كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هى أسباب الداء ؟.

أسبابه تنحصر إما فى الاقليم ، أو فى الدين ، أو فى العائلة .

أما الاقليم فلا يصح أن يكون سبب الداء ، لأنه من المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمم ، ويعترف لها المؤرخون بالسبق فى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التى انتقلت منها إلى اليونان ثم إلى الرومان ثم إلى العرب ثم إلى أوروبا . وظهر فيها أول دين كبير فى العالم ، وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لاتزال آثارها إلى الآن ، وستبقى خالدة فى مالايزال وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال ، بل أتى عليها زمن تغلبت فيه على ماجاورها وبعد عنها من الأمم العظيمة وقهرتها وأخضعتها لحكمها ، ثم بعد فقد استقلالها حافظت على وجودها وهيئتها رغما عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التى توالت عليها . وهذا يدل على أنها وهبت فى طبيعتها حياة قوية ، وأنها مستعدة للمقاومة فى المزاحمة مع الأمم الأخرى ، فإذا كان الاقليم لم يعق الأمة المصرية عن اتيانها بأعظم الأعمال ، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون ، فلماذا يصير مانعا لها من الترقى فى هذه الأيام التى قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم ؟.

على أنه لم يثبت بأدلة صحيحة يسندها العلم أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقليم تفاوت فى الأمزجة والأخلاق بين الأمم ، فمن المشاهد أن سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة ، وهذه الصفات النفيسة تعوضهم ماقد ينقصهم من الجلد والمثابرة فى العمل .

وفى الشرق أقاليم باردة وسكانها ليسو أقل انحطاطا فى المدنية من سكان الأقاليم الحارة .

وأما نسبة تأخر المسلمين فى المدنية إلى الدين الإسلامى فهو خطأ محض . من ذا الذى يقول إن الدين الإسلامى ، الذى يخاطب العقل ويحث على العمل والسعى ، يكون هو المانع من ترقى المسلمين ؟ وقد برهن المسلمون أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقى فى المدنية ، ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخى أن يرتاب أحد فى هذه المسألة . نعم ان الدين الإسلامى الصحيح قد تحول اليوم عن أصوله ، واستتر تحت حجب من البدع ، ووقف نموه ، وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون ، وظهر لهذا الانحطاط الدينى أثر عظيم فى أحوال المسلمين ، ولكن هذا الانحطاط الذى ينسب إليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين فى المدنية يحتاج نفسه إلى سبب يُردّ هو إليه ، فهو سبب ثانوى لا أولى .

وعلى هذا فليس مانراه فى أحوال المسلمين ناشئا عن السببين المذكورين ، فإن أحدهما لا تأثير له بالمرة ، والثانى يعد من الأسباب الثانوية ، بقى عندنا السبب الثالث . فهو الذى ينبغى أن تنسب إليه هذه الحال التى نشكو منها ، فانحطاط المسلم كانحطاط الهندى والصينى

وجميع سكان الشرق ، ما عدا اليابان ، ناشئ من حالة العائلة فى هذه الجمعيات .

وذلك أن العائلة هى أول شىء يقع تحت حواس الإنسان فى أول نشأته ، وهى الشىء الثابت المستمر الذى يراه دائما ، فإذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال ، وبهذا التعلق يخطو الخطوة الأولى فى سبيل ارتقائه حتى إذا صار رجلا وجد من حاله الشخصى مايساعده على هذا الارتقاء .

فالارتقاء حينئذ له دوران :

الأول : دور اعدادى يقطعه الإنسان فى مدة طفولته وصباه ، وفيه ترتسم فى نفس الطفل الترتيب والتنظيم ، وينشأ فيه الميل إلى الفعال الجميلة ، وتتوجه نفسه إلى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة .

والثانى : دور عملى يقطعه الإنسان فى سن الرجولية إلى آخر العمر ، وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون إلى الظهور فى العمل .

فإن أهمل الاعداد فى الدور الأول استحال صعود الشخص فى درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم فى المدارس ، ومهما كانت التعاليم الادبية أو الدينية التى تلقى عليه ، فهو يعيش كالطائر الذى قص جناحه ، كلما هم أن يطير سقط ، ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم إلى حظه ورضى به وانتهى الحال إلى أن يفضله على كل شئ سواه .

ذلك لأن التعليم ، سواء كان دينيا أو علميا ، لايمكن أن يكون له أثر نافع إلا إذا وجد من النفس عونا على النجاح ، كما أن البذرة مهما كانت جيدة لاتنبت إلا فى الأرض الصالحة لنموها .

يقضى أولادنا الآن أوقاتهم فى تعلم القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ومطالعة العلوم سنين ، ثم ينتقلون إلى علوم أخرى أعلى وأرفع من تلك ، فإذا انتهت مدة الدراسة ودخلوا فى ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالا ذوى احساس شريف وعواطف كريمة وأخلاق حسنة وهمم عالية ، رجالا يشعرون ويعملون ، ورجونا منهم أن نجنى ثمار هذا التعليم الذى بذل فى سبيله النفيس من الوقت والمال . ولكن ، واأسفاه ! نرى آمالنا فيهم خائبة نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوبا يابسة وهمما صغيرة وعزائم ضئيلة . أما العواطف فهى بالتقريب ، فيهم معدومة . فلا يروق لأعينهم منظر جميل . كما لاينفرهم مشهد قبيح . ولا

يعطفهم حنو ، ولا تبكيهم مرحمة ، ولايحترمون كبيرا ، ولايستصغرون صغيرا ، ولا تحركهم منفعة إلى عمل مهما عظم نفعه .

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم فى أول السن ، هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل لايظهر ولا يقويه ولاينميه إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها فى البيت إلا الأم ، فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة ، وأشد من هذا كله أثرا فى نفسه ظهورها فى عينيه متحلية بهذه الصفات ، فيقلدها من غير فكر ، ثم يعتاد على ذلك شيئا فشيئا حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لايمكن أن تنسلخ عنها .

ولايكون لنفسه شيءمن ذلك إذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع فى روحه مثال من هذه الأمثلة ، فلو أدركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات فى ذهنه لاينفذ منها شيءإلى باطن نفسه ، فلا يحدث له منها شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثا عليه .

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافى فى وصف مايكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه ، وهم لايعشقون ، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ، ولا يأتى قائل منهم بشيءيبرهن به على أنه شاعر بما يقول وترى أن أهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعورا بالاحساس الدينى الحقيق ، وترانا جميعا منصرفين عن كل شيء ونحن نطلب كل شيء ! .

بينما كنت أكتب هذه السطور اطلعت فى جريدة [المؤيد] على رسالة لحضرة الفاضل إبراهيم بك الهلباوى[٣٥٨] ، حررها وهو على ظهر المركب التى سافر فيها فى هذا العام إلى أوروبا ، وقد أعجبنى من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخى كاتبها الصدق فى القول ، والذى دعانى للكلام عليها هنا هو ان حضرة إبراهيم بك الهلباوى شرح لنا ماكان يجده من نفسه ويتردد فى صدره عندما مر على جزيرة « كريد » فقال :

« هذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعد انسلاخها من حكم الدولة وإعطاء أوروبا اياها هدية لثانى أنجال ملك اليونان ! وقد حاولت حال المرور بها أن أتذكر

---

(٣٥٨) من أشهر المحامين والخطباء بمصر فى عصره . تولى الدفاع عن وجهة نظر الاستعمار الانجليزى ضد الفلاحين المصريين فى محاكمة دنشواى ؟! توفى سنة ١٩٤٠ م .

بحسرة وجزع الحوادث التى سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير ، من قتل وسفك دماء مسلمى هذه الجزيرة ومانالهم من الذل والمظالم ، ثم مصادرة من بقى منهم فى أموالهم وثمرات أتعابهم ، كمسلم حقيق يألم بمصائب أخيه ، فلم تجد نفسى فى جسمى دما يتأثر ولابقلبى محلا للأسف أو الرحمة » .

« ولما تساءلت مع وجدانى عن سبب هذا الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب ، قلت : لعل ذلك لكثرة مالحقنا منها حتى تدمّ[359] القلب وأوشك ان يقال عنه : * تكسرت النصال على النصال » .

« وقد بدا لنفسى جواب آخر على عدم الاكتراث بما أصاب مسلمى كريد. لم يبعد عنى اختلاج النفس بالأسف على مصائبهم فقط بل أوشك أن يخجلنى ، حيث مر بخاطرى حسبان ذلك المصاب ، ذلك أنى قبل المجىء إلى الإسماعيلية كان آخر سفرى على خط السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ، ثم اتجه القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهى المرة الأولى فى حياتى التى مررت بها على « التل الكبير » و « القصاصين » و « المحسمة » و « نفيشة » ، هذه المواقع التى اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الانكليزى فى سنة ١٨٨٢ والشأن ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى يحرك لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها ، ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا ؟» .

هذا ماكتبه أحد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن. وإذا أردنا أن نصدق فى القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا إذا مررنا نحن ايضا على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا أكثر مما تحركت نفسه ، ولانشعر بأكثر مماشعر.

ومن البديهى ان هذا الجمود ، كما سماه صاحب هذه المقالة ، ليس منشؤه ان إبراهيم بك الهلباوى رجل جاهل أو لايعرف ان محبة الوطن واجبة ، وليس سبب هذا الجمود ماتوهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة مالحقنا من المصائب ، لأن توالى المصائب لايذهب بالشعور من النفس ولايضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم .

وإنما السبب الحقيق لفقد الشعور إلى هذا الحد هو اهمال تربية العواطف عندنا فى زمن الطفولية ، وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لاتتأثر إلا بالاحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة ، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية .

---

(٣٥٩) أى طلى وغطى بالطلاء.

رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين. فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه. فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الاحساسات التى بعثها فيه ماتربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا ، أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال ، فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن ، وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق.

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر. وهكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى.

فانحطاط المصرى إنما هو ناشئ من حرمانه من هذه التربية الأولى ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات. ولايهتم أحد من أهله إلا بإعطائه التغذية والملبس. فهم يعتنون به كما يعتنى أى إنسان بحيوان يحبه ، فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الاساس هو بناء على الرمل لايلبث أن ينهار مهدوما.

وبالجملة ، ان التربية تنقسم إلى قسمين:

تربية العقل : وهى التى توجه مدارك الإنسان إلى اكتشاف حقائق العالم.

وتربية الروح : وهى التى توجه ارادته إلى الخير وتميل بإحساسه إلى الجميل. وكلتاهما لازمتان لسعادة الإنسان.

أما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس ، وأما التربية الروحية فلا تكتسب إلا فى العائلة ، ولايمكن اكتسابها فى العائلة إلا إذا كانت الأم فى أول من يديرها ولايمكن أن تديرها الأم إلا إذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلى والأدبى ، لهذا قلنا : إن المصريين إذا أرادوا أن يرتقوا وجب عليهم ان يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية.

ومما يوجب الأسف ان المصريين لم يفهموا إلى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم ، فى حين ان رجالا من مسلمى الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بأبحاثهم إلى ادراك شأن المرأة فى الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بما لوظيفتها من الأهمية ، وقد قام رجلان من أعاظمهم أحدهما الأمير على القاضى والثانى عناية حسين.

فنشر الأول مقالة جليلة موضوعها [النساء فى الإسلام] ترجمت فى مجلة [المقتطف] فى عدديها الصادرين فى شهرى يونيه ويولية سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب مايأتى :

« مامن مقياس يقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها ، فإذا أراد مسلمو الهند أن يرتقوا وجب عليهم أن يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها فى صدر الإسلام » .

« وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليلا على ارتباط تقدم الأمم المادى والمعنوى بمقام المرأة فيها ، فقد بقيت نساء الاشراف فى روسيا متحجبات إلى بداية القرن الثامن عشر ، يعشن فى بيوت ، بل فى سجون ، لايدخلها النور ولا الهواء ، اسدلت الاستار على كواها ، وأحكمت الأقفال على أبوابها ، ووضعت مفاتيحها فى جيوب الآباء والأزواج ، وإذا أريد نقلهن من مكان إلى آخر نقلن فى محفات متحجبات متبرقعات كما تنقل النساء فى بلاد الهند ، فلما فكت قيود النساء ، وجارين الرجال فى العلم والتهذيب ، وصرن من دعائم الهيئة الاجتماعية ، صارت بلاد الروس من أعظم ممالك الأرض » .

« كانت شمس المعارف فى المشرق فانتقلت إلى المغرب ، فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى فى اعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر ، ولكن لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« ولابد أن يسأل سائل : هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالاكفان ، كالنساء الشرقيات فى مدن الشرق الآن ؟! ويظهر لى أنهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن كما تستر نساء الآستانة الآن باليشمك فيخفى غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا ، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع إلا فى أواخر عهد السلاجقة ، وأما الاحتجاب بالبردة على ماهو شائع الآن عند مسلمى الهند وغيرها من البلدان فلم يكن معروفا فى تلك العصور ، والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات » .

« واستخدم العرب الخصيان فى عهد معاوية ، آخذين ذلك من الروم ، واقتبسوا نظام الحريم فى عهد الوليد الأموى الثانى ، وامر المتوكل ــ نيرون العرب ــ بفصل النساء عن الرجال فى الولائم والحفلات العمومية ، ولكن بقيت النساء يختلطن بالرجال إلى أواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار ويعقدن مجالس الأنس ويمضين إلى الحرب لابسات

الحديد ويساعدن إخوتهن وأزواجهن فى الدفاع عن القلاع والمعاقل » .

« ولما اضمحل شأن الخلفاء فى أواسط المائة السابعة ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون فى هل الأليق بالنساء أن يظهرن أيديهن أو أقدامهن !» .

وألقى الثانى خطبة فى جمعية الآداب الإسلامية بمدراس فى الهند ترجمت فى جريدة [المؤيد] الصادرة فى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها مايأتى :

« ولدينا نقطة أخرى عظيمة الأهمية لا أرى مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها ، إذ لاترتقى أمة ولاتسمو مملكة إلا بواسطتها ، وهذه النقطة هى تربية البنات . إذا لم تتحققوا أيها السادة أن النساء والرجال توأمان عاملان فى الهيئة الاجتماعية ، أنهم إما أن يقوموا معا واما أن يسقطوا معا ، فلا سبيل إلى الرقى ولاوسيلة إلى التقدم والنجاح ، ولانقدر ان نقول إن أساس أمتنا موطد الدعائم ثابت البنيان ، تذكروا ان الطفل هو والد الرجل ، وأنه متى كانت الامهات جاهلات لايقدرن على بث أنوار المبادئ الأدبية والتهذيبية فى نفوس أولادهن ولايرقين عقولهن ولايقوين أبدانهن بالوسائل الصحية فإننا نبقى إلى الأبد فى آخر صف من صفوف الأمم » .

فانظر إلى مايكتبه رجال من أهل الفقه والعلم فى الهند ، وإلى ماكتبه فقهاؤنا وكتابنا حيث قالوا : إن المرأة لاشأن لها فى ارتقاء الأمم ، وإنها لايجب أن تتعلم إلا مايلزمها من فرائض دينها للعبادة ، ولايسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة ، وقاموا جميعهم ينصحون الناس بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير فى طريق الكمال الذى أشرنا إليه بحجة انه تقليد للغربيين فى عاداتهم ، ويوهمون ان الغربيين أنفسهم متألمون من حال نسائهم !.

وقد بينا بالتفصيل الأسباب الاجتماعية التى يلزم لأجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذى سقطت تحته أزمانا طويلة ، وبرهنا على أنها هى صاحبة السلطة على الأخلاق والقابضة على زمام الآداب ، وأنها هى التى تسوق الأمم فى طريق الخير والشر ، وانها لايمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية إلا إذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والأدب .

نقول هذا مع اطلاعنا على ماكتب فى شأن المرأة الغربية ، ومع علمنا بما هى عليه ولانرى مانعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الأمم الغربية ، لأننا نشاهد ان الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما ، ونرى أن البلاد التى يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن هى التى تسير كالدليل أمام الأخرى وتهديها فى سبيل الكمال فى المدنية ،

ومن جهة أخرى نرى أن جميع الأمم التى حطّت من شأن نسائها على غاية من الضعف ، وهى فى ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة ، لايظهر التفاوت بينها مع اختلاف الأقاليم وتباين الشعوب والأديان .

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ، ولايمكن لعاقل أن يجادل فيه .

أما مازعموه من أن الأوروبيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير مانحن فيه ، ومسألة النساء التى هى موضوع بحثنا فى بلادنا غير مسألتهن فى مايكتبه بعض الكتاب الغربيين ، فإننا فى هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسمية وإنالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من اداء وظائفها فى البيت ، وهذا الطلب لاينازعنا فيه غربى مهما انحطت درجته فى العقل والاحساس .

وإنما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ، ومن طلبهن مساواة الرجال فى حقوقهم السياسية .

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة أو خلط بين موضوع وموضوع . إذ كل إنسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله .

هذه حرية الصحافة هنا وفى بعض بلاد أوروبا قد ساء استعمالها إلى حد أن صار كل إنسان يتألم منها ، ولكن لم يفكر عاقل فى أن يدعى أن الواجب هو الحجر على الافكار ، لأن هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذى يرام معالجته .

فالاسباب التى يبنى عليها كتابنا رأيهم فى الحجر على حرية النساء هى عين الأسباب التى انتحلتها الحكومات الشرقية لحرمان أبنائها من حرية القول والكتابة والعمل . وهى التى أغرت متأخرى المسلمين بقفل باب الاجتهاد فى التوفيق بين أحكام الدين وحاجات الأمم على اختلاف الأمصار والاعصار مع عدم الخروج عن الأصول العامة التى قررها الكتاب والسنة الصحيحة ، وهى التى زينت للآباء عندنا أن يستعملوا فى تربية أولادهم وسائل القسوة والغلظة ، وهى التى كانت تقضى على الحكام عندنا ، من عهد ليس ببعيد ، بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها أثمان اللحم والخضار والمسلى وأغلب مايباع ويشترى فى الأسواق .

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التى تظهر فى بعض أحوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم . وقد يكون من أسباب تلك الغفلة أن وجوه المنافع فى أحوال

الناس ، وهى جهات حسنها ، تخفى عادة على من ينظر إليها نظرا سطحيا ، أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم ، لأنها تتشكل بأشكال الجرائم والفظائع التى تنفر منها النفوس ، فأول ماتتجه إليه النفس النافرة هو أن تمحو هذا الأثر بأية طريقة ، وأقرب الطرق وأسهلها فى بادئ الأمر هو العنف والشدة .

ولكن المتأمل إذا تروى فى الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الاجتماع ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية .

إذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو أكبر مخالفة لقوانين نموها العقلى والادبى . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من إتيان ماينشأ عنه ذلك الضرر ، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه .

وبالجملة ، فإننا لانهاب ان نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى لو كان من المحقق أن يمررن فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات ، لأننا على ثقة من أن جميع المطالب التى يطمح إليها نساء الغرب فى هذه الأيام ليست من الوسائل التى يعضل حلها ، ويدوم القلق بسببها ، بل يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق .

ورب سائل يسأل : إلى متى تنتهى هذه الأدوار التى تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب أن ذلك سر مجهول ليس فى طاقة أحد من الناس أن يعلمه ، وكما أننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتى سنة ، كذلك لايمكننا أن نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة ، وإنما نحن على يقين من أمر واحد وهو ان الإنسانية سائرة فى طريق الكمال ، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه .

التربية والحجاب

لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية وانه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية ، فجعلها فى حكم القاصر ، لاتستطيع أن تباشر عملا مابنفسها مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل . وجعلها سجينة ، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية مايعتبره للرجل ـ لو لم يكن فى الحجاب إلا هذا العيب ـ لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ماسبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها .

إذا تقرر أن تربية المرأة من الضرورات التى لايمكن أن يستغنى عنها ، فما هى التربية التى تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كتربية الرجل ؟ أو تخص بتربية أخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب ؟ أو لابد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة ؟ أو يرجع فيها إلى أصول المدنية الإسلامية القديمة ؟.

هذه المسائل تدخل فى باب التربية والحجاب ، وقد دار البحث والجدل فيها فى العام الماضى بين كثير من الكتاب ، والآن نريد أن نبدى رأينا فيها على غاية من الوضوح .

فى المسألة الأولى ـ لانجد من الصواب أن تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .

أما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة إلى الصحة كالرجل ، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللاتى يشاركن أقاربهن الرجال فى أغلب الرياضات البدنية ويلزم أن تعتاد على ذلك من أول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع وإلا ضعفت صحتها وصارت عرضة للامراض ، ذلك لأن النواميس الطبيعية تقضى بضرورة التوازن بين مايكسبه الجسم ومايفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها ، والأمراض التى تصيب الإنسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست بأقل عددا ولا

بأخف ضررا من الأمراض التى تصيب من ينفق قوته ولايعوض بالتغذية مافقد منها ، ثم ان ماتقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على مايعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولايحتمله من النساء إلا القويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى ، أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات . ولذلك فان أكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الأولى ، وكثيرا مايهلكن فيها ، فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس أكثر من ثلاثين فى الألف .

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والامراض ، كذلك يلزم العناية بصحتها حرصا على صحة أولادها ووقايتهم من العلل . لأن مايعرض على مزاج الأم ومايكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة إلى الأولاد .

وأما من جهة التربية الأدبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها إلى المحافظة على آداب النوع ، فسلمتها زمام الأخلاق وائتمنتها عليها . فهى التى تصنع النفوس ، وهى ساذجة لاشكل لها ، فتصوغها فى أشكال الأخلاق . وتنتشر تلك الأخلاق بين أولادها فينقلونها إلى من يتصل بهم فتصبح أخلاقا للأمة بعد أن كانت أخلاقا للعائلة كما كانت أخلاقا للعائلة بعد أن كانت أخلاقا للأم . هذا يدلنا على أن المرأة الصالحة هى أنفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هى أضر عليه من الرجل الفاسد ، ولعل هذا هو السبب فى ماوقر فى نفوس الناس فى كل زمان من أن الرذيلة الواحدة إذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها أكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها ، وأن الفضيلة تعلى من شأن المرأة مالا تعليه من شأن الرجل .

بقى علينا الكلام على القسم الأخير من التربية ، وهو التربية العقلية ، هذه التربية هى عبارة عن تعلم العلوم والفنون ، والغاية التى ترمى إليها هى أن يعرف الإنسان مافى الكون من الموجودات ، وفيها نفسه ، حتى إذا عرف ذلك على حقيقته أمكنه أن يوجه أعماله إلى مايعود عليه بالنفع ويتمتع بلذته : المعرفة ، فيعيش سعيدا .

والمرأة كالرجل على حد سواء فى الاحتياج إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا فرق بينها وبينه فى التشوق إلى استطلاع عجائب الكون والوقوف على أسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها .

ومهما عظم اشتغال المرأة ، متزوجة أو خالية ، ذات أولاد أم لا ، فإنها تجد من الوقت ماتثقف فيه عقلها وتهذب نفسها .

ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشر الوقت الذى يقضينه فى اليوم فى البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا .

ولاتتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعليمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ، بل تحتاج أيضا لتعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكى تعرف القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان ، كما أنها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها أن تقوم بتربية أولادها .

والمهم فى هذه التربية هو تشويق عقل المرأة إلى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد حتى إذا انتهت مدة تعليمها فى المدارس استمر شوقها إلى الحق فتتحرك دائما وتعتبر به .

وأضيف على ذلك أنه ينبغى على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت .

ولابد هنا من استلفات النظر إلى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها إلى الفنون الجميلة . وانى على يقين من أن أغلب القراء لايستحسنون أن تتعلم البنات الموسيقى والرسم . لأن منهم من يرى أن لافائدة فى الاشتغال بهذه الفنون ، ومنهم من يعدها من الملاهى التى تنافى الحشمة والوقار ، وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون فى بلادنا إلى حد يأسف عليه كل من عرف مالها من الفائدة فى ترقية أحوال الأمم .

فن التصوير والرسم له فائدة لاتقل عن فائدة العلم . لأن العلم يعرفنا الحقيقة . وهذا الفن يحببها إلينا ، لأنه يبديها لنا على الشكل الأكمل الذى يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل إلى الكمال والكمال شىء يدركه عقلنا . لكنه لايقع تحت حواسنا . فلا يمكننا أن نتصوره إلا إذا صار مجسما أمامنا فى شكل لطيف نحس به ، ومتى رأيناه فى هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته . وكلما كان صاحب الفن ماهرا فى صناعته كان صنعه أقرب للكمال وكانت النفس أكثر ميلا إليه وأشد اعجابا به وأعظم سرورا بالاحساس به .

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها أفصح لغة تعبر عما فى ضمائرنا ، وألذ مايرد على مسامعنا . ومن أحسن ماوصفت به قول أفلاطون :

« إن الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ، ويسمو بها الفكر ، ويرتقى الخيال ، وتبث فى النفس الفرح والسرور ، وترفعها عن الدنايا ، وتميل بها إلى الجمال والكمال . فهى من عوامل الأدب للإنسان » .

هذه هى التربية التى نود أن تكون للبنات ، وقد بيناها اجمالا ، لأن المقام لايسمح ببيانها تفصيلا . هذه هى التربية الكاملة التى تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون إنسانا يكسب عيشه بنفسه ، وزوجة قادرة على أن تحصل لعائلتها أسباب الراحة والهناء ، وأما صالحة لتربية أولادها .

متى انتهت تربية البنت باتخاذ مايلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ، فما الذى ينبغى أن تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب فى بيتها ، وتمنع عن مخالطة الرجال ؟ أو تطلق لها الحرية فى ذلك ؟ هذا هو موضع البحث فى المسألة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معا لما بينهما من الارتباط .

رأى المنتقدون على [تحرير المرأة] أننا تطرفنا فى مسألة الحجاب ، وأننا أشرنا برفعه تقليدا للعادات الغربية . وزعموا أن الحجاب لايوجب انحطاط المرأة ولايترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا إلى وجوب استبقائه والمحافظة عليه ، وقالوا : إن الذى حط بالمرأة عن منزلتها إنما هو عدم التربية ، فلو تربت تربية حسنة أمكنها ، وهى فى الحجاب ، أن تقوم بواجباتها أحسن قيام .

على أننا بعد أن دققنا النظر فى جميع ماقيل أو كتب فى هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقا بصحة ماذهبنا إليه .

ولانرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا إلا الاختلاف فى فهم معنى التربية ، فهم يرون أن التربية هى التعلم ، وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير فى المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية ، وأنه متى نال هذه الورقة السميكة ، التى سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) ! عد بالغا فى العلم والأدب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية لاتقوم بالمكث فى المدرسة والحصول على الشهادة ، وإنما كل مايستفيده الصبى من ذلك فى أيام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه .

ذلك لأن الصبى فى السنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره لايعرف من العلم إلا

نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها فى جمل مختصرة ، ومهما كانت هذه القضايا علمية أو أدبية فلا قيمة لها إلا بظهورها فى العمل ، وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التى تحدد دائرة تطبيقها والحد الذى يفصلها عن غيرها وتبين الأحوال التى تدخل فيها أو تخرج عنها وجهات نفعها وضررها ، هذه التطبيقات هى الواسطة الوحيدة فى فهم القواعد على حقيقتها ، فإذا انعدمت لاتكون هذه القواعد إلا ألفاظا وخيالات .

لهذا لايخطر على بال رجل عاقل أن يسلم نفسه إلى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولايختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافيا !.

وكذلك الحال فى الآداب والأخلاق. إذ لاشىء على الإنسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه . ولكن لاشىء أصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل . لأن قهر الإنسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعيان قوة عظيمة فى الارادة ، ولاتوجد هذه القوة فى الارادة باقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية ، وإنما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها .

فمزاولة الأعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب ، كل هذه الأشياء هى منابع للعلم والآداب الصحيحة ، بها ترتقى النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات ، وأمامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط إلى أسفل الدركات .

قال « سبنسر »[٣٦٠] فى هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لافائدة من التربية التى تجعل الإنسان مستودعا لأفكار غيره . لأن الكلمات التى توضع فى الكتب لايمكن أن تنتج معانى إلا على نسبة التجارب المكتسبة » .

وقال « أدمون ديمولان »[٣٦١] عند كلامه على التربية الأدبية ، نقلا عن ترجمة صديق أحمد فتحى باشا زغلول :

---

(٣٦٠) هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) الفيلسوف الانجليزى الذى لقب بفيلسوف التطور .

(٣٦١) (١٨٥٢ ـ ١٩٠٧ م) عالم الاجتماع الفرنسى . صاحب كتاب [سر تقدم الانجليز السكسونيين] وصاحب كتاب (التربية الحديثة) .

« إن ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا إلى أن الأمم التى بلغت فيها همة الإنسان منتهاها ، وهى ملجأ الحياة الأدبية الصحيحة ، حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد ، وبيانه أن المؤثر الأدبى إنما يجعل المرء قادرا على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة الملية التى يتعلم فيها أن لا اعتماد إلا على نفسه . وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة ، فهى التى تقود المرء إلى الحياة الحقيقية ، وهى المدرسة الطبيعية التى تريه كيف يتحمل المتاعب والرزايا . وهى الأسهل تناولا والأكثر شيوعا وطلابا . تلك ضرورات أشد فعلا فى النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الأخرى . ذلك لأن الأعمال تدعو إلى العمل أكثر من الأقوال » .

فالتجارب هى أساس العلم والأدب الحقيق ، والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس ، لأن المرأة التى تعيش مسجونة فى بيتها . ولاتبصر العالم إلا من نوافذ الجدران أو من بين أستار العربة ، ولا تمشى إلا وهى كما قال الأمير على القاضى : « ملتفة بكفن » ، لايمكن أن تكون انسانا حيا شاعرا خبيرا بأحوال الناس . قادرا على أن يعيش بينهم .

ولايكفى لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التى يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين فى المدرسة ، ثم تنتقل منها إلى بيت تحتجب فيه بقية عمرها . بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشركها فى حياتنا الطبيعية ، يلزم أن نضع يدنا فى يدها ، ونسير معها فى الأرض ، ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر ، يلزم أن تقاسمنا افكارنا وآمالنا وأفراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا ، فستفيد مما يعرض فيها من الأخلاق والأفكار والمباحث وتفيدنا على رعاية الحشمة والتأدب فى القول .

يقول معترض : « انا نراك تريد ان تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية ، فهلا أعرت تمدننا القديم الذى كان من أصوله احتجاب النساء نظرة ، وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلتفت إلى أصوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذى يجب أن نشد له رواحل العزائم ، والذى سيتضح للعالم أجمع يوما ما أنه هو نفس الكمال الذى ينشده الإنسان ويلتمسه الوجدان » ؟.

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطلاوة لفظه ، وربما ينجذب إليه لأنه يحرك الميل

الغريزى فى كل إنسان إلى التعلق بآثار الآباء والأجداد . ولكن الاجدر بنا ألا نجعل للفظ تأثيرا فينا إلى حد يذهلنا عن الحق ، وعلينا أن نأخذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة إذا خشينا أن تسلبنا ارادتنا واختيارنا ، والتعلق بالتقاليد الراسخة لايحتاج إلى التحريض والترغيب ، لأنه حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها ، فهى مستغرقة فيها من ذاتها ، وإنما الذى يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضار واعتناق مستقبل نافع .

إذا أمكنا أن نأخذ تلك الأهبة كان **من أهم مايجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم ونرجع إليه. ولكن لالننسخ منه صورة ونحتذى مثال ماكان فيه سواء بسواء . بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى مايستقبل من الزمان .**

ظهر الدين الإسلامى فى جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون فى حال البداوة ، أى فى أدنى الحالات الاجتماعية ، فأوجد بينهم رابطة ملية ، وأخضعهم إلى رئيس واحد ، ووضع لهم شرعا نسخ ماكان عندهم من العادات المتبعة فى معاملاتهم من قديم الزمان ، ولما أمرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الأمم الأخرى ، واستولوا عليها ، ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الأمم فى العلوم والصنائع ، ولكن كان بروح الوحدة التى بعثها الإسلام فيهم ، مع استعدادهم الفطرى للقتال ، فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الأمم كثيرا من العلوم والصنائع والفنون ، فاستفادوا منها ونقلوا معظمها إلى لسانهم ، وسمحوا لأولئك المغلوبين أن يأتوا فى ترقيتها بما شاءوا ، وظهرت عند ذلك نهضة علمية ، كما هو الشأن فى الأمم عقب كل انقلاب يجرى لغاية صالحة ، استمرت مدة أربعة قرون تقريبا .

على هذين الاساسين شيدت المدنية الإسلامية : **الاساس الدينى** ، الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . **والاساس العلمى** ، الذى ارتقت به عقول الأمة الإسلامية وآدابها إلى الحد الذى كان فى استطاعتها أن تصل إليه فى ذلك العهد .

ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لايؤيد أكثرها بشىء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية وانتقدوها .

وحيث أنهم لم يأتوا إليها من بابها ، ولم يجهدوا أنفسهم فى فهمها أخذوا يؤولون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا منها أدلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على أن يسيئوا الظن بها ، وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية . بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها أنها لابد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقروا أن ماوضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدى الذى لايجوز لأحد أن يخالفه ، وكأنهم رأوا من قواعد الدين أن تسد أبواب فضل الله على أهله أجمعين .

هذا النزاع الذى قام بين أهل الدين وأهل العلم ، ولا أقول بين الدين والعلم ، لم يكن خاصا بالأمم الإسلامية ، بل وقع كذلك عند الأوروبية . ولكن لما كانت هذه الأمم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب ، وكان وصول تلك العلوم إليها قرب تمام تكوينها ، لم تحتج أوروبا إلى زمن طويل فى اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك العلوم ، وقد نالت منها فى مائتى سنة مالم ينله غيرها فى آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضا ويرشد بعضها إلى بعض ، فنها اكتشاف قوانين سير الكون ، وتحليل الضوء . وسرعة سيره ، وكيفية تكون الأصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها ، وعلمت ماهية الحرارة ، وكيفية تكون الكرة الأرضية وحقيقة شكلها ، وتكون الأرض وتقادم الاعصار عليها وعلى سكانها ، وضروب التغييرات التى طرأت عليها والأدوار التى تقلبت فيها من وقت أن كانت كتلة نارية إلى أن ظهر عليها النوع الإنسانى بعد جميع الأنواع الأخرى . ثم عرفت قوانين الحياة ، ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم ، وخصائص قوى الادراك ، وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى ، وصححت وكملت أصول الكيمياء والطبيعة .

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة مادعت إليه الحاجة ليعلموا الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب وما هو مستقبله ، ووضعوا أساس العلوم الأدبية والاجتماعية والسياسية .

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لايمكن لعاقل أن يفكر فى ان يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوروبا بعد النزاع والجهاد ، وانتهى الحال بأن صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة .

فإذا كان التمدن الإسلامى بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلوم ، كما

بيناه ، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان (نموذج الكمال البشرى) ؟ يهمنا أن لانبخس أسلافنا حقهم ولانتقص من شأنهم ، ولكن يهمنا مع ذلك ألا نغش أنفسنا بأن نتخيل أنهم وصلوا من التمدن إلى غاية من الكمال ليس وراءها غاية . نحن طلاب حقيقة إذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها ، لذلك نرى من الواجب علينا أن نقول : **إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه. لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكملت به ماكان ناقصا منها فى بعض ادوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لايمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .**

أما من جهة العلوم فالأمر ظاهر ، لما سبق بيانه .

وأما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ لانجد عند أهل تلك العصور مايستحق أن يسمى نظاما ، فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين ، فكان الحاكم وعماله يجرون فى ادارتهم على حسب ارادتهم ، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة بقدر الامكان ، وان كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ، ولم يكن فى النظام مايردهم إلى أصول الشريعة .

ربما يقال : إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة ، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر . ونحن لاننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لايتمتع بها الشعب إلا بعض دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر ، فهو الذى يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبدا برأيه ولايرى من الواجب عليه أن يشرك أحدا فى أمره .

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا إلى ماوصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحكام فى إدارة شئونها .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم

يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا أن أقول إنهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فان هذه العلوم حديثة العهد ، وإذا أراد مكابر أن يتحقق من ذلك فما عليه إلا أن يتصفح مقدمة ابن خلدون . وهو الكتاب الفرد الذى وضع فى الأصول الاجتماعية عند المسلمين يرى أن الأصول التى اعتمد عليها لايخلو معظمها من الخطأ ، ويندهش على الخصوص عندما يرى أن هذا الكتاب الذى وضع للبحث فى المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة فى العائلة التى هى أساس كل هيئة اجتماعية ، فإذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟.

كذلك إذا نظرنا إلى حالتهم العائلية نجد أنها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفى فى عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين ، ويطلق زوجته بلا سبب أو بأوهى الأسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر إلى الآن على ماهو مشهور ، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء فى وضع نظام يمنع انحلال روابط العائلة ، وأقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل أن يقروا مثلا أن ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لابد أن تكون أمام مأمور شرعى حتى لاتبقى هذه الشئون موضعا للريب ومحلا للشبهة ومثارا للنزاع والشقاق .

أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التى وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية ؟ بل أين هى من القوانين اليونانية والرومانية التى لم تغفل فى جميع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها فى الهيئة الاجتماعية ؟ فأى شىء من هذا يمكن أن يكون صالحا لتحسين حالنا اليوم ؟ .

بقى علينا ان نلتفت إلى التمدن الإسلامى من جهة الآداب . يعتقد أهل عصرنا أن المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع أنواع الكمالات الأخلاقية الصحيحة ، وهو اعتقاد غير صحيح أو على الأقل مبالغ فيه .

أما من جهة أصول الأدب ، فالمعلوم أن المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة ، فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم ، وقد كانت تلك الأمم تعرف تلك الأصول ، وضمنتها كتبها ، ونزلت على بعضها فى وحى سماوى .

وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية ، فالتاريخ يشهد على أن

كل عصر لايخلو من الطيب والردىء والحسن والقبيح، وقد وصلت إلينا أخبار العرب مدونة فى الكتب التاريخية والأدبية فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم ، واطلعنا على شعرهم وأمثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمنا من الأزمان خاليا من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن التباغض والحقد وحب الذات ، حتى فى الأوقات التى كانت فيها الدولة مشتغلة بأهم الحروب مع الأمم الأخرى رأينا أحد أولاد على رضى الله عنه تزوج بأكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده أن ينصح الناس بألا يزوجوه بناتهم ؟. رأينا من الرجال من كان يعترض النساء فى الطريق ويختلس النظر إليهن من خروق الحائط ! رأينا من أمرائهم وأعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لايعى مايقول فى مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى !. رأينا من شعرائهم من يستجدى العطايا ويمد يده ملتمسا رزقه من فضلات الأمراء والأغنياء ، ومنهم من يمدح نفسه ويثنى عليها ويذهب فى ذلك إلى حد ليس بعده إلا الجنون ، أو يتغزل فى ولد ، أو يهجو خصمه بعبارات الفحش وألفاظ الوقاحة التى يستحى من تصورها فضلا عن التفوه بها !. رأينا من مؤرخيهم من يزور فى التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الأحاديث ويضعها لغايته الذاتية !.

فأى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال أنه (نموذج الكمال البشرى) ؟ الكمال البشرى لايجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل إن أراد الله أن يمن به على عباده فلا يكون إلا فى المستقبل البعيد جدا .

من أغرب ما اعتاد عليه العقل الإنسانى أن يظن أن العصر الذى هو فيه أحط منزلة فى الكمال من العصر الذى سبقه، ومنشأ ذلك أن الأبناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل مايصدر عنهم ، فالكمال عندهم ماوجدوا عليه آباءهم ، ويزيد ذلك تقريرا فى نفوسهم أن الآباء يستهجنون دائما ماصار إليه أبناؤهم مما لم يكن معهودا لهم ، لا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم ، فيكون وهم الأبناء وغرور الآباء كل منهما عونا للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضى .

ولو صح مايزعمون لكان أكمل إنسان هو أول من وجد من نوعه ، ولاستمر النقص عصرا بعد عصر إلى هذا اليوم ، ولكانت نهاية الإنسان أن يصير حيوانا أعجم ، مع أنه من الثابت أن عصورا مضت على النوع الإنسانى وهو فى أدنى مراتب الإنسانية ، ثم ارتقى بالتدريج إلى أن وصل إلى هذه الدرجة العليا التى يحق له أن يفتخر بها .

متى تقرر أن المدنية الإسلامية القديمة هى غير ماهو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لابما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن ، وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد أو الأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح ، فقد صح أن الحجاب هو عادة لايليق استعمالها فى عصرنا .

ونحن لانستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى .

وغنى عن البيان أننا عند كلامنا على المدنية الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين ، بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات ، التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها ، ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على مابه من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج إلا أثرا مناسبا لدرجة عقول وآداب الأمم التى سبقت .

والذى أراه أن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر ، ولايوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلا منا يناجى نفسه قائلا لها : أتركى الفكر والعمل والعناء واستريحى فليس فى الامكان أن نأتى بأبدع مما كان !.

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا إننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها .

إذا أتى هذا الحين ـ ونرجو ألا يكون بعيدا ـ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم اصلاح مافى أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم .

لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها مبانيها وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، أما من جهة العلوم

والصنائع فلا يوجد اختلاف إلا من حيث كونها تزيد أو تنقص فى أمة عن أمة أخرى .

من هذا يتبين أن نتيجة التمدن هى سوق الإنسانية فى طريق واحدة ، وان التباين الذى يشاهد بين الأمم المتوحشة أو التى لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشأه أن أولئك الأمم لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية .

هذا هو الذى جعلنا (نضرب الامثال بالاوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية) .

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيرا فى أن أقف على رأى علماء المسلمين فيها . من المتقدمين أو المتأخرين ، فما وجدت شيئا ، وقد نبهنى أحد أصحابى إلى كتاب ألفه فى هذا الموضوع حضرة الشيخ حمزة فتح الله[٣٦٢] المفتش بنظارة المعارف ، وقد قرأته من أوله إلى آخر فوجدته يحتوى على كل شىء ولكنه لم يشمل على شىء مما وضع الكتاب لأجله! ومن الغريب أن الذين لم يرق فى نظرهم إعجابنا بالأوروبيين اضطروا جميعهم بمن فيهم الشيخ الأزهرى ، أن يستشهدوا فى الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الأوروبيين ، نساء ورجالا !.

فإن كان منهم من يقول : إنى قليل الاطلاع على ماكتبه المسلمون ، قصير الباع فى علومهم ، فأنا لا أجادله فى هذا ، وإنما يسرنى ويملأ قلبى بهجة أن أرى كتابا اسلاميا ، قديما أو جديدا ، يحتوى على حقوق المرأة ومايجب عليها من حيث هى امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة ، فإن جاءنى من يزعم قلة اطلاعى وقصر باعى بكتاب مثل هذا أثقلته حمدا وشكرا .

وسيقول أرباب الأفكار عندنا : إنا نسلم بأن المدنية الأوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التى توصلت إلى جمعها وإنمائها واستخدامها ، ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للاخلاق والآداب التى تلازمها فى كل مكان وصلت إليه .

فهم يعترفون للغربيين بأنهم أرقى منا فى العلوم والفنون والصنائع ، ويعترفون بأن معارفهم أوصلتهم إلى توجيه أعمالهم فى طريق تحصيل منافعهم بأحسن الوسائل الموصلة إلى السعادة فى هذه الدنيا ، ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وخصوصا كيفية

---

(٣٦٢) حمزة فتح الله (١٢٦٦ ـ ١٣٣٦ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩١٨ م) أديب وعالم وصحفى مصرى . له أبحاث لغوية . وشارك فى مؤتمر المستشرقين بفينا واستوكهلم . وترك عددا من الرسائل والمصنفات .

معاملة رجالهم لنسائهم ، أو سمعوا بها ، تغير حكمهم عليهم تغيرا كليا ، وأعرضوا عن فهم ماهم فيه وصرحوا بأنهم أحط منا فى الآداب . هذا الاعتقاد يشبه أن يكون عاما فينا كما يلاحظ من يقرأ الجرائد ومن يلتفت إلى الأحاديث التى تدور بين الناس ، وهو اعتقاد لايصعب علينا بيان سببه .

ذلك أننا نذعن بتقدم الغربيين علينا فى العلوم والصنائع لأننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع أطرافنا ، فكلما التفتنا إلى جهة من جهاتنا وجدنا أثرا منها مشهودا ، نراها فى البيت : فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع أدوات المنزل وأثاثه . نراها فى المدرسة مدة التعليم ، ثم من النظامات التى تدور عليها جميع أصول وفروع ادارتنا وحكومتنا . نراها فى الطرق على شكل عمارات فاخرة وحوانيت كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربائية . وبالجملة نرى فى كل آن وفى كل مكان برهانا ماديا لايمكن معه إلا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيرا فى المعارف العلمية والصناعية .

وكأنما نريد أن نمحو العار الذى يلحقنا من هذا الاعتراف ، ونأخذ بثأرنا ، فلا نجد وسيلة لذلك إلا أن ندعى أننا أرقى منهم فى الآداب ، وأنهم ان سبقونا فى الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم فى الروحانيات وسرائرها .

وإنما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس ، فلا يمكن انكاره ، أما التقدم فى الأمور المعنوية فهو مما لايدرك إلا بالعقل ، فلا يقف عليه كل إنسان ويجد المكابر فى غيبته عن الحس مجالا للانكار ، وقد يساعد المكابر فى مكابرته مايراه أو يسمع به فى البلاد الغربية من كثرة الملاهى ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيئ العادات التى يتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون فى محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على أن مساعيهم تعجز عن الوصول إلى مايتمنون ، فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب وأقمنا منها حجة لتأييد دعوانا .

ومما أخذناه على الغربيين فى آدابهم تكشف نسائهم واختلاطهن بالرجال وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن . وكثير منا يعد هذه العادات أسبابا لفشو الفساد فيهم . ويعتقدون أن جميع نسائهم لايعرفن العفة ، وكل الرجال مجردون عن الغيرة .

ولما كانت غاية التمدن هى تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر الفضيلة بين الناس ، كان لنا الحق فى احتقار المدنية الأوروبية ، ان صح ما اعتقناه فيها .

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟ .

أما كون الآداب فى الغرب أحط منها فى الشرق فهى مسألة لايسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ، ويمكننا أن نجمل الكلام عليها فى قليل من العبارات :

إن العداوة القديمة التى استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب ، بسبب اختلاف الدين ، كانت ولا تزال إلى الآن سببا فى أن جهل بعضهم أحوال بعض ، وأساء كل منهم الظن بالآخر، وأثرت فى عقولهم حتى جعلتها تتصور الأشياء على غير حقيقتها. إذ لاشىء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات لأنه إن كان مخلصا فى بحثه محبا للوقوف على الحقيقة ، وهو ماينذر وجوده ، فلابد أن شهوته تشوش عليه فى حكمه ، وأدنى آثارها ان تزين له مايوافقها وتستميله إليه ، وان كان من الذين لامنزلة للحق من نفوسهم ـ وهم السواد الاعظم ـ ضربوا دون الحق أستارا من الاكاذيب والأوهام والأضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لايبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ إلى القلوب .

وزد على ذلك أن التربية العلمية لم توجد فى العالم الغربى إلا من زمن قريب ، وهى لاتزال إلى الآن مفقودة فى الشرق ، والمحروم من هذه التربية لايسهل عليه أن يبنى أحكامه على مقدمات صحيحة ، لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله ، فهو لايستحسن الشىءلأنه مطابق للحق ، وإنما يعتقد الشىءمطابقا للحق لأنه يستحسنه بخلاف المتعود على الابحاث العلمية ، فإن عقله ينخدع بإحساسه ، فكلما أراد أن يشتغل بمسألة طبيعية أو تاريخية مثلا جمع الحوادث التى تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التى يحكم بصحتها بناء على ماحصل من المقدمات ، غير صادر فى ذلك إلا عن حب الحقيقة ، فإذا عرض له أن يشتغل بالنظر فى حال جاره أو عدوه استعمل الطريقة التى ألفها وسلم بما تؤدى إليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه .

ولقد وصل الغربيون إلى درجة رفيعة من التربية ، واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين ، وكتبوا فى عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتبا نفيسة أو دعوها آراءهم ونتائج بحثهم ، وامتدحوا ما رأوه مستحقا للمدح وقدحوا فى مارأوه محلا للقدح ، غير ناظرين فى ذلك إلا إلى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه. أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ ، ولهذا كان حكم كتابنا فى هذه الاشياء فى قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والإلف

والعادة ، ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته وجد من خوف اللائمة عقدة فى لسانه تمنعه من اظهاره ، أو حمله الرياء على اطالة القول فى تأييد مالا يعتقده ، فإذا وجد بينهم مخلص فى القصد طالب للحق وجهر به كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة ـ وأشدهم اقتصادا فى ذمة يرميه بالطيش والخفة توهما منه أن الاعتراف بفضل الاجنبى مما يزيد طمع الاجانب فينا وأن اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس فى قلوبنا ـ .

ولا عذر لهم فى حكمهم هذا إلا أنهم قد جروا فيه على سننهم فى سائر أحكامهم ، وإلا فهم مخطئون ، لأن السبب فى طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو نفس ذلك الانحطاط الذى عرفه الاجانب منا قبل أن نحس به من انفسنا ، فهم قد اكتشفوا ماكانت عليه بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ، ووقفوا على أخلاق المصريين وتفصيل أحوالهم فى معيشتهم أيام الفراعنة ، وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئا كثيرا لم يصل إلينا إلا منهم . وقليل منا من يعرفه ! فلاعجب أن يكونوا أسبق منا إلى معرفة حالتنا الحاضرة . نقصها وكمالها .

ثم لاخوف أن يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا ، لأن اليأس إنما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة ، وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة إلينا ، خصوصا أن الأمم لاتقف فى حياتها عند حد ، بل هى موضوع للتقلبات والتغيرات ، وتتوارد عليها أحوال القوة والضعف والشدة والرخاء ، فلا تدوم على حال . وإذا عرضت عليها الشدة يوما لاتلبث أن تخرج منها بجدها واجتهادها . وبديهى أن التوجه إلى الاصلاح والكمال لايكون إلا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الأمة بتأخرها عن الأمم الأخرى وتقصيرها عن الوصول إلى ماوصل إليه غيرها من غايات الكمال لاتنبعث إلى التقدم ولاتتحرك لإدراك غاية من هذه الغايات ولذلك كان تنبيه الأمة إلى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الأمم أول فرض يجب القيام به ، كما أن شعور الأمة بهذا النقص يعد أول خطوة فى سبيل ترقيتها .

لهذا لانتردد فى أن نصرح بأن القول بأننا أرقى من الغربيين فى الآداب هو من قبيل ماتنشده الامهات من النغائم لتنويم الأطفال ! .

وغاية مافى الأمر أن تقدم الأوروبيين علينا من هذه الجهة لايقام الدليل عليه بآثار مادية . كتقدمهم فى العلوم والصنائع ، وإنما يعرفه من خالطهم واختبرهم فى ظاهر شئونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الأدبية .

ينقسم الأوروبيون ، كما تنقسم سائر الأمم ، إلى ثلاث طبقات : عليا ، ووسطى ،

ودنيا. فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا فى أخلاقها.

وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية، ولكن يغلب عليها مايغرى به الغنى والبطالة، وتستولى عليها الشهوات، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع.

وسبب ذلك أن التمدن الذى يعيشون فيه يسهل لهم ارضاء شهواتهم، ويجدون من الوسائل لذلك مالا يوجد عندنا، فأبدعوا فى اختراع طرق التلذذ وأعطوها الاشكال التى تجذب النفوس إليها، فالكهرباء مثلا التى تضىء المدن وتنقل الأخبار وينتفع منها الزارع والتاجر والصانع والمسافر والمريض تقوم لأرباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذى يناسبهم وكذلك ترى لهم جرائد وكتبا وميادين تمثيل تختص بهم، كما أن لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة.

هذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لأنها لاتستطيع محوه، فإن هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية، فهى مضطرة لأن تقبل مايتبع هذه الحرية من الضرر، لأنها تعلم ان منافعها أكثر من مضارها.

فوجود الفساد فى الغرب إنما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدنى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن.

ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الأمة، عاليها ودانيها، تتهذب النفوس شيئا فشيئا، وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها.

غير أنه لايفوت القارئ ان هذا الفساد الذى ذكرناه فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التى هى الركن الأقوى لبناء الأمم، وما يتبع تلك الفضائل من بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه إذا دعا داع إلى هجوم أو قيام لدفاع أو إلى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لإجابة الداعى ويخاطر بنفسه ويبذل ماله إلى أن يتم للأمة ماتريد، فأين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة فى الأمم الغربية من حالة الأمة الشرقية؟.

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلها عندنا، نحن فى الحقيقة لانعرف من أحوال الغربيين إلا بعض ماظهر منها، والكثير منا لاتزيد معرفته على ماعرف منها فى

الشوارع والقهاوى وماقرأه فى بعض القصص والحكايات ، وليس من الحق ولا من العدل أن نظن هذه الظواهر هى صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الأدب .

من أراد أن يكون حكمه فيهم صحيحا فعليه ان يلم بجميع مظاهر حياة تلك الأمم ويقف على جميع الاحساسات والعواطف التى تحرك نفوسهم ، وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فإذا تمت للباحث هذه الشروط أمكنه ان يعرف لم يهب رجل ألمانى حياته ويترك زوجته وأولاده مساعدة لأمة البوير؟. ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسألة أو كشف غامضة أو فهم علة ؟ وكيف أن سياسيا واسع الثروة عالى المقام يفنى زمنه فى تدبير الوسائل لإعلاء شأنه أمته ، وربما حرم نفسه راحة النوم فى ذلك السبيل ؟. وماهو المحرك للسائح الذى يقضى الشهور والسنين بعيدا عن أهله وبلده لكشف منابع النيل مثلا ؟. وماهو الاحساس الذى يرضى القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع مايتكبده من أنواع العذاب ومايحيط به من الاخطار ؟. وما هذا الوجدان الذى يسوق الغنى إلى ان يبذل آلافا من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيرية أو لعمل يعود نفعه على أمته أو على الإنسانية ؟.

إذا علم السر فى هذه الصفات ومصادر هذه الأعمال الجليلة ، ثم علم مابين أعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة ، ونظر إلى مافى معاملاتهم من الصدق فى القول والغيرة على الحق ونمو احساس الشرف والميل إلى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك أنه ينتهى من هذا العلم إلى نتيجة صحيحة وهى أن هؤلاء القوم على جانب عظيم من الادب والفضيلة ، لأن هذه الأعمال والأحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس ، كما تدل على نمو الاحساس بحاجة كل من أفراد الأمة إلى الآخر ، والترقى الأدبى إنما هو التضامن بعينه .

وليس هذا بغريب ، فإن التقدم فى العلوم يؤدى إلى التقدم فى الآداب والاخلاق . لاريب أن الارتقاء العقلى يصحبه الارتقاء الأدبى دائما ، فإن العلم هو المادة التى يتغذى منها الأدب . لا أقول أنه لايوجد الادب إلا حيث يوجد العلم ، وإنما أقول : ان أدب الجاهل لايمكن أن يكون ثابتا فى نفسه مثل ثبات الأدب فى نفس العالم . العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لاتطلب أن يسلم بها من غير مناقشة ، بل تحتاج إلى بحث وتعب وشغل والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس ، الذى هو أهم أركان الادب ، فإذا هم شخص اشربت نفسه العلم أن يعمل أمرا مخالفا للآداب نزع منه نازع إلى

النظر فى ذلك الأمر وآثاره ومزاياه ومضاره ، ثم رجع إلى نفسه ليعلم هل هو يصح لها أو لايصح . ويندر حينئذ أن يقدم عليه. أما الجاهل فإن كان فاضلا لم تكن الفضيلة فيه إلا عادة مجردة ، وهو مستعد للاذعان إلى مايتأثر به ، حسنا أو قبيحا ، ومائل إلى قبول مايرى أغلب الناس عليه بدون بحث ، فإذا انقطعت العادة مرة ، وذاق لذة الرذيلة ، انفلت قياد نفسه من يده ، واستحال عليه أن يرجع إلى ماكان عليه من قبل.

رأينا أن العلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس ، وأضيف على ذلك أنه يعظم الاحساس الدينى. وليس فى ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع ، لأن الدين والادب يرجعان فى الحقيقة إلى شىء واحد.

واجمل ماقيل فى هذا المعنى ما أتى به الفيلسوف « سبنسر » فى كتابه الذى كتبه فى التربية أقتطف منه هنا بعض مايليق بالمقام. قال :

« ليس العلم منافيا للاحساس الدينى ، كما يزعم كثير من الناس ، بل ترك العلم هو المنافى للدين . ولنضرب لذلك مثلا فنفرض أن عالما من كبار المؤلفين يصنف الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم بمدحه ، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه إلا غلفها ، ولم يقرأوا شيئا منها ، ولم يجهدوا أنفسهم يوما فى فهم مااحتوت عليه ، فماذا تكون قيمة هذا المدح فى نظرنا ؟ وما الذى نعتقده فى صدق هؤلاء المادحين ، ان جاز لنا أن نقيس عظائم الاشياء بصغارها ؟ نقول : ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة !. وأدهى مايأتون من تلك المعاملة أنهم لايكتفون بأن يعيشوا ويموتوا وهم لايعرفون حقيقة من حقائق تلك الأشياء التى ينادون بأنها من أبدع البدائع وأغرب الغرائب ، بل ينحون باللائمة على من يشتغل بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من الاسرار ، ولو فقهوا لعلموا أن اهمال العلم هو المضعف للاحساس الدينى ، بل الماحق له . أما خدمة العلم فهى عبادة يؤديها القلب . لأن خدمة العلم هى اعتراف ضمنى بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وأن الذى أوجدها له شأن أعلى ومقام أسمى . خدمة العلم هى احترام للكون وصانعه يؤديه طالب العلم ، لابمجرد الفم واللسان ولكن ببذل وقته وفكره وعمله ».

نستنتج مما سبق أن تقدم الغربيين فى العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيتهم فى الآداب وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا فى انحطاط آدابنا.

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الاب وابنه والاخ وأخيه والزوج وزوجته مما لايحتاج بيانه إلى تفصيل . وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيها من الحسد والتباغض

والخيانة والمنازعات والجرائم البهيمية التى يحار العقل فيها ، وهذه حوادث الوطن ومايرى فى روابط أهله من الانحلال وتفرقهم فى الرأى فى أحقر الشئون وحرصهم على المال ألا ينفقوه فى سبيل أى منفعة من المنافع العامة وضنهم بشىءمن أوقاتهم للفكر فى أى مصلحة من مصالح بلادهم ، كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا ، وما يكون عندنا من محاسن الاخلاق ، كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الارياف ، يرجع فى الحقيقة إلى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة ، ولهذا ترى الكثير من أعيان البلاد المشهورين بإكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شئونهم على خلاف مقتضى الكرم. فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم ، وخصوصا النساء منهم ، ويضيقون على عائلتهم فى المعيشة ، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة.

وحال الأمة التركية لايختلف فى ذلك عن حالنا. نعم ، فى بعض بلاد الريف هناك رقى فى الآداب والاخلاق وامتياز لها على الاخلاق والآداب المصرية. ولكن لاسبب لذلك إلا أن التركى يعيش فى قريته بغاية السذاجة ، وعلى ضرب من سعة العيش ، فلا يجد مايحمله على ارتكاب مايخالف الآداب الحسنة ، وهو بعيد عن كثير من الرذائل ، لأنه يجهلها ولا يتصور وجودها ، فإذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته لايجاريه أحد فى مسابقة أهلها إلى مراتع اللذات ومسارح الشهوات ، وفاق أمثاله فى جميع العيوب الأخرى !.

وبالجملة ، نقول : إن التمدن الأوروبى ليس خيرا محضا ، فإن الخير المحض ليس موجودا فى عالمنا هذا ، لأنه عالم النقص. وإنما هو الخير الذى أمكن للإنسان أن يصل إليه الآن ، فقد أتم به شيئا مما كان ينقصه ، وارتقى به درجة من الكمال.

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة ، فى جانب ماينتظر للنفس الإنسانية من الكمال ، فإنه ينبغى لنا أن نقنع بها ، وعلى المستقبل أن يصل بأهله إلى ماهو أعلى منها.

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من أن الترقى يحصل فى بعض شئون الأمة. ولايؤثر فى سائرها ، والصواب أن الترقى لايكون ترقيا صحيحا إلا إذا وجد منه روح تظهر فى جميع شئون الأمة. جزئياتها وكلياتها ، حتى إذا شاء باحث أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجمعيات والافراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى ، كما تظهر فى الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون ، وعلى الجملة يجد أثرا للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية.

ذلك لأن الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما . بل هما فى الحقيقة حالة واحدة ، وإنما وضع لها اسمان بحسب اختلاف الجهة التى ينظر منها إليها ، فإن كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جيدة ، ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل فى نظام سلوكنا ، ولو كان العلم قاصرا على المعرفة فقط وليس له أثر فى العمل لفقد معظم أهميته ان لم نقل كلها .

وأما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا ، وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجال ، وتمتعهن بالحرية ، واحترام الرجال لهن ، فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم .

نعم ، يعد الكثير منا هذه العادات عيوبا ، ولكن إذا سئلت : لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب أن تكون نبيهة متعلمة ؟ لماذا يسمح لها أن تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؟ فجواب الواحد منا لايكون إلا أن هذه هى عادتهم السيئة . ولكن هذا الجواب لايفيد شيئا ، لأنه يستدعى سؤالا آخر ، وهو : لماذا كانت هذه العادة ؟ وهنا يتيسر له الجواب .

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات أمة متوحشة لسهل علينا أن نقول : إن هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث ، وتلك الأمة تعمل تحت سلطانها بدون أن تفكر فيها ، وهى تجهل أصلها وارتباطها بأحوالها كما تجهل الأثر الذى ينشأ عنها فى شئونها .

ولكن مما لايسلمه العقل أن أهل أوروبا وأمريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم بأسبابها ونتائجها ، ويصعب على العقل أن يظن أن علماءهم الذين يجهدون أنفسهم كل يوم فى اكتشاف أسرار الطبيعة ، وأن هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا أنواعها ووصفوها بأدق أوصافها وربوها واستولدوها ، غفلوا عن هذه العادة وأهملوها .

والحقيقة أنهم درسوها درسا تاما ، كغيرها من المسائل الأخرى ، وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية . ولا أعلم أن واحدا منهم قام ينادى قومه يوما ويحثهم على تغييرها . بل الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق ، وأن عدم الحجاب هو السر فى تقدم الغرب . وإنما الخلاف يوجد بينهم فى تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه .

هذا الاجماع أمر جدير بأن يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون أن الملكية

الخاصة هى سرقة ، وأن الأموال يجب أن تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الأمة . وظهر فيهم من يقول بإلغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لاتخضع لنظام ، ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادى بهدم كل نظام وشرع . ولاتعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم أن يطلب حجاب النساء . بل نرى الأمر بالعكس ، فإن المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها إلى أن تصير مساوية للرجل ، فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة .

فما هو سر هذا الاتفاق وماسببه ؟ ألأن الأوروبيين لايحبون التغيير فى عاداتهم ؟ كلا . فإن التغيير عندهم هو قانون تقدمهم ، ومن ألقى نظرة عامة فى تاريخهم من قرن واحد يجد أنهم غيروا كل شىء عندهم ، غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم ، وأن كل ماوصلت إليه هذه الأمور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت إلى آخر .

كذلك لايصح أن يكون من أسباب هذا الاتفاق مايقال من أن الأوروبيين لايقدرون شرف النفس حق قدره ولايغارون على نسائهم . هذا القول الذى سمعته من كثير من الناس لايمكن أن يصدر إلا من قليل الخبرة ، ناقص المعرفة ، لم يقف على شىء من أحوال سكان تلك البلاد ، فهو لايدرى منها أكثر مما يدريه من أحوالنا سائح غربى يدور فى « الأزبكية » وما جاورها ، ويكتب من عوائدنا مايراه من الطائفين حول تلك الاماكن المشهورة . إذن فما هو السبب ؟.

السبب هو أن مسألة حقوق المرأة وحريتها ليست فى الحقيقة مجرد عادة . نرى الغربى يرفع قبعته إذا أراد التحية ، والشرقى يحرك يده ويضعها على رأسه ، فهذه عادة من العادات يمكن أن يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ، ولكن أهميتها لاتتعدى الموضوع الصغير الذى وضعت لأجله ، ولايمكن أن يترتب عليها نتيجة فى الحياة الشخصية أو العامة . أما كون المرأة تتعلم أو لاتتعلم ، وتعيش مسجونة فى البيت أو متمتعة بحريتها ، وتخالط الرجال أو لاتخالطهم ، وماهى حقوقها فى الزواج والطلاق ، وماذا يكون شأنها فى العائلة وفى الأمة فهذه أولا مسألة اجتماعية ، فهى بذلك مسألة علمية ، ولا غرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيها .

لهذا يلزمنا بدل أن نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها ، وهى انهم ضلوا

عن الحق فى مايختص بشأن النساء عندهم ، يلزمنا بدل ذلك أن نقف على أفكارهم فى هذه المسألة ، ونبحث فى آرائهم وفى أسباب النهضة العظيمة التى قام بها الرجال والنساء فى هذا القرن ، وندرس جميع نتائجها الحالية . وبعد ذلك يمكن أن نكون لأنفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيدا بالتجارب والوقائع .

* * *

خاتمة

(حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء)

ابتدأ المصريون فى هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية ، وبدت عليهم علامات التألم منها ، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا وعاشروا الكثير منهم ، وعرفوا مبلغ تقدمهم ، رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التى وجدوا أنفسهم محرومين منها ، والتى لا قيمة للحياة بدونها ، انبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم والرغبة فى الحصول على تلك النعم . وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التى اعتقدوا أنها تهدى الأمة إلى طريق النجاح ، هذا يدعو إلى العمل والنشاط ، وذاك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر إلى حب الوطن والتفانى فى خدمته . وغيره إلى التمسك بأحكام الدين . وهلم جرا .

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد ، وهو أن هذه الكلمات وماشاكلها لايمكن أن يكون لها فى حياة الأمة أثر يذكر إلا إذا وصلت إلى النساء وأدركت معانيها وتعلقت نفوسهن بحبها وتوجهت ميولهن إليها ، حتى يمكنهن بعد ذلك أن يضعن أولادهن بأحسن الصور التى تمثل كمال الإنسان فى أذهانهن .

ذلك لأن كل حال اجتماعية لايمكن تغييرها إلا إذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب ، ولأنه لايكفى فى الاصلاح ، مهما كان موضوعه ، مجرد الحاجة إليه ، ولا أمر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ، ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ، ولا كتب تؤلف فى بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فإن هذه الأمور كلها لا أثر لها إلا فى ارشاد الأمة وتنبيهها إلى سوء حالها ، ولكنها ليست من الوسائل التى تغير الأمم وتحولها من حال إلى حال ، لأن كل تغيير فى الأمم إنما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لاتتولد فى النفوس ولا تتمكن منها إلا بالتربية ، أى بواسطة المرأة .

فإذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدئوا فى الاصلاح من أوله . يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية ومقام فى عالم التمدن الإنسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلتهم وسطا صالحا لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح ، ولا رجاء فى أن البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم .

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس ، يوم جاهرنا بها فى العام الماضى[٣٦٣] ، ضربا من الهذيان ، وحكم الفقهاء بأنها خرق فى الإسلام ، وعدها الكثير من متخرجى المدارس مبالغة فى تقليد الغربيين ، بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين ، وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمانى الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامى ، ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم ، إلى غير ذلك من الأوهام التى يصغى إليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم إدراكهم منافعهم الحقيقة .

ونحن لانريد أن نرد عليهم إلا بكلمة واحدة وهى : أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا ، فانهم لايجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة !.

هذا هو الحق الذى لاريب فيه . ومهما اجتهد قوم فى اخفائه وغفل آخرون عنه فلابد أن ينجلى للكل ، عاجلا أو آجلا ، شأن الحقيقة فى جميع الأزمان .

وكل ناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها مايدل على أن النساء عندنا قطعن دور الاستعباد ، ولم يبق بينهن وبين الحرية إلا حجاب رقيق ، إذ يرى :

أولا ـ شعورا جديدا عند المصريين بالحاجة إلى تربية بناتهم بعد أن كانوا لايعلمونهن شيئا .

ثانيا ـ تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشى .

ثالثا ـ تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية ، وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة .

---

(٣٦٣) أى عند صدور كتاب [تحرير المرأة] .

رابعا ـ اهتمام الحكومة وبعض أبناء البلاد ، وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية بإصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذى وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد أمورا كثيرة تأتى بإصلاح كبير فى العائلات المصرية . وأخص بالذكر منها ما أتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال :

« هذا وانى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة مايجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة . فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ، ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية . ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ، ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن . ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله . وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد »[٣٦٤].

وقد حدث فى هذا العام أن كثيرا من النساء اللواتى حكم على أزواجهن بالاشغال الشاقة مؤبدا أو بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكون إلى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة . حيث لاسبيل لهن من الانفصال من أزواجهن ، ولايوجد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش أولادهن . فاضطرت نظارة الحقانية إلى استفتاء حضرة مفتى الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التى يمكن اتخاذها لإزالة أسباب الشكوى . فبحث حضرته فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى تشابهها ، واستنتج من فقه المالكية إحدى عشرة مادة ، وقدمها إلى نظارة الحقانية ، وإليك بيانها ننشرها افادة للقراء[٣٦٥].

(المادة الأولى) : إذا امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته فإن كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله . فإن لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضى فى الحال ، وان ادعى العجز فإن لم يثبته طلق عليه حالا . وان أثبت الإعسار أمهله مدة لاتزيد على شهر فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك .

(المادة الثانية) : ان كان الزوج مريضا أو مسجونا وامتنع عن الانفاق على زوجته أمهله القاضى مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن . فإن طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضى .

---

(٣٦٤) انظر تقرير اصلاح المحاكم للامام محمد عبده فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة التى حققناها . ص ٢١ وما بعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٣٦٥) انظر النص الكامل لهذه الفتوى فى الجزء السادس من الاعمال الكاملة للامام محمد عبده . التى حققناها . ص ٣٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(**المادة الثالثة**) : إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضى له أجلا ، فإن لم يرسل ماتنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضى بعد مضى الأجل ، فإن كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت أنه لامال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضى .

(**المادة الرابعة**) : إذا كان للزوج الغائب مال أو دين فى ذمة أحد أو وديعة فى يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين ، ولها أن تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة . ويقضى بطلبها بلا كفيل ، وذلك بعد أن تحلف أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكيلا فى الانفاق عليها .

(**المادة الخامسة**) : تطليق القاضى لعدم الانفاق يقع رجعيا ، وللزوج أن يراجع زوجته إذا أثبت يساره واستعد للانفاق فى أثناء العدة . فإن لم يثبت يساره أو لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة .

(**المادة السادسة**) : من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها أن ترفع الأمر إلى نظارة الحقانية ، مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار إليها أو يمكن أن يوجد فيها . وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس . وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين . فإذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره .

(**المادة السابعة**) : إذا جاء المفقود أو تبين أنه حى . وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته . كانت الزوجة للمفقود . ولو بعد العقد مطلقا أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثانى عالما بحياة المفقود . فإن ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها قبل العقد على الزوج الثانى أو بعده ورثته مالم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول . فإن مات بعد تمتعه وهو عالم بحياة الزوج الأول لم ترث .

(**المادة الثامنة**) : من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض . وثبت أنه حضر القتال . جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية . وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة . ولها أن تتزوج بعد العدة . ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره . فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه مافى المادتين السابقتين .

(**المادة التاسعة**) : لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية ، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة ، فإذا انقضت اعتدّت وحل لها الزواج بعد العدة . ويورث ماله بعد انقضاء السنة .

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان فى ماله ماتنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة وإلا رفعت الأمر إلى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها .

(**المادة العاشرة**) : إذا اشتد النزاع بين الزوجين ، ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى ، رفع الأمر إلى قاضى المركز ، وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة ، والأفضل أن يكونا جارين ، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب ، وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن اصلحاهما فبها وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه ، وعليه أن يقضى بما حكما به ، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها .

(**المادة الإحدى عشرة**) : للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر ، والضرر هو مالايجوز شرعا ، كالهجر بغير سبب شرعى ، والضرب والسب بدون سبب شرعى ، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية » .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الأزهر ـ حيث أرسل إلى حضرة المفتى الجواب الآتى :

« حضرة الأستاذ صاحب الفضيلة مفتى افندى الديار المصرية أيده الله .

باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجارى نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على إحدى عشرة مادة مستخلصة من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، المطلوب ابداء رأينا فيه ، قد رأينا ما رأيتموه ، ووقعنا عليه بالموافقة ، وشكرنا همتكم العلية على اعتناء فضيلتكم بهذا الخطب الجليل . وطيه المشروع المذكور أفندم .

الفقير سليم البشرى ، المالكى

خادم العلم والفقراء بالأزهر »

٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ [٣٦٦] .

---

(٣٦٦) الموافقة لسنة ١٩٠٠ م .

هاتان المسألتان مسألة تعدد الزوجات . ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق . هما من أهم المسائل التى استلفتنا إليها الأنظار فى كتاب [تحرير المرأة] ويسرنا أن عالما عظيما وفقيها حكيما مثل حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده رأى أنهما جديرتان بهمته . فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما .

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ فى البيوت كل يوم تنبئنا بأن حالة المرأة المصرية آخذة فى التحسن والترقى .

غير أن هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية . بل حدثت فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعى القاضى بأن كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه . والدليل على أن لا دخل لإرادتنا فى هذه الحركة أننا عندما قلنا بوجوب المحافظة عليها وإعدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول فى نفوسهم وبدت بوادره فى بيوتهم .

ولا عجب فى ذلك . فإن شأننا أن نتبع أهواءنا فى جميع أعمالنا .

وقد أظلنا الوقت الذى يجب فيه أن نعرف ماذا نريد؟.

إن كان مقصدنا من الحياة أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها فى أى حال كانت واستوى لدينا العز والذل . والغنى والفقر . والحرية والرق . والعلم والجهل . والفضيلة والرذيلة . فأرى أن مامنح إلى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لاداعى له . ولا أجد مانعا من أن يتمتع الرجل بعدة نساء . ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها فى اليوم التالى ويسجن زوجاته وبناته واخواته وأمه وجدته إذا شاء !.

يوجد فى أفريقيا وآسيا أمم عديدة تعيش النساء فيها مدفونات فى البيوت بحيث لايرين إنسانا ولايراهن أحد . ويوجد بين هذه الأمم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة إلى حد أنه متى توفى زوجها وجب عليها أن تعدم نفسها لكى لاتتمتع بالحياة بعده ! فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى هؤلاء الأمم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم فى الجهل والاحتجاب . لعلنا نجد عندهم مايقوى حجتنا فى تشديد الحجاب والحجر على المرأة !.

أما إذا كان المقصد هو مانقرؤه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم :

توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التى تشتكون منها . وتصعد بكم إلى أعلى مراتب

التمدن ـ كما تشتهون وفوق ماتشتهون ـ ألا وهى تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب ـ هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها ـ وليس لنا فضل فى اختراعها ـ فقد استعملتها أمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها ـ انظروا إلى الأمم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة ـ تجدوا أن تربية المرأة الأمريكية وأخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية وأخلاق وآداب المرأة الفرنساوية ـ وأن هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية ـ وأن المرأة التليانية لاتشبه فى شيءمن ذلك المرأة السويدية ولا الألمانية ـ ولكن جميع هؤلاء النساء على اختلاف الأقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن واجتمعن فى أمر واحد وهو أنهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن ـ

هذه الحرية هى التى أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم ـ فلما أضيف عليها التعليم وجهت ارادتها إلى أن تشترك مع الرجال فى تقدم الجمعية التى تنسب إليها ـ وتم هذا الاشتراك بإتيانها أعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال ـ ولكن لاتنقص عنها فى الأهمية فالتاجر الذى يقضى نهاره فى حانوت نبيع بضاعته ـ والكاتب الذى يمضى بضع ساعات فى ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير إفادة إلى مصلحة أخرى ـ والمهندس الذى يبنى قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد ـ والطبيب الذى يقطع عضوا ليحيى باقى أعضاء الجسم ـ والقاضى الذى يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس ـ جميع هؤلاء وغيرهم لايوجد منهم واحد يحق له أن يدعى أن عمله يفيد الهيئة الاجتماعية أكثر من عمل امرأة تهدى إلى الجمعية رجلا وتربيه على أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته ـ

نحن لانقول لكم كما يقول غيرنا : اتحدوا وكونوا عونا بعضكم لبعض ـ أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم ـ أو اخدموا أهلكم ووطنكم ـ أو ماتماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء ـ نحن نعلم أن تغيير النفوس لاتنفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى ـ وإنما يتم ـ كما ذكرنا ـ بإعداد نفوس الناشئين إلى الحال المطلوب أحداثها ـ

ذلك هو السير الطبيعى البعيد الأمد المحفوف بالمصاعب ـ ولكن اسهل المصاعب هى التى تنتهى بالفوز والنجاح ـ وأقرب الطرق هى التى توصل إلى المقصد ـ

[انتهى الكتاب والحمد لله]



المصــادر
التى استخدمت فى الدراسة والتحقيق

إبراهيم عبده (دكتور) : (تطور الحركة النسائية فى مصر)
و : درية شفيق (دكتورة) : طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ .

أحمد خاكى : (قاسم أمين) . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤ .

أحمد شفيق (باشا) : (أعمالى بعد مذكراتى) . طبعة القاهرة سنة ١٩٤١م .

الزركلى (خير الدين) : (الإعلام) . طبعة بيروت الثالثة .

سركيس (يوسف اليان) : (معجم المطبوعات العربية والمعربة) . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

صفى الدين عبد المؤمن البغدادى : (مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) . تحقيق : على البيجاوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤م .

الطهطاوى (رفاعة رافع) : (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) دراسة وتحقيق : محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .

قاسم أمين : جميع مؤلفاته وكتاباته » .

قدرى حافظ طوقان : (تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك) . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

الكواكبى (عبد الرحمن) : (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) . دراسة وتحقيق : محمد عمارة . طبعة بيروت . الثانية . سنة ١٩٧٥م .

ماهر حسن فهمى (دكتور) : (قاسم أمين) سلسلة « أعلام العرب » طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

محمد حسين هيكل (دكتور) : (تراجم مصرية وغربية). طبعة القاهرة ـ مطبعة مصر ـ بدون تاريخ.

محمد رشيد رضا : (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ ٣. طبعة القاهرة ـ الأولى.

محمد رضا كحالة : (معجم المؤلفين). طبعة دمشق سنة ١٩٥٧م.

محمد عبده (الأستاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده). دراسة وتحقيق : محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم). طبعة القاهرة ـ دار الشعب.

محمد فريد (بك) : (تاريخ الدولة العلية العثمانية) الطبعة الأولى.

المعرى (أبو العلاء) : (لزوم مالا يلزم). تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤م.

نجيب العقيقي : (المستشرقون). طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

وداد سكاكيني : (قاسم أمين) ـ سلسلة : «نوابغ الفكر العربي». طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

موسوعات ودوريات

(الموسوعة العربية الميسرة) ..

(الأهرام) ..

(الجريدة) ..

(الحديث) .. «حلب» ..

(المؤيد) ..

(المنار) ..

(الهلال) ..



كشـاف



١ ـ فهرس الآيات القرآنية

سورة المائدة (٥)

الأنعام (٦)

سورة الأعراف (٧)

سورة يونس (١٠)

سورة الرعد (١٣)

سورة النحل (١٦)

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

[من هذه الأحاديث ما ذكرها المؤلف ـ قاسم أمين ـ بنصها .. ومنها ما ذكرها بمعناها .. ومنها مأثورات ذكرها باعتبارها أحاديث نبوية ..]

٣ ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

– ش –

– ص –

ـ ط ـ

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

— ك —

— ل —

- م -

ـ ن ـ

فهرس الفرق والأحزاب والجمعيات

٥ ـ فهرس الأماكن والبلدان

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

- ك -

- ل -

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ى ـ

٦ ـ فهرس الموضوعات

هذه الأعمال

نصوص الأعمال الكاملة لقاسم أمين

كتاب : [كلمات]

أسباب ونتائج

كتاب : [المرأة الجديدة]

رقم الإيداع : ٨٩/١٥٦٨
الترقيم الدولى : ٢ - ٢٨٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ - برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس 20175 SHOROK LE

الغلاف للفنان حلمي التوني



أغلب الدراسات التي كتبت عن قاسم أمين ـ فحصبت له ، أو ضده ـ قد وقفت عند كتابيه : [تحرير المرأة] و [المرأة الجديدة] .. وعند آرائه في «تحرير المرأة» ، على وجه الخصوص ..

فإذا علمنا أن هذين الكتابين ليسا كل أعماله الفكرية ـ فهما ـ من حيث الحجم ، نصف هذه الأعمال ـ .. وإذا علمنا أن نظريات كثيرة ومثيرة لقاسم أمين قد عرض لها في غير هذين الكتابين ، أدركنا أهمية الجمع والتحقيق والدراسة لأعماله الكاملة ، كإنجاز فكري لا غنى عنه للقارئ والباحث والدارس .. وذلك حتى نرسي قواعد تقليد علمي أصيل :

أن يكون الحكم للمفكر ، أو عليه فرعا عن تصور جملة ما قدم من إبداعات .. وجميع ما أسهم به من نظريات ونظرات ..

وتلك هي المهمة التي يحققها هذا الكتاب .

© دارالشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣